لبنان: آخر واطول حروب اسرائيل

زئيف شيف - اهود يعاري - يعقوب تيمرمان



دار المروج
شركة المطبوعات الشرقية

ترجمة علي حداد

زئيف شيف ـ اهود يعاري ـ يعقوب تيمرمان

لبنان: آخر واطول حروب اسرائيل

ترجمة علي حداد

شركة المطبوعات الشرقية
دار المروج
١٩٨٥



إن أي أذى يصيب لبنان سيرتد عليك

حبقوق ٢ : ١٧

دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - ١٩٨٥

مقدمة

حرب إسرائيل في لبنان، لم تكن حرباً عادية أبداً، ولم تكن حرباً إسرائيلية بالمعنى الحصري للكلمة، لأنها بالفعل حرب العالم في لبنان، وليس ضد الفلسطينيين، بل ضد لبنان.

حرب العالم، لأن العالم كله وقف يتفرج على مأساة شعبين ينحران بآلة حرب متطورة ومأمورة بعقلية مهووسة بحب القتال ورؤية الدم يهرق على مذابح نزواتهم. حتى العرب، الأشقاء العرب، وقفوا متفرجين، ولماذا يتحركون للدفاع عن عروس عواصمهم بيروت؟ فلم يعد في بيروت المحاصرة، بيروت المدمرة، بارات ولا كباريهات، لا شقراوات ولا حسناوات، وكأن الأخوة لا تأتي إلا نتيجة تلاحم السيقان بالسيقان. يا رب أغفر للعرب خطيئتهم المميتة. سوريا وحدها تحركت، قامت بالواجب وأكثر، ولكن أين العمق المعنوي لسوريا وللبنان معاً؟ بالطبع ليس في التلهي والتنكر للواجب الأخوي؛ لم يرفضوا مد العون العسكري وحسب، بل رفضوا حتى استقبال المقاتلين الفلسطينيين الذين كان عليهم مغادرة بيروت بموجب اتفاقية فيليب حبيب ـ الخدعة.

البعض قال: إن إخلاء المقاومة لبيروت هو عمل جبان. قد يكون هذا صحيحاً ولكن أين الدعم العسكري والمادي والمعنوي للنصف مليون نسمة الذين كانوا محاصرين بأحدث وأقوى آلات الحرب والدمار؟ لماذا لم تقلع طائرة عربية واحدة لترمي فوق بيروت قنينة ماء، فيشرب الأطفال العطشى، وتقوى على التحدي فتصمد بيروت البطلة لأن للصمود مقومات.

البعض الآخر قال: إخلاء المقاومة بيروت، أكسب المقاومة الفلسطينية نصراً سياسياً، فأنقذت بيروت من خراب محتم على يد شارون وبيغن.

على كل لسنا هنا في مجال تحليل صوابية قرار الإخلاء أو تخطيئه، فهذا موضوع يتطلب مجلداً إن لم يكن مجلدات.

حرب إسرائيل في لبنان، هي موضوع هذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه كتابين متكاملين:

الأول: لبنان آخر حروب إسرائيل، لمؤلفيه زئيف شيف وأهود يعاري، يؤرخ فترة حرجة من تاريخ المنطقة، ويكشف حقائق على جانب كبير من الأهمية. يبدأ بأول لقاء ماروني ـ إسرائيلي، وينتهي بانتهاء أحداث الشوف وعاليه.

حاول المؤلفان أن يكونا موضوعيين في الصراع، حاولا ذلك لأنهما يريدان نقد آلية الحرب العسكرية الإسرائيلية بعقلية إسرائيلية. إنهما لم ينتقدا جيش الدفاع الإسرائيلي، بل وزير الدفاع، وجاء النقد غير مباشر؛ جاء عن طريق تحليل سياسة شارون العسكرتارية.

والثاني: لبنان أطول حروب إسرائيل لمؤلفه يعقوب تيمرمان يعالج قضية رفض الشبيبة الإسرائيلية لحرب لبنان، ليس حباً بلبنان ولا بالفلسطينيين، بل حفاظاً على أخلاقية إسرائيل ومصداقياتها داخلياً وخارجياً. إنه محاولة تحليلية ليهودي اليوم الذي يسعى إلى السلام والإطمئنان أكثر من سعيه للبقاء ضمن «تاريخ التضحيات» وذكريات مذابح هتلر.

يعتبر هذا الكتاب أول محاولة إسرائيلية لمعالجة كيفية تحول إسرائيل إلى دول عسكر، بدلاً من دولة لها جيش دفاع من خلال توجيه الإدانات ليس لفكر الدولة بل إلى الذين انحرفوا عن هذا الفكر. إنه كتاب يقارن بين مأساة الشعب اليهودي والشعب الفلسطيني معاً ويرى المؤلف أن لكليهما الحق بالعيش المحترم وبإقامة الدولة المستقلة.

الأهم من هذا كله، هو القدرة عند القارىء على التمييز بين الطرح الموضوعي والطرح المنحاز. نقول هذا، إنطلاقاً من اعتبارنا أن العنوان الإنكليزي للكتاب: حرب إسرائيل في لبنان.

هذا الكتاب ليس كتاباً عادياً أبداً، ولا يصدر في فترة عادية. إنه بين يدي القارىء في فترة التحولات الإقليمية والإستحقاقات المحلية.

وانطلاقاً من هذه النظرة للكتاب ترددت قبل الإقدام على ترجمته، ولكني عدت وتراجعت عن ترددي، وأقبلت على العمل، خدمة لجيل عاش ـ وتعايش ـ مع حرب سنوات عشر، ولأجيال آتية، من حقها أن تعرف الحقيقة، أن تعرف ماذا فعلنا، ليس بوطننا لبنان وحسب، بل وبالمنطقة. أبعد من هذا، كيف تحولت قضية مقدسة ـ قضية فلسطين ـ إلى بازار مزايدات ومهاترات بمشاركة قادة المنظمة التي يفترض أن تكون ممثلة لأماني وتطلعات شعب مشرّد غصباً، ويريد العودة إلى دواراته، وبياداره في الخليل والرملة وبيت لحم وجنين؟!!

نعم: إنه كتاب غير عادي، لأنه يكشف حقائق غير عادية، حقائق كنا نتداولها علناً حيناً وهمساً أحياناً، ولكنها يومذاك كانت تكهنات وتفسيرات، فجاء هذا الكتاب ليجعل منها حقائق ووثائق. «أوَليس من سخرية القدر أن يكون ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والقائد الأعلى لقواتها المسلحة، يخوض صراعاً عسكرياً ضد الكتائب ـ الموارنة ـ في لبنان، في حين يجمعه بهم هدف مشترك ـ حرب إسرائيلية ـ سورية ـ ؟» ويدّعي حبّ سوريا، رحمة الله على المتنبي.

وأوَليس من مهزلة الزمن أن ترسل واشنطن المبعوث تلو الآخر لإنهاء أزمة لبنان، وإطلاق التعهدات بالحفاظ على سلامة هذا الوطن وتجديد الإعتراف به دولة مستقلة ضمن حدوده

الدولية المعترف بها من هيئة الأمم المتحدة والعالم، في حين، توافق سراً، على إعطاء أدوار رئيسية فيه لإسرائيل ولياسر عرفات؟ الأولى للحفاظ على المسيحيين ومنع إبادتهم والثاني لمراقبة استمرار العمل بوقف إطلاق النار، بين منظمة التحرير الفلسطينية وجيش الدفاع الإسرائيلي؟ وفي حين تقدم دعماً سياسياً وعسكرياً وإقتصادياً لإسرائيل التي تريد تقسيم جنوبي لبنان إلى مناطق نفوذ و«أحزمة أمن».

اجتاح شارون لبنان، لإقامة نظام حليف له، وعلى أمل الإنتقال إلى الأردن، لكنه فشل في لبنان، فهدّد وتوعّد الذين كان يمني نفسه برؤيتهم صاغرين لدى حضرته. وعند الإجتياح زعم شارون أن الأمر لن يستغرق أكثر من ثمانية وأربعين ساعة، وإن جدّ ما لم يكن في الحسبان، فقد تطول الفترة إلى اثنتين وسبعين ساعة. كان شارون يومها يتحدث بالساعات، وها هو جيش الدفاع الإسرائيلي ما يزال جاثماً على أرض الجنوب الصامد، يرفض الإنسحاب بدون ترتيبات أمنية، وكأن قادة إسرائيل نسوا فرحتهم يوم أخلى الفلسطينيون بيروت، فاعتبروا أن حدودهم صارت آمنة.

ولكن أين الأمن للجندي الإسرائيلي في لبنان؟ معدوم. لهذا تحاول إسرائيل الخلاص من «المستنقع اللبناني» الذي زجّت بنفسها به، وراء أوهام وأحلام كأحلام راعي الماعز بالثروة والمال من خلال جرّة السمنة التي كانت معلّقة بسقف بيته، فإذا بعصاه هو تكسرها وتبخّر الحلم.

والحلم الإسرائيلي يتبخّر اليوم بعصا المقاومة اللبنانية الجنوبية التي عبثاً يحاول الإسرائيليون فك تلاحمها عن شعب الجنوب، بجميع طوائفه وفئاته.

حاولت إسرائيل اللعب على حبال التناقضات اللبنانية، فإذا بهذه الحبال تلتف حول عنقها، فتصرخ طالبة النجدة.

في الحقيقة، لم يحن الوقت بعد لتأريخ الحرب الإسرائيلية في لبنان. لأن هكذا عملاً، يتطلّب سنوات جهد، لما لهذه الحرب من خصائص ومميزات.

الأهم من هذا كله، هو أن نقرأ، أن نفهم ما نقرأ، أن نتعلّم مما نقرأ. هذه هي العلة، علة هذا الوطن الممتد من المحيط إلى الخليج، يقرأ ولا يفهم، وإن فهم، فيفهم الذي يتوافق مع مزاجيته، ويشطب الباقي، لأنه يكشف عيوبه وعوراته. إننا شعب نعيش على بريق التاريخ المنصرم دون أية مساهمة في بناء تاريخ جديد، تاريخ عز ومجد، لا تاريخ عزلة وإهانة، في حين أن شعوباً أخرى، كانت تمر بتاريخ الإنحطاط والإنحطاطية، أنهضت ذاتها، وكتبت تاريخاً جديداً مرصعاً بالمجد. ليس مهماً كيف، المهم أنها فعلت، ولم تفعل إلا بعدما وعت ذاتها وعرفت ماذا تريد... عرفت من هو العدو ومن هو الصديق. فمتى يأتي دورنا لنتعرّف على هويتنا، ونتعرف على الأصدقاء والأعداء معاً، وعبر هذه المعرفة، نتوصل إلى التعامل مع

الأصدقاء بروح الصداقة ومع الأعداء بعداوة أكبر.

وانطلاقاً من هذا المفهوم، لا يسعني - في ختام هذه المقدمة - إلا التوجه بالشكر، لدار المروج، على ما هي مقدمة عليه من مهمة، ولزوجتي التي سهرت إلى جانبي، تريح أعصابي بفنجان قهوة، وكأس شاي؛ وأخص بالشكر الآنسة أنطوانيت عاقوري لمراجعتها مسودات هذه الترجمة والبحث معي في المراجع التي استندت إليها لوضع هوامش الصفحات.

بيروت - كانون الأول ١٩٨٤

علي حداد

القسم الأول

حرب إسرائيل في لبنان

- زئيف شيف
- اهود يعاري

تمهيد

رغم استمرارية حرب اسرائيل في لبنان، فإن خصائص ونتائج هذه الحرب، قد انجلت وباتت معروفة من الجميع. وهذا ما جعلنا ـ كصحفيين ـ نصمم على نشر هذا الكتاب، بدلاً من انتظار ما سيجد؛ فلرب نساعد في وضع المخططات المستقبلية لبلادنا.

كإسرائيليين، وجدنا نفسينا نتعامل مع حرب لا سابق لها في تاريخ دولة اسرائيل، حربٍ غير متفقٍ عليها من الجميع وتثار حولها الأسئلة والمناقشات، بشكل لم نعهده من قبل. وكإسرائيليين أيضاً، مثلنا مثل كافة المواطنين ـ تألمنا من هذه الحرب، وعكسنا تألمنا على صفحات الكتاب.

إن حرب اسرائيل في لبنان، هي أولاً وآخراً مغامرة سياسية. وهكذا، وبدلاً من التركيز على التحركات العسكرية، آثرنا التركيز على المسرحية، السياسية التي سبقت هذه الحرب واستمرت خلالها: كيف تورطت حكومة اسرائيل وعسكريوها في حرب لا يريدونها، كيف أصبح حزب الكتائب شريكاً فيها، وكيف حصلت اسرائيل من أميركا على ضوء أخضر للقيام بعملية عسكرية واحدة، فأصبحت سلسلة عمليات، وكيف أدركت منظمة التحرير الفلسطينية بما سيجري، وأخيراً كيف اجتمعت كل هذه المعطيات في أحداث؟

في البدء تفحصنا بإمعان مئات المستندات غير المنشورة، فعرفنا ان هناك أشياء تؤثر بسير الأحداث لكنها غير مدوّنة في محاضر رسمية، وانه من الممكن تحريف هذه المؤثرات وطمس الحقيقة. وهكذا قمنا باستطلاعات آراء لما يزيد عن مئة وخمسين شخصية لبنانية واسرائيلية وأميركية. ولا نخفي دهشتنا من تجاوب الاسرائيليين ـ عسكريين ومدنيين ـ الذين كانوا يشاركوننا الاعتقاد، ان كشف ما يمكن كشفه من الدوافع الحقيقية لهذه الحرب، أمر ضروري وحيوي بالنسبة لإسرائيل؛ وكذلك فعل اللبنانيون والاميركيون الذين لعبوا دوراً بارزاً في الأحداث، إذ قدّموا معلومات من الأهمية بمكان. وغالباً ما كنا نلجأ إلى تحليل الشروحات المتناقضة والمقارنة فيما بينها توخياً للحقيقة.

وحين تقدمنا بطلب الترخيص لنشر هذا الكتاب، طلب الرقيب الاسرائيلي شطب الكثير، ولكن هذا الاستئصال للمعلومات ـ في نظرنا على الأقل ـ لم يبدل شيئاً من المضمون والجوهر العام للكتاب؛ لقد شطب الكثير من مناقشاتنا للأمور، ولكننا في النهاية اقتنعنا بإمكانية إعادة تقديم ما شطب بأسلوب آخر وعلى صفحات أخرى.

أخيراً، تمت ترجمة هذا الكتاب عن العبرية ـ إلى الانكليزية ـ على يد ثلاثة عناصر تعاونوا معاً وتفانوا في سبيل تقديم مادة هذا الكتاب بأمانة واخلاص. إننا نتوجه بالشكر ليديبورا هاريس Deborar Harris من دومينو برس Domino Press التي رعت هذا المشروع منذ البدء بأمانة ومثابرة. ودون هاتر Don Hutter من سيمون وشاستر. أما الخرائط فقد رسمها، إيلاد دان Elad Dan، هاني سول Hanni Saul وبيل ليرمان Belle Lerman، وادارة يوزما ـ القدس ـ فلهم كلهم الشكر.

Ze'ev Schiff

Ehud Ya'ari

آذار ١٩٨٤

القدس ـ واشنطن

الفصل الاول

الاتفاق

منذ نيف ونصف ساعة، والزورق الاسرائيلي المرابط قبالة الشواطىء اللبنانية، لمنع أية محاولة تسلل للفدائيين الفلسطينيين عبر البحر، يراقب زورقاً صغيراً يصارع أمواج البحر معطياً اشارات ضوئية خفيفة، محاولاً الاقتراب. وأخيراً، ومن الظلمة برز شبح متين البنية، مبتلاً حتى العظم، رافعاً يديه، وصعد إلى متن الزورق الاسرائيلي. صعق الجنود، فتحلق عدد منهم حوله وسلاحهم مصوّب نحوه: فيما اتخذ عدد آخر مواقع قتالية.

بالانكليزية صاح الشبح المرتجف برداً، رغم انه كان ملتفاً بحرام من الصوف «أنا أبو خليل واحد من مسؤولي حزب الكتائب.. خذوني إلى اسرائيل... اني في مهمة طارئة».

كان ذلك يوم الثاني عشر من آذار ١٩٧٦، أي قبل شهر من مرور سنة على بدء الحرب الأهلية الدامية في لبنان[1] والتي يتصارع فيها المسيحيون، من جهة، والمسلمون والفلسطينيون من جهة أخرى. إنه أول اتصال مباشر بين الموارنة المسيحيين اللبنانيين واسرائيل.

في حيفا تكلم أبو خليل بأسلوب عاطفي ومثير وأفاض في الحديث عن القاسم المشترك الذي يجمع بين اليهود وموارنة لبنان الذين عليهم مواجهة منظمة التحرير الفلسطينية، كما وتحدث عن المنافع الحيوية التي يمكن تحقيقها من خلال التحالف مع بعضها. إنْ على الصعيد الديني أو على الصعيد القومي، وأوضح أخيراً إنه في مهمة استعطاف، وان الأيام القادمة ستظهر كيف أن الكتائب قادرة على زرع بذور الحرب.

قبل يوم ـ أي في ١١ آذار ١٩٧٦ ـ كان أبو خليل مجتمعاً بالشيخ أمين الابن الأكبر

(١) أحداث لبنان بدأت يوم الأحد في ١٣ نيسان ١٩٧٥، وبالتحديد عند الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم.

لرئيس الكتائب ورئيس إقليم في الحزب[٢]، طالباً منه إقناع أبيه بطلب مساعدة اسرائيل، إذ لا يعقل مواجهة التحالف الفلسطيني اليساري الذي يهجّر الموارنة وينكّل بهم دون اتخاذ قرارات خطيرة. «فليس عندنا ما نخسره بعد» هذا ما تفوّه به أبو خليل معبراً عن اليأس الشديد الذي ينتاب الموارنة. أمين لم يمانع، لكنه لم يضمن موافقة الشيخ بيار على الفكرة.

هناك في بكفيا، جلس رئيس الكتائب، البالغ من العمر واحداً وسبعين عاماً بوجهه المتجعد، يصغي بتهذيب كلي لأبي خليل وهو يتكلم. في هذه الأثناء كانت الأنباء تتتالى عن قصف مدفعي على الجبل وعن انضمام وحدات جديدة من الجيش اللبناني إلى صفوف الأعداء، التلفزيون بث خطاب ضابط مسلم قاد حركة انقلابية وطلب من الرئيس سليمان فرنجية الاستقالة فوراً وإلا اعتبر مستقيلاً[٣].

برغم كل هذا، لم يكن بيار الجميل متحمساً لفكرة التعاون مع اسرائيل، فهو منذ أربعين سنة يحافظ على حياد حزبه في الصراع العربي - الاسرائيلي، وهو يعلم أيضاً أنه سبق لإسرائيل ومدت الموارنة بالسلاح، إنما دون أي اتصال مباشر مع أي زعيم ماروني[٤]. ولكنه وبعد صمت طويل قال: «إن عملاً كهذا يجب إحاطته بالسرية التامة». وهكذا وبعد هذه الموافقة الضمنية؛ أسرع أبو خليل إلى حيفا مستجدياً المساعدة من رئيس الوزراء اسحق رابين ووزير خارجيته ايغال آلون.

سليمان فرنجية وجد نفسه في وضع سياسي متأزم. لقد فقد القوة القادرة على ردع مدفعية التحالف الفلسطيني - الدرزي - اليساري من قصف القصر الجمهوري، ومعاقل الموارنة في جبل لبنان الممتدة من طرابلس شمالاً حتى بيروت جنوباً. مدينة زحلة الواقعة على السفح الشرقي لجبل لبنان، محاصرة من جميع الجهات. وحتى بيروت قسمتها المتاريس إلى بيروتين، طرابلس هجرها المسيحيون مجبرين، أما المزارعون الموارنة العزّل، في العديد من المناطق، فقد اضطروا للنزوح عن قراهم، في حين يقدم مبعوثو الفاتيكان، فرنسا والولايات المتحدة الأميركية، عواطفهم النبيلة، ويعبرون عن أملهم بمصالحة وطنية موعودة. دين براون موفد الرئيس الأميركي، جاء بأفكار مشابهة لاقتراح قدّم عام ١٨٤٠ يقضي

(٢) لا شك أنه يقصد اقليم المتن الذي كان الشيخ أمين يرأسه حتى تسلمه سدّة رئاسة الجمهورية.

(٣) المعني هنا هو العميد أول الركن عبد العزيز الأحدب.

(٤) لقد تم هذا خلال أحداث عام ١٩٥٨.

بترحيل المسيحيين من لبنان إلى الجزائر كمستعمرين[٥].

كميل شمعون، رئيس الجمهورية الأسبق، وزعيم الجبهة المارونية، لم يكن يشارك بيار الجميل مشاعره نحو العرب ولا رغبته بالمحافظة على العلاقات مع العالم العربي، ولهذا، قرّر التوجه نحو اسرائيل. عام ١٩٥٨ ـ وأثناء الأحداث التي جرت يومذاك، فكّر كميل شمعون ـ بصفته رئيساً للجمهورية بطلب المساعدة من رئيس وزراء اسرائيل دافيد بن غوريون؛ لكنه عاد وعدل عن فكرته وتوجه نحو ايزنهاور. أما اليوم، فقد اتخذ قراره بعد مشاورات مع صديقه الملك حسين الذي أجابه بوضوح «إذا أردتم البقاء، فما عليكم سوى التوجه نحو اسرائيل».

مع بداية ربيع ١٩٧٦، تكوّن لدى شمعون والجميل، أن سوريا تتعامل مع لبنان بروح أخوية، وهذا ما يجعلها قادرة على وضع حل يرضي الطرفين. بيار الجميل ذهب إلى دمشق، وتلقى تأكيدات من الرئيس السوري حافظ أسد، ان سوريا لن تسمح لمنظمة التحرير بتركيع الموارنة. ولكن، وبعد أسابيع قليلة، تبين أن سوريا، لم تكن قادرة على وقف الزحف الفلسطيني، وفي محاولة للتوسط، اقترحت سوريا «الوثيقة الدستورية»[٦]، التي تقضي بتوزيع عدد النواب مناصفة بين المسلمين والمسيحيين؛ إلا أن، الزعيم الدرزي، كمال جنبلاط، والذي يرأس التحالف اليساري في لبنان، رفض هذه الوثيقة معتبراً أن الزمن قد تخطاها وان الجميع اليوم يطالبون بالتغيير الشامل. فشل الوساطة السورية، فجّر الأوضاع من جديد؛ واضطر الموارنة إلى الاتصال باسرائيل عبر مهمة أبي خليل، لأنهم اعتبروا الوساطة السورية الورقة الأخيرة التي من الممكن أن يلعبوها.

التعاون الماروني ـ الاسرائيلي، ليس جديداً، وليس هو وليد الأحداث اللبنانية الأخيرة؛ إنه قديم قدم الحركة الصهيونية. ولكن الموارنة، كانوا دائماً ـ إذا وضعوا بين الخيارين الاسرائيلي والعربي ـ يؤكدون تعاونهم التام والشامل مع العالم العربي. ورغم هذا، فإن أحد قادة الصهيونية وصف التعاون على أنه «جبهة يهودية ـ مسيحية في المحيط

(٥) هذا الاقتراح قدّمته فرنسا عام ١٨٤٠ بحجة إنهاء الصراعات الدموية بين الدروز والموارنة، ولكنه في الحقيقة كان يرمي إلى جعل الجزائر مقاطعة فرنسية.

(٦) أعلنت الوثيقة الدستورية في رسالة وجهها الرئيس سليمان فرنجية إلى الشعب عند الساعة العاشرة من ليل السبت ١٤ شباط ١٩٧٦، والمعروف ان هذه الوثيقة تم التفاهم عليها بين الرئيسين فرنجية والأسد أثناء اجتماع القمة الذي جمعهما في دمشق يوم السبت السابع من شباط ١٩٧٦.

العربي »؛ لا يمكن تدميرها بسهولة. عام ١٩٥٥، قاوم موشي شاريت، وزير الخارجية آنذاك ـ بشدة وعنف اقتراحاً قدّمه رئيس الوزراء دافيد بن غوريون ـ لشراء ـ ضابط ماروني ليدعو اسرائيل للتدخل في الشؤون اللبنانية. وهكذا يفسح المجال لها للسيطرة على لبنان. شاريت كتب في مذكراته يقول: « كلام فارغ » ومضى في ردّه على اقتراح بن غوريون « سنجد أنفسنا في مستنقعات من الوحل ولن نجني سوى العار ومصداقيتنا في العالم. فليس بين الموارنة ـ كما يرى شاريت ـ من يخاطر بمثل هذا العمل، كما وليس بينهم من يصلح أن يكون حليفاً صادقاً ».

وانطلاقاً من اهتمام اسرائيل بأية اضطرابات في المنطقة، أبدت اهتماماً مباشراً بما كان يجري في لبنان، خاصة بعد وصول الأزمة إلى نقطة اللارجوع؛ منظمة التحرير وحلفاؤها يسيطرون على معظم الأراضي اللبنانية، وحكومة ليست أكثر من دمية بيد السوريين، وبالمقابل فإن اسرائيل كانت تعي ان استمرار العنف في لبنان قد يؤدي إلى خلق الاضطرابات في المنطقة بأكملها. ولشدّ ما كان الاسرائيليون يخشون هزيمة الموارنة، لأن هذه الهزيمة تعني أن لبنان سيكون ضمن الجبهة ـ الموز ـ التي تسعى سوريا لإيجادها امتداداً من خليج العقبة على البحر الأحمر حتى الناقورة على البحر الأبيض المتوسط ـ أي على طول حدود اسرائيل الشمالية والشرقية. وزير الخارجية، إيغال آلون، كان أكثر المتحمسين لضرب هذا المخطط؛ وهكذا بعد اجتماعه بأبي خليل، رأى أن عليه الذهاب شخصياً إلى لبنان لمتابعة الموضوع، لكن رئيس الوزراء اسحق رابين كان غير مطمئنٍ للتدخل في الشؤون اللبنانية، ولا يرى ضرورة للاتصال المباشر على أعلى المستويات، ولكنه كان ميالاً للتحقق من صدق التعهدات المارونية.

على متن زورق حربي آخر، رسا خارج خليج جونيه، كان ضابطا استخبارات عاليا الرتب، ينتظران بشير الجميل الابن الأصغر لبيار الجميل، الآتي على متن زورق آخر ومقنع الوجه. أثناء الاجتماع تكلم بشير بصوت قلق، وتحدث عن المشاكل الحالية للموارنة بأسلوب جعل ضابطي الاستخبارات يعتقدان أنهما يتناقشان مع ولد لا يمكن أن يؤخذ كلامه على محمل الجد. وحين أبديا رغبتهما في مقابلة والده، حاول التهرب من الإجابة. في لقاء ثان، أتى أمين الابن الأكبر للشيخ بيار، أتى من غير قناع على الوجه ويرتدي بذة كاكية، لكنه هو الآخر، أعطى انطباعاً سلبياً أيضاً. أو كما قال عنه أحد الضابطين « لا يمكن الوثوق به » وبعد العودة إلى اسرائيل، اقترح الضابطان استمرار الاتصال بالموارنة،

ولم يقترحا تقديم المساعدة العسكرية مباشرة، إلا بعد التأكد من طلبات الموارنة. ومر عام، كان لرابين بعده، فريق من أربعة ضباط استخبارات برئاسة الكولونيل بنيامين بن أليعازر مهمتهم الذهاب إلى لبنان واعداد تقرير شامل ووافٍ عن الوضع فيه. وهكذا وعلى متن قارب حربي غادر الفريق اسرائيل بلباس مدني وغير مزودين بأي سلاح غير مسدسات السميث ويسونز Smith - Wessons، عند وصول القارب إلى محاذاة بيروت، كانت أصوات الانفجارات تسمع بوضوح، وكذلك رؤية الشهب الحمراء التي يحدثها انفجار القنابل. ولما انتصف الليل، كان القارب قريباً من ميناء جونيه، وسرعان ما أطل يخت فخم، وبعد اشارات التعارف، اقترب من القارب، وفي البحر، كان زورقان حربيان اسرائيليان يراقبان بانتظام.

حين انتقل الضباط الأربعة إلى اليخت استقبلوا بحرارة وبابتسامة من جندي ماروني يختلف جداً عن ولدي الجميل. إنه داني شمعون الابن الأصغر للرئيس الاسبق كميل شمعون؛ وقائد فرقة النمور غير التابعة للكتائب؛ جميل، حسن الهندام، يتكلم الانكليزية بطلاقة، ويعرف كيف يكتسب الوقت. فقاد اليخت بأقصى سرعة ممكنة. ولما قاربت الساعة الثانية صباحاً كان الفريق ينزل إلى البر قبالة كازينو لبنان، حيث كان رتل من السيارات ينتظر؛ وبعد تقديم التحية العسكرية على يد فريق من مقاتلي الموارنة، توجه الموكب عبر اوتوستراد جونيه إلى فيلا بعيدة، القارب الاسرائيلي، رفع مرساته وعاد من حيث أتى، أما الزورقان فاستمرا في مهمة المراقبة عن بعد.

في حديقة الفيلا الفخمة، سار الجميع مخترقين جدار الظلمة، إلا أن أحد الاسرائيليين زلت قدمه ووقع في بركة سباحة فارغة وأصيب برضّة في قدمه؛ وبرغم الألم، أعلن أنه قادر على متابعة مهمته. فتقدمت منه فتاة في مقتبل العمر لمساعدته، داني شمعون قدّمها قائلاً: « إنها إيفا، انها يهودية » معتقداً ان هكذا تعريف قد يريح ضيوفه، مهما يكن، فالضيوف كانوا مأخوذين بالاستقبال الحار الذي استقبلوا به، الذي لم يقتصر على وضع فتاة يهودية بخدمتهم، بل شمل أيضاً غرف نوم مريحة، فعلى كل سرير غطاء مكوي ومعطر وإلى جانبه كلاشينكوف، وقنديل كهربائي، وسكين جيب وأدوات كتابة. ولما أعرب بن أليعازر عن رغبته بتناول الطعام، أجلس إلى طاولة عليها أطيب المآكل.

استهل داني شمعون جلسة المباحثات الأولى بإيجاز الوضع على الجبهات، مشدّداً على ضرورة الاعتماد على النفس، بأسلوب يبرز وعيه وإدراكه للأمور، الأمر الذي يجعله محبباً

للآخرين على عكس أبناء الجميل. وصل داني شمعون إلى مركزه هذا، كونه «واحداً من الموارنة» وحتى يؤكد ثقته بذاته، عاش حياة ارستقراطية، شراب ورحلات صيد، إنه مثال لحياة الترف واللهو، وبرغم هذا جنّد نفسه للدفاع عن شعبه؛ فليس من شك في براعته العسكرية. إنه جندي حقيقي، تكلم عن متطوعيه بوضوح، وأعلن حاجته للتدريب والسلاح لمواجهة حرب غير قادرين على خوض غمارها بقدراتهم المتواضعة. كلام واضح ومباشر، غير مدبج بأسلوب سياسي. «اعطونا السلاح وسنطرد الفلسطينيين» ردّ بن أليعازر موضحاً انهم يثقون بكل كلمة قالها، لكن المتطوعين وحدهم لا يفعلون شيئاً.

صباح اليوم التالي، وصل ممثلون عن الكتائب إلى الفيلا. هذا، وكان الاسرائيليون قد استشفّوا من خلال حديث داني شمعون ان ركني الموارنة كانا يتصرفان كل على حدة وان التعاون القائم بينهما لا يتعدى الحد الأدنى المطلوب في مثل هذه الظروف. كما وأنهم ـ أي الاسرائيليين ـ لم يكونوا مقتنعين ان الكتائب قادرون على التصرف، مثل أبناء شمعون. ميليشيا داني شمعون حديثة العهد وتعتمد على الروابط العائلية. أما الكتائب فقد تأسس حزبهم عام ١٩٣٦ على يد بيار الجميل، وعلى مبادىء الفاشية الحديثة؛ ويمتاز بالانضباطية والتدريب المتواصل؛ ويتوزع الأعضاء على كتائب تشبه في تنظيمها ومهماتها وتنقلاتها الكتائب العسكرية، ولكن الجميل رغبة منه في تمويه هذا الاسم ـ الكتائب ـ أطلق عليه اسم الحزب الديمقراطي الاجتماعي؛ ولكن أحداً لم يستعمل هذا الاسم؛ وقد لعبت الحرب الأهلية في انضمام عدد كبير من شباب الموارنة تحت لوائه، الأمر الذي جعله أكبر تجمع ماروني، ضاهى ما لكميل شمعون من شعبية ونفوذ.

أمين وبشير، كلاهما محام يتمتعان بثقافة عالية، كتومان يحبان العزلة، والأهم من هذا أنهما كانا غير مرتاحين لنوايا الاسرائيليين. بشير، حديث العهد بالسياسة، يتكلم بصوت خافت، مردّه الخجل. حتى أن أحد مرافقي بن أليعازر تحدث عنه فقال: «كنا نعتقد أن دموعه ستنهمر في أية لحظة»؛ أمين وبشير إنضما إلى الاجتماع تلبية لدعوة داني شمعون، لكنه، تكون لدى الاسرائيليين انطباع أن داني شمعون على استعداد كلي للمضي في القتال حتى النصر، على عكس ولدي الجميل اللذين لن يرفضا وقفاً لإطلاق النار.

بعد انفضاض الاجتماع، وفي الطريق إلى منزل كميل شمعون، رأى الاسرائيليون ما لا يصدق، وما لا يعقل أن يصدر عن شعب يدّعي الحضارة، جثث تسحل وتجرجر على الطرقات؛ مما أعاد إلى أذهانهم صدمة ظهور المجوس لدى المسيح. والتفت بن أليعازر نحو

مضيفه متمتماً «ادفنوا هذه الجثث سريعاً منعاً لانتشار الأوبئة».

وكما في منزل داني، كذلك في منزل والده، كان على الاسرائيليين الاستماع إلى محاضرة عن الحرب في لبنان «سأريكم بناتنا» قالها كميل شمعون دونما أي إحساس بالخجل. في الخارج كانت أربع فتيات بثياب القتال، مزنرات بالقنابل اليدوية، عرفنا كميل شمعون عليهن «هذه فلسطينية مسيحية، تلك لبنانية من أم روسية، انهن نموذج من مقاتلينا» هنا تساءل بن أليعازر «وعلامَ دربن؟» وفجأة تقدمت الأولى وهي تحمل كيس نايلون شفّافٍ مملوءاً بالأصابع المبتورة «لقد بترت أصبع كل واحد قتلته وأبقته معها كتذكار» هذا ما قاله شمعون. وتقدمت الثانية وفتحت حقيبتها فإذا هي ممتلئة بالآذان؛ وحتى لا يصاب بالغثيان، استدار بن أليعازر وعاد إلى الداخل وهو يتمتم كلمات مبهمة.

ختاماً للمهمة، تحدث بن أليعازر إلى مضيفيه، موجزاً ما توصل إليه هو ورفاقه من نتائج:

١ ـ يجب تحديد الأهداف بوضوح.

٢ ـ التخطيط لكيفية الوصول إلى هذه الأهداف.

٣ ـ بناء قوة متنامية وقادرة.

وأهم ما شدّد عليه بن أليعازر، هو أنه إذا كان اللبنانيون يريدون الاستمرار فما عليهم سوى توحيد قياداتهم. إنه أمر مبطن بتوحيد القيادة، وهكذا يتنقل المقاتلون من منطقة إلى أخرى دون إثارة الحساسيات. لكن رجال الميليشيا استمعوا فقط. فالخصومة والنزعة القبلية، استمرت، حتى في أشد الساعات صعوبة وحراجة، وهذا ما جعل الاسرائيليين يرسلون الوسيط تلو الوسيط، ليس من أجل توحيد الصفوف، بل من أجل تخفيف الروح العصبية فيما بينهم.

وبدون سابق إنذار انتقل بن أليعازر إلى الحديث عن علاقات اسرائيل بالقرى المسيحية في الجنوب، وقبل أن يتمكن مرافقوه من منعه عن متابعة حديثه، أكمل بن أليعازر كلامه عن التنظيم والتدريب والمعدات، التي من شأنها أن تسمح لأبناء هذه القرى يوماً ما بمساعدة الموارنة في الداخل. هنا تدخل أحد المرافقين مقاطعاً، هذا الأمر يستوجب أخذ الموافقة المسبقة من حكومتنا. وهكذا استمر الوضع، لسنوات. في أورشليم تحفظات سياسية، وفي بيروت يسترسل المبعوثون في الحديث دون اعطاء أهمية لما يبديه السامعون من ملاحظات أو لما كانوا يتوقعونه منهم، وكي نفهم هذا التصرف، علينا أن نعرف، ان اسرائيل بعد بدء

المفاوضات مع مصر لإقامة السلام عام ١٩٧٧، توهم قادتها أن بوابات الشرق الأوسط قد شرعت لهم.

أول لقاء لبناني - اسرائيلي على مستوى عالٍ تم في آب عام ١٩٧٦، كميل شمعون واسحق رابين اجتمعا على متن زورق حربي كان راسياً في ميناء حيفا «هل ستتدخلون؟» تساءل كميل شمعون: وهو يحدق باسحق رابين من خلال زجاج نظارته السميك. وبسرعة أجاب رابين «وهل ستطلبون منا ذلك؟» والجدير بالذكر، هو أن رابين كان يتعامل مع شمعون انطلاقاً من تقارير بن أليعازر، ولهذا شدّد على سلبيات تشرذم القوى المارونية في لبنان، وعلى ضرورة تبيان كيفية محاربة منظمة التحرير الفلسطينية، والمعلوم أن بن أليعازر رأى أنه من الصعب أن تتمكن هذه القوى من احراز أي تقدم طالما أنها تفتقر إلى الأجهزة اللاسلكية الضرورية وطالما أنها تمتلك أسلحة متنوعة وغير موحدة.

وأوضح رابين لضيفه «أنه إذا كان علينا مساعدتكم، فمن أولى البديهيات أن تساعدوا أنفسكم» وفي الوقت ذاته وعد بزيادة المساعدات العسكرية، وبالفعل، بدأ الموارنة يتسلمون هذه المساعدات المؤلفة من البنادق الأميركية الصنع م١٦١٦ M وقذائف لو Low المضادة للدبابات ودبابات شيرمانSherman . وبعد أن كانت المخابرات الاسرائيلية - الموسادMossad ، هي المسؤولة عن تقرير وتقديم المساعدات للموارنة، انتقلت هذه المسؤولية إلى شمعون بيريز وزير الدفاع آنذاك. هذا وقد بلغت قيمة المساعدات التي تلقاها الموارنة خلال السنوات الثلاث الأخيرة من حكومة رابين بمائة وخمسين مليون دولار أميركي.

بعد لقاءات ثلاثة مع كميل شمعون، وجه رابين الدعوة لبيار الجميل وولديه لحضور هذه المحادثات. وعلى متن قارب راسٍ قبالة الساطىء التقى الجميع، بيار الجميل لم يكن سعيداً لمصافحته رابين وأعرب عن شعوره هذا علناً «رغم اضطراري للتعاون معكم، فإني احتقر نفسي، فأنا أرغب في البقاء مرفوع الرأس كمسيحي وكعربي». رابين تجاهل الإهانة والتزم الصمت الذي فسّره الجميل على أنه دعوة له بإكمال حديثه، فتابع يقول: «إن المسؤول الأول والأخير عن تواجد الفلسطينيين بهذه الكثافة على أرض لبنان، وعن امتلاككم لما بحوزتهم من أسلحة هو إسرائيل». وهكذا «فمأساة لبنان أنه مجبر على الصراع معهم» وإذا كانت اسرائيل ترغب - فعلاً - بإراحة لبنان، فعليها انتهاج سياسة معتدلة تجاه الفلسطينيين، كما وعليها أن تتعامل مع العرب بليونة كي يتقبلوها فيما بينهم. بيار الجميل،

كان يتحدث وكأنه يؤنب رابين، إذ ليس بمقدور أحد نكران ما سببوه لجيرانهم في الشمال.

هذا الجو المشحون بالتوتر، لم يتوقف، إلا بعد بدء بشير بالاستفراغ وارتمائه على الطاولة، بسبب إصابته بالدوخة، التفت إليه والده وأنّبه على فعلته واستدار نحو مضيفيه مقدماً اعتذاره؛ وعاد الجميع إلى مناقشاتهم فيما حافظ بشير على صمته، الأمر الذي دعا رابين ومرافقيه إلى رميه بالابتسامات الساخرة من حين لآخر، غير متوقعين أن هذا الفتى المتردّد سيصبح، بعد سنة، قائداً عسكرياً صلباً.

وانقضت شهور، انعطفت الحرب الأهلية في لبنان بعدها انعطافاً خطيراً. الجيش السوري دخل لبنان لفرض الأمن والسيطرة السورية. وهكذا، وبعد أن كان بيار الجميل يصرّح خلال كانون الثاني عام ١٩٧٦، انه «سيقاتل حتى آخر رجل» لمنع الغزو السوري للبنان، أصبح في أيار من العام ذاته يقول: «لمن الغباوة بمكان أن نقاوم قوات غريبة آتية للحفاظ على أرض الوطن ومنع تقسيمه» خاصة وأن هدف هذه القوة، ردع الفلسطينيين ووضع حد لاعتداءاتهم. والحقيقة التي لا تقبل ردعاً ولا حجباً، هي أن دخول السوريين لبنان في الأول من حزيران عام ١٩٧٦، تم بمباركة كبار الموارنة، ولكن هؤلاء الموارنة، رغم تهليلهم وترحيبهم بالسوريين، استمروا في تنمية علاقاتهم مع اسرائيل. حتى، حين صارت بيروت على مرمى نيران المدفعية السورية، وجهت الدعوة لعدد من الضباط الاسرائيليين بقيادة بن أليعازر لزيارة بيروت. وفي بكفيا، استقبل الضباط بالتذمر والشكوى من البطء في إرسال الامدادات العسكرية، وكأن الاسرائيليين يدفعون الموارنة دفعاً للارتماء بأحضان السوريين. وبالرغم من الترحيب الذي قوبل به السوريون من قبل زعماء الموارنة، فبشير حافظ على تحفظاته «ليس بإمكاننا الاستمرار أكثر، إننا على شفير التفدقع» هذا ما أعلنه للاسرائيليين. فما كان من بن أليعازر إلا وعاد إلى نغمته القديمة «ضرورة توحيد القيادة والتعاون مع مسيحيي الشمال، بقيادة فرنجية الذين أسسوا ميليشيا تعرف باسم «المردة» وجاء رد بشير سريعاً وقاطعاً - لا - فقائد المردة هو طوني فرنجية نجل الرئيس سليمان فرنجية ووزير المواصلات السلكية واللاسلكية سابقاً، وطوني - برأي بشير - يتعاون مع بعض السوريين في تجارة الحشيش. وحين أصرّ الاسرائيليون على ضرورة التعاون مع المردة، انسحب بشير من الاجتماع تاركاً للموجودين اتخاذ القرار، متمتماً بخجل «اننا نعدّ لكم مفاجأة صغيرة».

مساء اليوم التالي، وخلال الكوكتيل الذي أقامه شمعون الصغير في فيلته على الشاطىء،

بدا طوني فرنجية أنيقاً إلى أبعد الحدود، وعبثاً حاول الإفلات من يد بن أليعازر الذي حشره أخيراً وناقش معه أهمية تعاونه مع الكتائب والشمعونيين، لمحاربة التحالف اليساري. فرنجية الابن، أوضح، أنه لم ـ ولن يفكر يوماً بهذا الأمر، وتحدث عن علاقاته الودية مع العالم العربي، مما أعطى انطباعاً أنه غير معني بالموضوع، لا من قريب ولا من بعيد؛ فآل فرنجية وأتباعهم وضعوا ثقتهم بالسوريين، وهم غير مستعدين للعب غير هذه الورقة.

وأثناء هذه الزيارة لبيروت، تموز ١٩٧٦ ـ زار بن أليعازر مركز قيادة المسيحيين المشرف على مخيم تل زعتر، في الضاحية الشرقية من بيروت، والمسيطر على الطريق التي تربط العاصمة بالجبل وعلى منطقة صناعية[٧]. هذا المخيم محاصر منذ نيف وشهر، من قبل ميليشيا صغيرة تطلق على نفسها اسم «حرّاس الأرز»، وقد انضم إليهم مؤخراً الكتائبيون. هناك أمضى بن أليعازر ساعتين يراقب الوضع من الطابق الأعلى، لقد رأى بأم عينيه القنابل ـ والقليل منها جاء كمساعدة من اسرائيل ـ تتساقط في المخيم دون إحداث أية أضرار محسوسة، وكيف أن بضعة عشر مقاتل فلسطيني يدافعون عن مخيمهم، ويتسللون عبر ممرات تحت الأرض.

تمشياً مع العرف، قام بن أليعازر بزيارة ثالثة لبيروت خلال شهر أيلول، رداً لزيارة كل من داني شمعون وبشير الجميل لاسرائيل، عاد خلالها بشير إلى موّاله القديم وشرح الوضع بشكل مفزع. كان منزعجاً من استمرار منظمة التحرير الفلسطينية التخريبية بتهديد المسيحيين، والسوريون لم يتابعوا تقدمهم للقضاء على الفلسطينيين المتواجدين في الجبل، كان يريدنا أن نتدخل مباشرة وفوراً، وطلب معرفة جواب رابين خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، وجاء جواب رابين بالنفي، إنه أمر غير معقول، ولكن رابين أخذ علماً ان الصبي الذي وقف ـ لأشهر خلت ـ مرتجفاً أمام أبيه، صار معتداً بنفسه.

يوم الثامن والعشرين من أيلول عاود السوريون زحفهم نحو مواقع منظمة التحرير في الجبل، ومع أواسط تشرين الأول، اعتقد الكثيرون ان الحرب الأهلية انتهت. وعقدت قمة الرياض بحضور سوريا ومصر ولبنان، إضافة إلى البلد المضيف، وصدر عنها قرار يقضي باعتبار القوات السورية المتواجدة على الأراضي اللبنانية، قوات حفظ سلام، ونص فيها

(٧) المقصود هنا، طريق بيروت ـ بيت مري ـ برمانا والمنطقة الصناعية في المكلّس.

نص على سحب الأسلحة الثقيلة، لكن سوريا أخفقت في هذا المجال مع الميليشيات المسيحية؛ فانصرفت إلى تجريد منظمة التحرير الفلسطينية وحلفائها اليساريين من أسلحتهم الثقيلة، مما جعل التحالف السوري ـ المسيحي يعيش شهر عسل؛ إنما بشير لم يطمئن، وثابر بالاستعداد للجولة القادمة، مردّداً: «التاريخ حافل بالأمثال، ويحكي عن الكثير من الجيوش التي أتت لمساعدة جيرانها أيام المحن، وتحولت إلى جيوش احتلال».

مع بداية العام الجديد، وجد بشير نفسه وحيداً في معارضته دخول السوريين إلى لبنان، فالأغلبية الساحقة لأعضاء المكتب السياسي لحزب الكتائب، رأت في سوريا مساعداً فعالاً في التوفيق بينهم وبين منظمة التحرير الفلسطينية واليسار اللبناني، كما واعتبرت ان التعامل مع اسرائيل هو ضلال وانحراف؛ وهذا ما لم يرضِ بشيراً الذي ما يزال على اعتقاده ان القتال سيتجدد، واعتقاده هذا جعله يواصل اتصاله باسرائيل عبر وسيط من الموساد، رغم الهدوء الذي عمّ البلاد طيلة عام ١٩٧٧؛ وكذلك واصل بشير ارتقاءه السياسي والعسكري، حتى أصبح رجل الأزمات. في الواقع لم يكن وحده متحلياً بهذه الصفات، فحزب الكتائب غني بأمثاله، لكن بشيراً عرف كيف يقيم علاقات صداقة مع رجاله، وعرف كيف يخاطب الشباب، لا، لن يعود لبنان إلى ما كان عليه من تشرذم واضطرابات، سنبني لبناناً جديداً متحرراً من الأفكار التقليدية، منفتحاً على الحضارة أينما وجدت. لا لن نرضى أن نحكم من قبل زعماء تقليديين، تسببوا في خراب هذا البلد وضياع الشعب «لم نبذل دماء آلاف الشهداء لنعود إلى الوراء». في حديث له مع ضابط الموساد الذي كان يقوم بزيارة بيروت سرياً، هاجم بشير سياسة والده التقليدية، وبدا مهتماً جداً بتوجه الكتائب نحو اسرائيل لاعلان الدولة المارونية في المنطقة الساحلية من لبنان «علينا أن نفعل كما فعلتم عام ١٩٤٨» خاطب ضيفه، ومضى يقول بصوت عالٍ: «وبعدها نسيطر على كافة البلاد بالقوة».

إضافة إلى مكانة بشير، لعبت تصرفات السوريين دوراً بارزاً في جعل المسيحيين يعدّون للعشرة. فأعمال السلب والنهب واغتصاب الفتيات والتوقيف الاعتباطي والعبث بالممتلكات الخاصة، كل هذه الأعمال تركت أثراً سيئاً في نفوس المسيحيين الذين وجدوا أنفسهم مضطرين على إعادة النظر بعلاقاتهم معهم؛ فتفشى التذمّر بينهم وارتأوا الاعتماد على أنفسهم. وكون بشير، كان دائم الترداد «لبنان الحر» لذلك صار رمزاً للأمل. وتمكن الأخوان، أمين وبشير، من الإمساك بالحبل من طرفيه، ففي حين كان بشير على علاقة

طيبة مع الموساد، كان أمين يوطد علاقاته مع السوريين ويحمل اسرائيل مسؤولية الحرب الأهلية في لبنان.

استمد بشير قوته من ميليشيا الكتائب، التي بتحريض من الاسرائيليين صمم على إعادة تسليحها وتنظيم قيادتها، متخلياً بذلك عن صفته كمحامٍ، محاطاً بعدد قليل من ذوي الاختصاص الذين يثق بهم؛ لقد نذر نفسه لبناء كادراته، وهكذا، شرع الميزان يميل لدفته. والذي زاده تألقاً، كان وقوف كميل شمعون إلى جانبه، أواخر عام ١٩٧٧، فهذا الأخير كان يرى ما يراه بشير بالنسبة للعلاقات مع السوريين، وانه لا محالة سيكون هناك صدام معهم؛ وهكذا صار شمعون وبشير صفاً واحداً يواجه الأغلبية الساحقة لأعضاء المكتب السياسي في حزب الكتائب. وأول ما فعلاه، كان تحجيم التشرذم الحاصل في القوى المسلحة المسيحية.

بعد الانتهاء من تنظيم ميليشياته، وخلال زياراته اللاحقة لاسرائيل، وأثناء مناقشاته مع الموساد ومندوب جيش الدفاع الاسرائيلي، كان بشير يشدد على ضرورة قيام اسرائيل بعمل عسكري ضد القوات السورية المتواجدة على الأراضي اللبنانية، اعتقاداً منه، ان هكذا عمل، هو السبيل الوحيد لإخراج الموارنة من المأزق الذي هم فيه، ولكن كل محاولاته، ذهبت سدى.

شهر أيار ١٩٧٧، كان شهر رحيل اسحق رابين من مركز رئاسة الوزراء ودخول مناحيم بيغن بدلاً منه؛ بعد فوز تكتل ليكود بالانتخابات، ومع مجيء بيغنBegin ، عاد الأمل يتسع في عيون بشير، اعتقاداً منه أن حكومة مناحيم بيغن أكثر قابلية لتلبية طلباته والقيام بعمل عسكري. وهكذا بدأ يعد العدة للتعاطي مع قادة جدد؛ كانوا على علم مسبق بما يريده منهم، لكنهم تابعوا مسيرتهم معه، على نمط حكومة رابين: مساعدة الموارنة هي مساعدة أنفسهم، ليس أكثر. والحقيقة أن أهم ما حققته علاقات بشير بحكومة مناحيم بيغن، كان عملية الليطاني التي أثارت شكوك الاسرائيليين.

عملية الليطاني هذه، هدفت إلى: تدمير قوة منظمة التحرير الفلسطينية وقواعدها التي تهدد سلامة وأمن سكان الجليل، أولاً، أما ثانياً فهدفت إلى توسيع منطقة الشريط الحدودي الخاضعة لميليشيات الرائد سعد حدّاد، الذي أعيد إلى مسقط رأسه [٨]، عبر اسرائيل، عام

(٨) مواليد جديدة مرجعيون التي تبعد عن حدود اسرائيل ما يقارب الستة كيلومترات.

١٩٧٦، بعد اجتماع بين زعماء الموارنة وقادة اسرائيل؛ وهناك أنشأ الميليشيا المعروفة باسمه، لمواجهة قوات منظمة التحرير الفلسطينية وصد هجماتهم. وكون سعد حدّاد، ليس مارونياً، بل ينتمي إلى طائفة الروم الكاثوليك، فكان يبدو شيئاً خارجاً عن المألوف في نظر المؤسسات العسكرية المسيحية، وكان مهذبو بيروت ينظرون إليه بازدراء، بسبب تواضعه وارتدائه الدائم لبذته العسكرية. مع بداية «عملية الليطاني» طلب من بشير إرسال ٨٠٠ مقاتل لدعم قوات حدّاد، فاستجاب مكرهاً، لكن معظم الوافدين إلى الشريط، لم تطل إقامتهم هناك، بل عادوا من حيث أتوا، ومنذ ذلك الحين، كان بشير يرفض إرسال أي عنصر من عناصره لمساعدة حدّاد، مما حدا بالاسرائيليين للشك بمصداقية حلفائهم الكتائب.

إن الدافع الأساسي لعملية الليطاني، لم يكن تصفية الحسابات مع الفلسطينيين. إذ في الواقع، ان بشيراً لم يكن مهتماً بالجنوب، بل بالمواجهة مع السوريين في بيروت. فشرع الكتائبيون، يزرعون الألغام على دروب القوات السورية، ويقيمون الكمائن في محاولة لجعل هذه القوات غير قادرة على القيام بمهامها، ولإفهام اللبنانيين والدول العربية والمجتمع الدولي، ان الجيش السوري المتواجد على الأرض اللبنانية، هو جيش احتلال، وليس، كما يعلن الرئيس السوري حافظ أسد بأنه قوة حفظ سلام، جاء إلى لبنان بناء لطلب الرئيس اللبناني الياس سركيس، وبموافقة جامعة الدول العربية..

والغريب في الأمر، ان بشيراً يدرك خطورة ما يقدم عليه ـ وهذا ما أسر به لزائر اسرائيلي ـ؛ ويعلم أنه يواجه جيشاً نظامياً مؤلفاً من خمسة وثلاثين ألف جندي إضافة إلى مئتي دبابة وأكثر من ثلاثمائة مدفع ميدان؛ إزاء هذا الوضع، تحركت اسرائيل فضاعفت من مساعداتها العسكرية واستقبلت عدداً من مقاتلي حزب الكتائب وميليشيا شمعون لتدريبهم عسكرياً؛ والحقيقة أن مناحيم بيغن كان يتصرف، انطلاقاً من استجابته للبيان المشترك الذي أصدره كل من كميل شمعون وبشير الجميل وأعلنا فيه ان اسرائيل وحدها تتصرف على أنها حامية الأقلية المسيحية في لبنان.

من جهة أخرى، وبعد كامب دافيد، أطلع سايروس فانس الرئيس المصري أنور السادات، أنه وجد على مكتب مناحيم بيغن رسالة بخط كميل شمعون، فما كان من هذا الأخير إلا أن أرسل إلى بيغن رسالة يدعوه فيها للتخلي عن كميل شمعون «فهو كان عميلاً للاستخبارات الانكليزية، فالفرنسية، فالأميركية، فالسورية، وها هو اليوم يتعامل معك».

إن استيعاب مناحيم بيغن لفكرة تأجيج النار في بلد مجاور، كان كما أوضح مساعده السابق، اعتقاداً منه أنه يتحمل مسؤوليته في الحفاظ على الموارنة، وان تحسسه لواقعهم، ليس واجباً أخلاقياً وحسب، إنما هو واجب قومي أيضاً. والحقيقة، ان كلاً من بشير الجميل وكميل شمعون، كان يدرك ان اسرائيل راغبة في اعطاء المزيد من التعهدات، وانها لن تسمح أبداً بإبادة الموارنة في لبنان. وعندما تحدث بيغن عن رفضه لطغيان فئة على أخرى، اعتقد القادة اللبنانيون أنه يفعل ذلك استباقاً لأية تهديدات سياسية؛ وانهم لن يتلقوا أية مساعدة، هكذا، بدون أسباب موجبة، لذا كانوا مؤمنين ان اسرائيل ستقف إلى جانبهم ساعة الحاجة.

إن مزاجية اسرائيل، جعلت بشير الجميل يفكر بمد سلطة الكتائب نحو المنطقة الريفية في الشمال، والواقعة بمحاذاة طرابلس. في محاولة، للقضاء على نفوذ آل فرنجية الذين يعارضون بشدة سياسته المعادية للسوريين. فمع نهاية أيار من عام ١٩٧٨، وبعد انسحاب سليمان من الجبهة اللبنانية اندفع العنف بين ميليشيات طوني فرنجية وحزب الكتائب؛ ووصل حدّه الأقصى يوم الثالث عشر من حزيران ١٩٧٨، حين أقدم رجال طوني فرنجية على قتل المسؤول الكتائبي في المنطقة[٩]. وجاءت ردة الفعل الكتائبية، قيام مئات من مسلحيهم بمحاصرة قصر طوني فرنجية، مطالبين بتسليمهم القتلة الذين كانوا يحتمون فيه. وحين رفض طوني تسليم أي منهم، هاجم المسلحون المنزل وقتلوا من فيه بما فيهم طوني وزوجته وابنته والخادمة. وإن كان بشير هو من خطط لهذه العملية أم لا، فإن مقتل الحليف المسيحي للسوريين، فجّر الوضع، دون أن يتمكن أحد من السيطرة عليه، فالمروحيات السورية طاردت الكوماندوس الكتائبيين حتى بيروت. بشير الجميل وكميل شمعون بدءا حربهما ضد الجيش السوري المتواجد في المناطق المسيحية، مما اضطر الرئيس السوري حافظ الأسد، إلى توجيه إنذار للموارنة بإلقاء سلاحهم والسماح للجنود السوريين المتواجدين في مناطقهم بالانسحاب، وإلا سيتم ذلك بقوة السلاح. ردة فعل بشير كانت تذكير مناحيم بوعوده السابقة بإنقاذ شعبه من الإبادة، موهماً إياه أنه يواجه «أبوكاليبسو»[١٠]، «لسنا قادرين على مواجهة فيلق سوري أو أكثر» لكن استخبارات

(٩) المقصود هنا هو جود البايع، الذي كان يعمل مديراً لأحد البنوك.

(١٠) أبوكاليبسو رجل أسطوري بعشرة قرون وسبعة رؤوس.

جيش الدفاع الاسرائيلي، رأت أن رجال بشير الجميل استفزوا السوريين، وحذرت بيغن من أية استفزازات لاحقة تهدف إلى توريط اسرائيل في حرب مع سوريا؛ إلا أن اهتمام بيغن كان منصباً على مفاوضاته المقبلة مع الرئيس المصري أنور السادات، لذلك، بدلاً من أن يستجيب لنداء بشير، أخذ يهدىء من روعه. أما وزير الدفاع عزرا وايزمان، ورئيس الأركان موردخاي غور، فقد كانا أقل استجابة لصرخة الكتائب المطالبة باستعمال سلاح الجو الاسرائيلي لإسكات المدافع السورية المحيطة ببيروت؛ ولم يعيرا أي اهتمام لطلبه إنزال بعض الفرق العسكرية في جونيه، رغم تأكيدات بشير ان هؤلاء الجنود لن يشاركوا في القتال، إنما سيشكلون قوة ردع معنوية؛ لكن جهوده ذهبت سدى، هكذا بدا وضعه في بيروت - على الأقل -. والحقيقة، ان مناحيم بيغن لم يكن مرتاح الضمير، ولهذا حلّقت طائرات الكفير الاسرائيلية الصنع، صباح السادس من تموز - فوق بيروت، آتية من جهة البحر، واخترقت جدار الصوت محدثة ضجيجاً قوياً، مخلخلة الشبابيك، زارعة الخوف في القلوب، لكن المسيحيين في بيروت الشرقية الذين صعدوا إلى السطوح ليشاهدوا الطائرات، أصيبوا بخيبة أمل، حين رأوا هذه الطائرات تعود من حيث أتت، دون إلقاء ولو قنبلة واحدة.

في هذه الأثناء، كان جيش الدفاع الاسرائيلي منهمكاً بإعادة نشر قواته في هضبة الجولان[١١] على الحدود السورية؛ وبرغم هذا، أصدر بيغن، وايزمان وعدد من كبار الضباط الاسرائيليين بياناً حذروا فيه، من أن اسرائيل لن تقف مكتوفة اليدين، وهي تراقب المجازر التي ترتكب بحق شعب مجاور. واستجابة لضغوطات شمعون، انضم الرئيس اللبناني الياس سركيس إلى مجموعة الضغط الرادعة، ملوحاً بتقديم استقالته، إذا لم تتوقف سوريا عن قصف التجمعات المسيحية.

ونجحت المناورة المعقدة، وتوقفت المدفعية السورية عن القصف، لكن قائد ميليشيا حزب الكتائب لم يحاول إخفاء رضاه عن خطوة اسرائيل التي قد تتبعها خطوات، إنما هذا الرضا لم يدم طويلاً، إذ عاد رجاله - بعد أسبوعين - للتحرش بالسوريين في بيروت من جديد، فجاء الرد السوري قصفاً مدفعياً على المناطق المسيحية الواقعة إلى الشمال من بيروت. وهكذا دخل بشير اللعبة حارساً أميناً، ولكنه لم يدم كذلك طويلاً، فالموارنة

(١١) هضبة الجولان، هضبة سورية احتلتها اسرائيل خلال حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧.

يعتبرون جبل لبنان قلعتهم الحصينة، وها هي المدافع السورية تقصف هذا المعقل المنيع.

في لقائه مع ضابط الاتصال الاسرائيلي في جونيه، بدا بشير غاضباً وطلب منه تدخلاً اسرائيلياً فورياً. فالسوريون، يطبقون على جونيه من ناحية الشمال، وفي حال سقوط هذه المدينة، فسيخسر المسيحيون منفذهم الوحيد على البحر «وكيف سنحصل على السلاح بعدها؟» وحتى هذه المرة لم يتحرك مناحيم بيغن لانشغاله بمؤتمر كامب دافيد الذي هو على الأبواب، ولن يكون مستعداً على فعل أي شيء يساهم في نسف المؤتمر. مهما يكن، فإن عدم محاولة السوريين التقدم نحو المناطق الجبلية الوعرة، يعتبر ضربة معلم، ويدل على ذكاء حاد؛ إذ أنه حال دون إعطاء اسرائيل الذرائع؛ وأفشل مخططات بشير الجميل الذي وجه لوماً قاسياً للاسرائيليين الذين أغدقوا عليه الوعود ومن ثم تركوه يواجه الأحداث بنفسه. وحين تجددت الاشتباكات في أيلول، لم يرفض وساطة السعودية التي أثمرت عن وقف اطلاق نار وهدنة جديدة.

دفع المسيحيون ثمناً باهظاً لأحداث ١٩٧٨ المتقطعة. عشرات الألوف شرّدوا، وبعض من هؤلاء هجر، إضافة إلى فقدان خطوط دفاع في الشمال، ولكن الكتائب وحلفاءهم تمكنوا من فك الحصار السياسي السوري لهم، وهذا ما اعتبروه نوعاً من النصر؛ لم يتمكن بشير الجميل من التمتع بنشوته كثيراً. ففي شباط ١٩٧٩، قتلت ابنته مايا ـ سنة ونصف ـ بانفجار سيارة ملغومة، بدلاً منه. فقتل مايا، كان صدمة قوية لبشير، أحدثت تغييراً جذرياً في حياته، فرغم أنه لم يكن لديه أدنى شك، ان عائلة فرنجية كانت المحرضة على ما حصل، فقد وقف ـ وهو في أشد ساعات حياته ألماً ـ متعالياً على الجراح، داعياً لوقف دورة العنف بين المسيحيين، ومن ثم آثر الانزواء برفقة زوجته صولانج.

بعد أسبوع، عاود بشير اتصالاته بالاسرائيليين، فطلب من جيش الدفاع الاسرائيلي وضع تقرير شامل ومفصّل عن الاحتياجات العسكرية للموارنة، وعلى ضوئه يتحدّد أسلوب التعاون اللاحق؛ إذ لا مجال للاستمرار بالتعامل، وفقاً للأسلوب القديم، أسلوب «كسرة الخبز». وبالفعل تم له ما يريد بعد مجيء رفول إيتان رئيساً للأركان بدلاً من موردخاي غور الذي أحيل على التقاعد. وهكذا، حدّدت مهمة الضباط الاسرائيليين الذين أرسلوا إلى بيروت، بأمرين: إعادة بناء ترسانة القوات المارونية وبناء التحصينات حول مواقع الميليشيات، ليتسنى لها استغلال مواردها إلى الحد الأقصى. والأهم من ذلك، تدريب عناصر هذه الميليشيات تدريباً يسمح لها بخوض المعارك، وهكذا تدفقت المئات من

هذه العناصر على اسرائيل للتدرب والاشتراك في مناورات مشتركة.

يبدو واضحاً، ان الاسرائيليين أرادوا شد الحبل على عنق بشير، إذ طلبوا منه دفع ثمن كل الأسلحة التي يستلمها. المفاوض الاسرائيلي برّر طلبه، بأنه لا يجوز أن تستمر اسرائيل بمدّه بالسلاح، مجاناً، وان يدفع المواطن الاسرائيلي ثمناً لها، في حين يبعثر اللبنانيون أموالهم سدى وفي حين نرى العائلات من الطبقة المتوسطة تقتني سيارات المرسيدس. وافق بشير على مضض إنما بانتظار اقتناص الفرصة المناسبة. في البدء طلب منه دفع مليوني دولار ثمن ذخائر، فقدّم التماساً لإيتان لخفضها حتى النصف، وبالرغم من موقف إيتان الرافض للعلاقات مع اللبنانيين، وافق على طلب هذا القائد الفتي. بعد إيتان، توجه نحو بيغن موضحاً، ان الرسميين الاسرائيليين يضيقون عليها الخناق؛ ويطلبون منه دفع مليون دولار، وبكل طيبة خاطر، أعفاه بيغن من الدفع. وحين وصل الأمر إلى مسامع رئيس مصانع الأسلحة الاسرائيلية، قدّم، هذا الأخير احتجاجاً شديد اللهجة، فوعده رئيس الوزراء، بأن الذي حصل لن يتكرر.

لم يكتفِ الاسرائيليون بهذا القدر من المضايقات. بل تابعوا ضغوطاتهم لتوحيد قيادة الميليشيات، هذا التوحيد، «من شأنه إعطائها الفعالية والقدرة». لم لا؟ طالما أن الاحتكاكات بين الكتائب والشمعونيين، أو بينها وبين الفئات الأخرى تصل إلى حدود النزاعات الدموية بسبب الخلاف على مناطق النفوذ وفرض الخوّات؛ وبالفعل، فقد عرفت مناطق الغيتو المسيحي مثل هذه الأعمال، من الاغتيالات المتبادلة وخطف القياديين؛ ولم تكتفِ اسرائيل بالضغوط، بل وصلت إلى مرحلة طالبت بوجوب تحقيقه، وهذا ما فعله بشير يوم السابع من تموز عام ١٩٨٠؛ مستغلاً وجود داني شمعون عند عشيقته. فهاجم رجاله مركز قيادة نمور الأحرار هجوماً خاطفاً، وقضوا على ثاني أكبر تجمع ماروني قوّةً في لبنان، حيث قتل ثمانون من أتباع شمعون، وأسرع بشير إلى إعلان إنشاء «القوات اللبنانية» التي تضم جميع المقاتلين المسيحيين تحت أمرته[١٢].

داني شمعون هرب إلى أوروبا محملاً اسرائيل مسؤولية ما حلّ به ـ وفي محاولة لتقصير يد بشير، طلب منه استشارة كميل شمعون قبل الإقدام على أي عمل في المستقبل، أما بالنسبة لما تبقى من نمور الأحرار، فمنهم من عاد إلى حياته المدنية، فيما اختار الآخرون

(١٢) أحداث ٧ تموز ١٩٨٠، هي الأحداث المعروفة باسم أحداث الصفرا.

الانضمام تحت نواء الكتائب، وحذا حذوهم حرّاس الأرز بقيادة إتيان صقر و «التنظيم» بقيادة جورج عدوان اللذين أعلنا وضع قواتهما تحت أمرة القيادة الموحدة.

المفاجأة الكبرى، تجلت بغض نظر كميل شمعون، عمّا حلّ بابنه، البعض قال إنه فعل ذلك لاعتباره الشيخ بشير خليفته السياسي، أما البعض الآخر، فاعتبر هذا التقارب بين الرجلين ضرورة سياسية لا بد منها؛ ولكن الحقيقة هي أن بشيراً دفع لعائلة شمعون مليون دولار كتعويض عن الأضرار.

ومضت شهور، سيطر بشير خلالها على جميع المناطق المارونية، إن بالترغيب أو بالتهديد، وما كان على أخصامه السابقين إلا: إما الرحيل، وإما التزام الصمت، حتى شقيقه أمين، أجبر على التخلي عن كثير من مواقع نفوذه. بعض الاتجاهات داخل المخابرات الاسرائيلية، كانت ترتاب من تصرفات بشير وتشك في صدق نواياه، فهو يقول شيئاً ويضمر شيئاً آخر ويريد توريط اسرائيل بحرب مع سوريا إخفاء لضعف القوة العسكرية الكتائبية، ولكنه لم يلق آذاناً صاغية، حتى عند بيغن الذي كان ينظر إلى مسيحيي لبنان على أنهم أقلية مضطهدة. وبشكل لم يسبق له مثيل، أطبق بيغن أذنيه، دون سماع أنباء ما يرتكبه الكتائبيون من فظائع، فقد كان مسحوراً ببشير الذي كان يردّد على مسمعه: «كيف لي أن أرفض التعاون مع هكذا رجل جليل». لقد عرف بشير نقطة ضعف بيغن، واستغلها بذكاء، حتى استحصل منه مجدداً - كانون الأول ١٩٨٠ - على تعهد بحماية مسيحيي لبنان. وهذا ما حصل فعلاً، حين عادت الأجواء وتوترت في زحلة، إذ طلب بشير من بيغن تأمين مظلة جوية لسماء المنطقة في حال قيام الطيران السوري بمهاجمة مواقعه؛ وهكذا دفع بيغن العلاقات الاسرائيلية - المارونية إلى مستوى المصير المشترك، لأن موافقته تتخطى أبعاد وعوده بعدم السماح بإبادة الأقلية المسيحية بكثير؛ كما وتتخطى سياسة رابين القائلة: «بمساعدة المسيحيين ليساعدوا أنفسهم». وهكذا - أيضاً - تمكن بشير الجميل من جر رئيس وزراء اسرائيل إلى الالتزام بحماية المصالح المسيحية في لبنان؛ متعهداً بإبقاء هذا الالتزام سراً.

الفصل الثاني
التصميم

من غريب الصدف، أن يشهد شهر نيسان ١٩٨١، حدثين لا رابط بينهما، لكنهما أوضحا أن الحرب عائدة إلى لبنان وحملا رئيس الوزراء مناحيم بيغن ووزير زراعته آريل شارون، على انتهاج سياسة جديدة، وثّقت علاقة بيغن بالجميل وأقامت بينهما ميثاقاً - جرّ اسرائيل باتجاه الكارثة.

ففي حين كانت حدّة التوتر مرتفعة إلى أقصى الحدود، بين الكتائب والسوريين في زحلة؛ جاء وزير خارجية أميركا يحثّ حلفاء الولايات المتحدة الاميركية في المنطقة على إنشاء خط دفاع معادٍ للسوفيات[1]. في اسرائيل، بشّر هايغ بتغيير جذري في سياسة كارتر الشرق - أوسطية، وتحدث عن نظام الرئيس السوري حافظ أسد، بكلمات قاسية جداً، جعلت مضيفيه، يعتقدون أن الولايات المتحدة الأميركية عازمة على انتهاج سياسة صارمة بحق سوريا، باعتبارها الدولة الأكثر تعاطفاً مع السوفيات في المنطقة.

خلال وجوده، في اسرائيل، عقد هايغHaig اجتماعاً مغلقاً مع مناحيم بيغن، تبادل خلاله الطرفان الانطباعات، وكان بيغن دائم الترداد على مسمع هايغ: «لقد تعود بن غوريون على القول إن انتهجت سياسة تؤدي إلى الحرب، لمن الضروري أن يكون خلفك قوة عظمى». وبعد مغادرته اسرائيل، اعتقد الجميع ان اسرائيل ستتخذ موقفاً صارماً من سوريا.

في هذه الأثناء، كانت الأحداث الدموية تجتاح مدينة زحلة، والكتائب والسوريون يتبادلون القصف. القضية، كانت أبعد بكثير من قضية السيطرة على مدينة واحدة؛ دمشق كانت تخطط للمصالحة الوطنية في لبنان - في محاولة خفية لإعلان حكومة موالية لدمشق

(١) في الواقع أن زيارة الكسندر هايغ شملت، مصر - السعودية واسرائيل.

ووأد فكرة قيام تحالف مسيحي ـ اسرائيلي ـ وكانت تعي ان الانتخابات الرئاسية في لبنان هي على الأبواب ـ عام ١٩٨٢، وعليها العمل لإنجاح مرشحها ـ المعارض الدائم لآل الجميل ـ سليمان فرنجية. وانطلاقاً من إدراكه لهذا الأمر، قرر بشير الجميل التحرك بفعالية وبسرعة؛ والمشكلة، أنه لم يكن مطلق اليدين ليفعل ما يريد؛ فمنذ نيف وسنة، والاسرائيليون يرفضون اقتراحاً يقضي بتوجيه ضربة للسوريين والفلسطينيين تخرجهم من لبنان، مرة واحدة وإلى الأبد. الكتائب، تلقوا تعهدات عدة، نقلها ضباط صغار ـ بزيادة المساعدة، وبأن اسرائيل ستدعم القوات اللبنانية «ساعة الحاجة». غير أن بشيراً لم يعر اهتماماً لهذا الكلام، فهو يريد فعلاً لا قولاً، وحاول جاهداً زج اسرائيل في نزاع مع سوريا، وبشتى الأساليب.

حقل التجارب المفضل، لهكذا أفكار، كان زحلة، ثالث أكبر مدينة في لبنان التي يبلغ تعداد سكانها ما يقارب المئتي ألف نسمة جلّهم ينتمون إلى طائفة الروم الارثوذكس، وهي كذلك عاصمة وادي البقاع. والمنطقة التي تعتبرها سوريا منطقة حيوية للدفاع عن دمشق، ومستعدة لشهر سلاحها بوجه اسرائيل دفاعاً عنها. بشير، أبلغ الاسرائيليين، ان زحلة الحصن الكتائبي، محاصرة من قبل رجال الكوماندوس السوريين. وتنفيذاً للسيناريو الذي وضعه، أرسل ثمانين من رجاله، إلى المدينة، عبر منحدرات جبل صنين، ومن هناك وعبر طرق وحلية تسللوا إلى منطقة مسيحية غربي زحلة وقصفوا مركز القيادة السورية بالقرب من شتورة.

وقطف بشير ثمار استفزازاته في الأول من نيسان، حين أقدم عدد من الكتائبيين على مهاجمة مركز حراسة سوري على جسر البردوني يعتبر أهم مركز على طريق بيروت ـ دمشق، وهذا يعني، أنه فيما لو لم يكن الرئيس السوري راغباً بالقتال، فلا شك أنه سيفعل حين يعلم أن دبابتين سوريتين احترقتا، وعدداً من جنوده قد قتل. فاندفعت سرايا الكوماندوس باتجاه زحلة لمحاصرتها، فيما قوة أخرى؛ نقلت جواً بواسطة الطوافات، إلى قمم صنين الوعرة لقطع طرق الاتصال التي تربط المدينة بالمناطق المسيحية الأخرى؛ وكعادتهم، تصرف السوريون بوحشية، فأحرقوا الجثث، وصبّوا على المدينة حمم ونيران مدفعيتهم، وما اندفاعهم نحو «الغرفة الفرنسية» ـ المكان المحصن على قمة جبل صنين ـ إلا لإحكام السيطرة على كامل المناطق المسيحية من زحلة حتى جونيه. إنهم يريدون تلقين الكتائبيين درساً لا ينتسى؛ بالوقت ذاته كان حافظ أسد، يدرك أن ليس بمقدوره التصرف

بحرية، إذ عليه أن يأخذ موقف اسرائيل بعين الاعتبار. ولهذا صمم أن يفهم الاسرائيليين أنه لا يريد محاربتهم، لكنه يرفض التراجع في معركة زحلة؛ أمر جنوده بحفر قواعد لصواريخ سام ٦ في سهل البقاع، جنوبي زحلة، وتركها خالية، وكأنه يريد إبلاغ تل أبيب أن تركيز صواريخ سام ٦ المضادة للطيران قد يحدث خلال ساعات، لكنه يعتمد على مدى تحرككم؛ ووصلت الرسالة، إذ ليس من المعقول أن يكشف عدو لعدوه، الأماكن التي ينوي وضع أسلحته فيه، وتمكنت الاستخبارات الاسرائيلية من التقاط الرسالة قبل أسابيع من وضع الصواريخ.

حاصرت سوريا زحلة، أما كميل شمعون وبشير الجميل، فقد طلبا موعداً لمقابلة بيغن Begin، وليرددوا على مسمعه الاسطوانة المعهودة، مع تغيير بسيط هذه المرة. إذا سيطر السوريون على جبل صنين، فإنهم يسيطرون على جونيه والجبل ـ قلعة ـ الموارنة. ولكنهما لم يتطرقا إلى قول حافظ أسد «نفك الحصار حين يغادر الكتائبيون المدينة» الذي رفضه بشير رفضاً قاطعاً.

رئيس الاستخبارات الاسرائيلية، الميجر جنرال يشوع ساغيYehoshua Saguy ، رأى في اندلاع أحداث زحلة خدعة كتائبية لجر اسرائيل لحرب مع سوريا؛ والمعلوم أن ساغي كان معارضاً لأية ترتيبات مع الكتائب، ولطالما نقل مخاوفه هذه إلى رئيس الوزراء، الذي لم يعر كلامه أي اهتمام، لاقتناعه بحسن نواياهم. مستشار مناحيم بيغن لشؤون المخابرات ـ ورئيس الموساد ـ اسحاق هوفي، لم يكن يعتقد أن احداث زحلة هي مناورة كتائبية، لكنه في النهاية وقف إلى جانب ساغي. ومال إلى الاعتقاد أن بعضاً من كبار الضباط قد يكون تعهد للكتائب بحماية رؤوسهم في زحلة، وهذا ما أنكره رئيسه، رئيس الأركان ـ رفول إيتان.

وحين اجتمع مجلس الوزراء الاسرائيلي يوم الثامن والعشرين من نيسان لمناقشة مسألة زحلة، لم يكن أمامه سوى اقتراح واحد قدمه رئيس الأركان، رفول إيتان، ويقضي بقيام سلاح الجو الاسرائيلي بضرب طائرات الهليوكوبتر السورية التي تقصف مواقع الكتائب في جبل صنين. رئيس الاستخبارات العسكرية يشوع ساغي اعترض على اقتراح رئيس الأركان، معتبراً ان تحرك اسرائيل لفك الحصار عن زحلة، سيكون هجوماً اسرائيلياً ضد الجيش السوري فوق الأراضي اللبنانية، ومن يدري فقد تقدم سوريا على نشر صواريخ أرض ـ جو في لبنان. «والنتيجة هي أننا سنفقد حرية تحليق طيراننا في الأجواء اللبنانية،

الذي هو عامل مهم في جمع المعلومات». إيغال يادين، سيمحا ارليخ Simha Erlich ، نائبا رئيس الوزراء - وقفا إلى جانب ساغي، وكذلك فعل نائب وزير الدفاع موردخاي تسيبوري Mardechai Zippori الذي اعترض بشدة محذراً مجلس الوزراء من زج اسرائيل بهكذا حرب، استناداً إلى معلومات كاذبة. مناحيم بيغن، لم يكن راغباً في الحرب، وفي الوقت ذاته لم يكن يخشى المخاطرة، ويعد للقيام بعملية محدودة «لأننا لن نسمح أبداً بعملية الإبادة في لبنان». هذا كان رده على الاعتراضات؛ لقد أراد أن يبرهن للمسيحيين أنه رجل فعل لا قول، ويحذر سوريا من الاندفاع أكثر. ومن المشكوك فيه، أن يكون هو من أصدر الأمر بمهاجمة الطوافات السورية، فالشكوك - هنا - تتخذ اتجاهات عدة. مهما يكن. فمناحيم بيغن كان يرغب بحماية مسيحيي لبنان من الكارثة.

بعد موافقة مجلس الوزراء على القيام بعملية محدودة، خرج رفول إيتان ليصدر أوامره لسلاح الجو للاستعداد للمهمة. وأثناء غيابه تابع المجتمعون المناقشة، وتمكن ساغي Saguy من استمالة عدد من الوزراء غير المحسوبين من بين «الحمائم». كان النقاش ما يزال حامياً، حين عاد رفول إيتان ليبلغهم أن المهمة نفذت، وتم إسقاط طائرتي انقضاض مروحية سوريتين شمالي زحلة، فخيم الصمت على الجميع وعمّت الدهشة، فسلاح الجو نفّذ العملية بسرعة لم يكن يتوقعها الوزراء، أين المفر؟ لقد وضعوا تحت الأمر الواقع. وتبين فيما بعد أن هاتين الطوافتين كانتا تنقلان تمويناً للوحدات، وغير مزودتين بالأسلحة.

رد الرئيس السوري جاء سريعاً. فهو أيضاً يريد أن يثبت أنه رجل فعل لا رجل قول؛ وانتشرت صواريخ سام ٦ خلال ثمانية وأربعين ساعة في الحفر المعدة سلفاً لها، إضافة إلى قواعد جديدة نصبت بالقرب من الحدود السورية - اللبنانية (بعض هذه القواعد كانت بإشراف المستشارين السوفيات) وأحيطت دمشق بصواريخ أرض - أرض من نوع سكود Scud التي يمكنها تدمير أهداف داخل اسرائيل. وارتفع صوت بيغن مهدداً بتدميرها إذا لم تسحب من لبنان، وهذا ما رفضته دمشق. ومع ارتفاع حدة التوتر بين البلدين، تحول حصار زحلة إلى قضية ثانوية. أما بشير الجميل، فقد اعتقد أنه حقق هدفه وخلق الأزمة، لذا أمر رجاله بمغادرة المدينة والعودة إلى حيث انطلقوا.

مناحيم بيغن كان صادقاً في تهديده؛ وحدد بعد ظهر الثلاثين من نيسان موعداً لقيام سلاح الجو الاسرائيلي بمهمة تدمير الصواريخ في وادي البقاع؛ لكن حالة الطقس المتقلب - كما أفاد مركز الرصد الجوي التابع لسلاح الجو - حالت دون ذلك. وعند المساء أتى

السفير الاميركي صامويل لويس Samuel Lewis لمقابلة بيغن وتسليمه رسالة من واشنطن تعبر عن تفاؤل العاصمة الأميركية بإمكانية نزع الصواريخ بالطرق السلمية، وتفيد، ان الرئيس ريغان أوفد السفير فيليب حبيب ليناقش الأمر مع دمشق. خضع بيغن للأمر، رغم قناعته ان الوسيط لن يحقق شيئاً يذكر، وان فيليب حبيب سيغير في جوهر القضية.

ومرت عشرة أيام، وتلتها أخرى، والصواريخ ما زالت تلمع تحت أشعة شمس البقاع، الكوماندوس السوري سيطر على تلال صنين دون أن تصاب جونيه بأي مكروه، حتى أنه لم يكن في الأجواء ما يشير إلى تهجير الموارنة من جبل لبنان «المنيع»، إنما الذي يشغل بال بشير اليوم هو وجود الصواريخ السورية على الأرض اللبنانية، وكأنه يرمي الكرة في ملعب اسرائيل، كما توقع ساغي وحذّر منه.

بعد أربعة أسابيع، في ٢٨ أيار، أقدم مناحيم بيغن ورفول إيتان على اتخاذ قرار من شأنه جعل بلدهما أكثر قرباً من الحرب في لبنان، إنما هذه المرة دون تراجع. فمناحيم بيغن يخوض معركته الانتخابية، والصواريخ السورية ما تزال في مكانها، وما تزال ردات الفعل تتتالى على قصف المفاعل النووي في العراق قبل أحد عشر يوماً، وها هو اليوم يوافق على طلب رئيس الأركان إعادة قصف مواقع منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان. الهدف الآني لهذه العمليات، سياسي، أما الهدف البعيد المدى فكان رفع حالة التوتر حتى حدود الحرب التي كان إيتان يعتقد أنه لا بد من تكرارها كل نصف عام على الأكثر. واصلت اسرائيل قصفها براً وبحراً حتى الثالث من حزيران، ولكن الفلسطينيين، لم يردوا بعنف، إدراكاً منهم ان أي رد عنيف، سيعتبر بمثابة استفزاز قد تتخذه اسرائيل ذريعة للقيام بعملية اجتياح، ومخاوف الفلسطينيين هذه، كانت في محلها.

بعد استراحة دامت ستة أسابيع، وفي العاشر من تموز، عاود سلاح الجو الاسرائيلي قصف مواقع الفلسطينيين في جنوب لبنان. وكان رد منظمة التحرير الفلسطينية، بعد خمسة أيام، موجعاً جداً، فقد قصف الفلسطينيون منتجع نهاريا على شاطىء البحر الأبيض المتوسط. اسرائيل درست كافة الاحتمالات الممكنة. ساغي اقترح سلسلة ضربات ضد أهداف عسكرية، لكن إيتان أراد الذهاب أبعد من ذلك، إلى مركز القيادة لمنظمتين تخريبيتين: فتح والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين؛ وكلاهما يقعان في منطقة سكنية تعج بالناس تسمى «المثلث الفلسطيني» وتضم الفاكهاني - صبرا وشاتيلا، في غربي بيروت فكرة إيتان لم ترق للميجر جنرال دافيد ايفري David Ivri ، لكنه اضطر إلى تنفيذها بعد

موافقة مجلس الوزراء عليها. نتائج الغارة كانت مئة قتيل وستماية جريح، ثلاثون من القتلى فقط كانوا من الفدائيين حسب تقديرات اسرائيل. ورغم أن منظمة التحرير الفلسطينية، كانت تدرك أنها لا تمتلك الأسلحة المناسبة للرد على هذه الغارة، فقد قررت فعل أقصى ما يمكن أن تفعله، فصبت حمم عشرين مدفع ميدان وصواريخ الكاتيوشا المتطورة على المنطقة الداخلية في اسرائيل انطلاقاً من نهاريا على الشاطىء حتى كريات شمونة في الجليل الأعلى؛ ستة قتلى فقط وتسعة وخمسون جريحاً. أية نسبة هي هذه؟ لا شيء يذكر بالنسبة لما وقع في بيروت، ورغم هذا، قرر جيش الدفاع الاسرائيلي، زرع المنطقة الحدودية، مدناً وقرى بالنار والخراب والموات، ١٢٣٠ قذيفة مدفع ميدان، جعلت الحياة في تلك المنطقة جحيماً لا يطاق؛ وتحاشياً، لردات الفعل الفلسطينية، أعلنت حالة الطوارىء في الجليل، أغلقت المدارس، وجهزت الملاجىء في كريات شمونة لتستقبل المواطنين لأيام، وشلّت الحركة الصناعية، وتولى جيش الدفاع الاسرائيلي توزيع الخبز على المنازل والملاجىء. استمر هذا التراشق المدفعي أكثر من عشرة أيام، لم يتمكن جيش الدفاع الاسرائيلي، خلالها، مع ما يمتلكه من أسلحة تدميرية، من إسكات مدفعية الفلسطينيين التي تسببت بجعل أربعين بالمئة من سكان كريات شمونة يغادرونها إلى أماكن أكثر أمناً واستقراراً، هذا لا يعني أن الباقين كانوا في وضع نفسي جيد.

اثنتا عشر يوماً من تبادل القصف المدفعي، أثبتت أنه ليس بإمكان اسرائيل القضاء ـ أو حتى إسكات ـ على الفدائيين، وقد يكون هذا الإثبات، وراء ليونة مناحيم بيغن لدى استقباله فيليب حبيب يوم الرابع والعشرين من تموز وتباحث معه حول إعلان هدنة. في الواقع أن فيليب حبيب ومساعديه، كانوا يتوقعون جلسات حامية مع مناحيم بيغن، لكنهم فوجئوا به وهو يناقشهم بهدوء وسكينة.

إيتان وساغي، تناقشوا مع عدد من الوزراء، قبيل انعقادهم في جلسة رسمية، بشأن المفاوضات حول وقف إطلاق النار، معتبرين أنها قد تفقد اسرائيل حرية اتخاذ القرار لإنزال العقاب بالإرهابيين الذين قد يتجرأون ويقصفون مناطق حدودية أخرى. لكن إيتان وساغي وجدا أنفسهما في وادٍ والوزراء في وادٍ آخر؛ فهؤلاء الأخيرون الذين كانوا متحمسين أثناء أزمة الصواريخ السورية، وقصف المفاعل النووي في العراق، تراهم اليوم مأخوذين بما حدث بالجليل، وهكذا، أثناء الجلسة الرسمية، لم يعيروا أي اهتمام لاقتراحات العسكريين، بل طالبوا بإسكات المدافع فوراً.

الفريق الاسرائيلي المفاوض ألح على ضرورة تجميد الوضع في جنوب لبنان، وعدم السماح لمنظمة التحرير الفلسطينية بإدخال أسلحة جديدة إليه، مستغلة فترة الهدنة. بالاختصار، ان الموافقة على وقف إطلاق النار لم تكن هي المطلب، إذ أن وقف إطلاق النار، يحمل بين طياته بذور الحرب. في المقابل، الفلسطينيون، وجدوا أنفسهم غير معنيين بالأمر طالما أن أحداً، لم يناقشهم بالأمر، أضف إلى ذلك، أنهم يرغبون بتقوية مواقعهم، وكيف يكون ذلك طالما أن إدخال مدفع إلى جنوبي لبنان سيتسبب بقيامة القيامة في اسرائيل، حتى ولو ظل هذا المدفع أخرس إلى الأبد. وهذا ما دفع اسرائيل إلى الاعتقاد ان الثمانية وستين مستوطنة في الجليل، ستبقى تحت رحمة مزاجية الإرهابيين خارج الحدود.

مناحيم بيغن، إيماناً منه أنه لا بد من شن حرب ضد منظمة التحرير الفلسطينية، وهو نفسياً متعطش لها، وافق على وقف إطلاق النار دون أية ضمانات مسبقة. وإذا كان قبل ثلاثة أشهر، على استعداد لتجربة «ذراعه الطويلة» بقصف السوريين المحاصرين مدينة زحلة، فإنه اليوم، بعد تبادل التراشق المدفعي في تموز ١٩٨١، صار مقتنعاً، انه لم يعد أمام اسرائيل سوى خيار تصعيد حالة التوتر في جنوبي لبنان، والقيام بحملة عسكرية تخرج الإرهابيين الفلسطينيين منه مرة واحدة وإلى الأبد. لم يفكر ببيروت كهدف، لكنه كان يفكر بتدمير منظمة التحرير كلياً ـ قادة ومستشارين ومؤسسات.

أريل شارون، الذي تولى حقيبة وزارة الدفاع في حكومة بيغن الثانية، لم يكن يعلم شيئاً مما يدور في رأس بيغن ـ مناحيم بيغن تولى حقيبة الدفاع على أثر استقالة عزرا وايزمان في شهر أيار ١٩٨٠ ـ. شارون كان يعتقد أن عليه الانتظار قليلاً للتمكن من شؤون وزارته؛ لذا اقترح على مناحيم بيغن ورفول إيتان ضرورة تأجيل العملية العسكرية الشاملة في لبنان، ليتولى الإعداد لها شخصياً. والجدير بالذكر أن قرار مناحيم بيغن بتعيين شارون وزيراً للدفاع، يعتبر تغييراً جذرياً في تفكيره السياسي. والحقيقة أن شارون، الديناميكي الطموح كان راغباً في تولي هذا المنصب في حكومة بيغن الأولى التي ألفت صيف ١٩٧٧. ولكن مستشاري رئيس الوزراء، ارتأوا عدم الاستجابة لرغبات شارون، خوفاً من تطلعاته المستقبلية؛ ولم لا، فهو بعد أن أقدم وايزمان على تقديم استقالته، أعرب علناً عن رغبته في الحلول مكانه، معتبراً نفسه أفضل من غيره. إنما بيغن رأى أن يتحمل المسؤولية بنفسه، هذا كان عام ١٩٨٠، بينما في صيف ١٩٨١، تبدلت الأجواء، وتبدلت معها مفاهيم رئيس الوزراء، فخلال الأشهر الثلاثة الأخيرة ربح ثلاث جولات ـ مع سوريا، قصف

المفاعل الذري في العراق وفوز حزبه على حزب العمل في الانتخابات ـ كل هذه لا تكفي، فبيغن ما يزال راكباً رأسه وراكضاً وراء أهوائه، إنه إنسان مولع بالقتال، من هذا المنطلق، لم يكن هناك غير المشاكس أريل شارون. وعلى كل حال، فانتخابات عام ١٩٨١ لعبت دوراً كبيراً في دعوة مناحيم بيغن لأريل شارون لاستلام حقيبة وزارة الدفاع.

قرار بيغن هذا، اعتبر تخلياً عن مفاهيم حكومته السابقة التي فاوضت مصر من أجل السلام، كما ويعتبر إشعاراً بالسياسة الجديدة التي ستتبعها حكومته الثانية والتي ستقرر الحرب في لبنان. في حكومته الأولى، كان العسكريون الثلاثة ـ دايان ـ وايزمان ـ ويادين ـ يحذرون من مغبة التورط في حرب في لبنان، ويفضلون نجاح مفاوضات مع مصر، أما في حكومته الثانية، فأريل شارون هو النقيض لسابقيه؛ فمنذ توليه حقيبة وزارة الدفاع، أوائل شهر آب ١٩٨١، سعى جاهداً، لإلغاء المفاهيم التقليدية التي تحول دون اتخاذ الحكومة للقرارات المتطرفة، هذه المفاهيم، كان يتحلى بها العسكريون ذوو الخبرة، الذين لا يقدمون على عمل ما، إلا بعد قياس معدل الربح والخسارة؛ وهذا ما كانت تفتقر إليه حكومة بيغن الثانية. في الحكومات السابقة، كان هناك وزراء، ملمون ـ ولو نوعاً ما ـ بالمسائل الدفاعية؛ مما يساعد على خلق توازن في اتخاذ القرار، أما حكومة بيغن الحالية، فتضم، ولأول مرة في تاريخ البلاد، مجموعة رموز، على رأسهم وزيرا الخارجية والدفاع. يجسدون تطلعات «الصقور» وهما على استعداد لإستعمال القوة الاسرائيلية من أجل أهداف، تتخطى الضروريات الأمنية للبلاد. شارون، زيّن لبيغن فكرة، لم يكن يفكر فيها سابقاً ـ الحرب في لبنان ـ.

الحرب في لبنان التي وضع شارون استراتيجيتها، هي نتاج حتمي لحكومة تنتظر اقتناص الفرص، «لفعل الحرب»؛ فرصٍ لم تكن حكومة بيغن السابقة تقتنصها.

ولربما ـ هذا ما دعا بيغن لتسليم خمسة «صقور» مقاليد الشؤون الدفاعية والخارجية في حكومته الثانية. بيغن أو الصقر الأول، ينظر إلى منظمة التحرير الفلسطينية نظرته للنازية، وقادتها لا يقلون نازية عن هتلر، لذا هو متعطش للقضاء عليهم، حتى أنه في أواخر عام ١٩٨١، وأثناء زيارة للولايات المتحدة الأميركية، استدعى إلى مقر إقامته في فندق والدورف ـ استوريا، أحد كبار ضباطه وطلب منه القبض على ياسر عرفات «حتى ولو كان في بطن أمه».

بعد بيغن يأتي شارون، عنيد، مشاكس، متعطش للظهور بمظهر الرجل القوي ـ بالحري الأقوى ـ لذا، لن يتوانى عن اعتبار جيش الدفاع الاسرائيلي أداة لتحقيق طموحاته هذه، كما وأنه على استعداد كلي وتام لتسخير مصالح أمته للوصول إلى هدفه.

وزارة الخارجية، سلّمت لاسحق شامير، الذي يعتبر أول وزير خارجية بتاريخ اسرائيل لا يعترف بالفصل بين السياسة والحرب. وطني مهووس، مولع بالقتال، ليس لكلمة «تسوية» في قاموس حياته وجود، متطرف.

أما رفول إيتان، رئيس الأركان، الجندي الكلاسيكي، فيعتبر نفسه رجل بلاده التي ما تزال تخوض معركة الاستقلال. العرب في نظره شعب دموي يرغب بالقضاء على اليهود حتى آخر واحد منهم. لا عجب في ذلك، لأنه حقود.

بعد فترة ليست بقصيرة، انضم إلى هؤلاء، موشي أرينز أو الصقر الخامس، الذي عيّن سفيراً لبلاده في واشنطن. ومتى؟ أثناء مرحلة الاعداد للحرب في لبنان. قبل أرينز كانت مهمة السفراء الاسرائيليين لدى واشنطن، مهمة أي ديبلوماسي آخر، إنما مع أرينز اختلفت المفاهيم وتبدلت. إنه آتٍ لإقناع الإدارة الأميركية، ان الحرب في لبنان أمر لا مفر منه، إضافة إلى ما تقدم، هناك جامع مشترك بينه وبين شارون ـ الخيارات العسكرية ـ.

خمسة صقور، يكمل واحدهم الآخر. لا يعيرون اهتماماً لشيء، حتى لآراء مستشاريهم. شارون لم يكن العسكري الأوحد في هذه الحكومة. فهناك موردخاي تسيبوري الجنرال المتقاعد، ونائب عزرا وايزمان ومناحيم بيغن في الحكومة السابقة. تسيبوري، كان دائم التشكي من تصرفات رجال إيتان على الحدود الشمالية، الذين يتصرفون دون الرجوع إلى رؤسائهم وقد يتسببون في حرب مع سوريا، كان يشبّه نفسه بـ «لبول دوغ» وبالفعل فقد كان واحداً من اثنين مهمتها في الوزارة، تشبه مهمة كلاب الحراسة. لا يخشى أحداً، يقول ما يريد، وهذا ما كان يثير حقد شارون عليه، الذي حال دون تعيينه وزيراً في حكومة بيغن الثانية. لماذا؟ لأنه يعارض فكرة الحرب.

تعيين شارون وزيراً للدفاع، أحدث خللاً في ميزان القوى، داخل الوزارة لمصلحة الصقور، وانعكس سلباً على رئاسة الأركان الممثلة برفول إيتان، الذي صار معزولاً عن وزيره وصلاحياته تتقلص شيئاً فشيئاً. شارون لا يثق به كثيراً، لذا أحاط نفسه ـ سرياً ـ بعدد من الضباط كمعاونين ومساعدين له في مكتبه الذي تحوّل إلى ديوان بيزنطي. ووصل

في تماديه إلى حدود اتهام كبار الضباط، انهم منساقون جداً وراء الذين يعارضون الاتصال بالمسؤولين الأميركيين.

منذ يومه الأول في وزارة الدفاع، حصر المراسلات العسكرية به شخصياً، وأبعد الصحافة وعيونها عن تحركاته، بأسلوب فظ أحياناً، ولكنه فشل في ذلك، لأن فضول الصحافة تضاعف وتنامى: على الصعيدين الداخلي والخارجي، حتى اعتقد البعض أن المواجهة بينه وبينها لا محالة واقعة. لقد حاول مرتين منع الصحافة من تغطية أخبار مهمة: الأولى في شباط ١٩٨٢، حين فرض حصاراً على الدروز المضربين في هضبة الجولان، والثانية في نيسان، حين رفض أهالي مستعمرة يميت في سيناء اخلاءها (حين ثارت ثائرة محرّري الصحف المحلية، فتظاهروا ضد تصرفاته ووحشيته). في الواقع، كان يهدف إلى تغيير مفاهيم كثيرة في نمط السياسة الاسرائيلية، إلا أن الصحافة، كانت آخر من يدافع عنه، وعن عناده المتحدي للديمقراطية الاسرائيلية.

سيناريو الحرب في لبنان، لم يكتب دفعة واحدة. على العكس، كان شارون ـ في بداية عهده بوزارة الدفاع ـ يعلن «ان الحرب مضرة باسرائيل» وبأنها لن تكون البادئة في أية حرب. لا شك إن سرية المخططات الدفاعية تجعل الإنسان يردّد ما يريد.

في البدء، أبدى اهتماماً بتغيير النظام السياسي في لبنان، لكنه ما لبث، وصرف النظر عن اهتمامه بجنوبي لبنان وأمن الجليل، وحتى لوضع حلول لمسألة الإرهاب الفلسطيني عبر الحدود. في أيلول ١٩٨١، وحين قدم فيليب حبيب اقتراحاً يقضي بسحب منظمة التحرير أسلحتها الثقيلة من جنوب لبنان، مقابل عدم قيام سلاح الجو الاسرائيلي بالطيران المنخفض فوق المنطقة، وسحب جنود جيش الدفاع الاسرائيلي من المنطقة الخاضعة لسلطة سعد حدّاد، حينذاك، اعترض شارون، وقدم اقتراحاً يقضي بانسحاب الفلسطينيين والسوريين من بيروت ولبنان الشمالي، وكان يتحدث عن لبنان ـ انطلاقاً من سياسة حزب حيروت عضو التكتل ليكود، غير المعلنة ـ يعلن أن لبنان هو على رأس اهتمامات اسرائيل بالنسبة للشأن القومي، «هدف اسرائيل رؤية لبنان بلداً مستقلاً، دولة تعيش معنا بسلام وعضواً فعالاً في مجموعة العالم الحر، قادراً على حل مشكلة تواجد السوريين على أرضه». مختصر هذا القول، الرغبة في وجود حكومة لبنانية توقع اتفاق سلام مع اسرائيل «كل شيء قابل للعودة إلى ما كان عليه، وهكذا حكومة لن يتم تشكيلها طالما أن المخربين يحتلون جنوبي لبنان وثلثي مدينة بيروت، والسوريين يسيطرون على ما تبقى. بكلمة

مختصرة، يصعب التعامل مع هكذا حكومة، دون الأخذ بعين الاعتبار الموقف السوري».

انها صرخة تعبير عن الخوف المتفشي في الجليل.

كان يشرح للوزراء مخططه بوضوح وبساطة مبيناً ان ما يقدمه مبني على اتفاق مناحيم بيغن ـ بشير الجميل. إنه يتكلم عن الحرب وكأنه يتكلم عن حفلة رقص:

«إني أحدثكم عن فعل كفيل بتدمير [المنظمة التخريبية] في لبنان بشكل يستحيل عليها بعده إعادة تأهيل قواعدها العسكرية أو تنظيم أسسها السياسية. من الصعوبة بمكان الإقدام على هكذا عمل دون أخذ الحذر والحيطة من السوريين. السؤال، هو كيف [الاستفادة] يمكننا تجميد الوضع على حاله، لأنه ليس أسوأ من الاستمرار في العمليات العسكرية ضد كريات شمونة حاضراً ومستقبلاً. من الصعب جداً إيجاد حكومة شرعية في لبنان ـ وليس دمية ـ توقع اتفاقية سلام معنا، وتكون جزءاً من العالم الحر. من أجل تحقيق هذا الهدف، يجب توفير ستة وستين نائباً من أصل عدد النواب في المجلس النيابي، والبالغ عددهم تسعة وتسعون، ولائحة بأسماء النواب الراغبين بذلك. كل هذه المتطلبات، تنتظر الساعة المناسبة».

فيما مضى، في تشرين الأول ١٩٨١، أخبر رئيس الأركان «حين أتكلم عن تدمير الارهاب، فإني أكون أعني سلفاً ان هذه العملية ستصل إلى بيروت». بعد انتهاء هكذا مكالمة، دق جرس الهاتف في مكتب أحد مساعدي بيغن «شارون يتكلم عن حرب من بيت إلى بيت في بيروت».

واضح جداً، ان شارون كان يهدف من حربه إقامة «نظام سياسي جديد» في لبنان، وانه ـ من أجل تحقيق هذا ـ لن يتوانى عن إصدار أوامره للجيش الاسرائيلي، للتدخل في الانتخابات اللبنانية. جوهر مخططه الكبير لم يكن معروفاً من الوزراء، أو من رئاسة الأركان، لا قبل الحرب ولا حتى حين انفجارها. في الأساس، كلهم متفقون، على ضرورة تدمير منظمة التحرير الفلسطينية وإخراجها من لبنان، ومقتنعون ان مجيء بشير الجميل كرئيس للجمهورية يحول دون عودتها إلى لبنان؛ ولضمان عدم وجود أي تأثير للسوريين، يجب أن يخرجوا ـ هم أيضاً. وهذا يقتضي دعماً قوياً من أقوى حلفاء اسرائيل ـ الولايات المتحدة الأميركية ـ بإدارة ريغان وبالأخص وزير الخارجية، الذي أكد أثناء زيارته الأخيرة ـ نيسان ـ لاسرائيل ان لبنان يعتبر مصلحة حيوية لكلا البلدين. وعلى رأس قائمة الاهتمامات طرد منظمة التحرير الفلسطينية ـ من بيروت خصوصاً ـ حيث مركزها

الأساسي وجميع مؤسساتها. وهذا يتطلب اللحاق بالفلسطينيين حتى أوكارهم. يجب إجبار قائد منظمة التحرير على التقوقع ضمن قفص حديدي في دمشق، دون أن يكون له أية حرية في التعبير، وهكذا يفقد تأثيره على فلسطينيي الضفة الغربية، مفسحاً المجال أمام قيادات محلية قابلة للتفاوض مع اسرائيل من أجل إقامة حكم ذاتي للسكان في الأراضي المحتلة، تحت الحكم الاسرائيلي. وفي مثل هذه الظروف، لن يكون أمام الفلسطينيين من خيار، سوى البحث عن متنفس لطموحاتهم السياسية، في الأردن. وحسب تقديرات شارون ـ كما أوضح لمساعديه ـ ان ضربة ناجحة في لبنان، ستؤكد تفوق اسرائيل لثلاثين سنة قادمة، تكون خلالها تنفذ ما تريد.

هذه، باختصار، هي استراتيجية أريل شارون؛ وهو على استعداد لإحداث تغيير في مفهوم «النظام الأمني» المعمول به في اسرائيل من أجل تحقيقها؛ ذلك لأن جيش الدفاع الاسرائيلي مكلف بالدفاع عن اسرائيل، وليس من أجل تعيين حكومة في بلد مجاور. والغريب في الأمر، أنه ـ أي شارون ـ وحتى بيغن نفسه، شامير وإيتان، كانوا مقتنعين بالخطة، وكأنهم يعيشون في الفراغ، أو كأنهم لا يفقهون شيئاً بالسياسة، غافلين، عما يمكن أن يصيب الأمة من صدعٍ، تفوق أضراره أية أضرار قد تلحق بمنظمة التحرير الفلسطينية. ودون أن يزعجوا أنفسهم بالتفكير، ان هكذا استراتيجية قد تتسبب بانفصام اليهود في أرض الميعاد. إنهم مسيطرون على قوة هائلة، بنيت خلال سنوات طويلة، وهذا ما أسكرهم وأفسد تفكيرهم. فما عسى النتيجة تكون؟ حماقة لا تغتفر.

بين استلام شارون لوزارة الدفاع، وزحف عشرات ألوف الجنود الاسرائيليين عبر الحدود اللبنانية، عشرة أشهر فقط؛ كان خلالها يخطط لتوريط بلاده في الحرب، منتظراً الساعة المناسبة، لتحقيق مخططه الكبير الذي لن تأتي ساعته أبداً.

الفصل الثالث

ارتخاء المفاصل

المشكلة الأهم في مسيرة اسرائيل نحو الحرب، منذ آب ١٩٨١ حتى حزيران ١٩٨٢، كانت في تزوير الحقائق. شهراً بعد شهر كانت تتردّد معطيات، تثبت أن خطة شارون لإعادة تنظيم الشرق الأوسط سياسياً، مبنية على الوهم. وكل هذه المعطيات كانت ترد إما عبر تقارير ضباط الجيش، أو من خلال عرضها مباشرة أمام شارون وإيتان، لكنها لم تجد من يأخذ بها، ولا يمكن اتهام مجلس الوزراء بعدم الأخذ بها، لعدم اطلاعه عليها.

اختار شارون الميجر جنرال أمير دروري وعيّنه قائداً للجبهة الشمالية ـ أيلول ١٩٨١ ـ ليكون المساهم الأكبر في تنفيذ خطته. دروري، السكوت، المجتهد، لم يكن مولعاً بالحرب، لكنه منذ استلم مركزه الجديد، أصدر أوامره لهيئة أركانه بالاستعداد لعملية «الصنوبرة الصغيرة» التي تقضي باحتلال جنوبي لبنان حتى مقربة من صيدا، ومن ثم مراجعة عملية «الصنوبرة الكبيرة» التي تقول بالوصول إلى أبعد من طريق بيروت ـ دمشق. وانطلاقاً من توقعه عقبات سياسية، طلب دروري من رجاله التنبه إلى احتمال حدوث أمرين: الأول أن تكون البداية فعّالة، وأن يشارك فيها الكل بتعاون. والثاني، هناك فصائل قد تتحرك فيما بعد؛ اقتناعاً منه ان العملية قد تتطور، تبعاً لنجاحها، وقد يتم التحرك، أبعد وأبعد في لبنان، ضمن المغامرة المحدّدة بداية ونهاية.

خلال تشرين الثاني، أعلن بشير الجميل ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية إنه حدث سياسي له مدلولاته ومغازيه، فانتخابات رئاسة الجمهورية ستجري في الصيف، وبشير يدرك ان حظّه بالفوز ضئيل جداً، ولا يقدر بالفوز على سليمان فرنجية، شمعون أو سركيس، بدون تدخل اسرائيلي مباشر، ـ وهذا ما كان حتى حينه مجهولاً ـ فبعد أن كان بشير يتوسل قادة اسرائيل لإرسال مشاتها إلى لبنان، دون جدوى، أرسل أريل شارون من يخبر بشير الجميل أن عليه الاستعداد لحرب كاملة بمشاركة الجنود الاسرائيليين، إنما دون

تحديد ساعة الصفر، مع لفت النظر إلى أن هذه الحرب، قد تحدث قريباً، وقريباً جداً، وهكذا فهم بشير أن مجلس الوزراء الاسرائيلي مطّلع على مضمون الرسالة.

سؤال يتيم، كان يراود فكر الفريق الاسرائيلي المطّلع على خطة الحرب ومرماها «إلى متى سيبقى جيش الدفاع الاسرائيلي في لبنان، حتى يتمكن بشير الجميل من بناء نظامه؟» «ستة أسابيع» هذا ما أجاب به شارون مساعديه. رئيس جهاز الاستخبارات، ساغي، هزّ رأسه وقال: «ليس أقل من ثلاثة أشهر بيوم واحد». ان كلاً منهما يدافع عن رأيه بحرارة، بناء على ما يتصوّره. إنما هناك، اسرائيليون آخرون، يرون أن على بشير الجميل، الوفاء بوعوده والمشاركة في الحرب إلى جانب جيش الدفاع الاسرائيلي كشريك كامل، لكن الوضع السائد، جعل هكذا! كلاماً، يتسم باللامنطقية. بسبب إنكار بشير لهذه الوعود. لقد صار ناضجاً كفاية، ومنذ إعلان ترشيحه لرئاسة الجمهورية، شرع يتصرف كرجل دولة، وهكذا بقي السؤال هل يفي بوعوده أم لا؟ دون جواب.

الرجل الوحيد الذي كان يعيش التناقض، بين الأفعال والتمنيات، هو أمير درووري؛ الجندي المحترف المعروف ببعد نظره، وجزمه في الأحكام؛ أثناء زياراته للبنان لم يكن - كغيره - ينخدع بالسلامات الحارة والعناق والتأهيل؛ فهو ليس بعيداً عن أجواء الاتصالات الاسرائيلية - الكتائبية، فقد سبق له وأشرف على إمداد الكتائب بالسلاح والمعدات، يوم كان رئيساً لقسم العمليات في رئاسة الأركان، أواخر السبعينات. وفي الوقت الذي كان شارون فيه، يطلب من بشير الجميل الاستعداد للحرب، كان درووري يطلع مساعديه - وهذا ما قاله لهيئة الأركان لاحقاً - انه «غير معني بالاعتماد على المسيحيين، فهم غير مؤهلين عسكرياً، وقدراتهم الدفاعية محدودة، ولا يمكنهم المشاركة في حرب متحركة. إنها مهمتنا وعلينا الاعتماد على أنفسنا» ولكن إيتان، وضع ملاحظات درووري بالدرج، وهذا ما أفسح المجال أمام الاستمرار بالاستعداد للحرب.

بعد شهر، خلال كانون الأول ١٩٨١ - حصل تغيير مهم، جيش الدفاع الاسرائيلي، أمر بتعزيز تواجده على طول الحدود السورية واللبنانية، السبب المعلن كان ردع أية محاولة سورية للرد على قرار ضم هضبة الجولان. لكن تعزيز القوى بهذا الشكل، عملية تضليل مكشوفة، وكان الهدف منه واضحاً، عملية ما في لبنان، وهكذا بدا، أنه منذ كانون الأول وجيش الدفاع الاسرائيلي يستعد للخطة التي وصفها درووري بالبداية والنهاية.

ومنعاً للفت النظر، بدأت الاستعدادات لضم هضبة الجولان، وهذا ما أعاد واشنطن إلى

المنطقة، اهتماماً، بعد انشغالها بالأزمة البولندية؛ فأعلنت وقف شحن الأسلحة إلى اسرائيل، وجمدت العمل بوثيقة التفاهم الاستراتيجي التي وقعت مؤخراً من قبل وزيري الدفاع الاسرائيلي والأميركي، أريل شارون وغاسبار واينبرغر؛ وهذا ما دفع ببيغن إلى الغضب، وإبلاغ السفير الأميركي صمويل لويس، بأسلوب فظ، ضرورة إبلاغ حكومته ان اسرائيل ليست «جمهورية موز» حتى تعامل بهذه الطريقة الفوقية - كما فعلت حكومة الولايات المتحدة، بسبب ضم هضبة الجولان.

هذه المحادثة، تمت في منزل رئيس الوزراء مناحيم بيغن الذي كان نائماً في فراشه بسبب إصابته بكسر في وركه، وهو في هذه الحال دعا بيغن مجلس الوزراء للانعقاد في منزله واطلاعه على الخطة الأشمل للعملية العسكرية في لبنان «الصنوبرة الكبيرة». وليطلعهم أيضاً على ما جرى بينه وبين السفير الأميركي يوم ٢٠ كانون الأول، وليذكرهم أن عملية ضم الجولان، أحدثت تغييراً مهماً، وأكد لهم أنه لدى الجيش خطة جاهزة للتنفيذ في حال حدوث ما يستوجب التنفيذ.

محذراً «إن شيئاً قد يحدث فجأة». من أجل هذا دعا وزرائه، لوضعهم في أجواء ترقب وانتظار لما قد يحدث ساعة الحاجة.

شارون، أخذ على عاتقه مهمة الحديث عن عملية «الصنوبرة الكبيرة» «هدفنا في لبنان، ليست سوريا. إذا أقدم السوريون على شيء، سنرد عليهم في لبنان ونحل المشكلة». معظم الوزراء، أصيبوا بالإندهاش، إذ لم يخطر ببالهم انهم مدعوون للموافقة على خطة حرب لاجتياح لبنان. قبل أسبوع ليس أكثر. صدموا لطلب رئيس الوزراء الموافقة على ضم هضبة الجولان، واليوم يطلب منهم الموافقة على خطة حرب، لم يتصوروا انها موجودة فعلاً. أمامهم وضع شارون خارطة، عليها سهم أسود، يشير إلى طريق بيروت - دمشق، مؤكداً لهم أنه حين يتحدث عن بيروت، فانه يعني طريق بيروت - دمشق وليس العاصمة اللبنانية. وإذا أراد المسيحيون تحرير بيروت، فعليهم فعل ذلك بأنفسهم، أما جيش الدفاع الاسرائيلي فسيحتفظ بعدد من المشاة في جونيه شمالي بيروت.

شروحات شارون، هدفت إلى تخفيف الصدمة، ولكن الوزراء فوجئوا ثانية، وركزوا انتباههم، على طلب رئيس الوزراء الموافقة على الخطة.

يوسف بورغ، وزير الداخلية والشؤون الدينية تساءل بصوت غير المصدق لما يسمع «وهل من الواجب التقرير الآن، وحالاً؟». وبهدوء أجاب بيغن «نعم... انه لأمر

ضروري، لأن الخطة قد توضع قيد التنفيذ في أية لحظة». واعترض بورغ على هذا الأسلوب، وما نفع الاعتراض؟ وشارك بورغ، في اعتراضه وزيرا الحزب الليبرالي، فأسرع بيغن للقول أنه تسرع وأن لا أمل في الموافقة. «أنا أدرك ما يدور في رؤوسكم وأعرف أنه لا مجال لمتابعة البحث» هذه كانت نهاية جلسة مجلس الوزراء في بيت بيغن.

وهكذا انقلبت «الصنوبرة الكبيرة» إلى خيبة أمل مرة عند شارون، لكنه لم ييأس، وبدّل أسلوبه بالتعامل مع الوزراء. لم تعد هناك أية تقارير عن الاتصالات بالكتائب. وبدلاً من الجلوس حول طاولة مستديرة والاستماع إلى الآراء، شرع شارون، يجرع مجلس الوزراء خطة الحرب، كجرعات الدواء، حبة حبة، نائلاً الموافقة على ما تجب الموافقة عليه. بدأ شارون يتصرف بحذر، يهدم كل العوائق من أمام الخطة. وتم له ما أراد، وتمكن من إخماد معارضة مجلس الوزراء، ونال الموافقة.

خلال الأسبوع الثاني من كانون الثاني، قام شارون نفسه، محاطاً بعدد كبير المساعدين العسكريين والمدنيين، بزيارة بيروت. حيث تجوّل فيها بحراسة بشير الجميل الذي أكرم ضيفه واحترمه. ومن شرفة الطابق السابع عشر لإحدى البنايات، أشرف شارون وحاشيته على المدينة، وهناك أكد أن أية عملية عسكرية ضد منظمة التحرير الفلسطينية، سيكون هدفها إخراج المنظمة من بيروت. لم يكن غامضاً، ووضع كل ثقله في شرح خطة «الصنوبر». إنها المرة الأولى التي يخرج فيها شارون من تفكيره وينجذب برؤية بيروت، التي كان يشوع ساغي المعارض الوحيد له في رغبته باحتلالها.

«علينا ألا نذهب إلى بيروت، فلن ننال سوى الوحل» قال ساغي بهدوء إنما بثبات. وتابع يقول: «هذه عاصمة في قلب العالم العربي، ولم يسبق أن دخلنا عاصمة عربية، من قبل. إنها مدينة السفارات، وسنجد أنفسنا في مواجهة مع الولايات المتحدة» رأي ساغي حول لبنان معروف في المؤسسة العسكرية. أما اليوم، فنستشف نبرة تحذير حادة في صوت رئيس الاستخبارات، الذي أراد شارون أن يتبع معه تكتيك المراوغة «قد تكون على حق... سنترك الكتائبيين يحتلون بيروت، لن ندخلها مطلقاً، ولماذا لا يقومون بهذا العمل نيابة عنا؟».

«إنهم غير قادرين على احتلال بيروت، إنها أقوى من قدراتهم» قال ساغي محتجاً مستشهداً بما حصل أثناء عملية الليطاني حين، جاء الكتائبيون، ثم رحلوا سريعاً.

وجاءت جولة شارون، لتثبت صحة قول ساغي، إذ اتضح له ان القادة الكتائبيين غير

راغبين في إشراك رجالهم بالقتال. ومن قبيل المجاملة، تقدم بشير الجميل من شارون وسأله، ما الذي يتوقعه من رجاله أن يفعلوه، حين يغزو جيش الدفاع الاسرائيلي لبنان. أجاب شارون: حماية ٣٦ كيلومتر من الشاطىء الممتد بين جونيه وبيروت. وحين سأله شارون عن إمكانية اشتراك الكتائب في مناورة مع جنود جيش الدفاع الاسرائيلي، رد بشير الجميل رداً لم يفهم منه شيئاً وكأنه يتهرب من الإجابة. وكذلك رده، بالنسبة لاشتراك قواته في عملية تحرير لبنان.

في الماضي، كانت هناك دعوات لإنزال الجنود الاسرائيليين في جونيه ومحاصرة بيروت من الشرق والجنوب، أما اليوم، فبشير يلعب لعبة الخداع الحربي، في البدء سحرته الفكرة، وفي النهاية انقلب وقدم الكثير من المبررات. إنه اليوم يفضل أن يكون التحرك الاسرائيلي منطلقاً من الجنوب وليس عبر الميناء والمناطق التي يسيطر عليها المسيحيون. كانا ما يزالان على روف البناية، حين قال الجميل لشارون: «على أي حال، تعالوا عبر جونيه. ولكن، في هذه الحال، عليكم البقاء في لبنان، لحمايتنا من السوريين وبقية العالم العربي».

في بكفيا، استقبل شارون بحرارة من قبل بيار الجميل وكميل شمعون، ودارت الأحاديث بأربع لغات، كان ينتقل الواحد منهم من لغة إلى أخرى، بشكل يستحيل على أي كان متابعة لياقة هذين العجوزين المارونيين اللذين خلف كل منهما سنوات من الخبرات السياسية، ويستغلانها الآن مع أصدقاء اليوم وأعداء الأمس، وأعداء اليوم أصدقاء الأمس. حتى بينهما، عداوة، وصدامات دموية.

«أحقاً ستأتون إلى بيروت، أم أنه مجرد حديث؟» تساءل كميل شمعون.

«نعم سنأتي... لا تحفل لشيء» هذا ما رد به شارون.

«نحن مستعدون للبدء؛ لخلق الأجواء المناسبة، هذه ليست مشكلة» قال شمعون الذي سبق له ودعا مشاة البحرية الأميركية للنزول في بلاده مرة، والسوريين ثانية. وسبق له ودعا بيغن، ورابين من قبله، دون جدوى؛ وهكذا فموافقة شارون على الدعوة الموجهة إليه تعتبر مفاجأة له.

الأقل سروراً بين الموجودين، كان يشوع ساغي، الذي وجه أسئلة حرجة لمضيفيه «لنقل إن جيش اسرائيل وصل بيروت فعلاً وأخرج الإرهابيين الفلسطينيين من لبنان، فما هو موقفكم من اسرائيل والعرب؟».

جواب شمعون كان واضحاً: «نناقش اتفاقية سلام بين لبنان واسرائيل» أما بيار

الجميل، فقد بدا غاضباً، هوى على كرسيه الهزاز « نحن جزء من العالم العربي، لسنا كحداد، نحنا لسنا خونة ».

« وماذا ستفعلون بعد ذلك ؟ » سأل واحد من الفريق الاسرائيلي.

« علينا المحافظة على علاقاتنا الجيدة مع العالم العربي، نحن جزء منه » أجاب الشيخ بيار.

وخيّم صمت رهيب على الغرفة، لم تقطعه سوى تمتمات ساغي لشارون، « رأيت؟ كنتُ على حق، لا فائدة من كل الذي نعمله في سبيلهم، لأنهم في النهاية سينقلبون إلى الارتماء في أحضان العالم العربي ». كان ساغي، يتكلم بالعبرية وبصوت أعلى بقليل من الهمس، إنما نبرته نبهت بشيراً إلى أن الاسرائيليين منزعجون من فظاظة العجوز. فمال نحو أبيه « ما تعني بكلامك معهم على هذا النحو ؟ » وبالعربية، وبكل أدب « تعال، نسمع بعض الأغاني الخفيفة، ولنتركهم يفعلون ما يشاءون ».

الاسرائيليون الذين يتقنون العربية، في محاولة منهم لترطيب الأجواء، ترجموا قول بشير لزملائهم، في حين أن بيار الجميل بدأ يخفّف من شدة انفعاله ومن فظاظة أقواله، لكن ليس بالشكل الكافي. وفجأة ابتسم شارون ابتسامة لها أكثر من معنى، وغيَّر مجرى الحديث « أنظر إلى ولديك » قالها بأسلوب مزعج، مخاطباً بطريرك المارونية وتابع لماذا ما أزال أتذكر ما سمعته عنك وأنا طفل صغير ». الشيخ بيار كان قد زار حيفا أيام الانتداب الانكليزي.

في اليوم التالي حاول شارون ـ بحضور مساعديه ـ ترطيب الأجواء تدليلاً على تناسيه ما حصل أمس « سنجعل بشيراً رئيساً للجمهورية ». قال شارون. وهذا ما دعا رئيس الاستخبارات إلى الاحتجاج علناً موضحاً « حتى ولو جعلت منه رئيساً للجمهورية، فإنهم لن يتخلوا عن تحالفهم مع العالم العربي. لقد سمعت ما قاله الرجل العجوز؛ لسنا أكثر من أدوات لتخليص لبنان من الشيطان. ولن يوقعوا أية اتفاقية سلام مع اسرائيل ».

ثار شارون، من ساغي « إنهم مجرد ذكريات... رزمة من الماضي » هكذا هم في نظر شارون. وتابع يحدّث رئيس استخباراته بلهجة جافة « سيطردون ».

بعد شهر، في شباط، قام إيتان بزيارة بشير الجميل وقادته، واستقبل بحفاوة بالغة، في معسكر بالقرب من جونيه، تحية عسكرية وأعلام اسرائيلية ترفرف إلى جانب الأعلام اللبنانية، كل ذلك، ومكبرات الصوت تبث « هاتيكفا » النشيد الوطني الاسرائيلي. أثناء المحادثات، سمح بشير لنفسه بالتعبير عما يجول في صدره، موضحاً لإيتان أنه يتوقع

وصول جيش الدفاع الاسرائيلي حتى طرابلس في الشمال، هذا الإسراف في التمني، أفهم إيتان أن مضيفه لا يرغب مطلقاً بالمشاركة فعلياً في الحرب أو في أية عملية عسكرية.

وتحدث بشير عن النظام اللبناني المرتقب، تاركاً انطباعاً أنه عازم على فرض سلطته على جميع البلاد، رفض مجلس النواب أم وافق وهكذا، حين طلب من ضيفه « أن يترك بيروت له » لم يكن يعني أنه سيحتل بيروت عسكرياً، بعد طرد منظمة التحرير الفلسطينية والسوريين، إنما كان يقصد أن نتائج الحرب، هي التي تعيد بيروت إليه. فسيناريو بشير الجميل، يحدد دور الاسرائيليين بالأداة العسكرية الصرفة في إعادة تأهيل لبنان.

نتائج زيارة إيتان هذه، أثارت جدلاً في مجلس الوزراء، حول إمكانية القيام بعملية في لبنان. فالوزراء، تكلموا عن خطة أوسع من « عملية الليطاني » عام ١٩٧٨، إنما لا تصل إلى بيروت، ودون التطرق إلى التفاصيل التحليلية لهذه العملية، إلا أن أريل شارون، أعلن أمامهم أنه من أجل مساعدة اللبنانيين للقضاء على الإرهابيين في وسط لبنان، فلا بد من الوصول إلى مقربة من بيروت. كان حريصاً جداً، لم يقل العاصمة ولم يلمح لا من قريب ولا من بعيد إلى إمكانية دخول بيروت، التي مجرد ذكرها أثار حفيظة سيمحا أرليخ ويوسف بورغ، وتخوفوا من أن تكون العملية أكبر مما يتصوره المرء. وزير الطاقة اسحاق بيرمان، تحدث من زاوية أخرى، من زاوية معارضته لأية عملية عسكرية لأنها لن تحلّ مشكلة الارهاب « حتى ولو دخلنا بيروت... قد ينتقل إلى هنا، دون أي ارتباط بما يجري في لبنان. وهؤلاء الذين بيننا هم خير دليل ».

في شهر آذار، عاد إيتان إلى بيروت مصحوباً بقائد سلاح الطيران وعدد من قادة الوحدات التي ستشارك في حرب دخول العاصمة. قبل انضمام بشير إلى المباحثات، قام الضيوف مع مساعد قائد القوات اللبنانية بجولة أفق عامة. فسأله إيتان « ماذا تتوقعون منا ؟ » لم يتكلم مساعد بشير، حتى أنه لم يحاول أن يشرح لهم كيف سيتصرف الكتائبيون. لكنه أخيراً تكلم فقال: « نحن نتوقع أن يقوم جيش الدفاع الاسرائيلي بغزو لبنان وحين تفعلون ذلك، سنعمل أدلاء لكم » وبلمحة أقصر من لمح البصر تابع يقول: « نتوقع بقاءكم ثلاثة أشهر، نكون خلالها قد ألّفنا حكومة وأوجدنا الحس الوطني، وذلك بالطبع بعد انتخاب بشير الجميل رئيساً للجمهورية ».

برغم هذا، تابع إيتان جولة أفقه، وانتقل الحديث إلى موضوع الحرب. وهنا تدخل بشير ومساعدوه، مشدّدين على ضرورة عدم إنزال أية جيوش اسرائيلية عبر جونيه، مع أن

هذا من ضمن الخطة. وناقش الرجلان مسألة الوجود السوري في العاصمة. وفيما كان رئيس الأركان ومساعدوه يراقبون، من عن سطح بناية عالية في بيروت الشرقية، مواقع اللواء السوري الخامس والثمانين المتواجد في بيروت الغربية، كان عدد من الضباط يرى أنه بمجرد ما يتأكد السوريون، من أن جيش الدفاع الاسرائيلي يحاصر المدينة، سينسحبون منها. إن أحد مساعدي إيتان لفت نظرهم إلى ما هو عكس ذلك تماماً، لافتاً نظر زملائه إلى مرور سنوات على وجود السوريين في بيروت، مما يعني أنهم يمتلكون مقوّمات البقاء، عدة وعدداً وتموينا، إضافة إلى ما تقدم فاللواء الخامس والثمانون، هو لواء مشاة، ولن يترك مواقعه بالسرعة التي تتصورون، وهذا ما حصل فعلاً بعد ثلاثة أشهر.

بعد تنقلات عدة بين بيروت وتل أبيب، اتضحت لإيتان مقوّمات نجاح خطته للحرب، التي انتهى من وضعها، تفصيلياً خلال شهر آذار ١٩٨٢ حين قال: « الفرق بين عملية صغيرة وأخرى شاملة، يكمن في كيفية البدء... لأن أية عملية قد تتطور تلقائياً ».

خارج أسوار شارون العسكرية المغلقة، ارتفعت أصوات كثيرة، محذّرة مناحيم بيغن من إيصال بشير الجميل إلى سدّة الرئاسة، وأعلى هذه الأصوات، كان صوت المخابرات الاسرائيلية. ومن المعروف، ان الشكوك، كانت تدور حول موقف أجهزة الاستخبارات الاسرائيلية من العلاقة مع الكتائب، باستثناء الموساد التي كانت تقف وراء هذا الارتباط الاسرائيلي - الكتائبي. وأخيراً انضم اسحاق هوفي Hofi إلى صف ساغي المتسائل عن الحكمة من دعم بشير الجميل. وقد سمع بيغن هذه الآراء، خلال اجتماع مناقشة لموضوع بشير الجميل كحليف سياسي وعسكري مستقل. كما وحذر الرجلان، من افتراض تدخل جيش الدفاع الاسرائيلي في الانتخابات، ومن ثم الانسحاب من لبنان، خلال أسابيع.

مع بداية العد العكسي لخطة شارون، اتفقت الموساد مع مخابرات الجيش على موقف موحّد من هذه الخطة المحيّرة التي يصر عليها وزير الدفاع، وتشاركه في هذا الإصرار رئاسة الأركان؛ ومما جعل بيغن عاجزاً عن تجاهل هذه الاعتراضات، معرفته المسبقة، ان التقاء الموساد والمخابرات العسكرية على أمر كهذا يعتبر أمراً غير طبيعي. ساغي وهوفي شددا على أنه لا يجوز مطلقاً، أن يخوض جيش الدفاع الاسرائيلي حرباً من أجل انتخاب بشير الجميل رئيساً لجمهورية لبنان، وأنه لا يمكن الركون إلى قدرة الكتائب القتالية، داحضين حجري الزاوية لاستراتيجية شارون. وبالفعل تأثر مناحيم بيغن بهما، وبعد أن كان - لأشهر خلت - يتحدث عن خطة شاملة لتدمير منظمة التحرير للفلسطينية، أصبح اليوم

ميالاً - وخاصة بعد الأخذ بعين الاعتبار لموقف أميركا - لتنفيذ خطة « الصنوبرة الصغيرة ».

إنما بالرغم من هذا التغيير في تفكير مناحيم، استمرت الاستعدادات كما في السابق، وكشاهد على مصداقية هذا القول، تم إرسال عدد من كبار الضباط إلى بيروت، خلال شهر نيسان، للتعاون مع الكتائب في وضع اللمسات الأخيرة على مخطط العملية. بعد الاجتماع مع المسؤولين عن العمليات في القوات اللبنانية برئاسة فادي فرام، جاء بشير الجميل فلاطف ضيوفه قليلاً، ودخل في صلب الموضوع « ما هو هدف اسرائيل من الحرب القادمة؟ » من نبرته، استشف الاسرائيليون، أنه يطلب إخراج السوريين من لبنان، أو على الأقل الإرهابيين الفلسطينيين. وان أهدافه لا تتطابق مع أهدافهم، وهذا ما أشار إليه ضابط اسرائيلي، إذ قال ان لا مصلحة لاسرائيل بخوض حرب مع سوريا، مما دعا بشير إلى مخاطبتهم: « إذا كنتم لا ترغبون بطرد السوريين، لا تأتوا ». هذه اللهجة الصارمة، أبهجت القادة الكتائبيين وفاجأت الاسرائيليين الذين أدركوا معناها، خاصة وأنه لم يسبق لبشير وخاطبهم بهذه اللغة، مما حدا بالضباط الاسرائيليين بوضع وزير الدفاع في الأجواء، موضحين ان اختلافات جوهرية تفصل بين تطلعات القادة الكتائبيين وقادة اسرائيل.

إن أحداً من هؤلاء الضباط - مثلهم مثل أمير دروري - لم يكن متعاطفاً مع الكتائب. إنهم عسكريون، ويعتبرون التناقض في الأهداف لأشبه بشرك مخيف، وقد أوصلوا انطباعاتهم هذه إلى رئاسة الأركان، وقائد الجبهة الشمالية وضابط الاتصال مع الكتائب في الموساد. وما النفع؟ طالما أن أحداً لم يأخذ بها ولم تصل إلى مجلس الوزراء.

واستمر كل شيء وفقاً للمخطط - خطة وتدريباً - إلى حد حدا بأمير دروري إلى الملاحظة، إلى أن الذي يجري لم يسبق لجيش الدفاع الاسرائيلي أن فعل مثله، ليس من حيث التخطيط فقط، بل من حيث التجهيز والإعداد، دوريات استكشاف للطرق والمنعرجات وجسور متحركة وممرات فوق نهر الليطاني، ومناورات للوحدات المشاركة في الحرب. أمن أجل مساعدة المسيحيين نفعل كل هذا؟ شيء لا يصدق.

مع انتصاف نيسان، كان كبار الضباط على علم بالحرب الآتية، ولو من خلال ما يشاهدون. وفي لقاء عادي بين وزير الدفاع وقادة الوحدات في الجبهة الشمالية، لمناقشة الخطط العملانية. تحدث، الكولونيل ألي جيفا Eli Geva، نيابة عن قادة الألوية، إلى اثنين

وثلاثين ضابطاً من جيش الدفاع الاسرائيلي، مستهلاً كلامه بالتأكيد على ضرورة المزيد من التدريبات، وبدون أية مقدمات، انتقل إلى الحديث عن إمكانية تفادي الحرب مع السوريين، بأي شكل من الأشكال. « هذه حرب ضد الإرهابيين الذين يهددون مدننا وقرانا وعلينا ألا نتورط في حرب مع السوريين. علينا فعل كل شيء ممكن لتفادي حرب غير ضرورية. إنما حين نفقد حرية الاختيار، فسنقاتل ».

اندفاع جيفا، جعل شارون، يتوقع تململاً، وانخفاضاً في معنويات جيش الدفاع الاسرائيلي، في حال تخطي الحرب في لبنان الأهداف الدفاعية. وقال: « إني موافق على عدم التحرش بالسوريين ».

واقترب نيسان من نهايته، وبدأت نذر الحرب تلوح في الأفق: في الحادي والعشرين خرقت إسرائيل وقف إطلاق النار، وقصفت أهدافاً في جنوب لبنان، مبررة فعلتها، بمقتل جندي إسرائيلي مرّت شاحنته فوق لغم أرضي في المنطقة الخاضعة لسيطرة سعد حدّاد. ويوم التاسع من أيار أغار سلاح الجو على أهداف في لبنان رداً على اكتشاف متفجرة بالقرب من مدرسة في عسقلان، وأخرى في سيارة نقل بالقدس [دون أن يكون هناك أي إثبات أن مصدرهما لبنان]. في المرّة الأولى، التزمت المنظمة وقف إطلاق النار ولم ترد حتى ولو بطلقة واحدة، أما في الثانية فقد فتحت نيران مدفعيتها الثقيلة وصواريخ الكاتيوشا على الحدود الاسرائيلية، دون أن تصاب أية مدينة أو مستوطنة[1]. هذا الفعل، لم يكن خطأ في التصويب بل كان مقصوداً. كان رسالة موجهة من الفلسطينيين تقول إن مدفعيتهم قادرة على قصف أي مكان يريده [الإرهابيون] وأنه من المحتمل أن يكون الرد القادم موجهاً نحو المستوطنات.

هكذا بدأت ريح الحرب تهب، فالسابع عشر من أيار، هو اليوم الأول في مرحلة العد العكسي، إلا أنه أرجيء بسبب عدم اقتناع سبعة وزراء، بيغن من ضمنهم، وإثنان من نواب الوزراء - سيمحا ارليخ ودافيد ليفي، بحرب شاملة. في المقابل، تمكن أريل شارون من إقناع مجلس الوزراء وهيئة أركان جيش الدفاع الاسرائيلي، من مناقشة موضوع هذه الحرب، مجلس الوزراء اجتمع في العاشر من أيار، أما هيئة الأركان، فاجتمعت يوم

(١) أبناء الشريط الحدودي يتندرون حتى اليوم بمثل هذه الحكايات، ويردون هذا إلى وجود عدد من ضباط الاستخبارات بين صفوف الفدائيين.

الثالث عشر منه. في آخر اجتماع لها قبل اندلاع الحرب. وإن أياً من الذين اطلعوا على ما جرى في الاجتماعين، لا يمكنه إخفاء استخفافه واستهزائه، ففي حين وافق مجلس الوزراء على ضرورة محدودية أي حرب في لبنان، كان الجنرالات يناقشون خطة « الصنوبرة الكبيرة » للاتصال بالقوات المارونية حول بيروت. مجلس الوزراء، ناقش عملية ضد منظمة التحرير، مع تحاشي الاصطدام بالسوريين، أما في هيئة الأركان، فقد نوقشت خطة محاصرة بيروت وقطع طريق بيروت دمشق، مما يعني أن على جيش الدفاع الاسرائيلي الاشتراك في قتال ضد السوريين.

في اجتماع هيئة الأركان، تحدث ساغي مبيناً الأخطار، مشدّداً على استحالة تفادي الاشتباك مع السوريين في لبنان، فهم، قادرون على دفع قوات إضافية إلى ساحة المعركة، وقادرون، على الأقل على تغطية الأجواء اللبنانية بطائراتهم الحربية، ولكن، في حين الانغماس في المعارك الجوية، فسيكون لدينا المبرّر لمهاجمة قواعد الصواريخ السورية. وبالتالي رفع حدّة المواجهة إلى نقطة اللارجوع. « إن من يتحدث عن تنقية أربعين كيلومتراً عليه الاستعداد لقتال السوريين »، لكنه لم يفكر انهم قد يديرون ظهورهم ويهربون. كذلك تحدث عن موقف المسيحيين اللبنانيين بعد اندلاع القتال « لن يتورطوا... لن يفعلوا شيئاً. وفيما لو استدعينا بشير الجميل إلى هنا وأخبرناه أن جيش الدفاع الاسرائيلي، سيدخل لبنان غداً، سيطير فرحاً، وسيوزع القبلات على كل واحد منا، لكن هذا لا يغير شيئاً. لأنه حين يعود لمقابلة القادة المسيحيين، سيصطدم بجدار من الشك والريبة. أكثر من هذا، فانهم سيوجهون لنا السباب والاتهامات، لماذا؟ لأنه يريدون الظهور بمظهر أصحاب الأيادي الطاهرة ».

بعد هذا، انتقل ساغي إلى مناقشة سؤال عما إذا كانت العملية المقترحة قادرة - أو غير قادرة - على تدمير القاعدة التحتية للإرهاب؛ لقد سبق وناقش هذا الموضوع مع إيتان، واليوم يعيد ما يعتقده، ألا وهو أن تحقيق جيش الدفاع الاسرائيلي انتصاراً عسكرياً ضد الإرهابيين، لا يعني مطلقاً نهاية منظمة التحرير، أو حتى تدمير قدراتها العسكرية. الخسائر في الأرواح لا تعني عجزهم عن إعادة تنظيم أنفسهم وتجميع وحداتهم في سوريا، أو في طرابلس، على بعد سبعين كيلومتراً شمالي العاصمة اللبنانية. وهكذا - لا يكاد جيش الدفاع الإسرائيلي يكمل انسحابه من لبنان - وهذا أمر لا مفر منه - حتى تكون منظمة التحرير الفلسطينية قد عادت مجدداً إلى بيروت.

وكرّت سبحة المخاطرات. يجب أن تكون هناك سلسلة أفعال دون أن تتسبب في استفزازات. فالولايات المتحدة موجودة على الخط، وبين اسرائيل وواشنطن قناة اتصال واحدة ممثلة، بوزير الخارجية ألكسندر هيغ الذي يواجه مشكلات مع كبار مسؤولي البيت الأبيض. وهناك أيضاً الاتحاد السوفياتي الذي يسعى جاهداً لإبعاد المنطقة عن النزاعات والتوترات، وسيسعى جاهداً لدى حلفائه في المنطقة لمنع حدوث أي تفجير؛ إنما علينا أن نتذكر أنه سبق للسوفيات ووعدوا الأسد، بإرسال جيوشهم إلى دمشق في حال تعرض نظامه للخطر. وفيما لو حصل هذا، فواشنطن ستنحى باللائمة على اسرائيل، كونها السبب في دخول السوفيات للشرق الأوسط؛ ولا ريب ان القوتين العظميين ستلتقيان عند نقطة مطالبة جيش الدفاع الاسرائيلي بالانسحاب فوراً من لبنان. وفي الوقت ذاته، حث ساغي الجنرالات، مواجهة النقص في الحس الوطني في حرب لها أهداف بعيدة كهذه. «أسوأ ما يمكن أن تواجهه بلاد، هو الذهاب إلى الحرب وهي منقسمة على ذاتها. أنا خائف من تدني الحس الوطني بين صفوف العسكريين، هذا شيء مزعج ولا يبشر بالخير».

النقطة الأهم في نظر ساغي، هي سياسة ما بعد الحرب إنها الهاوية. ذات يوم سينتهي القتال، النتيجة لن تكون أمن، إنما تحول نحو الرغبة في البقاء في لبنان «وساعتئذ ننسى دعمنا للمسيحيين في الشمال وحدّاد في الجنوب» وفيما نحن ما نحافظ على وجودنا خارج الحدود، «لا يمكنني إعطاء وعد أن مسألة هضبة الجولان والضفة الغربية لن تعود مجدداً إلى الواجهة، إذن، من الوجهة السياسية، نحن متوجهون نحو مغامرة لا أخلاقية».

كلمات ساغي، جرحت مشاعر الجميع، لقد شعروا بالمرارة من الذي وصلوا إليه. إن ساغي نفسه، حين تحدث أمام الوزراء، وجهاً لوجه مع مناحيم بيغن وأريل شارون، لم يسمح لنفسه بالتكلم بالأسلوب المحدد والقوي الذي تحدث به أمام هيئة الأركان. المؤسف أن كل الآراء ذهبت سدى وجاءت الأيام لتثبت أن اسرائيل ماضية نحو الحرب رغم تحذيرات رئيس جهاز الاستخبارات. وارتضى ساغي الصمت وأدرك أنه ليس أكثر من موظف. وتعاظمت مأساته. حين أدرك عجزه عن الوقوف أمام رئيس الوزراء ووزرائه، بحضور شارون لإخبارهم بما قاله لزملائه في الجيش بأسلوب مقنع، انقلب إلى ذاك الرجل الوحيد الذي قاوم أريل شارون خطوة خطوة، وقاوم، حتى، مسعى أريل شارون لتحقيق فكرة «فرّق تسد». فيشوع ساغي، بمشاركته في معظم جلسات مجلس الوزراء، قبل الحرب وبعدها، على عكس الوزراء، كان يعي كيفية الوصول إلى السلام. وهكذا وجد

مجلس الوزراء الاسرائيلي نفسه بين رجلين، أريل شارون المنكود الحظ، بسبب قراراته الخاطئة والفاشل الطيب ساغي؛ فما كان منه إلا فرض رقابة على التقارير، دون أن يتعب نفسه عناء استقصاء الحقائق عما يجري في الجيش. لقد كان جسماً يوافق على ما يحدث لمحو الأخطاء وتغطيتها. وكيف لا يكون هذا طالما هو يستقي معلوماته من مصدر واحد ـ ليس بمقدوره تحديه ـ هو وزير الدفاع الذي نجح في بناء حاجز صلب بين مجلس الوزراء والعسكريين. ولعل أروع مثال على هذا الحاجز، هو ما حدث بعد اندلاع القتال، خلافاً للعرف، امتنع رئيس الأركان عن المثول أمام مجلس الوزراء، مفضلاً أن يطلع الوزراء. عما يجب أن يطلعوا عليه، وكيف يجب أن يطلعوا عليه، من أريل شارون نفسه.

بالنسبة لشارون، ليس في الأمر غرابة. فهو يعرف مسبقاً أن مجلس الوزراء لن يصادق على حرب ترمي إلى تنصيب بشير الجميل رئيساً لجمهورية لبنان، ولا على الصدام مع سوريا. لكنه على استعداد كلي للموافقة على «كرسحة» الإرهابيين، وضمن المنطقة التي يحددها سلفاً.

إنه لاعب حبال ماهر، أجبر مجلس الوزراء على الموافقة على حرب لا يريدها، ولن يوافق عليها، لقد عامل زملاءه الوزراء كأطفال صفوف الحضانة على حد تعبير أحدهم. إن الذي جرى لا يمكن اعتباره انقلاباً عسكرياً، بالمعنى المتعارف عليه، فالجيش لم يستولِ على الحكم، لكنه انقلاب زعزع الديمقراطية في اسرائيل، إذ أن آلته العسكرية ـ أي آلة شارون ـ كان تتصرف باستقلالية عن رقابة حكومة البلاد الشرعية، وبغية الوصول إلى مراميه، اتبع شارون كافة الوسائل اللاأخلاقية ـ مراوغة واحتيال، مع مجلس الوزراء، مما اضطر بيغن إلى إفهامه تلميحاً أنه سيضطر لطرده من الحكومة.

اتسمت لعبة شارون بالبساطة. في مجلس الوزراء، عرض الخرائط أمام زملائه. هذه الخرائط كانت مصورات «الصنوبرة الكبيرة» وعليها أسهم تشير إلى طرد الفلسطينيين من المناطق التي يسيطرون عليها في الجنوب، باتجاه الشمال، أي باتجاه المناطق التي يسيطر عليها المسيحيون حوالي بيروت. وأمام المجلس، تحدث كل من شارون وإيتان، عن «عملية محدودة» دون التطرق إلى استعمال كلمة حرب. شارون شدّد على أن ما ستفعله بلاده ليس أكثر من عملية تأديبية ـ فعل بوليس ـ متجاهلاً الحديث عن كيفية تحرّك الجيش، حتى أنه لم يشر إلى بيروت، أو إلى الإلتقاء بالمسيحيين في الشمال، مما جعل الوزراء يعتقدون، أنه لو اضطرت اسرائيل إلى خوض حرب في لبنان، فلن تكون أوسع

من عملية الليطاني، مع احتمال اجتياح صور والمخيمات الفلسطينية في ضواحيها. وحين تساءلوا عن الوقت الذي تستغرقه هذه العملية، أجاب شارون « أربعة وعشرون ساعة ».

في هذا الاجتماع، ارتفع صوت موردخاي تسيبوري، معارضاً استعمال سلاح الجو في هذه العملية المفترض أن تكون « عملية بوليسية »، محذراً من أن يخرج الأمر من الأيدي، « كثافة في القوات والقصف، من يدري قد تصبح ككرة الثلج، التي تكبر وتكبر وتصبح حرباً، أرى أننا ندفع للحرب، ولا أحد يعلم ما هو الثمن الذي سندفعه. دخول لبنان، ليس أمراً سهلاً، وفي النهاية سنضطر للعودة إلى هنا ثانية. لذا فإني أقترح سماع مرافعة وزير الخارجية ورئيس جهاز الاستخبارات، والموساد ».

كلام تسيبوري ضايق بيغن، لكن كبح غضبه وأشار إلى أن هذا التناقض، لا يعني أبداً أن هناك منافسة بين الوزراء. هنا صاح تسيبوري معترضاً على هذه الإهانة، فلم يأبه بيغن له وأعطى الكلام لرئيس جهاز الاستخبارات العسكرية البريغادير جنرال آفي يعاري Avi Yaariالذي استدعي إلى الاجتماع نيابة عن ساغي الموجود خارج البلاد، يعاري لم يعارض تسيبوري، بل جاء كلامه مطابقاً لما قاله هذا الأخير، وحين أشار يعاري إلى أن « الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة هي في حالة انعقاد، انفعل بيغن وصاح: « هل تريدون إعلامي بذلك؟ » وكما فعل تسيبوري، فعل يعاري، ولكنه تابع محذراً « السوريون لن يقفوا مكتوفي الأيدي في لبنان، وكذلك الفلسطينيون. وهكذا فجيش الدفاع الاسرائيلي لن يكون في نزهة» فقاطعه شارون هذه المرة « مجلس الوزراء يعرف هذا» وتابع شارون: « لا يمكننا تحقيق أي مكسب بسهولة ». بعد ارفضاض الجلسة، علّق شارون عليها مشيراً إلى أن كل ما فعله ضباط الاستخبارات أنهم ساهموا في « ارتخاء المفاصل ».

الأسلوب ذاته، والخداع عينه، استعمل مع رجالات المعارضة الذين يفترض فيهم أن يكونوا أكثر خبرة في الشؤون العسكرية. يوم ١٦ أيار وفي لقاء ضم شيمون بيريز ـ رئيس وزراء سابق ـ اسحق رابين ـ وزير دفاع سابق ـ وحاييم بارليف ـ رئيس أركان سابق ـ تحدث بيغن؛ مشيراً إلى أنه في حال استمرار الإرهابيين القيام بأعمال استفزازية، فإن اسرائيل ستجد نفسها مجبرة على الرد بحزم في لبنان دون الإشارة إلى الأربعين كيلومتراً في العمق. إلا أن شارون أشار بصورة عابرة إلى خط ممتد من بحيرة القرعون حتى صيدا وكأنه الحد الأقصى لأية عملية. رابين، أراد الأمور أكثر وضوحاً، ومعرفة عما إذا كانت صيدا ضمن هذا الخط أو خارجه. تردّد شارون في الإجابة، حتى لا يقع في الفخ، ومن ثم

أجاب: « لست متأكداً من ذلك » ثم وقف واستدار نحو الباب وهو يقول: « سألقي نظرة على الخرائط ». وعاد بعد دقائق ليقول إن صيدا **كانت** ضمن العملية. تاركاً انطباعاً لدى الموجودين، أنه طالما أن وزير الدفاع غير متأكد من وجود صيدا ضمن العملية أو خارجها، فهذا يعني أن العملية ستكون محدودة في جنوب لبنان.

ويبقى هناك سؤال يطرح نفسه بقوة، وحتى اليوم لم يجد من مجيب: وهو كيف تمكن شارون وإيتان من تسيير بيغن، أو كيف أوقع رئيس الوزراء نفسه بين يدي شارون؟ في الحقيقة، إن مناحيم بيغن ـ قبل تعيين شارون وزيراً للدفاع ـ كان راغباً في حرب ضد منظمة التحرير الفلسطينية، ويهدف إلى أبعد من تحرير الجليل من قذائف الإرهابيين. وقبل الحرب، كان يخطط ليوم يرسل فيه جيش الدفاع الاسرائيلي إلى « حيث وكر ياسر عرفات » إن رجلاً كهذا سيستحيل عليه عدم الاستجابة لعملية تمتد حتى صيدا، أو حتى الأولي.

إضافة إلى ما تقدم، هناك حدث وقع قبل أسبوعين من اندلاع الحرب، إنما يصب باتجاه آخر. افرام بوران، السكرتير العسكري السابق لمناحيم بيغن، عاد إلى البلاد بعد غياب طويل، والتقى رئيسه السابق. قبل مقابلته بيغن، مر على هيئة الأركان، وفوجىء بما وصلت إليه الاستعدادات من تقدم، والمفاجأة الكبرى كانت حين التقى بيغن واكتشف أنه لا يدري عما إذا كانت الحرب ستصل إلى بيروت أم لا. جواب بيغن على هذا السؤال كان « أبداً لا ». من يدري؟ قد يكون أريل سعيداً لعدم معرفته بما يجري في رئاسة الأركان، وقد تكون علاقته بشارون قد منعته من البوح بالحقائق، حتى لرجل كان أقرب المقربين إليه، ومساعده العسكري. وهكذا تبقى الحقيقة ضائعة، بين ما أكده بيغن، وبين احتمال خداعه لنفسه، ان العملية القادمة، لن تكون حرباً بالمعنى الحقيقي، وهذا، ما قد يفسّر لماذا تحدث عن عملية محدودة أمام الوزراء وأثناء اجتماع بزعماء المعارضة خلال شهر أيار، ولماذا ـ أيضاً ـ كتب للرئيس الأميركي ريغان يطلعه على نية اسرائيل القيام بعملية عسكرية ضد منظمة التحرير الفلسطينية بهدف إبعادها أربعين كلم عن الحدود الاسرائيلية. إنه لمن المشكوك فيه أن يكون رجل متزمت كبيغن قد حدّد هذه المسافة، وهو يعرف أن جيش الدفاع الاسرائيلي يعد لما هو أبعد. لكن بيغن ليس هو من خطط للحرب ولا هو من سيقود الجيش في لبنان. الرجل الذي خطط وسيفعل، لم يفكر ولو لبرهة، بكيف ستكون نظرة الرئيس الأميركي لمناحيم بيغن، بعد محاصرة جيش الدفاع الاسرائيلي بيروت ومن ثم

دخولها.

وتبياناً للحقيقة، يجب القول، انه كانت هناك معطيات مختلفة لدى كل من شارون وإيتان. فهذا الأخير ـ كبيغن ـ كان راغباً في القيام بعملية عسكرية ضد منظمة التحرير الفلسطينية إنما ليست محدودة؛ وكان يفضل إرسال جيوشه إلى المناطق الخاضعة للمسيحيين، ومنها ينطلق لضرب المقر الرئيسي للمنظمة في بيروت. كان يثق ببشير الجميل ويعتبره حليفاً مشاركاً في القتال ضد الإرهابيين، ويعتقد أن الكتائب ستكمل ما يكون جيش الدفاع الاسرائيلي قد بدأه وستتمكن من طرد بقايا منظمة الإرهاب خارج لبنان.

كان هناك اختلاف في وجهات النظر بينه وبين شارون حول الوجود السوري. بالنسبة له، هذا الوجود لا يعتبر في سلم أولويات الأمور التي يجب معالجتها، على عكس شارون، الذي علمته تجاربه أنه لا بد لقتال السوريين في سبيل إخراجهم من وادي البقاع. وبالرغم من أنه لم يكن يرغب بالاحتكاك بهم، لأن هذا من شأنه إشعال نار حرب شاملة معهم، ليس في هضبة الجولان وحسب، إنما على طول الحدود السورية ـ الاسرائيلية، بالرغم من هذا كان يتمنى إخراج السوريين ليس من البقاع وحسب، بل من كل لبنان. إنه أمر خطير. وهكذا وزع شارون الخطة إلى شقين: ضد منظمة التحرير الفلسطينية في الغرب، أولاً، أما ثانياً يتفرغ للسوريين في وادي البقاع. وقد نجح في إبعاد شبح الحرب عن هضبة الجولان، لكنه في المقابل، فشل في تحقيق معظم أهدافه في لبنان. والثمن الذي دفعته اسرائيل مقابل هذه المغامرة، أكثر بكثير من التوقعات المخيفة.

الفصل الرابع

انخداع وتصادم

من ضمن الاعتبارات الأساسية، التي كان على مخططي الحملة العسكرية في لبنان، أخذها بعين الاعتبار، قبل أي تحرك إسرائيلي في بلد مجاور؛ الموقف الأميركي. خاصة وأن العلاقة بين العاصمتين، منذ ربيع ١٩٨١، ليست على ما يرام؛ حين وصل الغضب الأميركي من تصرفات اسرائيل ـ قصف المفاعل النووي في العراق، ومركز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، خلال شهري حزيران وتموز ـ حده الأقصى، فأقدمت على وقف شحن الأسلحة إلى تل أبيب، ولهذا فإن للموقف الأميركي تأثيراً كبيراً معنوياً وسياسياً.

إضافة إلى ما تقدم ـ بالأحرى أهم مما تقدم ـ لا بد من الأخذ بعين الاعتبار، تأثير التجاوب الأميركي مع رغبة اسرائيل، خاصة إذا اضطر جيش هذه الأخيرة إلى نزال القوات السورية في لبنان، مع احتمال انتشار هذه المعارك لتشمل هضبة الجولان، ففي مثل هذه الحال قد يتدخل السوفيات، ويهددون وجود اسرائيل. هذه الرؤى، نابعة من فقدان الدعم الأميركي الواضح للعملية الاسرائيلية.

الحاجة إلى دعم خارجي، شيء صعب بالنسبة لقادة تل أبيب. فيما مضى، وحين كانت اسرائيل تجد نفسها متجهة نحو حرب ما، كانت الحكومة تسعى لتأمين تفهم إحدى القوى العظمى لموقفها، إن لم تتمكن من نيل المساندة. فاسرائيل، قد تذهب إلى الحرب، ولكن مسوقة خلف تهور أو طيش.

قبل غزو سيناء عام ١٩٥٦، وقع بن غوريون اتفاقية دفاع مشترك مع فرنسا، وعبرها مع بريطانيا. هذا التحالف، الذي تباحث فيه مع رئيس الأركان آنذاك ـ موشي دايان ـ وكان سبب الموافقة على غزو سيناء. وعام ١٩٦٧، بعد إقدام مصر على حشد جيوشها على الحدود وإغلاق مضائق تيران المؤدية إلى ميناء اسرائيلي، تصرف رئيس الوزراء، ليفي أشكول بروية لمدة أسابيع، كانت البعثات الاسرائيلية خلالها، تتباحث مع العواصم

الغربية، كي تتفهم هذه العواصم دوافع اسرائيل للقيام بحملة عسكرية لتحرير الممرات. ولقد بلغ الحذر الاسرائيلي حده الأقصى في حرب تشرين عام ١٩٧٣، حين علمت غولد مائير وموشي دايان، ان هجوماً سورياً - مصرياً متفاهماً عليه قد بدأ. لقد أمرا سلاح الجو القيام بغارات جوية وقائية، لتثبت تل أبيب لواشنطن، انها غير قادرة على الانتظار لمعرفة من المسؤول عن الحرب. لقد توقعا - دايان ومائير - ان واشنطن ستمحض اسرائيل الدعم بالقدر الذي يريدانه.

عام ١٩٨٢، اختلف الأمر. حكومة مناحيم بيغن تتصرف دون التفات لردات فعل حلفائها؛ ربما بسبب الثقة الزائدة بالنفس أم اللامبالاة المقصودة، أو لأسباب أخرى غامضة. في الواقع أنه مزيج من الثلاثة معاً: ثقة عالية باسرائيل كقوة متوسطية، قادرة على ركوب المخاطر السياسية. خاصة وأن القوى العظمى لا تستجيب لطلبات الدول الصغيرة إلا بالقدر المحدود؛ استعداد اسرائيلي شامل، للأخذ بعين الاعتبار تجاربها السابقة؛ الاعتداد بالنفس. هكذا «فواشنطن في الجيب» ولا يمكن توقع مفاجآت غير سارة منها.

عملياً، على الأرض، لم يتبدل شيء. إذ مع الأيام، أريل شارون صار وزيراً للدفاع، وإدارة الرئيس الأميركي ريغان غير مقتنعة بما تفعله اسرائيل. والحقيقة ان الشعور بالمرارة عند واشنطن، مرده إلى أن حكومة بيغن تتصرف بحماقة، وتتسبب بالأذى لحلفائها، بالقدر ذاته الذي تسببه للأعداء. ونتيجة هذه الحماقات - مثل قصف المفاعل النووي العراقي - هي زعزعة مصداقية ومكانة أميركا في الشرق الأوسط.

مع نهاية عام ١٩٨١، وبعد مفاجأة ضم هضبة الجولان، وصل الغضب بكبار مسؤولي واشنطن إلى حد الطلب من وزارة الخارجية وسفارة أميركا في اسرائيل، إعداد لائحة بالمفاجآت التي يمكن أن تقدم حكومة مناحيم بيغن على ارتكابها. إمكانية غزو جيش الدفاع الاسرائيلي للبنان كانت واحدة من المفاجآت المحتملة التي احتوتها، لكنها لم تحتل مكان الصدارة.

خلال تشرين الثاني ١٩٨١، قبل أسابيع معدودة، من فتور العلاقة بين الحكومتين، بسبب قضية هضبة الجولان، قام أريل شارون بزيارة واشنطن بصفته وزيراً للدفاع؛ وفي يده حقيبة مملوءة بالخرائط الملونة الملطخة بالأسهم السود، لافتاً نظر جنرالات البنتاغون إلى الوضع السياسي والعسكري الذي يعم أفريقيا. ومشتكياً من انتشار النفوذ السوفياتي بالقارة السوداء، اقترح برنامجاً للتعاون الاستراتيجي لوضع حد للتوسع الشيوعي في الشرق

الأوسط وأفريقيا. في المقابل، توقع تفويضاً تاماً - كارت بلانش - للتصرف بحرية مع حلفاء السوفيات في المنطقة - سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية، لاعتقاده ان هكذا فعل، سيؤدي حكماً وبسرعة إلى تخفيف الضغط عن اسرائيل لإعطاء حكم ذاتي للعرب في الضفة الغربية وقطاع غزة.

تفكير شارون، لم يقف عند حدود البنتاغون الأميركي، تل أبيب تعداها إلى الداخل، إلا أن واينبرغر لم يكن على استعداد «للشراء». ليس هذا وحسب، بل ذهب واينبرغر إلى أبعد من ذلك، فقد عارض بشدة إعطاء أي ضوء أخضر لإسرائيل، لئلا تتعكر علاقة واشنطن بالعربية السعودية أو غيرها من أصدقاء أميركا في العالم العربي. ورغم ذلك، كلف رسمياً من حكومته، بتوقيع «وثيقة التفاهم الاستراتيجي» مع شارون، ولكن مساعديه، شطبوا الكثير من مسودة الاتفاقية، شطبوا كل ما يمكن - حتى ولو كان تلميحاً - ان يعتبر إطلاقاً ليد اسرائيل في القيام بأي عمل عدائي ضد جيرانها العرب. وبالفعل، فقد تألم واينبرغر من الاحتفال الذي أقيم عند التوقيع على الوثيقة واعتبر ان الذي جرى تخطى حدود البروتوكول.

إن الذي عجز واينبرغر عن فعله، هو الحؤول دون تبجح شارون بما فعل أمام الرأي العام الاسرائيلي. في الحقيقة ان وزير الدفاع الاسرائيلي عاد إلى بلاده بوثيقة تفاهم «معادية للسوفيات» عادية جداً. مجلس الوزراء الذي لم يكن قد اطلع على مسودة الاتفاقية قبل توقيعها، طلب معرفة الحقائق عن «طبخة» شارون هذه وماذا يمكن أن تقدم. وبالرغم من أن الاسرائيليين اعتبروا وثيقة التفاهم الاستراتيجي عملاً متقدماً، فإن شارون ومساعديه اعتبروها ورقة التين التي من الممكن أن تستر عورتهم في أية مغامرة في لبنان. إن الرجل الذي شجع شارون على مغامرته في لبنان، ووعده بالمساعدة، هو وزير الخارجية الكسندر هايغ.

هناك صلات كثيرة بين الرجلين. كلاهما عسكري سابق وهب نفسه ثقة زائدة؛ وكلاهما أيضاً انخرط في الحياة السياسية قبيل خروجه من الحياة العسكرية. وكلاهما أيضاً معاد للسوفيات ويعتبر الآلة العسكرية مطية للأهداف السياسية؛ ويعتبران السوفيات مصدر الإرهاب الدولي. هايغ صديق قديم لاسرائيل ويكن احتراماً فائقاً لزعماء الجالية اليهودية في بلاده، وينظر إلى الشرق نظرة توافقية مع نظرة بيغن وشارون. خلال زيارته الأولى للمنطقة، حاول إقناع مضيفيه ان أولى اهتمامات السياسة الأميركية، يجب أن يكون إيجاد

خط اقليمي معاد للشيوعية، ومنع انتشارها في المنطقة. وفيما لو تحقق مثل هذا الخط ـ التحالف ـ فان الدول الشرق أوسطية الموالية للغرب، قد تجد نفسها تتكلم لغة واحدة، الأمر الذي يسهل عملية حل مشكلة النزاع العربي ـ الاسرائيلي [هايغ كانت له رؤيا مختلفة نوعاً ما عن رؤية بيغن وشارون حول هذه النقطة، لكن الدول العربية، والسعودية بشكل أخص، طالبوا بأن تكون الأولوية لحل مشكلة النزاع العربي ـ الاسرائيلي، وبعدها يمكن تشكيل خط موال للغرب].

انطلاقاً مما تقدم من معطيات، اعتقد بعض كبار صانعي سياسة اسرائيل، ان هايغ يرى في إلغاء دور منظمة التحرير الفلسطينية عملاً مفيداً ـ ليس لسبب سوى اعتبار المنظمة داعمة للإرهاب العالمي ـ على أن يتولى جيش الدفاع الاسرائيلي هذه المهمة. إن هايغ، بالنسبة لإسرائيل صديق مشكور، حتى ولو لم يتمكن من التأثير على وزير الدفاع الأميركي واينبرغر أثناء الأزمة.

بعد قصف المفاعل النووي، أبدى هايغ تفهماً للأسباب التي دفعت اسرائيل إلى مثل هذا العمل، وحاول التخفيف من أهمية الإجراءات التي اتخذتها حكومة ريغان. بعد ربع ساعة من معرفة السفير الاسرائيلي أفرايم ايفرون ان الطائرات عادت سالمة إلى قواعدها، اتصل هايغ بالسفير في منزله وشرع يحدثه بلغة تدل على التقدير ومستفسراً عن أشياء فنية: هل من غبار ذري فوق المكان المقصوف؟ متى كانت تتوقع اسرائيل أن يصبح المفاعل جاهزاً للإنتاج؟ وهذا ما جعل اسرائيل غير قلقة من حث وزير الدفاع الأميركي، رئيسه ريغان، على وقف تسليم الطائرات، وإصدار بيان، يشجب تصرف اسرائيل، غير أن حساب الحقل هذه المرة لم يكن مطابقاً لحساب البيدر، وفشل هايغ ـ بطل اسرائيل ـ في الحد من فعالية واينبرغر.

وحتى لا تفاجأ واشنطن، بغزو جيش الدفاع الاسرائيلي للبنان، عمد شارون إلى اتباع أسلوب «القطارة» إذ بدأ يمهد تدريجياً لفكرته، واضعاً الأميركيين في الصورة، دون أية إشارة إلى حجم العملية، أو توقيتها؛ وإلى جانب هذا الأسلوب عمد شارون، إلى جعل أميركا تقتنع ان منظمة التحرير الفلسطينية تخرق وقف اطلاق النار المعلن عنه في تموز ١٩٨١، وان اسرائيل، ستقوم عاجلاً أم آجلاً، بالرد على هذه الخروقات، مبرراً، بذلك، سلفاً أية عملية عسكرية دون الإشارة إليها.

والواقع، ان شارون، كان يتصرف منفرداً وكأنه طائر يغرد خارج سربه؛ فخلال شهر

كانون الأول، وفي الخامس منه على وجه التحديد، أقدم على خطوة سياسية خطرة، دون استشارة أي من رئيس وزرائه بيغن أو زميله وزير الخارجية شارون، الذي ارتعد غضباً. أراد شارون إرسال إشارة تنبيه بمخططه إلى واشنطن، فلم يختر غير المبعوث الخاص للرئيس الأميركي السفير فيليب حبيب الذي أتى به برفقة القائم بالأعمال وليام براون. أثناء الاجتماع، وبأسلوب غير لائق خاطب شارون ضيفيه: «إذا استمر الارهابيون بخرق وقف إطلاق النار، فلن يكون أمامنا سوى خيار إخراج منظمة التحرير الفلسطينية نهائياً من بيروت وتدمير البنية التحتية لها هناك،... سنقتلع منظمة التحرير الفلسطينية من جذورها في لبنان».

وامتقع وجه فيليب حبيب الديبلوماسي البشوش، من وحشية كلام شارون وخاطبه بأسلوب جاف: «إننا في القرن العشرين يا جنرال شارون، والوقت تغير كثيراً... فليس بمقدورك غزو بلد بهذه السهولة، مهجراً، مدمراً فاتكاً بالمدنيين. ومن ثم، هل تعرف ان عملك هذا سيؤدي إلى حرب مع السوريين، وان نار الحرب ستلف المنطقة؟».

وبأسرع من البرق رد شارون: «ليس ضرورياً أن نتحارب مع سوريا، إذ يمكننا تحرير لبنان واسرائيل من منظمة التحرير الفلسطينية، دون إطلاق النار على السوريين. الأسد لن يتدخل». وللتدليل على نظريته، طلب من مساعده نشر مصور للبنان وأشار إلى تمركز منظمة التحرير الفلسطينية في القطاع الغربي. أصبعه، كانت تتحرك ضمن دوائر واسعة حول صيدا والدامور. دون أن يأتي على ذكر بيروت لا من قريب ولا من بعيد، أو حتى التلميح إلى أن جيش الدفاع الاسرائيلي سيتغلغل شرقاً في وادي البقاع، على طول الحدود السورية ـ اللبنانية؛ ودون الإشارة ـ كذلك ـ إلى قواعد الصواريخ في لبنان. وأنهى شارون حديثه بالقول: «أريد التأكيد على أن هذا هو رأيي الشخصي، لكنه السبيل إلى تدمير مركز الإرهاب الدولي».

لم يتمكن فيليب حبيب ومرافقه من إخفاء اندهاشهما، وهذا ما كان يريده وزير الدفاع، الذي يدرك تماماً ان فيليب لا تفوته شاردة أو واردة وأنه سيبرق بذلك إلى واشنطن. شارون، مقتنع انه في حال اعتادت أميركا على مثل الكلام، فلا شيء ساعتئذ يحول دون قيام اسرائيل بعمل عسكري في لبنان، وهكذا فعليهم ـ أي على الأميركين ـ تفهم الفكرة والاستعداد لقطف الثمار.

وبالفعل، وبأسرع مما كان يتوقع، أبرق فيليب حبيب إلى واشنطن بما سمع: مقدماً

للمسؤولين فيها أول دليل حسي على نوايا شارون، وتجدر الإشارة هنا، إلى الاستخبارات الأميركية ـ ومنذ زمن ـ كانت تراقب عن كثب التطورات داخل اسرائيل: دعوة للاحتياط، وحشود عسكرية على طول الحدود السورية واللبنانية. هذه أمور صارت مألوفة، ولكن شكوكاً ساورت رجال الاستخبارات، ان الذي يجري ليس مجرد تحرك وقائي لاحتمال قيام سوريا برد على قرار ضم هضبة الجولان، كانون الثاني ١٩٨٢، واعتقدوا أن مرد هذه الحشود، هو احتمال فشل شارون بإقناع الأغلبية العظمى في مجلس الوزراء في الموافقة على حرب شاملة. وزارة الخارجية الأميركية، اعتبرت أقوال شارون، مجرد نكتة، لكن شارون لا يحب أن يرى معارضيه يقفون على أرجلهم، وهكذا، وبعد فترة قصيرة، وعلى مسمع من الديبلوماسي الأميركي ريتشارد فيربانكس، أعاد شارون تهديداته، إنما هذه المرة ضد واشنطن؛ إذ أعلن «ان اسرائيل قد تجد نفسها مضطرة لإسقاط طائرات التجسس الأميركية أواكس AWACS التي سلمت للسعودية قبل يوم واحد فقط. إذن، لا بد من الأخذ بعين الاعتبار، كل ما يقوله شارون.

خلال شباط ١٩٨٢ تحركت اسرائيل، لتثبت لواشنطن ان ما سمعه فيليب ليس مجرد كلام؛ فأرسلت رئيس جهاز استخبارات جيش الدفاع الاسرائيلي الميجر جنرال يشوع ساغي، إلى واشنطن طلباً لموافقة أميركية على غزو لبنان، على عكس ما فعل قبل شهر، تشاور شارون هذه المرة مع بيغن وشامير، موافقة بيغن تعني أنه هو أيضاً في وارد الحرب، لكنه لا يريد لجيش الدفاع الاسرائيلي القيام بهذه المهمة قبل اطلاع الولايات المتحدة الأميركية، على أن منظمة التحرير الفلسطينية تخرق وقف اطلاق النار الذي اتفق عليه نتيجة لمساعيها الحميدة. إن اسرائيل تريد وقف إطلاق نار شاملاً جميع الجبهات، بينما الارهابيون يواصلون تحركهم على جبهات أخرى. فعلى سبيل المثال، يوم ٢٩ كانون الثاني، ألقي القبض على فريق من الارهابيين وهم يتسللون عبر الحدود الاردنية، وهذا ما تعتبره اسرائيل خرقاً لوقف اطلاق النار. والذي تريده اسرائيل، هو اقتناع واشنطن بتفسيرها هذا لاتفاقية وقف اطلاق النار، وفي هذه الحال، يحق لاسرائيل استعمال جميع أسلحتها ضد منظمة التحرير الفلسطينية. وهكذا يتضح ان مهمة ساغي في واشنطن، وبالتحديد لدى وزير الخارجية هايغ، هي مهمة سرية.

ليس شارون مع اختيار ساغي، فبين الاثنين ما بينهما، والسبب لبنان، وهذا ما جعل شارون يخشى أن ينقل ساغي هدوءه إلى هايغ، لكن بيغن طمأنه، إلى أن ساغي سيقوم بمهمته

على أكمل وجه؛ ولكن أحداً من المسؤولين، لا بيغن ولا غيره من الوزراء، حدّد ما يجب أن يقوله ساغي لوزير خارجية أميركا، مما جعل رئيس الاستخبارات ينقل وجهة نظره «إذا واصل الارهابيون خرقهم لوقف إطلاق النار، على أية جبهة ـ فان اسرائيل ستقوم بعملية عسكرية محدودة في لبنان، ساعية أكثر من طاقتها لتحاشي الاصطدام بالسوريين».

هذا ولم يحدث، أن تحادث وزير خارجية أميركي مطولاً، مع رئيس استخبارات جيش أجنبي، وبالمناسبة، فموعد ساغي لمقابلة هايغ لم يكن مسجلاً على دفتر اليوميات. وفي محراب وزير الخارجية الأميركي، نشر ساغي الخرائط التي أتى بها ودخل مباشرة في صلب الموضوع، ومع تطور المحادثات، أحسّ ساغي أن محدثه تفهم ما يعنيه بدقة، وهايغ فهم أن أي خرق لوقف اطلاق النار، وعلى أية جبهة وقع، قد يعتبر ذريعة اسرائيلية للانتقام؛ وان اسرائيل قد تشن حربها الانتقامية هذه، قبل إتمام انسحابها من سيناء في الخامس والعشرين من نيسان، وهذا قد يعطل اتفاقيات كامب دافيد ولربما، اتفاقية السلام المصرية ـ الاسرائيلية أيضاً. بعض كبار موظفي وزارة الخارجية، فهموا أن شيئاً ما يخطط له شارون، وهذا رأي هايغ أيضاً. ولكن الاجتماع مع ساغي وليس مع شارون، وأثناء الاجتماع، وقع ما يشير إلى ضرورة إنهاء الاجتماع، إذ دخل رئيس مكتب هايغ وهمس في أذنه، فامتقع وجه هايغ وسأل ساغي ان يتفضل بالخروج من الباب الخلفي، ويتجنب المرور في قاعة الانتظار الرئيسية، حيث كان السفير السوفياتي أناتولي دوبرنيني الذي وجد أنه من الأفضل عدم تركيز نظره على ساغي، لكنه تعرف عليه من صوره التي تنشرها الصحافة. وقد تكون هذه الحادثة سبباً رئيسياً في عدم الاهتمام بزيارة ساغي؛ لكن وزير الخارجية لم يقل شيئاً عن هذه المسألة، وعن تحديد موعد في مكان غير مراقب، قال السفير الاسرائيلي مؤكداً ان شيئاً من هذا لم يحصل. بعد عودة ساغي بأسبوع، نشرت صحيفة غير معروفة خبراً مفاده ان اسرائيل أرسلت إلى الإدارة الأميركية رسالة تحذير من تزايد نشاط الإرهابيين، وان الذي نقل الرسالة هو الميجر جنرال ساغي وان هذه الرسالة أبلغت للسعودية.

أهم انجازات مهمة ساغي، كان اعتراف هايغ، ان أي عمل إرهابي ضد اسرائيل بغض النظر عن مكان حدوثه على حدود اسرائيل، يعتبر خرقاً لوقف اطلاق النار، باعتبار ان مصدره القيادة المركزية في بيروت. في المقابل، إن وزير الخارجية لم يرَ أن أي عمل إرهابي ضد اليهود والمصالح الاسرائيلية خارج حدود الشرق الأوسط، هو مشمول

بالاتفاق. وأخيراً، وهو الأهم، ان هايغ شدّد على « خرق بارز » للإتفاق. حتى يكون من حق اسرائيل الرد، ولكن الطرفين لم يحددا « الخرق البارز ». وهكذا عاد رئيس الاستخبارات مسروراً؛ وبالوقت ذاته تمكنت الاستخبارات الأميركية من التأكد من جمع تفاصيل مهمة عن خطة عملية اجتياح جيش الدفاع الاسرائيلي للبنان؛ باستثناء القليل. لقد تمكن رجالها من جمع كل ما يشير إلى حجم القوات التي تنوي اسرائيل زجها في المعركة - وفقاً لكل مخطط - وتعرفت أيضاً إلى محاور القتال. أما الذي لم يصل إلى أياديهم أو مسمعهم في اسرائيل، فقد حصلوا عليه بسهولة في لبنان وفي مقر قيادة ميليشيا الكتائب؛ حيث كان عدد من ضباط جيش الدفاع الاسرائيلي، يؤدون مهمات سرية، لقد علموا - أي رجال الاستخبارات الأميركية - بزيارة شارون إلى بيروت وبالمواضيع التي نوقشت أثناء اجتماعه مع بشير الجميل وغيره من القادة الموارنة.

وفي حين كانت اسرائيل تقدم الشكر لاستخباراتها، كانت الاستخبارات الاميركية تستقي المزيد من المعلومات عما سيحدث في لبنان، حتى أنها جمعت من المعلومات أكثر بكثير من أية معلومات جمعتها عن أية حرب سابقة في الشرق الأوسط. مجلس الأمن القومي توصل إلى أن شارون قد يختار احتمالاً من ثلاثة: عملية عسكرية وقصف أهداف فلسطينية، مع إنزال كوماندوس في جنوبي لبنان؛ احتلال الجنوبي لبنان بعد طرد منظمة التحرير منه، وعدم الانسحاب إلا بشرط ضمان عدم عودة الفدائيين إليه ثانية. أما الاحتمال الثالث والأخير، فهو قيام اسرائيل بحملة عسكرية شاملة قد تصل حدودها حتى الاتصال بالمناطق الخاضعة لسيطرة الكتائب وإخراج منظمة التحرير الفلسطينية من أوسع بقعة منه. هذه التصورات هي نتيجة تحليل محادثات شارون مع الديبلوماسيين الأميركيين.

يوم الثامن من نيسان ١٩٨٢، وفي نشرة الأخبار المسائية لمحطة N. B. C، عرض جون شانسلر المعروف بصلاته الوثيقة مع كبار مسؤولي الإدارة الأميركية، أقدم على نشر تفاصيل وافية عن مخطط اسرائيل للحرب في لبنان. ومما قاله شانسلر، إن حملة اسرائيل في لبنان، لن تكون عملاً عسكرياً عادياً، وأشار إلى احتمال اشتراك ١٢٠٠ دبابة فيها، مشيراً على الخرائط أمامه إلى اتجاهات هذه الحملة، شرقاً في وادي البقاع حتى خطوط المواجهة مع السوريين، وغرباً نحو المخيمات الفلسطينية حول صور وصيدا، وان هذا الاتجاه سيمتد حتى الدامور شمالاً. وكشف النقاب عن النية بالتوجه نحو بيروت حيث يتمركز ألفا فدائي.

فإن كان شانسلر يمتلك هذا القدر من المعلومات الدقيقة، فما الذي يعرفه الجالسون في

البنتاغون ووزارة الخارجية الذين كان بينهم عدد لا بأس به، يؤمن بإمكانية تفادي المعركة العتيدة.

وخلافاً لما كان يتوهم الكثيرون، فالاتصالات بين واشنطن ومنظمة التحرير الفلسطينية، كانت تتم بصورة منتظمة، وكادت - في فترة من الفترات - تصل إلى حدود « الخط الأحمر » وإن كانت أميركا غير قادرة على كبح جماح اسرائيل، فانها قادرة على تسريب ما يصلها من المعلومات عن التحركات الاسرائيلية إلى المنظمة. وهذا ما حدث فعلاً بعد الغارة الجوية - ٢١ نيسان - على أهداف فلسطينية شمالي نهر الزهراني، إذ أُعلم الفلسطينيون، ان هذه الغارة ليست تمهيداً لاجتياح؛ وهذا ما جعلهم يمتنعون عن الرد.

وانطلاقاً من إحساس فيليب حبيب إن بلاده عاجزة عن ضبط الأمور في لبنان. آل على نفسه السعي إلى تقريب وجهات النظر بين اللبنانيين، ونزع قواعد الصواريخ السورية من وادي البقاع، أكثر من السعي إلى تثبيت وقف إطلاق النار في الجنوب.

في الثاني من آذار،

رغم تظاهر عشرة آلاف سوري احتجاجاً على استعمال واشنطن حق النقض VETO في مجلس الأمن الدولي، ضد قرار إدانة اسرائيل لضمها هضبة الجولان.

ورغم أن لواءين من الجيش السوري، أعادا - مؤخراً - تنفيذ خطة حرب يوم الغفران في مناورة عسكرية.

ورغم الفتور في العلاقات بين دمشق وواشنطن.

رغم هذا كله، جاء فيليب حبيب إلى العاصمة السورية سعياً وراء أهدافه.

حافظ أسد وافق على استقبال المبعوث الأميركي، لاقتناعه أن أميركا وحدها قادرة على منع اسرائيل من غزو لبنان، ورغبة منه في متابعة الحوار مع العاصمة الأميركية.

جاء فيليب حبيب وهو يعرف سلفاً، ان الرئيس السوري يحاول جاهداً منع انفجار الحرب في المنطقة؛ وان وزير خارجيته عبد الحليم خدام اجتمع سراً بياسر عرفات، وطلب إليه الضغط على حلفائه اليساريين في لبنان وعلى المنظمات الفلسطينية، لمنعهم من الإقدام على أي عمل يستفز اسرائيل فتعتبره مبرراً لما ترغب هي القيام به.

في دمشق، تحدث فيليب حبيب، فأعطى صورة قاتمة عما يجري في اسرائيل من استعدادات في حال استمرار الإرهابيين بأعمالهم الاستفزازية، لقد صور اسرائيل كالعصا الطويلة، لإخافة سوريا، ظناً منه أنها متعبة بسبب احتلالها قسماً كبيراً من الأرض اللبنانية،

وانطلق في الحديث إلى ضرورة سحب الصواريخ من وادي البقاع، والجيوش السورية، بعد الاتفاق على مرشح لانتخابات رئاسة الجمهورية القادمة؛ لكن هذه الآمال تبددت أمام إصرار الرئيس السوري على دعم مرشح موالٍ لدمشق، قد يكون فرنجية.

في الحقيقة ان الأميركيين، كانوا عيناً على سوريا والفلسطينيين وعيناً أخرى على شارون الذي ينتظر فرصة لاقتناصها فيحقق طموحه. ومؤخراً، وبعد اطلاع هذا الأخير على طلب الملك حسين من العربية السعودية إرسال طائراتها الحربية إلى الأردن، ثار وهدّد بتدمير هذه الطائرات، معتبراً ان أية قوة عربية تتمركز في الأردن، تشكل تهديداً لأمن اسرائيل، حتى ولو كانت قوات بلد موالٍ لأميركا. والحقيقة أيضاً، ان علاقة شارون بالمسؤولين الأميركيين، إن في واشنطن أو في تل أبيب، لم تكن على ما يرام؛ وأقدم أخيراً على اعتبار اتفاقية وقف اطلاق النار مولوداً ميتاً.

إضافة إلى أسبابه الخاصة، يعتقد الأميركيون أن شارون كان يطمح لفرض سيطرته على الضفة الغربية والقادة الفلسطينيين فيها، من خلال التهديد بحرب لبنان. وكتحدٍ لهذه الخطة، أقدم السفير الأميركي، صامويل لويس على تحذير عددٍ من الوزراء وكبار الضباط من أن تصرفات شارون لن تجلب سوى الجنون له وللآخرين وأنه ـ أي شارون ـ إذا كان يعتقد أن تدميره لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، سيجعل من الأردن وطناً بديلاً لهم وأنه سيفرض شروطه في المفاوضات المقبلة حول مستقبل الأراضي المحتلة «فان حرباً كهذه لن تكون حرباً سهلة» خوف لويس من الحرب في لبنان مردّه: «ان هذه الحرب ستتطور إلى حرب مع سوريا، التي ستضاعف من تهديدها للمصالح الأميركية». أما مصادر الاستخبارات الأميركية فقد كانت تنفي تقديرات اسرائيل ان سوريا راغبة في استفزاز اسرائيل للقيام بعدوان عسكري خلال صيف ١٩٨٢.

انطلاقاً من هذه المعطيات، لم تبدي واشنطن أي حماس، لطلب شارون زيارتها خلال شهر أيار المقبل. قبيل وصوله، كانت وزارة الخارجية الأميركية قد أعدت ملفاً كاملاً عن ردود الفعل العالمية المحتملة، على أي عمل عسكري في لبنان، وكل التقديرات كانت تشير إلى سلبية هذه الردود، فكيف إذن إذا اتسعت رقعة الحرب وشملت بلداناً أخرى؟ ورغم هذا، كانت تل أبيب تتلقى تقارير تفيد أن بعض الدوائر في العاصمة الأميركية. تؤيد قيام اسرائيل بعملية محدودة، وان هذا التأييد مستمر، طالما أن العملية ما تزال ضمن الحدود المعقولة، بمعنى عدم التعرض للمدنيين. وزير الخارجية، شامير، استلم رسائل تفيد

أن عدداً من كبار المسؤولين الأميركيين، يفضلون عملاً عسكرياً لإخراج السوريين من لبنان؛ وهذا ما جعل عدداً من الوزراء، وشارون من ضمنهم، يعتقدون أن عملاً عسكرياً سريعاً ومفهوم الأهداف، لن يلقى أية معارضة أميركية. وعلى هذا الأساس. ذهب شارون إلى واشنطن.

قبل وصوله، كانت العاصمة الأميركية تتشرف باستقبال من سيكون رئيساً لجمهورية لبنان ـ دون أن يحلم به أحد ـ أمين الجميل: الذي صرف معظم أوقاته يتحدث عن حرب مرتقبة، وكأنه كان يجد فائدة في تذكير الأميركيين بأهداف الحرب الاسرائيلية في لبنان مركزاً أسئلته على: ماذا يعرف مضيفوه عن موقف اسرائيل من سوريا؟ وبعد أن تنتهي من منظمة التحرير الفلسطينية، هل لديها أية تخطيطات لمهاجمة سوريا أيضاً؟

أمين الجميل، جاء إلى واشنطن ممثلاً عائلته ـ التي تعني حزب الكتائب ـ ليتأكد من اطلاع أميركا على خطة اسرائيل الحربية. فتعطش الجميل لفهم كل مخططات اسرائيل، مرده رغبته ان يكون مطمئناً لدمشق.

وبقدر ما أحيطت زيارة أمين الجميل بالسرية، كان شارون يرغب بتغطية زيارته اعلامياً على أوسع مدى؛ دون علم منه؛ إن الأميركيين لم يعطوا زيارته أية أهمية تذكر، وأنهم يودون صادقين الحؤول دون مقابلته الرئيس، وعدم إحياء وثيقة التفاهم الاستراتيجي التي لم تعمر طويلاً. وحتى اعلان الحكومة الأميركية عزمها على زيادة المساعدات المالية لاسرائيل، أُجّل موعده لحين مجيء مناحيم بيغن في زيارة مرتقبة، خلال الشهر القادم. لكن شارون لم يأتِ إلى واشنطن من أجل هذا كله، هدفه مختلف جداً، لذا لم يصب بخيبة أمل لعدم مقابلته الرئيس الأميركي.

لم يقطع أريل شارون كل هذه المسافة إلا ليقابل رجلاً واحداً، هو ـ بنظره ـ وحده يتحدث بالأفعال؛ إنه وزير الخارجية الكسندر هايغ الذي التقاه على مدى ساعتين ونصف الساعة بحضور مساعديهما. ومن خلال ما دار بينهما من أحاديث يستشف ان أريل شارون ـ وعبره مناحيم بيغن وأعضاء الحكومة ـ يعتقد أن واشنطن لن تعارض أي عمل عسكري في لبنان؛ علماً أنهما لم يحصرا محادثاتها في موضوعه؛ في البدء كانت أحاديث عامة، انطلق منها شارون نحو هدفه المباشر، قائلاً: «ليس بمقدورنا تحمل أكثر مما تحملنا، ليس من دولة تحترم نفسها ترضى التعايش مع هجمات الإرهابيين؛ لا بد من الرد، وقد تندلع الحرب في أية لحظة، حتى لربما ونحن نتحادث هنا».

هايغ، أبدى اهتماماً بتحذير شارون، ونصح اسرائيل بضبط النفس. فانزعج شارون، وأجابه بفظاظة: «ليس من حق دولة أن تعلّم دولة أخرى كيفية حماية مواطنيها». هزّ هايغ رأسه، وكأنه يقول ان ما أحد إلا ويستنتج من أحاديث شارون، ان اسرائيل لم تعد مهتمة برأي واشنطن في هذا المجال. ومن ثم عاد وزير الخارجية، ليعيد على مسمع شارون ما سبق وقاله أمام ساغي، ان على اسرائيل عدم القيام بأي عمل قبل إقدام منظمة التحرير الفلسطينية على خرق وقف اطلاق النار؛ وإلا، فالعالم سيدين أي تحرك اسرائيلي. شارون تابع حديثه في العموميات، لكنه أشار إلى أن مجلس الوزراء لم يوافق على الحرب لسببين: تواجد السوريين في لبنان، ودخول مدينة بيروت. «إننا لا نرغب بمهاجمة سوريا، لكنه يستحيل أن نتحرك دون الاصطدام بالسوريين» فكأنه يفصل بين سوريا والسوريين؛ بهدف الإشارة إلى أن المقصود هو الجيوش السورية المتواجدة على الأراضي اللبنانية». المسألة تتعلق بموقف السوريين، فهل سيتشبثون وساعتئذ نصطدم معهم على نطاق ضيق دون مهاجمتهم، فالهدف الأساسي هو تحطيم منظمة التحرير الفلسطينية عسكرياً وسياسياً. ومضى في حديثه شارحاً فكرته: «السوريون ليسوا هدفنا، ولا إقامة نظام سياسي جديد للبنان الحر، هذه نتائج جانبية لما سنقوم به» فالحرب لن تشن إلا ضد الفلسطينيين.

ثانية عاد شارون وألمح إلى أن جيش الدفاع الاسرائيلي قد يدخل بيروت حين قال: «لا يمكننا العيش مهدّدين بالإرهاب الذي مصدره بيروت... انها كارثة بالنسبة لنا، ولا نرى وسيلة للخلاص غير الذهاب إليه وطرده».

هنا تدخل أحد الأميركيين متسائلاً «إلى أين قد تصلون؟» فأجاب شارون «إلى حيث يجب أن نصل» بعد هذه الأسئلة، تحدث هايغ مبدياً تفهماً لموقف اسرائيل متمنياً أن يكون العمل العسكري سريعاً أولاً، وألا يكون هناك مجال لأي خيار غير الخيار العسكري، لم يفهم شارون المعنى المقصود بالتمام فاستدار نحو السفير موشي آرينز ليقرأ الجواب على ملامحه، وابتسم ابتسامة رضى.

حقيقة، كان شارون سعيداً بنتائج لقائه مع هايغ الذي أعطى اسرائيل الحق باللجوء إلى القوة كرد عملي على الإرهاب الذي تمارسه منظمة التحرير الفلسطينية، وثانية، وكما ردّد على مسمع ساغي أولاً، أعاد هايغ القول: «خرق بارز» دون تحديد هذا «الخرق البارز». مما جعل شارون يفسر هذه الموافقة وفقاً لما يريد هو، واعتبر انه لم يسبق لاسرائيل أن حصلت على هكذا موافقة، لا أثناء حرب يوم الغفران ولا حتى قبل حرب الأيام الستة.

حتى أنه لم يتعب نفسه عناء التساؤل عما إذا كان ما قاله هايغ هو من ضمن سياسة ريغان الأساسية، أم أنه مجرد رأي شخصي لوزير الخارجية. وهكذا عاد شارون إلى بلاده ليعلن أن واشنطن لن تعارض ما سنقوم به في لبنان، وهذا ما كان يخشاه مساعدو هايغ الذين عبروا عن غضبهم علناً، معتبرين أن وزير الخارجية لم يناقش مع شارون إمكانية اندلاع حرب، وانه من المحتمل أن يكون قد أسيء فهم كلامه، وكشفوا عن خشيتهم من تزيين أريل شارون لفكرة الحرب الشاملة في رأس بيغن، ونصحوا هايغ اعلام شارون بوضوح، انه خطأ مميت فهم أقواله كموافقة أميركية على فكرة الحرب.

محضر لقاء هايغ ـ شارون، رفع إلى البيت الأبيض حيث أعطي اهتماماً خاصاً، وتقرر أيضاحه ليس برسالة لشارون بل لبيغن شخصياً. وهذا ما فعله هايغ.

رسالة هايغ، وجهت مباشرة لمناحيم بيغن، وهي تعتبر وثيقة مميزة لأنها تعبر عن سذاجة التفكير عند مسؤول أميركي أراد توضيح أفكاره لئلا تفسّر خطأً فوقع بأخطاء أفدح من السابق؛ إذ صيغت بعبارات غامضة، تحمل بين ثناياها التناقضات، الأمر الذي جعل بيغن يعتبرها مناورة سياسية، لتغطية موقف أميركا في حال تمادي اسرائيل بأعمالها العسكرية.

الرسالة مؤرخة بتاريخ ٢٨ أيار ١٩٨٢ وتتألف من خمس فقرات.

تشير الفقرة الأولى إلى المحادثات التي تمت مؤخراً مع شارون، وتلحظ أن هايغ نقل مضمون أفكار شارون إلى الرئيس. ويغتنم وزير الخارجية الفرصة ليؤكد ثانية ان الرئيس قد تسلم رسالة من مناحيم بيغن بواسطة السفير الاسرائيلي في واشنطن موشي آرينز.

وبعد التأكيد على أنه كان يعبر عن رأي المسؤولين الكبار، انتقل هايغ إلى الفقرة الثانية ليتحدث عن العمل العسكري، مبدياً رغبته بتوضيح الأمور في هذا المجال، وأنه أعلم ضيفه الاسرائيلي ان واشنطن تفضل «قيام اسرائيل بضبط النفس» لأنه لا أحد يعلم نتائج الأعمال العسكرية.

في الفقرة الثالثة، يشير هايغ إلى قول شارون «ليس من حق أحد إفهام اسرائيل أي قرار ستتخذ لحماية شعبها». معبراً عن اعتقاده ان الأمم التي تواجه الأخطار، بما فيها الولايات المتحدة واسرائيل، عليها وزن الأمور بدقة «ولا شك أنها ستكون قادرة على الوقوف بوجه التحدي».

الفقرة الرابعة تتحدث عن محاولات واشنطن التوسط في سبيل حل مشاكل الشرق الأوسط، مشيراً إلى أن فيليب حبيب سيكون في المنطقة قريباً لايجاد حل لمشكلة الإرهاب

ضد المدنيين. البرنامج الموضوع للمبعوث الأميركي يتضمن أولاً محادثات مع قادة في بيروت، ومن ثم التوجه إلى اسرائيل قبل أية دولة أخرى. أما الفقرة الخامسة والأخيرة فتتعلق بأمور شخصية، إذ يقول فيها إنه علم بمرض السيدة بيغن ويتمنى لها الشفاء العاجل.

هذه هي الرسالة وما الجديد فيها؟ لا شيء؛ سوى انها جعلت بيغن يزداد قناعة بأفكار شارون. بعد لقائه مع شارون. عاد هايغ والتقى خلال شهر أيار بالسفير الاسرائيلي في واشنطن، موشي أرينز، وتمت مناقشة الحاجة لحزام أمني في جنوبي لبنان بصورة جدية وبأجواء مريحة وإيجابية.

في الحقيقة أن اسرائيل كانت ترغب في نيل الموافقة الأميركية المسبقة على أية عملية عسكرية تنوي القيام بها، وترفض، ان تغض الحكومة الأميركية الطرف عما سيجري، إنه أسلوب شارون بالاحتيال، فهو يسمع ما يحب.

بعد لقاء أيار، لم يجرِ أي اتصال بين شارون وهايغ، حتى إلا بعد اندلاع الحرب في لبنان بثلاثة أسابيع؛ وبالتحديد يوم ٢٧ حزيران، أي بعد أن أجبر هايغ على الاستقالة. ففي هذا التاريخ أرسل شارون رسالة تقدير لهايغ: «حتى اليوم ما أزال أذكر لقاءنا الأخير، منذ أسابيع في واشنطن» ومضى يقول: «بالنسبة للوضع الخطير في لبنان، فإني أصرّ على أن منظمة التحرير الفلسطينية الإرهابية تهدد السلام في المنطقة. وكما سبق وقلت لك، لا يمكننا العيش طويلاً تحت رحمة النشاط الإرهابي إن في اسرائيل أو في الخارج ـ وهكذا وجدت الحكومة نفسها أمام خيار وحيد، ألا وهو إرسال جيش الدفاع الاسرائيلي لإبعاد مدفعية الإرهابيين وتأمين السلام للجليل ـ أنا عائد لتوي من جولة تفقدية في لبنان، جعلتني ازداد قناعة ان جيش الدفاع الاسرائيلي نفّذ «عملية السلام من أجل الجليل» بمهارة فائقة وحقّق كل أهدافه المرسومة من قبل الحكومة. لقد تمكنا من زحزحة الآلة العسكرية الضخمة للإرهابيين من جنوب لبنان، وها نحن اليوم نحاصر المركز الرئيسي للإرهابيين في بيروت نفسها. وقد جوبهنا أثناء تقدمنا بقرار سوري بالتدخل جواً وبراً، وقد تمكنا من تحطيم المفهوم الاستراتيجي للأسلحة السورية في لبنان؛ التي هي في الأساس لدعم الإرهابيين».

انطلاقاً مما تقدم، أتوجه إليكم بخالص تقديري لتفهمكم الأمر ولتصميمكم العنيد على الكفاح ضد الإرهاب الدولي. ولا شك يمكنك أن تكون فخوراً بما حققت يا معالي الوزير.

الفصل الخامس

الشرك

منذ ما يقارب السنة، وشبح الحرب يقض مضجع ياسر عرفات. كل ما لديه من معلومات، تؤكد وقوع الحرب، ولكن متى؟ هذا هو السؤال المهم الذي لم يجد له جواباً، لا عند استخباراته العالية القدرة على استقصاء المعلومات، ومتابعة تحركات شارون، ولا عند الاستخبارات المصرية التي دأبت على تزويده بما يصلها من معلومات، ولا عند أولئك الأميركيين الذين اكتفوا بتحذيره من عملية عسكرية تعد لها اسرائيل، وحتى تلك المعلومات الراشحة من المعسكر الماروني، لا تحدّد متى. بعد انتشار الجيش الاسرائيلي بكثافة على الحدود الشمالية ـ كانون الأول ١٩٨١ ـ وجد أبو عمار نفسه يقف على المفترق الخطر.

وكم مرة أطلق عرفات صفارات الإنذار من هجوم اسرائيلي قد يقع في أية لحظة، متبعاً ذلك برسائل إلى الملوك والرؤساء العرب متوسلاً المساعدة. وكم مرة رأى الحرب بأم عينيه من خلال التقارير المتراكمة على مكتبه، ومنعته عن النوم، لكنها سرعان ما تعود إلى طبيعتها الورقية؛ إنه مطلع تماماً على تفكير شارون، وهذا ما يزعجه، فشارون مخادع محتال، وهكذا، حين ستأتي الساعة، سيكون عرفات بعيداً عن مكتبه يراجع التقارير المزورة التي خدعته فخدع الآخرين.

عرفات هذا، لم يكن رجلاً هادىء الطباع وحسب، بل كان حيوياً، متعوداً على العذاب، إنه ذاك الرجل الذي كان يتنقل على دراجته، من مدينة إلى مدينة، مؤسساً خلايا مقاومة الاحتلال الاسرائيلي في الأراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧، حتى أجبر على الخروج بناء لضرورات الأمن.

خرج من الضفة الغربية، ليواجه «أيلول الأسود» عام ١٩٧٠، بعد محاولة القوات الفلسطينية خلع الملك حسين والسيطرة على الأردن، بعد الأردن جاء دور لبنان، الذي

أصبح فيما بعد مركز منظمة التحرير الفلسطينية، والمتنفس الوحيد لها، خاصة بعد خروجها من مصر عام ١٩٧٧، ولما تفرضه سوريا عليها من قيود. نعم، تحول لبنان إلى المعقل الأخير لعرفات ورجاله.

الغريب في الأمر أن منظمة التحرير الفلسطينية سكرت بنشوة التأييد، كمقاومة، فتحولت إلى عنصر قابل للتفسخ ونشر الفوضى وعدم الاستقرار. في جنوبي لبنان، تمكنت من التغلب على الجيش اللبناني في معارك عدة، فأبرمت مع الحكومة اللبنانية اتفاقية سمحت لها بالسيطرة على الجنوب، ولكنها تحولت فيما بعد إلى دولة ضمن الدولة.

ومع عام ١٩٧٦، تحولت المنظمة، بفعل تحالفها مع أمل الشيعية، والسنة الرافضين للهيمنة المارونية، إلى أداة الحكم الوحيدة ابتداء من بيروت الغربية وحتى الحدود الاسرائيلية جنوباً. عملياً، هذا التحالف لم يكن سوى تغطية لتصرفات غريبة. فهذه المناطق، كانت محكومة من قبل الشرطة العسكرية. وقد سعت المنظمة لتشديد قبضتها من خلال «المجلس الثوري» الذي كان يقوم بمهمة السلطة العدلية وفقاً لمزاجية «الحكام الثوريين» المتمركزين في صيدا وصور إضافة إلى فروع منتشرة في المناطق الخاضعة لسيطرة الحركة الوطنية.

مسلحو المنظمة، نشروا الفوضى وزرعوا الرعب، فرضوا الخوّات، جبوا الضرائب من ميناءي صيدا وصور ومطار بيروت الدولي، استولوا على البنايات وحوّلوها إلى مقرات لهم ومكاتب، أجبروا أغنياء صيدا وصور وبيروت على دفع مبالغ محترمة، مهددين اقتصاد هذه المناطق بالانهيار. الميجر معين، قائد قوات فتح في النبطية، كان يجبي الضريبة لجيبه الخاص من كل شاحنة تمر في السوق. في صور أقدم عزمي الصغير على إعدام لاعب كرة لرفضه اللعب ضمن الفريق الفلسطيني. هذا ما كان يفعله القادة، أما المقاتلون العاديون، فكانوا يغتصبون الفتيات ويسرقون الناس.

النتيجة الحتمية لمثل هذه التصرفات، خيبة أمل قاتلة لأولئك الجنوبيين الذين استقبلوا المقاتلين الفلسطينيين بالتأهيل والترحاب، أجبرت العديد من الشيعة على ترك بيوتهم وأرزاقهم والرحيل شمالاً نحو بيروت، وهذا ما أفسح المجال أمام هؤلاء الظلمة لزيادة تسلطهم، على الذين ما يزالون متشبثين بجنوبهم، وعرفات لم يكن غريباً عما يجري، ولكنه كان أعجز من أن يتمكن من ضبط الأمور، وعبثاً حاول ردع مقاتليه، حتى لا يخسر حلفاءه ويجعلهم في مصاف أعدائه، لكن قادته، استمروا في إرهاب المواطنين العزّل.

قد يكون هذا تصرفاً طبيعياً، من فئة، كانت لوقت قريب، تحمل السلاح كعناصر فدائية لا رابط بينها، وبدأت تتحول إلى ما يشبه جيش نظامي، فعرفات في مطلع السبعينات، كان يعمل بنشاط وجدية، من خارج لبنان، جاعلاً اسرائيل تفكر باتخاذ أقصى درجات الحيطة، كان يفتش عن ثغرة يتسلل منها إلى داخل اسرائيل. وها هو اليوم يحاول، إعادة تنظيم قواته، وتأسيس آلة عسكرية فعلية لحماية حدود المنطقة التي يسيطر عليها. مع بداية عام ١٩٨١، زود ألوية اليرموك، القسطل، والكرامة بمدفعية ميدان ودبابات. وهذا أمر غير مألوف وغير منطقي بالنسبة لجماعة تعتبر ذاتها تقوم بحرب عصابات، ومن شأنه إفراز جماعات متضررة. مهما يكن، فعملية التأسيس العسكري هذه، تابعت مسيرتها، وتم إنشاء سلاح البحرية في ميناء اللاذقية السورية ونواة سلاح جو في الجزائر.

ورغم أن عرفات كان يرغب في تأسيس قوة نظامية له في لبنان، فانه كان يخشى من عدم قدرته على السيطرة عليها. ولكن «حرب الاسبوعين» تموز ١٩٨١، جعلته أكثر اقتناعاً بالأمر: لقد انتظر عرفات ثلاثة أيام كاملة قبل إصدار أوامره للمدفعية بالرد، ولكن، وبعد قليل، صار يتمنى ترتيباً لوقف إطلاق النار. ومع الأيام انهار وقف إطلاق النار هذا، فما عساه يفعل؟ فليس لديه سوى مدفعين فقط، والباقي، إما دمّر، وإما سحب إلى المنطقة الداخلية.

بعد انتهاء فترة المرارة عاد عرفات للتفكير «بالجولة القادمة»، وهذا يستدعي استعداداً واعداداً، لذا سعى أكثر من مستطاعه للحفاظ على وقف اطلاق النار، حتى تصل المدفعية البعيدة المدى، وساعتئذ، يكون الجليل مدناً وقرى تحت رحمته، دون دراية منه ان فعله هذا يؤدي به إلى أحضان أعدائه، وعلى رأسهم أريل شارون الذي سيقنع بيغن والرأي العام الاسرائيلي أن مدفعية منظمة التحرير الفلسطينية البعيدة المدى تهدّد أمن اسرائيل، ويجب اقتلاعها؛ بعد شارون يأتي السوريون وأتباعهم في منظمة التحرير الفلسطينية الذين سيرون في محافظته على وقف إطلاق النار تهرباً من مواجهة اسرائيل.

إدراكاً منه ان اسرائيل ستخرق وقف إطلاق النار، عاجلاً أم آجلاً، وبعد أسبوعين على اعلان الهدنة، وفيما كان الطرفان ما يزالان يجمعان جرحاهما، أقدم عرفات، في أوائل آب ١٩٨١، على دعوة المجلس العسكري للمنظمة للتباحث بأمر الجولة القادمة. باشر عرفات حديثه بالقول: «علينا تحضير أنفسنا لحرب أخرى» وأعلن عن رغبته في تأسيس أفواج مدفعية، وتحقيقاً لرغبته هذه، أوفد مبعوثين لشراء مدافع متحركة تضرب

ثم تختفي. علماً أنه منذ منتصف عام ١٩٨٠، تلقت قواعد فتح في الجنوب أوامر صريحة بالرد على أي قصف اسرائيلي لها، بسرعة وبعنف، وفي العمق الاسرائيلي، وتأميناً لفعالية القصف، حددت الأهداف، بدقة؛ كل المدن الرئيسية وخاصة: صفد - نهاريا - كريات شمونة؛ على أن تقصف كل واحدة منها تبعاً لأهميتها وعدد سكانها. فوحدة صواريخ غراد تقصف صفد وضواحيها؛ أما وحدة الكاتيوشا، فتقصف نهاريا، وحدّدت مهمة لواء المدفعية الأول التابع لفتح بقصف المستعمرات الزراعية في وادي الحولة والجبال الغربية. وكاحتياط وقائي، كانت الأوامر تصدر بالرموز التي تتغير باستمرار.

منذ تصميمه على مواجهة جيش الدفاع الاسرائيلي، حتى بجيشه الفتي، وياسر عرفات مصمم على جعل هذه المواجهة صعبة بالنسبة لأعدائه «أضرب واهرب» وهكذا أعطيت منظمة التحرير الصبغة الإرهابية إلى الأبد. فالتعليمات واضحة «يجب توجيه الضربة إلى نقطة الضعف عند العدو... تجمعاته السكنية؛ لإحداث بلبلة وصدمة للمهاجرين الجدد؛ وهذا يقتضي قصف أمكنة تجمع هؤلاء المهاجرين الجدد... وتفجير موارد المياه، وخطوط الكهرباء، وإنزال أقصى درجات الأذى».

هذه الاستراتيجية، تتطلب حل مشكلة تأمين المدفعية الثقيلة، فالسوفيات غير ميّالين لتزويد منظمة التحرير الفلسطينية بمثل هذه الأسلحة. ففي اجتماع مغلق مع هيئة أركانه تحدث عرفات عن زيارته الأخيرة لموسكو؛ شارحاً كيفية معاملة السوفيات لأصدقائهم. في المطار استقبل بجفاوة وأنزل في فيلا فخمة على تلال لينين. مرافقه كان فاسيلي كورداسيف، رئيس مجلس السلام السوفياتي؛ وحين ابتدأت المحادثات سأل كورداسيف «كيف الطقس في بيروت؟» وأجاب عرفات «حار» واستطرد «وحتى الجو السياسي حار أيضاً» هنا ضحك كورداسيف وهو يجيب «لا تحفل بشيء، فغداً بعد تأسيس دولتكم، قريباً جداً سنرسل لكم عدداً من جبال الثلج فتسقط الحرارة» وهكذا فهم عرفات أن السوفيات يودون التملص من تعهداتهم السابقة إزاءه.

أراد عرفات المتابعة حتى النهاية «ولماذا لا ترسلون لنا اليوم قمة جبل منها، لأنه إذا استمر الوضع على ما هو عليه، فلن يكون بمقدوركم إرسال أية هدية، لأنكم لن تجدوا عنواناً لنا» وجل ما قدّمه السوفيات، كان النصائح: احتموا بالجيوش السورية المتواجدة في لبنان. وعبثاً حاول عرفات إفهامهم ان السوريين متمركزون في الخطوط الخلفية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وان اسرائيل لا تريد رأس السوريين، بل رأسي أنا، وان أية مشكلة

بين اسرائيل وسوريا قد تسوى سياسياً وبدون معارك، لكن منطقه لم يجدِ. أندريه غروميكو ويوريس بوناماريف، وجها اللوم لعرفات على توجيه التحيات لواشنطن أثناء اجتماعه بالمستشار النمساوي برونو كرايسكي. «والحقيقة أن السوفيات رفضوا التعهد بمد منظمة التحرير الفلسطينية بالسلاح» هذا ما أفشى به عرفات لبعض أصدقائه بعد عودته لبيروت. متناسياً ان هناك أسباباً جوهرية أخرى أهم بكثير من تلك التي تحدث عنها عرفات جعلت السوفيات يحجمون عن مده بالسلاح. أهم هذه الأسباب، أنه بدأ يتصرف في لبنان على أنه الوطن البديل عن فلسطين وقد سبق لأبي إياد وأعلن أن طريق القدس تمر في جونيه، وأن قواته تتصرف مع المواطنين اللبنانيين - حتى حلفاء القضية الفلسطينية - بوحشية ولا أخلاقية. ومن ثم تناسى عرفات ان حرب منظمة التحرير الفلسطينية هي في أوجه عدة، حرب طائفية، وهذا ما يرفضه السوفيات، كما ويرفضون جر اليسار اللبناني إلى معارك عسكرية، التي من شأنها إفقاده القدرة على التحرك واكتساب الأصدقاء.

فاروق القدومي رئيس الدائرة السياسية للمنظمة ارتأى الرد على الموقف السوفياتي بالتوجه نحو الصين الشعبية. أما أبو زهير فاقترح التشهير بالسوفيات «لرفضهم مدّنا بالمساعدة».

بعد التفكير، وبعد التراشق المدفعي الذي حصل في تموز ١٩٨١، حلّت المشكلة، ووقع أبو جهاد - خليل الوزير - عقوداً لشراء المدفعية والأسلحة الخفيفة، مع ألمانيا الشرقية، بلغاريا، تشيكوسلوفاكيا؛ أما كوريا الشمالية فقد وافقت على بيعهم قاذفات صواريخ كانيوش ٣٠ أنبوباً. وكذلك تمكن من شراء عدد من دبابات ت ٣٤ T. 34 من هنغاريا ألحقت بالفوج الرابع - لواء الكرامة - المتمركز في قرية يانطا.

جيش الدفاع الاسرائيلي تابع كل هذه التحركات واهتم جداً بالتطورات العسكرية التي تطرأ على منظمة التحرير الفلسطينية، حتى تأكد، ان كل ما يجري هو تمهيد لأعمال إرهابية جديدة؛ وان الفلسطينيين قد بدلوا في استراتيجيتهم، فبعد أن كانوا يمارسون أعمالهم الإرهابية على شكل حرب العصابات، صاروا اليوم يستعدون للهجوم بوحدات نظامية. وأهم ما لفت انتباه ضباط جيش الدفاع الاسرائيلي، ان هذه الدبابات القديمة الصنع، ما تزال قادرة على المناورة وإعطاء الفعالية المطلوبة.

بعد نجاح مناورات يانطا، أخذ الفلسطينيون يبحثون سراً عن أسلحة جديدة، أحمد جبريل الأمين العام للجبهة الشعبية - القيادة العامة، أجرى محادثات مع مصانع الأسلحة في

سويسرا ، في حين ذهب آخرون إلى البرازيل لشراء مدفعية ذات مدى يطاول الاربعين كلم .
والحقيقة ان منظمة التحرير ، تمكنت ، خلال سنة واحدة من مضاعفة قوتها القتالية بنسبة ٣٠٠٪ ـ ٨٠ مدفع في تموز ١٩٨١ مقابل ٢٥٠ في حزيران ١٩٨٢ ـ وزعت على سبعة ألوية : أربعة تابعة لفتح ، اثنان للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين بقيادة نايف حواتمة وواحد تابع للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش ، وهكذا انتظم الفدائيون في وحدات عسكرية نظامية . وبهدف جعل الرماية أكثر فعالية وتدميراً ، جعلت المدافع وحدات وحدات وكذلك الدبابات .

المضحك في الموضوع ، ان توزيع الوحدات الفلسطينية بهذا الشكل سهل مهمة جيش الدفاع الاسرائيلي والكتائب معاً ، إذ من السهل جداً قصف هكذا تجمعات قصفاً مركزاً . وهذا ما انتبه المقاتلون العاديون ووجهوا اللوم لعرفات بسببه ، لكن القائد الأعلى لقوات منظمة التحرير الفلسطينية ، كان يرى عكس ما يراه المقاتل العادي ، إنه لم يكن يعد لخوض معركة مواجهة مع جيش الدفاع الاسرائيلي بقدر ما كان يعد لمعركة لا تقل أهمية مع القوات المسيحية . بعض كبار قادته بما فيهم أبو جهاد وأبو الوليد وسعد صايل ، رئيس الأركان ، فهموا ان عرفات لا يريد مواجهة اسرائيل ، بقدر ما كان يعمل لمنعها من غزو لبنان .

التشرذم ، علّة العلل ، وشيء مدمر حتى في الحركات السياسية ، فكيف إذن في المؤسسات العسكرية ، وهذه هي علة قوات منظمة التحرير الفلسطينية .

ممدوح نوفل ، واحد من قادة الجبهة الديمقراطية معروف بجرأته وحسن تخطيطه للقيام بعمليات إرهابية ، رفع مذكرة إلى عرفات يحثه فيها على توحيد جميع القوى ، إذ ما الفائدة من مرابض المدفعية البعيدة المدى ، دون المدافع المضادة للطائرات لحمايتها . وقدم مثلاً على ذلك ، لنفترض أن الطوافات الاسرائيلية هاجمت قاعدة ما ، وليس هناك أجهزة اتصال تمكنها من طلب المساعدة من منظمة أخرى ، يتمركز مقاتلوها بالقرب من القاعدة التي تقصف ؟

بالمختصر ، أراد نوفل من مذكرته تنبيه عرفات إلى ضرورة الفصل بين السياسة والقوة العسكرية ؛ إذ من الأفضل لمنظمة التحرير الفلسطينية الإقدام على خطوة جريئة تتمثل بتوحيد أجهزة الاتصال ، تقسيم المناطق إلى أقسام قتالية ، ووضع القوات في القواعد المناسبة ، بغض النظر عن الخلفية السياسية ، وكل هذا يتطلب قيادة موحدة ، بمعنى أن

المقاتل في أرض المعركة يتعاطى مع قائد المنطقة وليس مع المكتب السياسي لأية منظمة .
النقطة الإيجابية الثانية في مذكرة نوفل تتمثل بضرورة اعطاء القدرة الحركية للأفواج المتواجدة في الجنوب ، وتغذيتها بالمزيد من العناصر ، من خلال تدريب ميليشيات في مخيمات اللاجئين بالقرب من صيدا وصور والنبطية وبيروت . ويتابع نوفل شرحه ، انه في حالة الطوارىء ، يمكن للميليشيات في هذه المخيمات ان تدافع عنها في حين يتفرغ المقاتلون النظاميون للقتال على خطوط المواجهة ، وهكذا يكون يقترح تزويد هذه الميليشيات بمدافع مضادة للطائرات وتدريبها على إقامة خطوط دفاعية .

وانتهى إلى ما هو أهم من هذا كله ؛ ألا وهو أهمية الموقف الداخلي في أية معركة فتجربة تموز ١٩٨١ ، علمته ان الشعب سرعان ما يشعر باليأس ، ولم لا ، طالما أن مقومات الصمود غير متوفرة ، والتي هي أولى متطلبات الدفاع عن النفس .

وبسرعة استجاب عرفات لثلاثة اقتراحات من مذكرة نوفل ؛ وأعطى الأولوية لأجهزة الاتصال ، حتى أنه سمح بشراء أجهزة من صنع شركة تاديران Tadiran الاسرائيلية ؛ كما وأولى اهتماماً خاصاً بالحاجات الضرورية لحالات الطوارىء فأمر بحفر الخنادق والممرات تحت الأرض ، لتأمين الاتصال البشري وخزن الضروري . أهم مما تقدم ، كان إعلانه التجنيد الاجباري بين صفوف الفلسطينيين الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة عشر والتاسعة والثلاثين . وقبل أسبوع من اندلاع الحرب أصدر أمراً بتجنيد الأولاد الذين هم ما فوق الاثنتي عشر سنة من العمر والذين آباؤهم يخدمون في فتح ، على أن يدفع لهؤلاء الأولاد أربعمائة ليرة لبنانية شهرياً ويلحق كل واحد منهم بالفوج الذي يخدم والده فيه .

المشكلة الأهم ، بالنسبة لعرفات ، كانت في قلة عديد الاحتياط وهذا ما تحدث عنه بغضب أمام المجلس العسكري . « أيعقل ألا نكون قادرين على استدعاء أكثر من ثلاثة آلاف احتياطي ؟ وألا نكون قادرين على تحريك ميليشياتنا من مكان إلى آخر ؟ » سوريا تمنع أي تحرك للفلسطينيين المتواجدين على أراضيها ، أما في لبنان ، فإننا نتصرف وكأننا لا نعرف ماذا نريد . قيادة فتح شرعت تستعد بقوة لتجنيد أكبر عدد من الاحتياط ، فأجبرت ، حتى الموظفين الاداريين في منظمة التحرير ، التدرب على حمل السلاح العيش بقساوة وتقشف فوق العادة والعيش في الطبيعة وتناول الطعام من خيرات الأرض بما فيها الأفاعي . ولكن المشكلة تفاقمت ، ورفض البعض الاستجابة ، فحتى ابن شفيق الحوت ـ مدير مكتب المنظمة في بيروت ـ رفض التدرب على السلاح ، وحين عرض الأمر على

ياسر عرفات أجاب بصوت واضح: « دعوه، فهو ليس الوحيد، على كل نحن بحاجة إلى ديبلوماسيين ».

الواضح أن المنظمة كانت تفتقر إلى التعاون العسكري، وهذا ما أثير خلال اجتماع للمجلس العسكري بحضور قادة المناطق وعلى رأسهم ضابط موال لعرفات، الذي كثيراً ما كان يهدد بسحب صلاحيتهم بالقوة. وتمادى جماعة فتح في غيهم فكانوا يلاحقون كل من لا يواليهم، حتى أنهم لم يرعووا عن دخول مواقع للجبهة الشعبية بقيادة جورج حبش أو الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة بقيادة أحمد جبريل للقبض على عنصر فار أو رافض التعاون، وهذا ما جعل الأحداث تقع فيما بين هذه المنظمات.

السؤال الذي طرح أكثر من مرة هل ياسر عرفات هو الشخص المناسب لقيادة المنظمة. في مطلق الأحوال إنه إنسان لغز. فملايين القراء ومشاهدو التلفزيون، لا يرون فيه صورة البطل العسكري أو القائد الثائر، رغم محاولاته جعل نفسه غيفارا فلسطين. إنما علينا ألا ننسى أنه يتصرف مع رجاله بتواضع كلي مما أكسبه محبة الكثيرين الذين ينادونه « الرجل العجوز »؛ والذين أيضاً، لا ينكرون انه زارع بذور المقاومة في الأراضي العربية المحتلة. إلا أن الذي يحول اليوم بينه وبين رجاله، كثرة المساعدين وضرورة الاحتراز.

حتى منتصف عام ١٩٨٢، لم يتجرأ قائد فلسطيني واحد، على مقارعة أبي عمار ومعارضته عسكرياً؛ لكن أبا موسى، أحد قادة فتح الموالين لسوريا تمرد على رئيسه، وبأسلوب دموي، دون أن يغير شيئاً في الموضوع، فأبو عمار ما يزال قائداً أعلى للقوات المسلحة، ورئيس المنظمة، مدعوماً من عدد من رجالاتها المعروفين وعلى رأسهم أبو جهاد.

كنائب لعرفات، وكواحد من أقرب المقربين إليه، كان أبو جهاد وما يزال الرجل القوي في المنظمة، المعروف ببرودة طبعه، حتى أنه لم يحرك ساكناً، حين أقدم جندي سوري على رمي ابنه عن الشرفة ومات، ومعروف عنه أيضاً أنه خطط لعملية ميونيخ عام ١٩٧٢، أو الهجوم على الفريق الرياضي الاسرائيلي المشارك في الألعاب الأولمبية، وهو كعرفات أيضاً محبوب من الجميع ومهاب في آن.

وإذا كان أبو جهاد يتصرف على أنه المسؤول عن النظام بين صفوف المقاتلين، فأبو إياد ـ صلاح خلف ـ رئيس جهاز الأمن الموحد، يتصرف هو أيضاً على أنه مسؤول عن تقصي المعلومات، واضعاً بذلك الأسس المتينة لجهاز الاستخبارات. أبو إياد، الطفل المشاكس، قصير القامة عريض المنكبين لا هو راديكالي ولا هو متزمت، لقبه معارفه بقيصر

الاستخبارات ولا غرو في ذلك فهو أول من عرف بزيارة شارون السرية لبيروت واطلع على ما توصل إليه من نتائج في محادثاته مع الكتائب. الأمر الثاني، الذي توصل أبو إياد إلى كشف حقيقته، هو الخطة الكتائبية ـ الاسرائيلية المشتركة للقيام بعملية عسكرية في الدامور، حيث لمنظمة التحرير قاعدة تدريب بحرية وأجهزة رادار ومستودعات ذخيرة، وكإجراء احتياطي، أمر عرفات بتقوية الموقع وإرسال وحدات إضافية من جيش التحرير الفلسطيني إلى هناك؛ رغم هذا، فالشكوك ساورت أبو إياد، حول مصداقية بشير الجميل في هذا الموضوع، وكرجل استخبارات، حلّل المعطيات، فلم يجد ما يبرر تورط بشير مباشرة في هكذا أمر، والحقيقة أبدى اهتماماً بقادة الكتائب، وبمعرفة ماذا يريدون، وحتى يتحقق من ذلك، قرّر فتح قنوات اتصال مباشرة معهم. فاجتمع بالشيخ أمين، وسأله مباشرة: « هل تتعاملون مع اسرائيل؟ » وجاء الرد واضحاً وسريعاً « أبداً لا ». لكن الزعيم لم يقتنع، لا لوم عليه، فهو يريد الانصراف إلى محاربة أعدائه غير خائف من أن سكيناً ستطعنه في ظهره. وثانية قرر الاتصال ببشير مباشرة؛ لعله ينجح في التخفيف من حماسه، ومن تعاونه مع اسرائيل، ويتفادى حصول العملية. بل قل أكثر من ذلك، كان يريد إبعاده عن اسرائيل، وإن فشل في مسعاه هذا، لا بأس، فستكون المنظمة قد ربحت وقتاً. فاقترح تقليص عدد القوى المرابطة على خطوط التماس في العاصمة، دون جدوى، وبعد تفكير عرف أن عليه التوجه نحو بشير عبر حلم واحد فقط، انتخابات رئاسة الجمهورية المقبلة.

وبسرية تامة وابتداء من شباط تمت اللقاءات بين أبي الزعيم ـ عطاالله عطاالله ـ وبشير الجميل في الأشرفية. وفي كل مرة كان هذا الأخير يلجأ إلى أسلوب التهديد المبطن « إذا حدث وقتل اسرائيلي، فلن ينتظر بيغن انتهاء التعزية، بل سيصدر أوامره الفورية لشارون بغزو لبنان في اليوم التالي. انه احتمال منطقي وجدي، وأنتم تعرفونه جيداً ».

لم يشأ أبو الزعيم إخفاء معرفته بالموضوع « نعم نحن نعرف أننا نواجه ثلاثة ارهابيين ـ بيغن، شارون، وإيتان ـ لا يمكنك تقدير ما سيفعلونه غداً ».

ودخل بشير مباشرة في صلب ما يريد: « نريد العودة للدامور ولكل القرى والمدن التي أجبرنا على هجرها... وليس بمقدوري اعطاءك أية معلومات عن غزو اسرائيلي محتمل، فقادتها يعلنون ذلك يومياً، في الصحافة، وعلى شاشات التلفزة. دعنا نتفاهم ونتوصل إلى حل، وهكذا نحول دون ما تخافونه ونمنع المجزرة ».

التقط أبو الزعيم براداره الخاص ذبذبة الانذار الموجه من بشير الجميل الذي طلب ثمناً غالياً؛ ولنفترض ان الدامور أعيدت للكتائب، فهذا سيسهل عملية الاتصال بالاسرائيليين، والإلتفاف حول بيروت. ونظراً لكون أبي الزعيم مطلعاً على فكرة العملية المشتركة في الدامور، فقد صار نهباً للوساوس والتكهنات.

وأكمل بشير كلامه: «لنفترض أن الجيش الاسرائيلي دخل الدامور، وقال لمهجريها، هذه مدينتكم عودوا إليها، فما الذي يمكنني فعله في مثل هذه الحال؟ وما الذي تتوقعونه مني؟».

«إننا نجري محادثات مع فرنسا ونمد جسوراً نحو واشنطن، وأعتقد انه خلال سنوات ثلاث ليس أكثر ستكون لنا دولتنا المستقلة في فلسطين» هذا ما قاله أبو الزعيم، ولكن بشير صاح، أنا لا يمكنني الانتظار ثلاثة سنوات، «فإما الدامور اليوم، أو لا اتفاق». وهنا طلب أبو الزعيم مهلة لعرض الموضوع على المسؤولين في المنظمة.

جن جنون عرفات: أي اقتراح خطير هو هذا؟ وتمعن أبو عمار به ملياً، فرأى بين ثناياه شركاً ومصيدة. فإن وافق الفلسطينيون على اجراء مفاوضات معه، من يدري، فقد يتخلى عنهم ساعة يشاء، وقد تسجل نقطة سوداء في سجل عرفات، علاوة على ما تقدم فإن هكذا محادثات تساعد بشير الجميل في انتخابات رئاسة الجمهورية دون أي تعهد منه. وحين حاول أبو الزعيم تلطيف الأجواء، تدخل أبو عمار قائلاً: «من فضلك، اسقط هذا الاقتراح من رأسك» المصالحة معهم مجرد حلم. وإذا كان أبو عمار قد تأمّل بمنع الغزو الاسرائيلي، فإنه الآن يتوقعه كل ساعة.

قد يكون عرفات، يرغب حقاً بإيجاد تسوية سلمية للنزاع الفلسطيني ـ الاسرائيلي؛ لكن الذي يجري على الأرض لا يؤكد ذلك. «إن منظمة التحرير الفلسطينية، لن تغادر لبنان لأي مكان في العالم غير فلسطين». إنه الربط بين الأزمة اللبنانية والقضية الفلسطينية، وهكذا، تتعمق الهوة بين الكتائب خاصة والموارنة عامة من جهة والفلسطينيين من جهة ثانية. بشير لا يرى ان الفلسطينيين راغبون بالعودة إلى بلادهم، لأنهم لو كانوا كذلك، لوجب عليهم انتهاج سياسة توصل بهم إلى أهدافهم».

في مجالسه الخاصة، كان ياسر عرفات يبدي استعداده للاعتراف باسرائيل مقابل إقامة دولة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة. لكن الحديث شيء والفعل شيء آخر. فسياسة منظمة التحرير لا تشجع على إقامة حوار مع واشنطن في البدء ـ على الأقل ـ ومن

ثم مع اسرائيل. وأميركا، وإن كانت مؤخراً قد تعاملت مع المنظمة وجعلتها وصية على وقف إطلاق النار، فقد أوصت فيليب حبيب بعدم اجراء أي اتصال مباشر مع عرفات أو مساعديه ما لم تعترف المنظمة بقرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢.

انقطعت الاتصالات الكتائبية ـ الفلسطينية، ولم ينقطع الأمل بردع أو تأجيل الغزو الاسرائيلي للبنان. أبو أياد، بمساعدة فاروق القدومي ـ رأى ضرورة تنفيذ استراتيجية بديلة. فبدلاً من تسليم الأرض للكتائب في بيروت، لماذا لا نتراجع من الجنوب ونسلمه إلى قوات حفظ السلام في لبنان، بعد التفاهم مع الاميركيين، عبر السفير فيليب حبيب ومساعده موريس درايبر، على هذا؟ فاروق القدومي ذهب إلى حدود التخلي عن قلعة الشقيف المطلة على الجليل؛ لكن الاسرائيليين رفضوا التخلي عن إنش واحد في منطقة الرائد سعد حدّاد. وهكذا، انقلب الاقتراح، فبعد التفكير بإخلاء قلعة الشقيف، تم تعزيز القوة المتواجدة فيها وسمح للسوريين بتركيز مدفعيتهم هناك ـ وعاد شبح الرعب يطل من الشبابيك ضاحكاً على بني البشر ـ.

أوليس من سخرية القدر، ان يتصارع الفلسطينيون والكتائبيون، صراعاً مدمراً ومميتاً، في حين ان هدفاً رئيسياً يجمع فيما بينهم ـ حرباً اسرائيلية ـ سورية؟ وليس بمقدور أي من الطرفين نكران ذلك؛ لا عرفات، ولا بشير.

بعد إطلاق عرفات إنذاره الكاذب في شباط، بدأ الاهتمام بمنظمة التحرير الفلسطينية يميل نحو الهبوط. الاميركيون أفهموا عرفات ان السلام مرهون بعدم خرق وقف اطلاق النار، خالد الحسن، تلقى إشعاراً أميركياً أنه لا خوف من هجوم اسرائيلي. هذا الاشعار جاء بعد زيارة ساغي لواشنطن. وفي الحادي والعشرين من نيسان أقدمت اسرائيل على قصف مواقع فلسطينية في الجنوب، رداً على مقتل جندي اسرائيلي بانفجار لغم تحت سيارته في منطقة سعد حداد. ماذا فعلت أميركا؟ تمنت على الجميع ضبط النفس إلى أقصى الحدود. واستجاب ياسر عرفات. ولكن في التاسع من أيار تغير الوضع، إذ أمرت مدفعية الفلسطينيين بقصف التجمعات السكنية في الجليل، رداً على القصف الاسرائيلي لمواقعهم.

ليس غريباً أبداً ولا شاذاً، أن يتحول موضوع وقف إطلاق النار إلى حكاية مملة ومسببة للمتاعب في آن؛ كل الأطراف يريدون الحفاظ عليه وهم هم يسعون إلى خرقه. ويضعون الخطط لمواجهة البادىء بالفعل. الموقف في اسرائيل واضح وجلي، لن تسقط

شعرة من رأس مواطن اسرائيلي أو يهودي، وعلى أية بقعة في الكرة الأرضية، دون ثمن. والثمن قصف المواقع الفلسطينية في جنوبي لبنان. أما في منظمة التحرير الفلسطينية فالموقف مختلف. هناك فريقان، فريق يعلن أنه غير معني باتفاقية وقف إطلاق النار، وفريق آخر يطالب بإلحاح الحفاظ على استمرار الهدوء؛ وبين الفريقين، كان ياسر عرفات في الوسط، وفي المجلس العسكري الأعلى التابع لمنظمة التحرير تم الاتفاق على الرد على أي قصف اسرائيلي، أما في حال القصف الجوي فمن الأفضل التريث لمعرفة خلفية العمل.

هذا التبدل في التفكير، أثار خيال الكثيرين: محمود عباس - أبو مازن - اقترح على ياسر عرفات تركيز القصف على المدينة الساحلية نهاريا. لماذا نهاريا وليس غيرها؟ لأن نهاريا مأهولة من اليهود الغربيين - اشكينازي - وهؤلاء وحدهم يشكلون قوة الضغط على الحكومة وليس سكان كريات شمونة الذين هم من يهود الشرق وأفريقيا. والحقيقة أنه كان على عرفات التكيف مع الواقع المستجد، واقع ترقب وانتظار الغزو؛ شاء ذلك أم أبى. في سره، كان يعتقد أن أي خرق اسرائيلي لوقف إطلاق النار، يعني بداية الاجتياح، ولهذا، اعلن حالة الطوارىء - يوم الحادي والعشرين من نيسان، وأمر مقاتليه بالتنسيق مع السوريين إلى أقصى الحدود. واستناداً إلى ما زودته به استخباراته من معلومات، اعتقد أن جيش الدفاع الاسرائيلي سيصل إلى حدود نهر الزهراني، مع قصف بيروت، دون التفكير مطلقاً أنه سيتابع طريقه نحو بيروت، حتى ولو أقدم الكتائبيون على ذلك؛ هذا من جهة، أما من جهة أخرى، فقد أبلغ السوريين ان استراتيجية العدوان الاسرائيلي لا تميز بين الفلسطينيين وبينهم ولهذا ليس مستبعداً أن تكون القوات السورية في البقاع مستهدفة هي الأخرى، وانطلاقاً من هذه المعطيات تم التوصل في دمشق إلى وضع الخطوط العريضة لخطة التنسيق الدفاعي بين منظمة التحرير الفلسطينية والسوريين. وعلى هذا الأساس، ذهب أبو موسى إلى دمشق طلباً للمساعدة في صد الهجوم المحتمل. في هذه الأثناء كان لواءا اليرموك والكرامة يعيدان تمركزهما بمواجهة الحزام الأمني، مدعومين من الفرقة السورية الأولى في وادي البقاع. جميع الاجازات ألغيت واتخذت جميع الترتيبات لنقل الميليشيات من المخيمات: كما صدرت الأوامر بإخلاء الدبابات لمواقعها والتراجع إلى الوراء، رغم أن دورها في الخطوط الخلفية، غير ذي أهمية، ولكن «نفضل ألا نخسرها».

معلومات الاستخبارات الفرنسية، كما سربتها مصادر وزارة الخارجية اللبنانية، كانت تقول: إن اسرائيل ستعتمد كلية على سلاح الجو لتدمير مركز المنظمة في بيروت وقصف

أي موقع آخر، وانها استبعدت فكرة القيام بعملية مشاة حفاظاً على سلامة جنودها. ازاء هذه المعلومات، كان على منظمة التحرير الفلسطينية انتهاج استراتيجية دفاعية جديدة: الاعتماد على المدافع المضادة للطائرات وصواريخ سام ٧ - Sam 7، تأمين أكبر قدر من الحماية للمقاتلين، إبعاد الأذية عن المدنيين العزّل، ولكن الفلسطينيين عادوا ووقعوا بخطأ أفدح، حين أقدموا على تلغيم الطرق والجسور والأراضي المحيطة بمواقعهم إن في الجنوب أو في بيروت، دون وضع أية إشارة إلى وجود ألغام.

في اجتماعه بتاريخ ٢٨ نيسان، أقر المجلس العسكري الفلسطيني الاستراتيجية الدفاعية بصورة نهائية. في بداية الاجتماع تحدث أبو عمار فقال: «أريدكم أن تعلموا أننا نواجه أميركا قبل اسرائيل» فعرفات يعرف ان واشنطن مطلعة على المخطط الاسرائيلي وموافقة عليه، وانتهى إلى «ما هو أهم، أننا هذه المرة سنكون وحدنا في المعركة، الكل سيتخلى عنا» هذا الكلام هو إشارة واضحة إلى حلفائه أثناء الحرب الأهلية في لبنان - الشيعة والدروز - ولربما، كان عرفات يعني السوريين أيضاً؛ رغم أن مصادره تثبت ان جيش الدفاع الاسرائيلي، لن يكون رحوماً مع السوريين. شيء واحد لم يتمكن عرفات من معرفته، ألا وهو دخول بيروت؛ كان يتوقع كل شيء، ولم يخطر بباله أن شارون سيركب رأسه ويجتاح لبنان كله. لماذا؟ «لأن الزمن الذي كان يتوهم الاسرائيليون فيه أنهم سيقضون على منظمة التحرير قد انتهى» هذا في رأي عرفات.

وأصدر المجلس العسكري أمره العملاني رقم واحد، والذي طلب فيه من جميع القوى اتخاذ أقصى درجات الحيطة والحذر، من هجوم اسرائيل محتمل قد يتم خلاله إنزال على الشواطىء جنوبي بيروت - الدامور خاصة - ونبّه إلى أن جيش الدفاع الاسرائيلي يخطط للوصول حتى نهر الزهراني مروراً بصور غرباً. وقد تنبه كاتب التعميم إلى ضرورة إعطاء لمحة عن تفكير شارون الرجل المخاطر، المجازف، الذي يحب المغامرة وراء خطوط القتال. في هذه الأثناء كان اللواء السوري ٤٢٠ بدباباته الستين - ت ٥٤ وت ٥٥، يتمركز على طول الساحل الممتد من بيروت حتى الأولي شمالي صيدا منعاً لأية عملية إنزال من البحر - والذي حدث فيما بعد، أكد أن منظمة التحرير كانت تعرف عن مخطط شارون، أكثر مما يعرفه مجلس الوزراء الاسرائيلي ذاته -.

مع انتصاف شهر أيار، بلغت الاستعدادات الدفاعية حدها الأقصى، خلايا المقاومة المتواجدة في المناطق الخاضعة لقوات حفظ السلام، أعطيت التعليمات اللازمة لعرقلة التقدم

الاسرائيلي بأي ثمن. الحاج اسماعيل قائد لواء القسطل، جمع ضباطه لإطلاعهم على المستجدات «علمنا من الأردن أن أميركا اعطت اسرائيل الضوء الأخضر، للقيام بعملية محدودة. ـ هذا ما اتفق عليه أثناء اجتماع هايغ ـ شارون، أوائل أيار ـ فكيف وصلت إلى هنا؟ ـ ومواجهة للوضع تم وضع رموز جديدة للاتصالات اللاسلكية، وتم أيضاً إنشاء غرفة عمليات مشتركة تتمثل فيها جميع المنظمات. وفي بيروت، تواصلت أعمال التحصين والتلغيم وعلى الجهة المقابلة واصلت القوات اللبنانية تحصين مواقعها.

في هذه الأثناء فان الأمين العام المساعد للأمم المتحدة بريان أوركهارت Brian Urquhart يزور المنطقة للبحث في أمر تعزيز قوات حفظ السلام، وأثناء اجتماعه بياسر عرفات سلّمه هذا الأخير رسالة موجهة إلى مناحيم بيغن «منك أنت، كرجل مقاومة، تعلمت كيفية التوفيق بين التكتيك السياسي والعسكري. وأنت وحدك من بين خلق الله كلهم، من يجب عليه أن يعرف، انه ليس من الضروري أن نلتقي في ساحة المعركة وحسب، فلا ترسل جندك بطلبي، ولا تحاول تحطيمي في لبنان، لأنك ستفشل».

بوجه ممتقع، استمع بيغن إلى الرسالة، دون أن يلفظ ولو بكلمة واحدة، على كل، هذه الرسالة، هي أول اتصال مباشر بين الرجلين.

وفيما كان المقاتلون الفلسطينيون يترقبون التاريخ وأحكامه، كان عدد من قادتهم يعيش القلق. أبو الوليد، بحكم منصبه كرئيس للأركان يعرف جيداً عدد الثغرات في جهازهم الدفاعي. لذا فهو يرفض التضحية بالوحدات ويفضل العمل لا بأسلوب المواجهة، بل بأسلوب الطعن من الخلف. وإذا كان لا بد من المواجهة، فالتراجع أفضل حل، حتى ولو بالطائرة. ممدوح نوفل كان يعتقد ان المعدات الموجودة حالياً بين أيدي المقاتلين تسمح لهم بالصمود فترة أطول بكثير من الماضي «لدينا القدرة على التصدي للعدو وإعاقة تقدمه ومنعه من بناء خطوطه الأمامية». لكنه بالوقت ذاته يعي «اننا غير قادرين على ابقائه داخل حدوده». وانتهى إلى اقتراح حرب العصابات من الخلف حتى ولو واصل العدو زحفه حتى الشمال، لأننا في هذه الحال «نجعل تقدمه صعباً ومكلفاً».

الرجل الوحيد الذي ما يزال يؤمن باحراز نصر جديد، هو ياسر عرفات. قبل أسبوعين من اندلاع القتال، تجول في الجنوب متفقداً المواقع تحدث إلى المقاتلين وشاركهم الطعام. من قلعة الشقيف أطل عرفات على الجليل ووادي الليطاني وهناك حث رجاله على الصمود ستة وثلاثين ساعة فقط، بعدها نكون توصلنا إلى وقف جديد لإطلاق النار.

وعمت الدهشة الجميع، حتى أكثر المقاتلين براءة؛ انه شيء لا يصدق. كيف يمكن الصمود دون أية تعزيزات. إنهم ينتظرون القدر. وانكسر الصمت «مستحيل، سيقطعوننا أرباً أرباً» قال قائد الموقع، لكن عرفات هدأ من روعه. إنه فعلاً، كان مؤمناً ان هؤلاء الخمسة عشر مقاتلاً قادرون على الصمود إما حتى إعلان وقف اطلاق نار، أو حتى دخول السوريين المعركة.

الحقيقة، كان عرفات يعرف كل شيء، إلا الأهم: التاريخ ـ الوقت ـ. وهذا ما جعله يعيش الأشهر الأخيرة قلقاً وحيرة. إنه لأمر غريب فعلاً، أن يكون مطلعاً على دقائق الخطة، ولكن، وهنا بيت القصيد: متى تنفذ؟ ربك يعلم. من هنا، كان صوته صباح الثالث من حزيران ـ بعد مقابلته للسفير السوفياتي في بيروت الكسندر سولداتوف وبعد معرفته باغتيال السفير الاسرائيلي في لندن ـ خالياً من أية نبرة قلق. وفي اليوم ذاته أصدر بياناً نفى فيه أن تكون للمنظمة أية صلة أو مسؤولية في العملية ـ اغتيال السفير ـ وصباح اليوم التالي ٤ حزيران كان في جدة، في مهمة وساطة لإنهاء الحرب الايرانية ـ العراقية.

الفصل السادس

الانفجــار

في ساعة متأخرة من ليل الثالث من حزيران ١٩٨٢، أبلغت القدس، ان ارهابيين حاولوا اغتيال السفير الاسرائيلي في لندن: شلومو آرغوف.

وعند التاسعة والنصف، من صباح اليوم التالي، انعقد مجلس الوزراء بحضور كبار الضباط، مدير الأمن العام، رجال الاستخبارات والمستشارين المتخصصين بمكافحة الارهاب. **الغائب الحاضر**، كان شارون الذي يقوم بزيارة سرية لرومانيا. وفيما المجتمعون، ينتظرون بيغن، كانوا يحدّقون بكرسي شارون الخالي، فيشعرون به وكأنه موجود. حين دخل مناحيم بيغن، بوجهه العابس وجبينه المقطّب، سكت الجميع وتوقفت الهمهات.

وبدون أية مقدمات، **افتتح** بيغن الجلسة معلناً «لم نكن نتوقع منهم ما فعلوا، على كل إن أي اعتداء على سفير اسرائيلي هو بمثابة اعتداء على دولة اسرائيل ذاتها... وسنرد عليه» كلام بسيط وعادي، لكنه خطير... خطير جداً. مسكين شارون، كم كان يتمنى - ويسعى جاهداً - لمثل هذه اللحظة... لحظة اتخاذ قرار الاجتياح. هذا القرار الذي اتخذ ليلاً، أثناء لقاء رئيس الأركان بمناحيم بيغن، وتأجل تنفيذه، حتى يسمح للوزراء بالمشاركة بتحديد الأهداف التي سيقصفها سلاح الطيران.

بعد بيغن تحدث مدير الامن العام موضحاً، ان السفير آرغوف تعرّض لمحاولة اغتيال أثناء خروجه من فندق دورشستر Dorshester بعيد منتصف الليل الفائت، سكوتلاند يارد لم تصدر أي بيان حتى الآن. إنما، تمكنا من معرفة الجهة الفاعلة، إنهم من جماعة أبي نضال؛ لذا أترك الكلام لمساعد رئيس الوزراء لشؤون مكافحة الارهاب، جدعون ماخنايمي Gideon Machanaimi الذي ما إن وقف، حتى صاح به بيغن «لا ضرورة لإلقاء المحاضرات، كلهم منظمة التحرير الفلسطينية». وما الفائدة من الكلام؟ وكما بيغن،

كذلك إيتان، الذي تقدم منه أحد رجال الاستخبارات لإبلاغه أن أبا نضال وراء العملية، فتمتم وهو يتابع سيره «أبو نضال أبو شميدال لا يهم. المهم أن القصف سيطال الجميع. مساكين رجال الاستخبارات سهروا الليل حتى عرفوا من المسؤول. وها هم اليوم يواجهون بهكذا مواقف.

أحد رجال الأمن البريطانيين المكلفين حراسة آرغوف، تمكن من القبض على واحد جريح من المهاجين، لكن الاسكوتلاند يارد، تبدو أنها غير مستعجلة في الكشف عن هويته؛ رافضة ـ حتى الإفصاح عن اسمه. مها يكن، فالعملية كانت مدروسة بإتقان، فالمهاجون يعرفون آرغوف، ويعرفون انه كان مدعواً لمأدبة تضم أربعة وثمانين سفيراً في فندق دورشستر. بعد انتهاء الوليمة، انتقل عدد من السفراء إلى قاعة مجاورة، فلما غادر آرغوف المكان برفقة عدد من زملائه السفراء، وبينما هو متجه نحو سيارته، أصيب برأسه، برصاصة انطلقت عن بعد عشرين متراً. وحتى الصباح، كانت الأخبار تتساقط على اسرائيل؛ لكن رواية واحدة، من بين كل الروايات، ساعدت على اكتشاف هوية الفعلة. هذه الراوية تقول إن النار أطلقت على أرغوف من سلاح غير عادي، بولوني الصنع يعرف باسم WZ 63 وهو سلاح مثالي «للعمليات الخاصة» Special operation. وبعد التدقيق في السجلات، تبين لرجال الاستخبارات الاسرائيلية، ان جماعة أبي نضال وحدهم، من بين جميع المنظمات الارهابية، يمتلكون هذا النوع من السلاح. وبعد أربعة أيام، انكشفت الحقيقة، إذ تمكنت الشرطة البريطانية من اعتقال الفريق بكامله، وأعلنت ان مروان حسن البنا، حامل جواز سفر أردني، هو المسؤول عن الفريق المؤلف من أربعة أشخاص. الثلاثة الآخرون، اعترفوا بالجريمة موضحين انهم تلقوا أوامرهم من العراق، أما السلاح فقد استلموه من الملحق العسكري العراقي في السفارة العراقية بلندن.

ولكم كان بود رجال الاستخبارات اطلاع مجلس الوزراء على حقيقة أبي نضال، الصديق القديم لعرفات، والعدو اللدود اليوم، بعد انشقاقه عن عرفات أعلن في بغداد ان «المجلس الثوري» الذي يرأسه، يهدف إلى تصحيح المسار التاريخي للحركة ـ يعني حركة فتح ـ واتهم عرفات وأعوانه بالخيانة العظمى ولم يتورع عن تسمية هذا الأخير «بابن اليهودية» لذا، فإن حياته في خطر. عرفات بدوره حكم عليه بالاعدام، رافضاً أية وساطة بينهما. ومن أجل تحقيق أهدافه، أنشأ أبو نضال ـ بمساعدة الاستخبارات العراقية ـ معسكراً سرياً قرب بغداد، يتدرب العناصر فيه على عمليات الكمائن والاغتيالات، بعض

هذه الفرق، كانت مخصصة لاغتيال قياديي منظمة التحرير الفلسطينية، وقد تمكنوا من اغتيال سعيد حمامة ـ ممثل المنظمة في لندن، لعلاقاته مع الاسرائيليين ـ وللسبب ذاته اغتالوا عصام السرطاوي في ليشبونة أثناء حضوره مؤتمر الاشتراكية العالمية؛ وقبل شهر من محاولة اغتيال آرغوف وضع جماعة أبي نضال متفجرة أمام أحد مكاتب م.ت.ف. في صيدا. والمعروف ان هذه الجماعة لم تقم بأي نشاط عدائي موجه ضد اسرائيل والاسرائيليين لا في الداخل ولا في الخارج، ولهذا، فقد تخوف المحقق البريطاني، من أن يكون هدف الجماعة بعد آرغوف، اغتيال نبيل الرملاوي، الذي حل محل سعيد حمامة في لندن ـ لكن شيئاً من هذا لم يحدث، مما جعل المراقبين يعتقدون ان محاولة اغتيال آرغوف، تعتبر منعطفاً حاداً في توجهات هذه الجماعة.

ولكن متى عرف السبب، بطل العجب. فالعراقيون يريدون ـ أولاً ـ الانتقام لقصف المفاعل النووي في حزيران الماضي. وثانياً، فهم، مثل جميع العرب، متخوفون من هجوم اسرائيلي على الفلسطينيين في لبنان، ولكنهم في الوقت ذاته يعرفون، ان هذا الهجوم سيجعل سوريا في موقف حرج. فإذا امتنع الرئيس السوري حافظ أسد عن مساعدة الفلسطينيين فسيبدوا متنكراً لوعوده، وإن تدخل، فسيهزم جيشه أمام جيش الدفاع الاسرائيلي، وفي مطلق الأحوال، فبغداد هي الرابحة.

إن كان هذا تفكير بغداد، فما هو تفكير أبي نضال. لا شك، إنه يصب بذات الاتجاه مع فارق بسيط، بغداد تفكر بإزعاج دمشق، وأبو نضال يفكر بالقضاء على المنظمة، وهذا ما أعلنه صراحة بعد أربعة أيام في مذكرة تشرح أسباب اغتيال آرغوف «اغتيال آرغوف ليس عملاً ارهابياً، بدليل ان المهاجين لم يحاولوا إيذاء أحد من المتواجدين في المنطقة. أما لماذا أختير آرغوف، فلأنه كان يسعى إلى دمج مبعوثي م.ت.ف. في ما هو معروف عالمياً بالشكل اليهودي. وانتهت المذكرة بتوجيه سؤال إلى عرفات «أين المئتي مليون دولار التي جمعتها من دول الخليج؟ أين التحصينات والمتاريس وأسلحة المضاد للطائرات؟ هل أنفق المبلغ في بيوت الدعارة وتجارة المخدرات؟».

بعد إسكات بيغن مستشاره لشؤون مكافحة الإرهاب، اقتنع الجميع ان الحرب لا بد واقعة؛ وبالفعل، طلب بيغن من رئيس الأركان، اقتراح الأهداف التي ستقصف. إيتان، اقترح أن يقوم سلاح الطيران بتدمير مراكز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت الغربية، ومن حسن حظ إيتان، ان أياً من الموجودين لم يتكرم بتقديم اقتراح بديل.

هنا لا بد من التذكير، انه سبق لسلاح الجو الاسرائيلي وقصف بيروت الغربية - تموز ١٩٨١ - موقعاً عدداً كبيراً من القتلى بين المدنيين، وجاءت ردة الفعل العالمية عنيفة بقدر عنف الغارة، وقررت واشنطن يومها معاقبة اسرائيل فأوقفت تسليمها طائرات ف ١٦ F 16، ولكن القدس اليوم، وبسبب محاولة اغتيال سفير - تناست ما حدث في العام المنصرم؛ وهي تريد ان يكون العقاب قاسياً جداً.

بعد اقتراح الأهداف، عاد إيتان وفاجأ الوزراء باقتراح تأجيل القصف إلى الغد. لماذا؟ حتى يكون موجعاً أكثر، إذ أن جميع المسؤولين في منظمة التحرير، هم اليوم - بعد محاولة اغتيال السفير - في حذر شديد، ولا شك انهم مثل الآخرين يريدون النجاة بجلدهم. لكن بيغن رفض الاقتراح معللاً رفضه، بأن القصف الفوري يعتبر رداً على ما جرى في لندن، والحقيقة ان بيغن كان يريد البدء بعملية الانتقام ومجلس الوزراء ما يزال منعقداً؛ قديماً قال المتنبي تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. وهذا ما جرى لبيغن، إذ حالت الأحوال الجوية دون قيام طائراته الحربية بالمهام التي كلفت بها صباحاً، فتأجلت العملية إلى عصر اليوم ذاته، وقبيل بدء السبت[1].

ملاحظة إيتان هذه، كانت أشبه بأشعار لزملائه ان الفلسطينيين لن يقفوا مكتوفي الأيدي، وفي هذه الحال، فإن رد جيش الدفاع الاسرائيلي سيكون رهيباً، لم يشرح كيفية الرد، ولماذا؟ فالجميع يعرف ما سيفعله الجيش الاسرائيلي في حال إقدام الفلسطينيين على قصف الجليل. وخيم صمت على القاعة، كاد أن يكون طويلاً، لو لم يقف ساغي ويقول: «أتوقع أن يكون الرد الفلسطيني موجعاً».

إنه لشيء فظيع، أن **يتحلّق** الوزراء حول الطاولة يوم الرابع من حزيران وهم لا يعلمون شيئاً عما يدور في رأس العسكريين. وقد ازدادوا فضولاً بعد إصدار الأوامر الخطية للقوات المسلحة بقصف مواقع منظمة التحرير الفلسطينية في جنوبي لبنان، في حال سقوط أية قذيفة في الجليل. عدد كبير من الوزراء وقف متسائلاً - في سره - عن طبيعة الرد الفلسطيني، لكنهم اقتنعوا بكلام إيتان وساغي: إن منظمة التحرير الفلسطينية ستكون مجبرة على الرد. غير أن أحداً لم يحرّك ساكناً، ويتساءل: إلى أين المصير، فكأن أفكارهم سلبت من رؤوسهم؛ **فما من رجل واحد** رفع إصبعه طالباً مناقشة ما سمع، وطرح

(١) يبدأ السبت اليهودي بعيد ظهر الجمعة وينتهي مع إنتهاء ظهر السبت.

مشروعاً بديلاً. وقبل أن يغادروا المكان، دعاهم بيغن للإجتماع بمنزله ليلة السبت «سنجتمع لنرَ ما الذي يحدث».

بعد إنتهاء الإجتماع، توجه عدد من الوزراء إلى نادي الصحافة في تل أبيب لتناول طعام الغداء مع عدد من المراسلين - هذا اللقاء كان معداً قبل محاولة اغتيال آرغوف - . وفيما هم يتناولون الطعام، كانت الطائرات تصم آذانهم بهديرها وضجيجها. مراسلو الصحف، لم يكونوا بحاجة للإستفسار عن وجهة هذه الطائرات، لأنهم يعرفون؛ غير أن العيون - عيون الوزراء خاصة - كانت تعبّر عن القلق. أحد الوزراء تمتم قائلاً: «مهووسان يتحكمان بمصير البلاد»، ومن باب اللياقة والأدب، لم يحاول أي من المراسلين الإستفسار عن هذين المهووسين في بادىء الأمر، لكن أحدهم انحنى نحو الوزير وسأله «أتشير إلى بيغن؟» فانتبه الوزير إلى خطورة كلامه وحاول تغيير مجرى الحديث، ولكن الجميع أدرك أنه يعني شارون وإيتان.

هناك في مكان آخر، من الشرق الأوسط، وتحديداً في المملكة العربية السعودية، كان ياسر عرفات يفكر: ماذا يفعل؟ إنه يعي خطورة الرد على غارات الطيران. ولكن، لا يجوز له مطلقاً أن يحول دون الدفاع عن النفس. تحركه الوحيد كان **تأكيد بيان نبيل الرملاوي** الصادر في لندن، والذي ينفي فيه مسؤولية منظمة التحرير الفلسطينية في محاولة اغتيال آرغوف؛ وليعلن أيضاً، أنه يمتلك خطة واسعة عن أطماع إسرائيل في لبنان، وعما تنوي فعله هناك، كما أخبره «صديق أميركي».

الساعة ٣،١٥ من بعد ظهر يوم الجمعة، أغار أول تشكيل إسرائيلي على بيروت الغربية، موقعاً الخراب والدمار، ناشراً الموت، راوياً الأرض بالدماء. وبعد ساعتين وخمس دقائق، كان الجليل يتعرض لقصف فلسطيني، عنيف، ومن شتى أنواع الأسلحة الثقيلة، صواريخ الكاتيوشا، ومدفعية الميدان: لقد إبتدأت الحرب بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية.

مع بداية إنحسار يوم السبت، بدأ الوزراء يتوافدون إلى منزل مناحيم بيغن، وشارون كان بينهم. فقد عاد سريعاً من رومانيا. وفي هذه الجلسة وافق الوزراء - على سبيل التسوية - على ما باشر به جيش الدفاع الإسرائيلي من أعمال عسكرية منذ ما بعد ظهر أمس. كل واحد من الوزراء، كان يعي خطورة ما يجري، ويعرف **أنه مطالب اليوم بالاقتراع على** حرب شاملة من أجل إسكات مدفعية الفلسطينيين في جنوبي لبنان وليس على غارة جوية،

كما حدث أمس.

منذ بعد ظهر أمس، وبعد الغارة الإسرائيلية على غربي بيروت، تسعة وثلاثون مستعمرة في الجليل، تتعرض للقصف المدفعي الفلسطيني؛ وحكماً، هذا القصف، لم يستثنِ مدينتي كريات شمونة شرقاً ونهاريا غرباً على شاطىء البحر الأبيض المتوسط. قبيل بدء التصويت في مجلس الوزراء الإسرائيلي على الحرب الشاملة، كان الفلسطينيون قد أطلقوا ما لا يقل عن خمسماية طلقة، موزعة بين قذائف المدفعية وصواريخ الكاتيوشا. وهل هناك، بعد، أي وجود لوقف إطلاق النار ؟.

أول المقترحين، كان شارون، طالباً الموافقة على غزو **لبنان**[2] وتدمير البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية. ولا شك أن هكذا اقتراحا، يتطلب موافقة الأغلبية إن لم يكن الإجماع. هذا الإقتراح يطرح استطراداً أسئلة عدة: ما هي الأهداف، إلى أي عمق سيصل جيش الدفاع الإسرائيلي، وكم من الوقت تستغرق؟ تلك الدقائق الحرجة في جلسة مجلس الوزراء مساء ذاك السبت، تساعدنا على التأكيد عما أريد للمجلس أن يفهم من « حدود العملية » وعما إذا كان الوزراء وافقوا على الوصول إلى بيروت؛ كما وتلقي الأضواء عما إذا كان المجلس قد وافق على تحرك عسكري يجعل من الإشتباك مع السوريين أمراً لا مفر منه.

في البدء، حددت مهمة جيش الدفاع الإسرائيلي ضمن حدود أربعين كيلومتراً، وهي المسافة الكافية لإبعاد الجليل عن مرمى نيران مدفعية الارهابيين، وهذه هي المسافة التي طلب كل من وزير الدفاع ورئيس الأركان من الوزراء الموافقة عليها؛ دون أن يشير أحد إلى ما هو أبعد من ذلك، وإن أحداً لم يقترح التقدم شمالاً، نحو الحزام المسيحي حول بيروت والإلتقاء بالقوات الكتائبية. حتى أن « عملية الصنوبرة » لم تطرح. **جل ما نوقش مساء ذاك السبت، كان ضرورة إبعاد مدفعية الإرهابيين.**

غرق الوزراء في عالم صمتٍ، قطعه وزير المواصلات موردخاي تسيبوري الذي طلب مناقشة الخطة. وهنا لا بد من التذكير، إنه سبق لتسيبوري، ولأشهر خلت، وأعرب عن مخاوفه إزاء ما يعده شارون من حرب شاملة في لبنان، قد تجرّ إلى حرب مع السوريين.

(٢) يرجى الإنتباه إلى كلمة لبنان. إنها المرة الأولى التي ترد على لسان أي من الوزراء حين الحديث عن الحرب: إن للكلمة معنى شمولياً وليس محدوداً.

إنه، كغيره من الوزراء، موافق على عملية موجهة مباشرة **ضد المدفعية والبنية التحتية** لمنظمة التحرير الفلسطينية في جنوبي لبنان، ولكنه يختلف عن غيره في رفضه لفكرة التقدّم شمالاً؛ وتخوّفه من التغلغل نحو وادي البقاع وحتى إلى بيروت. والجدير بالذكر أيضاً، أن تسيبوري ـ وقبل تعيين شارون وزيراً للدفاع ـ كان معارضاً لفكرة التعاون مع الكتائب، ولطالما حذر من أن هذه العلاقة قد تجبر إسرائيل على الإنجراف وراء **منافعها** العسكرية. ومن هذا المنطلق، **ندّد** بهذه العلاقة يوم كان نائباً لوزير الدفاع في حكومة بيغن الأولى. وحذّر يومها أيضاً من السماح لرئيس الأركان وكبار الضباط. وشارون ضمناً، بتصعيد الوضع؟ لئلا تفرض على إسرائيل حرب هي بغنىً عن خوضها. قد تكون مناقشات تسيبوري مفيدة وصائبة، لأنه الوحيد ـ باستثناء شارون ـ بين الوزراء الذي يفقه بالأمور العسكرية، وأسئلته قبل الخامس من حزيران عكست تخوفه من أن عرض فكرة الحرب على مجلس الوزراء، دون وجود خطة متكاملة، تعني الطلب منه الموافقة على مخططات طموحة.

« لديَّ بعض الأسئلة » هذا ما استهل به تسيبوري كلامه. **أولاً**: **القول** بإبعاد المخربين أربعين كيلومتراً هو قول غامض. أطلب تحديد الخطوط التي سيتوقف جيشنا عندها؛ في هذه الحال يمكننا متابعة تقدمه من التقارير، أو من خلال ما سيقال هنا في هذا المجلس.

ثانياً: كون عدد من الأهداف الفلسطينية، تقع ضمن المنطقة التي يسيطر عليها السوريون، فهذا يعني أننا نهاجم سوريا، وإني لعلى يقين، أن هذه خطيئة مميتة.

ومن ثم رفع صوته وهو يقول: حتى لو بقي للمخربين جيوب في القطاع الخاضع للسيطرة السورية، فإن السوريين يعرفون كيف يمسكون بزمام أمورهم ويجبرونهم على المحافظة على وقف إطلاق النار.

هنا تدخل بيغن مقاطعاً، بإسلوب إستاذ الصف « أتسمح لي؟ لقد سبق وقلت إننا لن نهاجم سوريا ».

« ليس مهماً ما نقرر هنا » قال تسيبوري « المهم أن ما نقرره هنا من تحركات سيؤدي بنا إلى الإشتباك مع السوريين ».

وارتفعت حدة الجدل بين الرجلين، خاصة حين رفض بيغن كل ما تقدّم به تسيبوري، منتهياً إلى القول إن إشتباكنا مع السوريين مرهون بمن سيبدأ. فإذا هاجم السوريون جيوش إسرائيل، فليس أمامنا سوى خيار واحد، خيار المعركة ».

« وإذا تطور الأمر، حيث سنكون خلف السوريين، فإنهم لا شك سيقومون بما يمليهم

الواجب» قال تسيبوري موضحاً، وهذه تختلف عنا، فأنا من خلال **خبرة أربعة وثلاثين سنة** مع السوريين ـ أعتقد ـ وأحداث الماضي تؤكد ـ أنهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي، فيما نحن نقصف مواقعهم... ومن ثم، قد يكون السوريون، إما راغبين في الحرب، وإما راغبين في ضبط تحركات المخربين في مناطقهم، بمعنى أنهم أرادوا طوعاً مراقبة المخربين، أوَليس من واجبنا، أن نأخذ هذا بعين الاعتبار، فلماذا نضع أنفسنا في وضع، يجبر السوريين على القتال؟» وأضاف تسيبوري «أريد أن أوضح شيئاً مهماً لرئيس الوزراء والوزراء، ألا وهو أننا نمتنع عن التفكير بكيفية تدمير قدرات الإرهابيين المستقبلية.

«أبداً لم أقل ذلك» قال بيغن.

وتابع تسيبوري قائلاً: أتمنى القضاء على الإرهابيين، فأنا لا أشك في أننا ألقينا القبض على مخرب، سنطلق سراحه فيما بعد، ولكن، وفي المستقبل لا شك أننا سنواجه هكذا مشكلات... وإن لم يكن دون مستوى الإرهاب الحالي. في هذه الحال، وطالما أن لبنان يفتقر إلى حكومة قوية كحكومة الملك حسين، فإن علينا عدم التكلم عن اقتلاع الإرهابيين، لأننا سنصادفهم غداً، وهذا يفيدنا جداً في كيفية تحركنا.

الجدال محتدم، شارون يشارك الوزراء صمتهم. ومع اقتراب الجلسة على الإنتهاء، طلب بيغن من إيتان الرد على أسئلة تسيبوري. لكن إيتان لم يعطِ أي إيضاح للنقطة الأولى التي طرحها تسيبوري. بالعكس بدأ بالنقطة الثانية: تحديد الأربعين كيلومتراً منطلقاً من المطلة أقصى مستعمرة في شمالي الجليل، بمعنى أن المسافة ستصل إلى بحيرة القرعون شرقاً وإلى نهر الزهراني غرباً.

هنا تدخل شارون موضحاً، «صيدا تبعد ٢٤ كيلومتراً عن الشاطىء، أما بالنسبة للجهة الشرقية، فبحيرة القرعون هي الحد الأقصى».

هذه المداخلة، أوضحت ما يدور في الرؤوس. وبالرغم من هذا تساءل أحد الوزراء «وبيروت؟»

«بيروت خارج الموضوع»، بوضوح أجاب شارون واستطرد يقول «عملية السلام من أجل الجليل، تهدف إلى إبعاد المدفعية الفلسطينية عن قرى ومستعمرات الجليل، ولا تهدف إلى احتلال بيروت... إننا نتحدث عن **مدى** أربعين كيلومتراً وهذا ما وافق عليه المجلس».

وعاد تسيبوري إلى الكلام متسائلاً «كم من الوقت تستغرق؟» وبهدوء أجابه شارون

«إثنتا عشرة ساعة تقريباً. مهما يكن فلا يمكنني التكهن بما سيحدث من تطورات، لذا أقترح أن تكون ضمن حدود أربعة وعشرين ساعة؛ من يدري قد نصل إلى أهدافنا قبل إنتهاء الأربعة وعشرين ساعة؟»

وحين جاء دور الإقتراع، تدخل يوسف بورغ مقترحاً تأجيل الغزو، حتى انتهاء المدفعية من القصف، ولتنجلي الحقائق أكثر. لكن إقتراحه سقط؛ وطرح مشروع الغزو على التصويت؛ فوافق عليه الجميع باستثناء وزيري الحزب الليبرالي: وزير المواصلات إسحاق بيرمان، ونائب رئيس مجلس الوزراء سيمحا أرليخ اللذين امتنعا عن التصويت.

بيرمان، تحدث فيما بعد عن هذه الجلسة، معبّراً عن مرارة ويأس، إذ أبدى استغرابه لعدم السماح لرئيس جهاز الإستخبارات العسكرية والموساد بالكلام، خاصة بالرد على سؤال: هل سيتدخل السوريون؟، لأنه لاحظ أن الرجلين لا يوافقان على ما يعلنه شارون من أن السوريين لن يتدخلوا. وأعاد بيرمان إلى الذاكرة أنه سمع سافي يهمس في إذن رئيس الموساد «سيجبر السوريون على الحرب»، وانتهى إلى القول القديم «قد تدرك كيف تدخل إلى الحرب، ولكنك لا تعرف كيفية الخروج منها». وتجدر الإشارة هنا، إلى أن بيرمان، تخوف، من تدخل الأميركيين وإشتراكهم في عداد قوات حفظ السلام في لبنان، مما يعني أن الجيش الأميركي سينشىء علاقة حميمة مع منظمة التحرير الفلسطينية على غرار ما فعلت جميع القوى المشاركة في قوات حفظ السلام في جنوبي لبنان يونيفيل Unifil.

بعد انتهاء الإجتماع، خرج الوزراء وهم معتقدون أنهم وافقوا على خطة لا تتعدى الأربعين كيلومتراً وضمن ٢٤ ساعة، وقد تولى بيغن نفسه الإعلان عن قرار مجلس الوزراء، دون أن يشير إلى حدود توقف العملية. وفي رسالته إلى الرئيس الأميركي ريغان قال «لقد تلقى الجيش الإسرائيلي أمراً بإبعاد المخربين ٤٠ كلم في اتجاه الشمال». أما إيتان فقد أصدر أمراً للجيش الإسرائيلي بناء على قرار مجلس الوزراء، موضحاً فيه أن هذه العملية قد تتطلب الإتصال بالمسيحيين وتدمير الجيش السوري في لبنان». أما شارون، فقد كان هو الآخر، يعتقد أن موافقة مجلس الوزراء تسمح للجيش أن يتصرف في لبنان كما يشاء في سبيل إنجاز مهمته.

تنفيذ مقررات مجلس الوزراء هذه، بوشر العمل بها في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي. وقد أبلغ بشير الجميل أن الإجتياح قد يبدأ في أية لحظة، وتدليلاً على رغبته في التعاون طلب منه:

١ ـ وهو الأهم إصدار الأمر لرجاله بفتح النار على طول الخط الذي يفصل بين شطري بيروت، من أجل إبقاء أكبر عدد ممكن من المخربين في العاصمة.

٢ ـ السماح لمشاة الجيش الإسرائيلي النزول في جونية.

ولكن بشير لم يتمكن من إجابة الإسرائيليين قبل بدء الإجتياح، ورغم هذا أبلغهم أن قواته فتحت النار على طول الخط الأخضر، وهذا ما لم يلاحظه ضباط الإتصال الإسرائيليون حين وصلوا إلى بيروت التي كانت تنعم بهدوء شامل.

في الحقيقة، إن بشيراً، بدأ يتعامل مع الإسرائيليين بحذر؛ مفضلاً الإنتظار حتى انجلاء المواقف، ولهذا، حين أبلغ أن جيش الدفاع الإسرائيلي قد يصل إلى ضاحية بيروت خلال ٤٨ ساعة وربما أقل قرر عدم التورط في المعارك، إنه يفكر بانتخابات الرئاسة. وبالفعل تصرف بحنكة ودهاء، فهو لم يكن مطلعاً على أهداف إسرائيل الحقيقية، ولا أين سيحط جيش الدفاع الإسرائيلي رحاله. لذا فضل التريث، حتى لا يكون أداة تستعملها إسرائيل.

المدهش، أنه منذ سنوات وهو يتمنى هذه الساعة، فما باله اليوم، يبتعد عما كان يطلبه؟

الفلسطينيون، تصرفوا **بثقة بالنفس عالية**. أبو جهاد، أخذ على عاتقه مهمات ياسر عرفات، وأصدر أوامر صريحة بالرد على النار وقصف مستعمرات الجليل؛ وحين قصفت الطائرات الإسرائيلية مستودعاً للذخيرة تحت ملعب كرة قدم، إرتفعت سحب الدخان عالية ـ كان عرفات قد أصدر أمراً بنقل هذا المستودع، لكن الله يعلم كيف ولماذا لم ينفذ الأمر ـ.

عرفات، من السعودية، اتصل بمكتب منظمة التحرير الفلسطينية في نيويورك طالباً اليه الطلب من مجلس الأمن الدولي عقد جلسة له. وتعليقاً على قصف الجليل قال « إن المقاومة الفلسطينية ستلقن إسرائيل درساً، كما لقنتها في الماضي دروساً مماثلة ».

في اليوم التالي، بدا القادة الفلسطينيون راغبين في وقف خرق وقف إطلاق النار. أبو إياد دعا إلى هدنة فورية، ولكن بعد فوات الأوان، فالإسرائيليون، هم من خرقوا وقف إطلاق النار، وها هم يصبون جام غضبهم على مستودعات الذخيرة، بطاريات المدفعية المضادة للطائرات والدبابات، كما وتشارك البحرية الإسرائيلية بقصف الطريق الساحلية وتدمير شاحنات المقاومة التي تنقل الذخائر والمؤن.

قبل انبلاج فجر الأحد، اتصل ياسر عرفات بمركز القيادة في بيروت طالباً إليها الموافقة على إطلاق نار غير مشروط اعتباراً من الساعة السادسة صباحاً، وقد وجه رسالة

بهذا المعنى إلى واشنطن. وبالفعل، فبعض المواقع الفلسطينية تقيدت بهذا الوقف بدءاً من الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. ولم يكن هناك ما يشير إلى بدء الإجتياح، لذلك قرر أبو عمار البقاء في السعودية.

من بين قياديي المنظمة، كان هناك رجل واحد يعرف ما سيأتي. إنه أبو إياد. أخذ يتمعن بالأمر. إنه يريد إيقاف هذه الحرب؛ لقد فعل ما بوسعه ليتوصل إلى إتفاق مع بشير، وحتى قبل ذلك بساعات كان ما يزال يحاول المحافظة على وقف إطلاق النار. إنما كل شيء انتهى الآن، غيمة يأس تلف نفسه. وفجأة لمح ضابطين يركضان، كانا خارجين من السجن للتو، ويرغبان في الذهاب إلى صيدا لمحاربة اليهود، فاستوقفهما أبو إياد « لما العجلة... فاليهود آتون إلى هنا ».

الفصل السابع

قصف عشوائي

حين حدّد شارون مهلة ٢٤ ساعة، يسيطر خلالها على الجنوب، كان يعتقد، أن تقدم الجيش الاسرائيلي عبر محورين - صور - صيدا - بيروت، والنبطية - جبال الشوف - فطريق بيروت - دمشق - سيكون أشبه برحلة ويك إند، لكن، ولأسباب عدة لم تجر الرياح بما يشتهي شارون، أول هذه الأسباب وأهمها هو عدم التعاون بين شارون من جهة وبقية الوزراء من جهة ثانية، الأمر الذي انعكس على الخطة العسكرية التي وافق عليها مجلس الوزراء، هذه الخطة وصفها أمير دروري بالغموض، والشيء الواضح فيها السماح بالوصول إلى ٤٠ كلم.

من بديهيات المنطق العسكري، أن يكون القادة المسؤولون عن التنفيذ، مطلعين على تفاصيل الخطط، دفاعية كانت أم هجومية. وهذا ما جعل أمير دروري قائد الجبهة الشمالية، في حيرة من أمره، إذ كان عليه التوفيق بين تطلعات شارون المعروفة والخطة التي أقرها مجلس الوزراء، والعمل بسرعة. وهكذا انطلقت الآليات على المحورين اللذين سبق ذكرهما، وبأسلوب «قفزة الضفدع». كان يفترض إنزال قوات مجوقلة في اماكن محددة على الجبهة الشرقية، تحول دون تعزيز سوريا لقواتها في وادي البقاع، ولكن هذا لم يحدث لماذا؟ لأن شارون أراد خداع دمشق - **إن لم نقل القدس أيضاً** - وإيهامها ان جيش الدفاع الاسرائيلي لا يريد التعرض لقواتها في لبنان، في حين كان يخطط للهجوم على السوريين في جولة ثانية: نعم، إن هذا يبعد عنصر المفاجأة عن نفسية الجيش الاسرائيلي، ولكنه في الوقت نفسه، أخر التدخل المتوقع للقوتين العظميين.

بالرغم من كل شيء، تأكد أمير دروري من أن تقديره للصعوبات التي ستعترض طريقه، كان في محله. إذ كيف يعقل ان ينطلق جيش نحو معركة دون إعلان حالة الطوارىء مسبقاً، ولو لفترة قصيرة، ليتمكن القادة خلالها من تنظيم وحداتهم، بالأسلوب

التقليدي، فالحرب، كما يعرفها، تتم خطوة خطوة، أما الذي لم يألفه من قبل ولم يسبق ان عرف مثيلاً له، هو الذي حدث ليل الخميس ـ الجمعة؛ ووضع على عاتقه مهمات جديدة، وفيما كان الجنود يغادرون ثكناتهم لقضاء عطلتهم الأسبوعية، كان مجلس الوزراء يقرر قصف بيروت، وساعة أعلن رئيس الأركان حالة الطوارىء، كان الجنود المجازون ينعمون بالراحة في بيوتهم؛ فلم يعيروا هذا الإعلان أية أهمية تذكر، ربما لأنهم تعودوا على مثل هذه الحال، ولكن حال اليوم تختلف جداً عن حالاتها السابقات. قبل شهرين ليس أكثر وعلى إثر محاولة اغتيال ديبلوماسي اسرائيلي في باريس، اعتقد الجميع ان اجتياح لبنان سيكون بين لحظة وأخرى، خاصة بعد إعلان التعبئة في صفوف جيش الدفاع الاسرائيلي، وهكذا لم يشعر الضباط على الجبهة الشمالية إلا بشيء قليل من القلق، معتبرين ان حال اليوم، هي كحال الأمس.

على الجبهة الشمالية، كان الأمر مختلفاً؛ فمع استلام أمر قصف بيروت، تأكد الجميع انهم للحرب ذاهبون؛ وهذا يقتضي عملاً سريعاً، فكل المؤشرات تدل على أن القرار باجتياح لبنان قد اتخذ، لذا فعلى القادة إعداد وحداتهم. والمضحك المبكي، ان ساعة الصفر حدّدت عند ظهر الأحد؛ فالحرب ستبدأ خلال النهار، فيما كل الاستعدادات السابقة، كانت على أساس الانطلاق ليلاً؛ إذن على جيش الدفاع الاسرائيلي تخطي اعتبارات عسكرية عدة، كان ينوي العمل بها، كالانطلاق تحت جنح الظلام إلى مناطق معينة في لبنان، منها يعاود الانطلاق بسرعة للإنقضاض على الفلسطينيين.

الشيء الإيجابي المهم الذي حدث، كان السماح لجيش الدفاع الاسرائيلي المرور عبر المناطق الخاضعة لقوات حفظ السلام، مع حق استعمال القوة، إذا ما رفضت هذه القوات السماح بذلك، هذا، علماً ان رئاسة الأركان، كانت قد أصدرت أوامرها بتجنب هذه المناطق، وحدّدت عبور الوحدات المنطلقة في المحور المركزي على جسر القعقعية بدلاً من جسر الخردلي على نهر الليطاني، منعاً للمواجهة مع الفرنسيين. وبينما كان مجلس الوزراء مجتمعاً في منزل مناحيم بيغن، كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق، وبصورة أسرع مما يتصور العقل، واتفق القادة على التمركز بنقاط معينة على الشاطىء اللبناني، من خلال عمليات إنزال وبغية الإسراع، وعدم خسارة الوقت، قامت الطوافات ـ قبل تحديد مواقع الإنزال ـ بنقل الجنود والأسلحة اللازمة إلى البوارج البحرية. واقتناعاً من دروري ان جيش الدفاع الاسرائيلي لن يتوقف عند حدود الاربعين كلم، تحدث إلى عاموس يارون.

قائد فرقة الكوماندوس «يبدو لي، أننا سننزل بعضاً من وحداتنا شمالي نهر الأولي... ومن هناك تنطلقون نحو الدامور» إن الذي بدا لدروري صار أمراً عسكرياً ظهر الأحد، إذ صدرت الأوامر للقيام بعملية إنزال ما بين صيدا والدامور.

إضافة إلى ما لهذا الإنزال بين صيدا والدامور من بعد سياسي، فإنه عقّد الأمور في مخيلة يارون، الذي بدأ يفكر بالوقت الذي ستستغرقه عملية الاتصال بين الوحدات القادمة براً وتلك التي أنزلت بحراً. بعض القادة، كانوا واثقين، بإمكانية الاتصال بوحدات يارون، خلال بضع ساعات، شرط أن يتم الإنزال عند مصب الزهراني؛ لكنهم لم يحددوا أي وقت للاتصال به شمالي صيدا؛ قبل الأخذ بعين الاعتبار تقديرات الاستخبارات عن الصعوبات التي قد تواجهها وحداتهم أثناء اجتيازهم مدينة صيدا؛ وبعد الإطلاع على هذه التقديرات تبين لهم أنهم بحاجة ليوم كامل. بالواقع إنه تقدير متفائل جداً.

وفي حين كان القادة يناقشون تحديد نقاط الإنزال، حدثت المفاجأة الثانية، إذ طلب من الوحدات المنطلقة عبر محور النبطية، التوجه نحو جبال الشوف حتى طريق بيروت ـ دمشق، ومن ثم الالتفاف شرقاً للتمكن من مراقبة ممر ظهر البيدر. وهكذا اتضح، بجلاء تام، اننا سنهاجم السوريين، لأن الوصول إلى هذا الهدف، يستوجب المرور في مناطق خاضعة لسيطرة السوريين؛ كما واننا نكون قد سيطرنا على الطريق الرئيسية التي تصلهم بعاصمتهم. لا ريب ان اتخاذ هكذا قرار كان يهدف إلى وضع السوريين أمام خيارين لا ثالث لهما: إما القتال وإما الانسحاب من لبنان، بأسلوب مذل. وللحقيقة نوضح ان نتائج هكذا قرار معروفة سلفاً، التورط في الحرب مع سوريا، إذ لا يعقل أبداً أن نطلب من حافظ أسد سحب قواته من لبنان، دون ان يخلع عن الحكم. وهذا ما كان يحذّر منه الجنرال يشوع ساغي واستمر يحذّر حتى السادس من حزيران؛ وحتى موردخاي تسيبوري حذّر من ذلك، لكنه عاد ووافق على القرار.

في اجتماع الأحد، تحدث مناحيم لوزرائه، معلناً الحرب الشاملة: خطوة بعد خطوة، وكم هو عظيم جيشنا الذي سيطوّق السوريين من الخلف «إنه تكتيك هنيبعل» الذي سيجبر السوريين على العودة إلى دمشق. غريب أمر هذا الرجل، الذي كان حتى الأمس القريب يعتبر سوريا عدواً مخيفاً، فإذا به اليوم يصور السوريين مستسلمين طوعاً لإرادة الاسرائيليين. ولكن ماذا نطلب منه غير ذلك، وهو واضع البيان الذي سيصدر عن مجلس الوزراء والذي يعلن صراحة «لن نهاجم السوريين».

الجدير بالذكر، ان موافقة مجلس الوزراء على تقدم الجيش الاسرائيلي عبر المحور المركزي ـ تتناقض مع رسالة بيغن للرئيس الاميركي ريغان والتي أوضحت ان مهمة جيش الدفاع الاسرائيلي محددة بأبعاد مدفعية منظمة التحرير الفلسطينية إلى ما وراء الأربعين كلم من الحدود الشمالية لاسرائيل. والجدير بالذكر أيضاً، ان الوحدات التي انطلقت عبر هذا المحور نحو جبال الشوف، كانت تنفذ أوامر صريحة بالوصول إلى أبعد من ٤٠ كلم وإبعاد السوريين والفلسطينيين على السواء من طريقهم. علماً أن هذه الخطة، حين طرحت على مجلس الوزراء، كانت خالية من أية إيضاحات أو تلميحات إلى أهدافها. أما شارون فقد اكتفى بالزعيق دون إيضاح الأهداف من تحركاته. لأنه، وكما سنرى، كان على علم مسبق ان هذه المناورة عبر المحور المركزي ستؤدي إلى مجابهة السوريين في لبنان، ورغم هذا، شرع يراوغ أمام مجلس الوزراء؛ إنه منذ زمن، وهو يفكر بإخراج السوريين من لبنان بالقوة، وها هو اليوم يقتنص الفرصة لتحقيق حلمه.

تكتيك شارون، كان مبنياً على اعتقاده، ان تحريك قواته بسرعة وإنزال وحدات منه في مناطق معينة، سيحولان دون استيلاء السوريين على مواقع حساسة واستراتيجية ـ إنه يعتمد تكتيك الكماشة: لواء واحد سيعبر جبال الشوف حتى طريق بيروت ـ دمشق. بعد ذلك، يقوم بعملية التفاف، شرقاً حتى ظهر البيدر. فيما يتقدم لواء آخر عبر نقطة معينة في وادي البقاع متجهاً نحو الطرف الشرقي لطريق بيروت ـ دمشق، متخطياً هذا الطريق باتجاه المطار العسكري في رياق ومدينتي شتورة وزحلة؛ وقد عزز هذا اللواء بالأسلحة اللازمة لتنفيذ مهمته ووضع بإمرة الميجر جنرال افيدور بن غال القائد السابق للجبهة الشمالية؛ أهم ما واجه هذه الخطة ليس كونها خطة متهورة، بل انها غير موافق عليها من قبل مجلس الوزراء؛ الذي كان حذراً جداً في مناقشته أفكار منافسي هنيبعل في التكتيك العسكري.

إن التقدم عبر محور الشوف، يعطي فكرة واضحة عن أهداف الحملة العسكرية في لبنان، إن هذا التقدم لم يوافق عليه لحماية تقدم بن غال، لأنه سابق له بيومين. ففيما لو تمكن هذا اللواء من الوصول إلى طريق بيروت ـ دمشق وتحصين مواقعه هناك، يكون بذلك حقـق الهـدف الأول من تحركه، ألا وهو عزل القوات السورية المحيطة ببيروت، ومن ثم يصبح فك الكماشة في محاصرة القوات السورية في سهل البقاع وهذا قد يقود إلى احتمالات أخرى كالتقدم شمالاً في البقاع، أو الالتفاف غرباً للاتصال بالموارنة دون دخول بيروت، أبعد مما تقدم فإن هذا الإنجاز، قد يغري بالتوجه من ظهر البيدر شرقاً نحو الحدود

السورية فدمشق.

قد يكون شارون قادراً على الاستمرار في تكتيكه، بدون إطلاع مجلس الوزراء على خطته ـ كما فعل حين أرسل لواء بن غال، إذ رفض إعلام الوزراء عن هدف هذا التحرك، وعما إذا كان يهدف إلى تدمير الصواريخ السورية ـ لكنه في الوقت ذاته غير قادر على الاستمرار بدون تعاون كبار الضباط معه؛ إذ عليه ان يشرح لهم خطته بوضوح وجلاء. وهكذا وأثناء مناقشة قضية التقدم في المحاور الشرقية، قام أحد المشاركين ليوضح ان ألوية مدرعة سورية تتمركز على تلال ظهر البيدر، وان قواعد الصواريخ أرض ـ جو هي بمحاذاة طريق بيروت ـ دمشق من الجهة الشمالية، إذن لا مفر من الاحتكاك بهم. فضحك شارون وهو يجيب «يصعب جداً أن نتخيل هكذا عملية، والصواريخ ما تزال في قواعدها. لا أعتقد أحداً لا يعرف ما نريد فعله. الكل يعرف أهدافنا، فلماذا تتظاهر بالبراءة؟».

مما لا شك فيه أن كلمة «الكل» تعني: رئيس الوزراء ـ الوزراء ـ زعماء المعارضة الذين سمعوا كلاماً مغايراً كلياً لما ينفذ على الأرض. في البدء انعقد مجلس الوزراء، ومن ثم، وعند الساعة الحادية عشر ظهراً، أي عند بدء انطلاق جيش الدفاع الاسرائيلي بتوغله عبر الحدود اللبنانية، استدعى مناحيم بيغن، زعماء المعارضة إلى مكتبه في القدس لإطلاعهم على قرار مجلس الوزراء حول مهاجمة منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان؛ وفي مكتب بيغن، كان شارون ينتظر وصول زعماء حزب العمل المعارض. باشر بيغن حديثه عن قرار مجلس الوزراء دون الإشارة إلى البدء بالعملية. لكن حاييم بارليف، أبدى تخوفه من أن تكون الحرب قد بدأت فعلاً، منتقداً قصف بيروت يوم الجمعة الفائت، محذراً من اتساع رقعة المعارك فقاطعه بيغن مؤكداً «لا شك أن السوريين سيضايقوننا» لقد أخذنا هذه النقطة بعين الاعتبار وأصدرنا الأوامر الصريحة بعدم فتح النار على السوريين أو حتى الاقتراب منهم» ولمزيد من الايضاحات، أعطى الكلام لشارون الذي طمأن الحاضرين إلى «اننا سنصل إلى خط صيدا ـ القرعون خلال الإثنتي عشر ساعة» واستدار نحو بارليف مؤكداً له «أما بالنسبة للسوريين، فهناك أمر واضح لإبقاء أربعة كيلومترات على الأقل كمنطقة عازلة بيننا وبينهم».

بعد ظهر ذلك اليوم، زار بيغن قيادة الجبهة الشمالية، حيث كان من المفترض استغلال هذه الزيارة لمناقشة قضية الاحتكاك مع السوريين، ولكن الكل شارك في المؤامرة عبر

صمته. حتى أولئك الضباط الذين ناقشوا شارون صباحاً حول هذا الموضوع، لم يتجرأ أحد منهم ووجه سؤالاً بهذا المعنى لبيغن الذي هو بدوره تجاهله، الإشارة الوحيدة لهم كانت في معرض حديثه عن مسألة التحكم بسير المعركة، وتوجه بالسؤال إلى رئيس الأركان رفول إيتان، «عما إذا كنا سنقترب من خطوطهم أم لا؟» دون أن يفسح له المجال للإجابة، بل تابع حديثه منتقلاً إلى موضوع آخر متسائلاً: «هل تخطى جيش الدفاع الاسرائيلي قلعة بوفور ـ الشقيف؟» وبوضوح أجاب إيتان «حتى الآن... لا». فتمتم بيغن «تبدو قريبة جداً، وكأنه بمقدورك أن تتناولها بيدك». الشيء المهم هو أن بيغن لم يتطرق إلى موضوع الصواريخ السورية.

أول تقرير تلقاه بيغن عن سير المعارك، جاء متوافقاً مع أمنياته، مع أن فيه الكثير من المبالغة، إنها خطة شارون، القاضية بالانتظار حتى الساعة الأخيرة والطلب من رئيس الوزراء السماح له بتعزيز قواته التي يحفها الخطر. بعد الظهر، كان بيغن، عصبي المزاج، والذي أثار غضبه الأخبار القائلة ان عرفات لم يتمكن من تكوين فكرة حقيقية عما يجري في الجبهة، وان قيادة منظمة التحرير في بيروت لم تلبي طلب قائد قواتها في الجنوب ـ الحاج اسماعيل ـ بإرسال المساعدات إلى صيدا. بـأسلوبه الخاص، وحباً بالظهور بمظهر القوة والتحدي، أخبر الضباط المحيطين به في مقر قيادة الجبهة الشمالية كيف تحدى السفير الأميركي الذي أتاه عند الساعة السادسة والنصف صباحاً، ناقلاً إليه رسالة من الرئيس الأميركي: «إنها رسالة مهذبة، فالرئيس الاميركي يسألنا الامتناع عن أي عمل عسكري. وأجبته شارحاً الوضع، وختمت رسالتي بالتأكيد على اننا سنحافظ على التزاماتنا، ورجوت الله مساعدتي؛ وهكذا، يدرك الرئيس ما أعني وان لا شيء بعد الآن قابل للمناقشة».

وتساءل إيتان «وماذا يريد لويس؟».

أجاب بيغن: «إنه يريد موافقتنا على وقف اطلاق نار اعتباراً من الساعة التاسعة صباحاً، وأفادنا أن منظمة التحرير الفلسطينية مستعدة للالتزام به. ولكني أجبته، أنا غاضب منك يا سعادة السفير، فكيف تساوي بيننا وبين منظمة التحرير الفلسطينية. ولكن كان لديه الوقت ليقول لي انهم اتصلوا بالسعودية والسعودية بسوريا وسوريا اتصلت بمنظمة التحرير الفلسطينية، ووافقت هذه الأخيرة على وقف لإطلاق النار، وبعد ذلك اعتذر، وأنا بدوري أخبرته بأني سأطرح الفكرة على مجلس الوزراء».

بدا واضحاً، ان مناحيم بيغن يفرح بنفسه، لاعتقاده أنه يخوض حرباً قصيرة المدى

زمنياً، أوليس هذا ما وعده به وزير دفاعه؟ ومن ثم من كان في موقع يمكنه من معرفة ما سيجري؟ قبل انتقاله ـ بيغن ـ إلى مكتبه في البناء الملاصق لمبنى قيادة الجبهة الشمالية، تحدث إلى زوجته أليسا هاتفياً، مطمئناً عنها ومستفسراً عن شعورها، مؤكداً لها «بعد غدٍ ينتهي كل شيء وسنلتقي من جديد».

صباح اليوم التالي، وقبل مغادرته مقر قيادة الجبهة الشمالية. تقدم إيتان من رئيس الوزراء «لو يسمح لنا السياسيون بأربعة وعشرين ساعة أخرى، لنتمكن من تغيير الوضع نحو الأفضل» وباندفاع كلي أجاب بيغن **٣٦ ساعة**. على أية حال، هذه، ليست غلطة بيغن الأولى؛ الغلطة الكبرى ارتكبت يوم الأحد، حين اعتقد الجميع ان الحرب ستكون سهلة.

وحتى يوم الجمعة ٤ حزيران، كـان التشكيـل المعـد للقيـام بمهمـة التقـدم عبر المحـور المركزي، ما يزال في مكانه، قبل أسبوع كان هذا التشكيل سحب جنوباً للقيام بمناورة وأفهم قائده، البريقادير مناحيم عينان، انه في حال نشوب الحرب، فسيقاتل إما في هضبة الجولان أو في وادي البقاع، كما وعليه الاستعداد لإمكانية خوض حرب صعبة في جبال الشوف لتغطية تقدم القوات الأخرى في البقاع، وحتى للالتفاف غرباً لمساندة التشكيل المتقدم على الساحل، وحتى يوم الجمعة، وحتى ما بعد قصف بيروت، لم يكن عينان يعلم ان مهمته الوصول إلى طريق بيروت ـ دمشق؛ ورغم هذا لم يساور القيادة أي قلق من إرسال قوات عينان. عند الساعة الخامسة والنصف من صباح الأحد، اجتمع شارون بقيادة التشكيل، وتركز النقاش حول ساعة الصفر ـ بين الظهر والحادية عشر قبل منتصف الليل ـ فارتأى القادة ـ رغم ان بعضهم لم يكن قد انهى إعداد وحداتهم، وبعضهم الآخر، ما يزال في الطريق إلى مقر القيادة ـ ارتأوا الاستفادة من ساعات النهار وإمكانية مساندة الطيران لهم في مهمتهم، ورغم أن الساعة الحادية عشر حددت كساعة انطلاق، طلب من عينان أن يكون متيقظاً، ومستعداً، حتى ما بعد التأكد من تحركات السوريين في هضبة الجولان. وما ان شارفت الساعة الثالثة والنصف صباحاً، حتى سمح لعينان بعبور الحدود والتوغل شمالاً، محاولاً اللحاق بالتشكيل الآخر الذي انطلق قبله بأربع ساعات ونصف. بعد انطلاقه بنصف ساعة، وفيما هو ما يزال في الشريط الحدودي الخاضع لسيطرة سعد حداد، تلقى عينان أمراً بتغيير اتجاهه والعبور على جسر القعقعية في أقصى غربي المنطقة التابعة لليونيفيل Unifil؛ مما يعني تأخيراً جديداً، والتفافاً في طريق طويلة عبر مسطح النبطية، وحين اتخذ وجهة سيره الجديدة وجد نفسه يسير خلف قوات أفيدور كاهالاني Avigdor Kahalani،

وبدلاً من الإسراع، صار عليه المسير بهدوء خلف موكب شاحنات المحروقات والذخيرة المتجهة نحو النبطية ومن ثم نحو المحور الساحلي. وما إن فتحت الطريق له، حتى صار عليه إعادة تعبئة الشاحنات والآليات بالوقود من جديد، ليتمكن بعد ذلك من متابعة رحلته نحو طريق بيروت ـ دمشق. احدى عشر ساعة **فقط لا غير** ضاعت من مسيرة تشكيل عسكري كان يفترض فيه أن يعرقل تحرك السوريين ويفاجىء قيادتهم.

في اليوم الأول من القتال بدا السوريون وكأن الأمر لا يعنيهم، ليس لأسباب سياسية وحسب، بل لأن جيش الدفاع الاسرائيلي، لم يكن قد انتهى من تكثيف قواته بعد. افيدور بن غال قائد الجبهة الشرقية، استدعي من الولايات المتحدة، ولم يصل إلى صباح الأحد. وبما أن السوريين، كانوا على علم بالغزو، فقد شرعوا يؤكدون انهم لا يفكرون بالحرب؛ رغم ذلك اتخذوا بعض الاحتياطات، إلا أن رئاسة الأركان السورية لم ترسل اية تعزيزات لقواتهم في لبنان، ولم تقدم على إعادة نشر جيوشهم في هضبة الجولان؛ في حين أعطيت الوحدات المنتشرة في وادي البقاع، أوامر صريحة بعدم فتح النار على القوات الاسرائيلية الغازية. النقيب محمد حسين صقر، قائد الفوج السوري المرابط عند خط الدفــاع الأول، ـ والذي أخذ أسيراً فيما بعد ـ كان منزعجاً جداً من أوامر رؤسائه واحتج عليها، موضحاً ان الاسرائيليين قد اجتازوا المنطقة المعروفة باسم فتح لاند ـ العرقوب. ولكنه التزم بالأوامر المعطاة له، حتى حين تساقطت القذائف على مقربة منه، واستمر على هذه الحال، حتى شعر ان قواته مستهدفة مباشرة فأطلق نيران مدفعيته دفاعاً عن النفس.

ضبط النفس السوري هذا، منع القيادة السورية من الإستجابة لصرخات الفلسطينيين وهم يطلبون النجدة؛ بناء لمضمون الاتفاقية المعقودة بين منظمة التحرير الفلسطينية ودمشق والتي تعهدت سوريا بموجبها، بمساعدة الفلسطينيين براً وجواً في حال تعرضهم لهجوم اسرائيلي، كما تعهدت بالسماح للفلسطينيين بالتسلل إلى اسرائيل عبر الأردن، ولكن أياً من هذه التعهدات لم ينفذ فاسحة المجال أمام أريل شارون لتحطيم الفلسطينيين على أمل توفير الخلاص لجيوشها في لبنان.

في اليوم الأول أيضاً دارت معركتان الأولى في ضواحي صور والثانية في قلعة بوفور، أثبتتا أمرين مهمين ومتناقضين: بسالة المقاتل الفلسطيني وتخلفه في استعمال فنون القتال. الاعتداء الاسرائيلي على لواء فتح السادس، لواء القسطل، بدأ براً وجواً، في حين كان المشاة يتقدمون باتجاه مواقعه لاحتلالها. طوال نهار السبت والمدفعية البعيدة المدى تقصف

أهدافها بدقة، وصباح اليوم التالي ـ الأحد ـ قامت الطائرات بجولة تفتيشية عن أهداف جديدة، كالمخازن ومستودعات الذخيرة المحفورة في الجبال، والتي يصعب قصفها وتدميرها، إن بواسطة المدفعية الأرضية، أو بواسطة طائرات سلاح الجو، لذا عمدت هذه الطائرات إلى إلقاء قنابل موقوتة، مهددة بذلك حياة كل من يحاول الاقتراب إلى هذه الأماكن في خطر مطبق؛ فبقيت المستودعات مملوءة طعاماً وذخيرة، حتى ألوف الألغام التي كان يفترض ان تزرع في الأرض لعرقلة تقدم جيش الدفاع الاسرائيلي، كانت ما تزال في علبها، إنه لأمر عظيم، أثر جداً على قدرة منظمة التحرير الفلسطينية في الوقوف أمام التساحال.

ألي جيفا Eli Geva الذي لأسابيع خلت أدهش زملاءه ووزير الدفاع وهو يناقش ضرورة طرد السوريين من لبنان، ها هو اليوم يقود الجيوش المتجهة شمالاً عبر الطريق الساحلي.

هذه الحرب، اعتبرت بمثابة معمودية النار لكل قادة الوحدات العاملة تحت أمرة جيف Geva، باستثناء اثنين، سبق لها واشتركا في معارك سابقة. أما جنوده فهم من الشبان الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ ـ ٢٠ سنة ومعظمهم من المتدينين الذين سبق لهم وخدموا في برنامج « هيسدر » الخاص، الذي يساعدهم على الدمج بين الخدمة العسكرية والدراسات اليهودية العليا. عدد كبير من جنوده لم يتمكن من الالتحاق بوحداتهم قبل بدء مسيرته، التي تهدف إلى الاتصال بعاموسي يارون شمالي صيدا، والحقيقة ان جنود جيفا تحلو باندفاعية يندر مثيلها، لقد كانوا يشعرون انه حان الوقت لوضع حد للإرهاب الفلسطيني، على المدى المتطور على الأقل، ان لم يكن للأبد.

بريغادير جنرال اسحاق موردخاي العراقي الأصل والجندي المحترف، الذي سبق له واشترك في معارك عدة، إن في حرب يوم الغفران، أو عملية الليطاني ١٩٧٨، مكلف اليوم بقمع أية مقاومة تصدر عن مخيمات اللاجئين.

عند الساعة الحادية عشر ليلاً انطلق جيفا بقواته، عبر الشريط الحدودي، متوغلاً في منطقة قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة التي دهشت حين شاهدت الدبابات تسير على خطين، هذه القوات، أدارت ظهرها، حتى لا ترى ما هي عاجزة عن منعه، ليس هذا وحسب، بعض جنود هذه القوات رفع يده راسماً علامة النصر. جل ما فعله قادة هذه الوحدات، كان إصدار الأمر بإحصاء الأليات العابرة، لكن المكلفين بهذه المهمة سرعان

ما شعروا بالتعب. وبالرغم من موقفهم الحيادي هذا، نالوا نصيبهم من الرصاص والقذائف، فلم تكد القوات الاسرائيلية تعبر منطقتهم، حتى وقعت سيارة جيب لهم بين النارين، نار الفلسطينيين ونار الاسرائيليين فأصيب من فيها بجروح بالغة.

تقدم الدبابات على طريق صور، لم يكن سهلاً ولا مريحاً، إذ بعد نصف ساعة من بدء التوغل نحو صور، تعرضت لقصف عنيف بالقنابل الحارقة، فأصيب عدد منها، وبعد وصول القوة الاسرائيلية إلى تقاطع طرق، وقعت ـ خطأ ـ تحت نيران الطائرات الاسرائيلية التي كانت تقصف المنطقة، فانحرفت إحدى الدبابات عن الطريق ـ بفعل قوة الانفجار، ولكن لحسن الحظ لم يصب أحد من طاقمها بأذى. ونظراً إلى صراحة الأوامر القاضية بالوصول إلى جسر القاسمية بأسرع ما يمكن، فقد ترك جيفا Geva مهمة «تنظيف» المنطقة إلى الوحدات التي ستلحق به؛ وهكذا، تمكن الفلسطينيون من قطع الطريق ثانية وثالثة في وجه الوحدات اللاحقة بجيفا (وحتى المدفعية استمرت بقصفها لمؤخرة أرتال الدبابات) مما حدا بجيفا إلى إصدار أوامره لشاحنات نقل المحروقات والذخيرة بالبقاء حيث هي، حتى تصبح الطريق سالكة وآمنة؛ لقد فضل النقص في الغاز والقذائف على المخاطرة بحياة السوّاقين وشاحناتهم.

كان الاسرائيليون، لا يتوقعون المعركة في صور، بل في المخيمات المحيطة بها والتي يبلغ عددها ستة مخيمات؛ البص ـ بني معشوق ـ برج الشمالي ـ الرشيدية ـ الحنينة ـ وشبريحا. وبما أن أوامر جيفا كانت تقضي بتجنب المخيمات، لذلك، طلب من رئاسة الأركان مراجعة خطته والسماح له بتجنب ثلاثة مخيمات؛ ولكن، وبالرغم من احتياطاته، فقد كان لا بد له من أن يجابه الحظ السيء بالقرب من البص.

الليوتنانت كولدفيل، يوري جيجر، قائد وحدات المظليين التي ستلحق بجيفا، تأخر قليلاً، لعدم معرفته للطرق التي يسلكها. لقد سلك طرقاً ترابية، يرتفع غبارها فيبتلع قسماً من الرتل الزاحف، جاعلاً الرؤية صعبة. أهم من هذا كله، انه حين كان يعبر الحدود أبرق إلى القيادة يعلمها ان موجة الاتصال اللاسلكي غير صالحة، فأمر بالانتقال إلى غيرها، لكنه، فشل بذلك.

وفيما كانت وحدات جيجر تمر عبر منطقة بساتين، تعرضت للقنابل المحرقة المضادة للآليات. وهناك بالقرب من مخيم شبريحا، نظر جيفا إلى الوراء فرأى أعمدة من الدخان لأسود ترتفع، حاول الاتصال بجيجر دون جدوى؛ فقرر متابعة طريقه شمالاً، مصدراً

الأوامر لنائبه بالاهتمام بالجنود الذين جرحوا على طريق البص، متمنياً عليه عدم تعريض حياة الآخرين للخطر إذا أمكن.

قائد وحدة الدبابات التي تحرس مظليي جيجر، اعتقد انهم يسلكون الطريق الخاطىء، فاتصل بجيجر وسأله عما إذا كان قصد الاستدارة الأخيرة فأجابه بالإيجاب، ولم يكد يكمل كلامه، حتى تعرضت إحدى الدبابات لقذيفة آر. بي. جي. مضادة للآليات أحرقت واصطدمت بحائط بناية مجاورة، كما وتاهت دبابة أخرى.

ولم يكد يخرج نائب قائد القوة من دبابته المصابة بقذيفة آر. بي. جي. R. P. G حتى أمر جيجر قواته بالتوقف، لقد أراد تسلق إحدى الشاحنات ومن ثم الوصول إلى جيجر في عربة القيادة، لكنه لم يتمكن، فالشاحنة أصيبت، وقفز بعض من فيها طلباً للنجاة، أما نائب القائد، فقد شرع يركض باتجاه ما تبقى من وحدات جيجر، الذي كان بدوره يركض بالاتجاه المعاكس ليقع أسيراً مع اثنين من جنوده. وبعد أيام أعدم جيجر ورفيقه، أما الجندي الثاني افرام ثالبي، فقد تمكن رفاقه من إنقاذه.

ما حصل لفرقة جيجر، جعل القيادة تعتمد على تكثيف القصف الجوي لبعثرة الفلسطينيين والسيطرة على الموقع. لكن المنطقة مكتظة بالسكان، فكيف يمكن أن تقصف بالطائرات؟ هذا ما ناقشه شارون، صباح الأحد مع ضباط قيادة الجبهة الشمالية، ناصحاً جنرالاته بعدم اللجوء إلى القصف الجوي إلا في حالات الضرورة القصوى: «إذا أردنا إقامة علاقة صداقة مع السكان، علينا تجنب إيقاع الأذى بهم». ولكن فرقة يوري جيجر Geiger محاصرة على مفترق الطرق؛ فما العمل؟ في هذا الوقت بالذات، وردت أنباء البص، وهكذا، فإن شارون نفسه سيقرر ما يجب عمله.

تحدث جيفا فيما بعد عن معركة البص، فوصف الفلسطينيين «بالشجعان الذين ينقصهم التنظيم. تحت كل شجرة يكمن فريق ليطلق النار على دباباتنا، لكننا كنا نصطادهم من بعيد، إنما على بعد أمتار نجد فريقاً آخر ما يزال ينتظر اطلالتنا، مع علمه بما حدث لزملائه... الجنود الاسرائيليون لا يتصرفون هكذا، لا يمكنهم الوقوف بثبات بعد رؤية رفاقهم يتساقطون موتى. إنه شيء من الجنون، لكنه بالوقت ذاته شجاعة غير عادية، غير مألوفة ـ أما أن ترى رفاقاً لك يتساقطون أمام عينيك، وتتحدى رتل دبابات، فشيء لا يصدق، لا يتقبله عقل، لكنه حقيقة. كان الفلسطينيون يريدون ـ تأخير ـ تقدمنا وعرقلته ـ على الأقل ـ إن لم نقل إيقافه، فلم يتركوا وسيلة إلا ولجأوا إليها.

مع انتهاء أحد العذاب والغبار والكمائن، وإغفاءة الشمس في بحر الصرفند ـ في منتصف الطريق بين صور وصيدا ـ توقفت قوات جيفا طلباً للاستراحة. وأي استراحة؟ جيفا نشر قواته على شكل دائرة محروسة بالدبابات مع أوامر صريحة بإطلاق النار على كل مشتبه به، ورغم هذا تعرضت قواته لهجمات بالقذائف الصاروخية، إنما دون وقوع إصابات.

وفيما كان جيفا يمضي ليله في الصرفند، وجنوده يحصون النجوم بقلق، ويراقبون تحرك القمر من غيمة شفافة إلى أخرى، كان مصب نهر الأولي شمالي صيدا، يستقبل أول دفعة من الجنود الاسرائيليين المنقولين جواً وبحراً بحراسة سلاح البحرية. البريغادير جنرال عاموس يارون، أمضى ليله متأرجحاً على متن إحدى الزوارق الراسية قبالة شاطىء صيدا، إلى جانب جهاز اللاسلكي، منتظراً أوامر جديدة تحدد له مساره. حتى تلك اللحظة، لم يكن يعرف عما إذا كان عليه التوجه نحو بيروت، ولكنه، كان يدرك، أنه ما إن تصل القوات الآتية من الجنوب، حتى يتلقى أمراً بالتوجه شمالاً لتعزيز موقف قوات بشير الجميل.

قوات يارون، تعرضت لإطلاق صاروخ كاتيوشا، دون إحداث أية أضرار مادية أو جسدية، في صيدا كاد كل شيء يتابع حركته الاعتيادية، لولا بضع وشوشات راحت تسري بين الناس «إنزال اسرائيلي عند الأولي». الحاج اسماعيل قائد لواء القسطل، التابع لفتح، وقائد منطقة الجنوب، لم يصدق، فأرسل دورية استكشاف، وعادت الدورية لتؤكد ما يقال، لكنه اتهم عناصرها بالتشويش، وأعلن عن رغبته بالذهاب شخصياً للتعرف على ما يجري. وغادر مبنى القيادة في سيارة إسعاف. مخترقاً الخطوط الاسرائيلية متوجهاً نحو شتورة ليعلن، أنه رأى بأم عينيه الاسطول السادس الاميركي ينزل جنوداً اسرائيليين عند مصب نهر الأولي؛ وانه اضطر للانسحاب التكتيكي. لم يصدق أحد ادعاءاته، وأصدر ياسر عرفات أمراً بإعفائه من جميع مهامه، وتعيين لجنة تحقيق بما زعمه.

الحدث البارز يوم الأحد، هو معركة قلعة بوفور ـ الشقيف؛ هذه المعركة ستبقى في ذاكرة تاريخ الفلسطينيين والاسرائيليين واللبنانيين على حد سواء. قلعة بوفور المشرفة على الجليل جنوباً، ومنطقة سعد حداد شرقاً، ومسطح النبطية غرباً، تعرضت لغارات جوية متتالية، وقصف مدفعي عنيف، ولم تستسلم.

قبل اندلاع الحرب، لا بل قبل التفكير بالحرب، كانت قيادة الجبهة الشمالية تخطط للاستيلاء على هذا الحصن المنيع: فانتخبت صفوة من جنود لواء غولاني Golani، وشرعت بإعدادهم لهذه المهمة؛ واستنفرت الاستخبارات لتصوير كل الممرات وجمع أقصى ما يمكن

جمعه من معلومات عنها وتبياناً للحقيقة حري بنا الاعتراف، ان المدافعين عن قلعة بوفور، واصلوا دفاعهم عنها حتى آخر رمق في حياتهم؛ استمروا في دفاعهم وهم محاصرون من جميع الجهات ودون أمل بتلقي أية إمدادات، ومن أين تأتي الامدادات وجيش الدفاع الاسرائيلي بدأ يطرق أبواب بيروت غرباً، وسيطر على طريق بيروت ـ دمشق شرقاً، كانوا يدافعون حباً بالبقاء لكنهم دافعوا ببسالة وحتى الموت؛ أما يكفي هؤلاء، أنهم أجبروا جيش الدفاع الاسرائيلي على سلوك طريق جسر القعقعية للوصول إلى النبطية، بدلاً من جسر الخردلي؟

وبما أن جيش الدفاع الاسرائيلي، قرر عدم المرور فوق جسر الخردلي، رأى أمير دروري، وبحضور رئيس الأركان، ضرورة تأجيل عملية لواء غولاني بالهجوم على القلعة، وأصدر أمراً بهذا المعنى، لكن الأمر اختفى. وكم كانت صدمة قوية لدروري، حين طلب منه إرسال طوافات لإخلاء الجرحى من محيط القلعة. انها أول عملية تنفذ تلقائياً رغم الأوامر الصريحة بتأجيلها، بعد انتهاء الحرب، فتح تحقيق رسمي بالموضوع.

خطة الاستيلاء على القلعة، كانت تقضي بالهجوم ليلاً، مع تقدم قوات من ناحية الشرق، وبما أنه تقرر أن يبدأ الزحف صباحاً، كان على دروري اجراء تغيير في توقيت الهجوم عليها واستبدال الليل بالنهار وبمساعدة الدبابات والمدفعية البعيدة المدى. كان من المفترض ان يبدأ الكوماندوس مهمته ما بين الساعة الثالثة والرابعة بعد الظهر، ولكن، وبما أن ساعة الصفر، حدّدت عند الساعة الحادية عشر قبل الظهر، أعلم لواء غولاني بالأمر، فأصدرت قيادته أمراً للفرقة المعدة لهذه العملية بضرورة البدء في عمليتها عند الساعة الثانية من بعد الظهر؛ ولكن الالتفاف عبر جسر القعقعية، لم يمكن فرقة الكوماندوس من الوصول حتى غروب ذلك اليوم، الأمر الذي جعل الهجوم النهاري مستحيلاً، ولم لا يكون ليلاً؟ وعند الساعة الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم كانت القوات الاسرائيلية، تتجه نحو تلال النبطية، نائب القائد العام للواء غولاني اتصل بالقيادة مستفسراً عن تعليمات جديدة. فجاء الرد واضحاً، هذا الاقتحام كان مقرراً ان يتم نهاراً، ولكن وفي هذه الحال، لا بد من تنفيذه ليلاً؛ فاستغرب قائد الفرقة مثل هذه التعليمات، والأغرب في الموضوع، ان رجاله دربوا على تنفيذ المهمة نهاراً، عاد واتصل ثانية، متسائلاً عما إذا كان هناك أي تأجيل حتى الفجر، فجاءه الرد صريحاً، لا شيء من هذا القبيل.

فرقة الكوماندوس، هذه، لم تكن معتادة على هكذا تنقلات مع أرتال دبابات لا تسير

مئة متر إلا وتتوقف، الكوماندوس تعني السرعة وأين السرعة الآن؟ في عربة القيادة كان جوني هارفيك Goni Harnik الذي جاء ليتابع تطورات المعركة، من دون أن يكون مسؤولاً. سبق له وكان قائداً لفرقة كوماندوس، ولم يتمكن من رؤية رفاقه يذهبون في مهمة، بينما هو قابع في مكان ما من بلاده. أول ما فعله كان التوجه إلى منزل نائب القائد العام للواء غولاني، فلم يجده، لحق به إلى مقر قيادة الجبهة الشمالية، طالباً منه إعادته إلى الخدمة فلم يلق جواباً، في الطريق أصيب قائد الفرقة بصدره، فلم يكن هناك بد من إعادة جوني. ولكن المشكلة كانت في كيفية إلحاقه بالفرقة، فتصرف بحماس نادر، إذ اصطحب عدداً من مساعديه وانطلق بسرعة. بعض رفاقه أصيب، فتركهم وتابع طريقه. وكم كان سعيداً أن يرى عدداً من رجاله السابقين في عداد الفرقة التي ستقتحم قلعة بوفور.

عربات الفرقة كانت متجمعة في العتمة التي داهمتها قبيل وصول جوني بقليل، أول ما فعله، فتقدم من الفرقة معرفاً عن نفسه باسمه الحركي وأمر السوّاقين بإضاءة مصابيح سياراتهم، التي سترشدهم إلى الأعداء - كما قال - مهما يكن فقد شعر أعضاء الفرقة بالفرح، فقد جاءهم قائد جديد. الأمر الأغرب من سابقه، كان الطلب من جنوده ترك عرباتهم المجنزرة والاستعداد للاقتحام سيراً على الأقدام. كان من المفروض بجنود فوج الهندسة الخامس والستين التقدم من ناحية الجنوب، في حين تتقدم فرقة الكوماندوس من لواء جولاني من ناحية الشمال مقتحمة الخنادق والتحصينات.

تمكن بعض الفلسطينيين المتواجدين في القلعة، من الفرار، فيما تابع الباقون دفاعهم حتى الموت، احتلال قلعة الشقيف، كان بالنسبة لبعض الاسرائيليين، قضية حياة أو موت «لقد حاربنا لننزع الراية من يدهم» هذا ما صرح به موتي غولدمان Motti Goldman الذي كان يسير إلى جانب هارنيك في طليعة المقتحمين البالغ عددهم واحد وعشرون جندياً، كان عليهم تغطية ما يقارب المائة وخمسين متراً من الجناح الأيسر لمواقع العدو. جل ما كان يراه غولدمان، شهب نارية تصدر من ثلاثة أو أربعة مواقع على يساره، لم يكن يعلم ماذا يجري خلفه، زلّت قدمه، فانبطح أرضاً، وإلى جانبه انبطح جوني. تطلع غولدمان خلفه، فلم يجد من رجاله إلا عشرة فقط أي أقل من النصف. لقد حال صوت الرشاشات دون سماعه صراخ رفاقه الذين سقطوا إما جرحى أو قتلى. جوني أمر موتي بإعادة المحاولة ثانية واعداً إياه بالدعم ولكن كيف يدعمه؟ وكلاهما لا يعرفان انه لم يبق خلفهم من الفريق سوى ستة عناصر فقط، قتيلان وأربعة جرحى.

في اللحظة التي تهيأ فيها موتي Motti للإنقضاض، كانت المدفعية الاسرائيلية تدك مواقع الفلسطينيين، فتعلو شهب الانفجارات مخلّفة دخاناً أسود. وبين القذيفة والأخرى، بدأ موتي، مع سبعة عناصر فقط، محاولته الثانية. وبرفقة اثنين آفيكار ورازي وصل موتي إلى أول موقع للفلسطينيين وشرعوا يطلقون النار فيه بغزارة، أول المقتحمين كان آفيكام ومن ثم تبعه رازي فيما كان موتي ما يزال يراقب ويساند، لكنه سرعان ما سمع رشقاً طويلاً ورأى رفيقيه يهويان وبأذنيه راح يسمع صراخهما، حاول أحد العناصر التي تقدمت سحب رازي من الخندق، ولكن قنبلة يدوية انفجرت، وكانت بمثابة رصاصة الرحمة. واصل موتي تقدمه، في الممرات الضيقة، بعد هنيهات شعر بالبرد والخوف، وبدون أي إحساس منه بما يفعل، عاد إلى حيث رازي وآفيكام ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام رجل أما مخبول من الذي يجري أو مجروح، على أية حال، كان على موتي أن يكون السباق في إطلاق النار؛ كانت الرصاصة الأخيرة في مخزن بندقية موتي التي هي من نوع «جليل»، فتناول كلاشينكوف الفلسطيني القتيل. في هذه اللحظة حدّق بما حوله فلاحظ سماكة جدران الاسمنت.

ثانية عاد موتي وقفز من الخندق، متابعاً اطلاق النار. ماذا يفعل؟ ما هذا الذي يجري؟ لوحة سوريالية أم كابوس مزعج؟ كان بإمكانه وهو يركض من خندق إلى آخر رؤية ظله على جدران القلعة وكأنه شبح راقص؛ استمر على هذه الحال حتى وصل جوني ومعه اثنان؛ ليقفوا معاً، بمواجهة مشهد مأساوي. مقاتل فلسطيني واحد لا غير، ما يزال متمسكاً بموقعه، مطلقاً النار من حين لآخر؛ إن أحداً من الاسرائيليين لم يطلب منه الاستسلام. حتى هو، لم يكن راغباً بالبقاء حياً، انه يريد الدفاع عن موقعه.

مقاتلان اسرائيليان: - موتي غولدمان الذي لقب نفسه بالصقر، وجوني هارفيك الرجل الذي دعي لمقاتلة الفلسطينيين - وقفا كتفاً إلى كتف ولم لا؟ طالما أن خيارهما واحد «إما أن تقتل أو تكون مقتولاً». وهكذا شرعا بقذف القنابل اليدوية وإطلاق النار بغزارة. أكثر من عشرين قنبلة يدوية أطلقت على الفلسطيني المقاوم، فاعتقد الجميع أن كل شيء انتهى. حقاً كل شيء انتهى، حتى جوني سقط ميتاً بعد إصابته برصاصة في صدره من المقاتل الفلسطيني الوحيد الذي استمر في القتال حتى قضى على موتي.

وانتهت المعركة، وانهزم المدافعون عن قلعة الشقيف، وانتصر لواء غولاني. ولكن بأي ثمن؟ خمسة قتلى في الهجوم الأول، وستة في الهجوم الثاني.

وانقشع الصباح، وأطلت الشمس برأسها من فوق قمم جبال الشيخ، وسطع نورها على قلعة بوفور من جديد، جثث هنا وهناك، أبطال هم المدافعون وأبطال هم المهاجمون، الأولون دافعوا حتى الموت، وكذلك فعل المهاجمون، لقد أفنوا بعضهم بعضاً «كان يمكن أن أترك القلعة، كان يمكن ألا أصدر الأمر باقتحامها» قال قائد لواء غولاني، مستعيداً ذكرياته. وأضاف: «أعني أنه يمكننا إبقاءها تحت نيران المدفعية إلى الأبد بدلاً من اقتحامها».

إنـه عسكري ولكنه يتوجع. أما رجال السياسة فيقطفون أزهار النصر المروية بدم الجند المهراق عند أقدام أطماعهم وأحلامهم. منذ صباح الاثنين، أخذ مناحيم بيغن يعد نفسه للذهاب إلى قلعة بوفور بصحبة شارون ورجال الصحافة ـ إيتان بكّر في الحضور إلى المكان، وهو يعاني من صدمة نفسية بعد معرفته بعدد القتلى ـ بيغن وشارون لا يعرفان شيئاً عن الخسارة البشرية، وهذا ما دعا شارون لإطلاق تصريح فيه كثير من الغرور «لم نخسر قتيلاً واحداً في هذه المعركة». ولكن ضابطاً صغيراً من فرقة الكوماندوس صاح به «ماذا تقول؟ ستة من رفاقي سقطوا هنا، نعم ستة من فرقتي أنا وحدي» فامتقع وجه شارون لهول المفاجأة.

كل هذا العدد من القتلى لم يغير شيئاً؛ ففي احتفال قصير، أعلن مناحيم بيغن تقديم قلعة الشقيف هدية لصديقه سعد حدّاد، فعلة بيغن هذه لم تكن كرم أخلاق منه، ولا اعترافاً، بأن الفلسطينيين الذين كانوا في القلعة تناسوا اسرائيل وحصروا همهم بقصف المدن والقرى الحدودية في لبنان، بل ترطيباً للأجواء التي تعكرت الليل الفائت بينه وبين الرائد اللبناني.

خلال الليل الفائت استدعي سعد حداد إلى مقر قيادة الجبهة الشمالية للاجتماع ببشير الجميل، لكن هذا الأخير، لم يشأ أن يتنازل عن كبريائه، فأرسل أحد مساعديه للاجتماع بحداد الذي رفض هذه الإهانة. وأخيراً حضر بشير شخصياً إلى الغرفة ولكنه بدلاً من أن يمد يده ويصافح سعد حداد، كلف مساعده ثانية أن يصافحه بالنيابة عنه. هنا استدار سعد حداد وخرج من الغرفة. سبب اللقاء، كان إجراء مصالحة بينهما لكن بشير الجميل وجد في سعد حداد منافساً له في اكتساب رعاية اسرائيل التي قد تلجأ إلى استعماله كأداة في وجه طموحاته ـ أي طموحات بشير ـ.

وبدلاً من أن يتابع بيغن جولته على الخطوط الأمامية للجبهة، عاد إلى القدس ليبقى هناك يتلقى التقرير تلو التقرير. دون أن يعود إلى لبنان ثانية.

الفصل الثامن

صيدا . . . تاريخ وأبطال

لم يخطر ببال أحد، لا في اسرائيل ولا في لبنان، انه بمقدور الفلسطينيين مواجهة جيش الدفاع الاسرائيلي في جنوبي لبنان. السؤال الذي أخذ يطرح نفسه بإلحاح هو: إلى أي مدى سيتمكن الفلسطينيون من الصمود، وكيف سيبلغ الاسرائيليون أهدافهم بأقل خسارة بشرية ممكنة؟.

منـذ انطلاق جيش الدفـاع الاسرائيلي في عمليتـه، جهـز ثلاثـة ألـويـة لمحـاصرة الفلسطينيين، اسحق موردخاي على رأس اللواء المتقدم على محور الساحل، وفي الشمال، ما بين صيدا والدامور، يأمر عاموس يارون جنوده بالنزول إلى الشاطىء. وفي الوقت ذاته، تجوب الزوارق البحرية الاسرائيلية المياه الاقليمية اللبنانية، وتقصف ميناء صيدا حيناً، وميناء صور حيناً آخر لمنع الفلسطينيين من تعزيز قواتهم، لا من بيروت ولا من الخارج. على المحور الأوسط انطلق أفيدور كاهالاني، متسلقاً هضاب النبطية في حركة تقليدية، ومن ثم توجه شمالاً نحو صيدا. ان مرور جيش الدفاع الاسرائيلي على هذه الطرق، ليس مجرد صدفة، إنما هو تكتيك عسكري يهدف إلى محاصرة وعزل ألوية فتح في المنطقة. إن احتمال مساعدة سوريا لمنظمة التحرير الفلسطينية عبر وادي البقاع، جعلت رئاسة الأركان، ترسل ميناحيم عينان على رأس لواء انطلق عبر جبال الشوف، فعزل الجنوب عن البقاع، وتتمة لهذه الخطة، كان سلاح الطيران يغطي الأجواء اللبنانية ليلاً نهاراً، والطوافات تنقل الإمدادات للمشاة أنى وجدوا، وهكذا، يكون جيش الدفاع الاسرائيلي قادراً على إنزال قواته في أية منطقة يريدها خلف الخطوط الفلسطينية.

منذ اندلاع الحرب، أيضاً، كان واضحاً ان الفلسطينيين يواجهون حرباً اسرائيلية ميكانيكية بكل معنى الكلمة. الوعود المعطاة من الأشقاء العرب تحولت إلى كلمات لا معنى لها، وانحصر نشاط الأشقاء بإصدار بيانات الاستنكار. السوريون، أكثر العرب التصاقاً

بالشعب الفلسطيني، وأكبر قوة عربية، لم يفعلوا، أكثر من أنهم أرسلوا بضع طائرات ميغ في طلعات لا هدف لها، وتخلوا عن الفلسطينيين في الجنوب، وكذلك في بيروت. الجزائر الصديقة الثانية لمنظمة التحرير الفلسطينية، تكرمت وأرسلت ثلاث طائرات انطونوف محملة بالأسلحة والذخائر. هذه الطائرات هبطت في دمشق، ولكن حمولتها لم تصل إلى الفلسطينيين في لبنان. العربية السعودية تبرعت بمعدات طبية، فأين هي؟ ليبيا، أعلنت عن إرسالها لواء لمساندة الفلسطينيين في لبنان، لكن هذا اللواء، يجب أن ينزل في ميناء سوري، وهذا ما رفضه الرئيس السوري.

البلد العربي الوحيد الذي مد الفلسطينيين بالرجال منذ اليوم الأول لاندلاع القتال هو الأردن، فالملك حسين، رغم العداء الذي بين حكومته ومنظمة التحرير الفلسطينية، أصدر أمراً «لقوات بدر» التي تضم عدداً من المجرمين الذين خيروا ما بين القتال أو السجن. بعض هذه وصل إلى بيروت قبل محاصرتها والبعض الآخر توقف في سهل البقاع.

وهكذا وجد عرفات نفسه وحيداً في المعركة. ليس في الجنوب أية قوة مسلحة غير قواته، وقوات شيعية ودرزية، كان عرفات يعول عليها كثيراً، كان يعتقد أنها ستقف إلى جانبه في معركته مع اسرائيل، لكن الشيعة في الجنوب، وجدوا أنه من الأفضل لهم عدم مقاومة اسرائيل فأصدر محمود غدار المسؤول العسكري لحركة أمل في الجنوب، أمر لجميع عناصره بعدم المقاومة وإخفاء سلاحهم في منازلهم، واستجاب المسلحون لندائه إلا زمر قليلة وقفت إلى جانب الفلسطينيين في مخيم برج الشمالي، مما جعل الاسرائيليين يعبرون الجنوب حتى صيدا دون مقاومة تذكر.

كما في الجنوب، كذلك في الشوف. وليد جنبلاط، رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي، أصدر هو الآخر أوامر بعدم مجابهة جيش الدفاع الاسرائيلي والاكتفاء بالمقاومة السرية. ولكن الواضح ان اللبنانيين يخشون ردة الفعل الاسرائيلية ضد قراهم ومدنهم. وهكذا جمع الدروز سلاحهم إما في بيوتهم أو في مستودعات تابعة للحزب. أوامر وليد جنبلاط هذه صدمت ياسر عرفات بالصميم، وتذكر والده المرحوم كمال جنبلاط الحليف القوي للفلسطينيين خلال الحرب الأهلية في لبنان.

لقد اتضح كل شيء، الدروز؛ مثلهم مثل الشيعة؛ فكروا بمصالحهم فقط، ورفضوا التفكير بالبطولة من أجل غيرهم. إذن، ليس أمام عرفات غير حل واحد؛ وقف إطلاق النار.

قوات منظمة التحرير الفلسطينية في الجنوب، كانت تتخذ من المرتفعات مواقع لها، وبعضها كان يقيم في خيام وفي الأودية الضيقة. وحسب تقديرات جهاز الاستخبارات الاسرائيلية، يبلغ عدد المقاتلين الفلسطينيين ستة آلاف موزعين على الشكل التالي: ١٥٠٠ جنوبي الليطاني في المثلث الممتد بين قانا - دير عامص - جويا ومدينة صور والمخيمات المتواجدة في ضواحيها، ٢٥٠٠ من مقاتلي لواء القسطل، تنتشر في المنطقة الممتدة ما بين الليطاني جنوباً وصيدا شمالاً والنبطية غرباً. وحوالي ١٥٠٠ - ٢٠٠٠ مقاتل من لواء الكرامة، يتخذون من منحدرات جبل حرمون - فتح لاند - مقراً لهم. وهؤلاء يشاركون السوريين المنطقة محتمين بالصواريخ. أما القطاع الأوسط، ففيها بعض مراكز القيادة، ومخازن الزخيرة. ومن المفيد التذكير، ان عدداً كبيراً من هؤلاء الرجال كانوا متطوعين من البلاد العربية أو الاسلامية. مئات من باكستان وبانغلاديش ومثلهم من الهند وسيلان. الأغلبية العظمى لهؤلاء الغرباء كانت تعمل في مراكز القيادة. أما أهم الدول العربية المزودة بالرجال فهي مصر، اليمن، الأردن والعراق.

إضافة إلى الكميات الهائلة من الأسلحة الفردية، كان لدى منظمة التحرير ما يقارب الستين دبابة من نوع ت - ٣٤، T 34 ومدفعية ميدان، وبضع عشرات من قاذفات صواريخ الكاتيوشا، مدافع مضادة للطائرات، قاذفات صواريخ سام ٧ المضادة للطائرات، وعدد هائل من قاذفات القذائف الصاروخية والمضادة للدبابات. مستودعات الجنوب كانت تحوي على الذخائر والرشاشات - ٥٠٠٠ من صنع غربي - والأسلحة الاوتوماتيكية وغيرها من عدة الحرب، إن عملية إحصائية بسيطة تبين ان عدد المقاتلين الفلسطينيين وضخامة الآلة الحربية الموجودة لديهم كافية لتشكيل فرقة مشاة، مع فائض بالأسلحة يكفي لفرقة ثانية؛ ولكن، تنظيمها يظهر ان هذه القوى تقع عند منتصف الطريق بين الفدائيين والجيش النظامي.

أعظم مشاكل الفلسطينيين في الجنوب، لم تكن في كيفية التعامل مع السلاح، بل في قادتهم الذين يفترض فيهم قيادة الجند والمشاركة في المعارك؛ ولكن هؤلاء القادة، برهنوا على أنهم سبب الكارثة؛ فجيش الدفاع الاسرائيلي، لم يجد أية عراقيل تذكر في عبوره طرقات الجنوب، حتى الجسور فوق الليطاني، والزهراني لم تكن ملغمة، رغم أن الفلسطينيين كانوا يمتلكون آلاف الألغام. عند الساعة الثانية من بعد ظهر الأحد، وصلت قوات ألي جيفا إلى جسر القاسمية على الطريق الساحلية، فوجدوه سالكاً وآمناً. وكذلك

الأمر بالنسبة لجسر القعقعية على نهر الليطاني في القطاع الأوسط؛ فإن لم تكن هناك أوامر لنسف هذين المعبرين الاستراتيجيين، فذلك لأنه لا يوجد من بمقدوره إصدار مثل هذه الأوامر، إن القادة الفلسطينيين لم يتمكنوا من مواجهة المستجدات على الأرض، وفشلوا في إيجاد التعاون بين قطاع وآخر، هذا في حين انه لم يكن هناك أي اتصال بين مركز القيادة في بيروت والقواعد المنتشرة في الجنوب، ليس بسبب الغارة الجوية يوم الجمعة الماضي على غرفة العمليات، بل لأن عرفات وقادته المتواجدين في بيروت، لم يعيروا ما يجري على الجبهة الاهتمام الكافي، لثمانية وأربعين ساعة. وهنا لا بد من التذكير ان الطائرات الاسرائيلية التي أغارت على بيروت يوم الجمعة الماضي بهدف تدمير غرفة العمليات القيادة الفلسطينية، أخطأت هدفها ودمرت بناء مجاوراً.

إن السبب الرئيسي لانعدام الاتصالات، هو كبار الضباط المفترض فيهم قيادة المقاتلين في الجنوب. الحاج اسماعيل، قائد منطقة الجنوب ولّى هارباً ليل الأحد، دون أن يحمل نفسه عناء الاتصال بأبي الوليد ـ رئيس الأركان ـ في بيروت وإعلامه بالذي يحدث. الرائد معين قائد لواء الجرمق المتمركز في النبطية، ترك المدينة مع رجاله مولياً الأدبار. الكولونيل أبو خلدون، قائد لواء اليرموك، أمر رجاله أن يتفرقوا ولا يجابهوا العدو متجمعين. انه الوحيد الذي تصرف كقائد، ولهذا دافع مرؤوسوه عن مراكزهم. أما أبو حازم قائد لواء الكرامة المرابط عند سفوح جبل حرمون، فقد اختفى خلف خطوط السوريين، معلناً ـ فيما بعد ـ انه جاء يتشاور مع قادته.

من بين جميع قادة منظمة التحرير في الجنوب، قائد واحد وقف بثبات، إنه عزمي الصغير قائد مجموعة فتح في صور، إنه فعلاً بطل، مخيف، مجرم مكروه من اللبنانيين، خشن الطباع، رفاقه يشكون في ولائه للقضية، ويعتبرونه عميلاً مزدوجاً؛ إذ سبق له وأسر، ولكن موشي دايان أطلق سراحه في بداية السبعينات، لقد تمكن الصغير من الصمود يوماً كاملاً، وحين فقد سيطرته على الموقف، اختبأ في فيلا مهجورة، لكن أحداً من رجاله وقع في الأسر، وأفشى بمكان وجوده للمحققين. وعندما هاجم الاسرائيليون الفيلا، رفض الصغير الاستسلام وقاوم حتى الموت، ولكنه مات شريفاً.

كان الفلسطينيون قد وضعوا خطتهم على أساس ان الاسرائيليين سيأتون عن طريق جسر الخردلي باتجاه النبطية، لكنهم أتوا عن طريق جسر القعقعية. وحين رأى المقاتلون قادتهم يولون الأدبار، نزعوا ثيابهم العسكرية واختبأوا بين السكان المحليين، أو في

الأودية؛ بعضهم اتجه نحو بيروت عبر وادي البقاع. في غرفة العمليات المركزية في بيروت، كان أبو الوليد، ينتظر موافقة اسرائيل على وقف إطلاق النار، وانقضت ثمانية وأربعون ساعة، فلا الهدنة أعلنت ولا السوريون تحركوا لمساعدتهم، فأصدر أوامره للمقاتلين بالانسحاب شمالاً نحو بيروت أو شرقاً نحو البقاع. السوريون بدورهم سخروا من تراجع ألوية فتح «كنا نتوقع أن يدوم القتال أكثر مما دام» هذا ما صرح به وزير الاعلام السوري أحمد اسكندر.

الموقف السوري هذا لم يكن موقفاً صائباً. فإن كان جماعة قد تركوا مواقعهم وتراجعوا، فإن فلسطينيين آخرين دافعوا ببسالة، وأخروا تقدم الجيش الإسرائيلي ومنعوه من تحقيق أهدافه بالسرعة التي كان يتوخاها. لواء غولاني، لم يتمكن من احتلال قلعة بوفور إلا بعد أن تكبد خسائر بشرية فادحة، وكذلك عاموس يارون، فقد جوبه بعنف عند جسر الأولي؛ ولم يتمكن من احتلاله إلا في التاسع من حزيران، أي بعد انقضاء الفترة المحددة للانتهاء من عملية «السلام من أجل الجليل». إن المسافة بين الحدود الشمالية لاسرائيل وبيروت هي بحدود التسعين كلم، وبرغم قصر هذه المسافة فلم يتمكن جيش الدفاع الاسرائيلي من الوصول إلى حدود حلفائهم الموارنة إلا يوم ١٣ حزيران، أي بعد أسبوع كامل؛ كل هذا التأخير بسبب هجمات الفدائيين.

المعركة الحقيقية في الجنوب لم تكن مع مقاتلي فتح، بل مع الحراس المحليين في المخيمات، فعلاً، خاض هؤلاء معركة تحدٍ غير متكافئة، إنما عرفوا كيف يستغلون الزواريب الضيقة التي لا تستطيع العربات دخولها. وهذا ما تنبه له القادة الاسرائيليون. قبل يومين من بدء معركة السلام من أجل الجليل، كان عدد من كبار الضباط يناقشون مثل هذا الأمر؛ فتساءل عاموس يارون عن قدرة الفلسطينيين على القتال. تساؤله هذا، كان في محله. يشوع ساغي، رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية، رد على تساؤل يارون مبيناً بوضوح انه «علينا أن نتذكر ما حدث للسوريين قبل ست سنوات. لقد أرادوا دخول صيدا، فوقفوا عند أعتابها سبعة أيام بكاملها، وتكبدوا خسائر فادحة، بشرياً ومادياً. لذا فإني اقترح عليكم، تَوقُّعَ مقاومة فلسطينية عنيفة هناك، من السهل جداً ان نطل برؤوسنا من مواقعنا، لكنه من العسير جداً المسير في شوارع المدينة؛ خاصة في مخيمات اللاجئين؛ حيث الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، وهؤلاء كلهم سيقاتلون وهم في بيوتهم. سيزرعون الألغام، يطلقون قذائف الآر. بي. جي R. P. G ومهما تقدمنا، ففي الليل سنجد

أنفسنا مطعونين من الظهر. علينا ان نتنبه إلى مثل هذه الأمور». تقديرات ساغي هذه لم تكن مجرد تخمينات، إذ جاءت الأحداث وأكدتها. وحدة المقاتلين في النبطية كانت معززة بست دبابات ت ٣٤، وكان من المفترض بهم الصمود إلى أكثر فترة ممكنة، ولكنهم لم يصمدوا أكثر من ثلاث ساعات لم يكبدوا خلالها الاسرائيليين أية إصابة؛ على عكس ما حصل في المخيمات المحيطة بصور، حيث استمر القتال أياماً، وكذلك في مخيم عين الحلوة بالقرب من صيدا.

فجر الاثنين، كان على جيفا متابعة طريقه شمالاً، مروراً بمدينة الصرفند، التي هي معقل حصين لمنظمة التحرير الفلسطينية؛ لكنه فوجىء برؤية المدنيين ينشرون الورد على جنوده ويرفعون أياديهم بالتحيات، وبعض النساء نثرن الأرز إكباراً للنصر الذي حققناه، إنه لأمر غريب جداً، إنه لأمر لا يصدق؛ فأي هراء كان يتحدث عنه ساغي؟ تابع جيفا طريقه حتى وصل إلى وسط المدينة، حيث قفز مجموعة من المسلحين وبدأوا بإطلاق النار على الجنود الاسرائيليين فقتل قائد الدبابة الأولى، وتواصل اطلاق الرصاص، وسقط قتيل ثانٍ، وفجأة خلا الشارع من المدنيين الذين راحوا يركضون في كل اتجاه طلباً للنجاة. وكان الرد سريعاً، رشاشات الدبابات تطلق النار في كل اتجاه، على النوافذ، على الأبواب، على كل شيء وكانت ترد كذلك باطلاق قذيفة مدفع على كل بناية يصدر منها نار. وخرج جيفا من الصرفند، بقتيلين وثلاثة جرحى حالة أحدهم خطرة. معركة الصرفند هذه، أولى تجارب لواء جيفا في حرب شوارع وفي منطقة سكنية؛ وأثبتت ان الفلسطينيين لا يكترثون لحياة المدنيين الأبرياء.

وتابع جيفا طريقه نحو صيدا، مروراً بمنطقة الزهراني، وعلى الجسر خاصة، دون أية عراقيل. وفيما كان جيفا على أبواب صيدا، كان جيش الدفاع الاسرائيلي ما يزال يخوض معارك في المخيمات المحيطة بمدينة صور؛ مخيم الرشيدية ٤ أيام، مخيم برج الشمالي ثلاثة أيام ونصف. الأوامر كانت صريحة وواضحة، لا تقتحموا المخيمات حفاظاً على أرواحكم. وبرغم هذا، فقد بلغت خسائر جيش الدفاع الاسرائيلي في معركة صور واحد وعشرون قتيلاً.

معارك المخيمات، أثبتت انعدام التنسيق بين مخيم وآخر. كما وبينت ان سكان المخيمات هم أكثر قدرة على مقاومة أي هجوم. منازلهم مبنية بتقارب ضيق، الحائط على الحائط، طرقات ضيقة جداً، تسمح لهم باستعمال القذائف المضادة للآليات ومن مسافة قصيرة. وهذا

ما جعل الجنود المقتحمين يتعرضون لنيران القناصة من الشبابيك، من النوافذ، ومن تحت الأرض؛ المقاومة الشعبية هذه، أكدت توقعات الاسرائيليين ان المخيمات هي عبارة عن مستودعات أسلحة وذخائر. وبالفعل فقد تم العثور على أربعة وسبعين مخزن، في مخيم الرشيدية، وعلى ثمانين في برج الشمالي إلى مائتين وثلاثة عشرة في مخيم البص. والذي أنهك الاسرائيليين في المخيمات هو الكثافة السكانية. وسرعان ما كان المقاتلون الفلسطينيون يختفون بين اللاجئين العاديين، ومن غير المستحيل تهجير سكان مخيم بكامله من أجل القبض على مقاتل. في الواقع ان هؤلاء المقاتلين، كانوا يدركون ماذا يفعلون؛ فهم يعلمون ان المدنيين لا يشكلون غطاء كاملاً لهم، ولكنهم بالوقت ذاته يحاول الضغط على اسرائيل للقبول بوقف اطلاق النار، وكلما طال القتال، كلما ازداد عذاب المواطنين العزّل، وأجبروا على النزوح، وتنبه ضباط جيش الدفاع الاسرائيلي إلى نقطة الضعف هذه، فشرعوا يتوقفون عن قصف المخيمات لفترات طويلة، ليسمحوا للراغبين بالانتقال إلى مكان آمن.

بعد يومين من القتال، قرر جيش الدفاع الاسرائيلي اقتحام مخيم الرشيدية، وشطره إلى قسمين، ومرة أخرى حاول الفلسطينيون كسب الوقت، فأرسلوا مندوباً من الصليب الأحمر يعلن رغبة الفلسطينيين باطلاق سراح اسرائيلي مقابل تأجيل الهجوم. ووافق الاسرائيليون، وبالفعل عادت سيارة الاسعاف بعد حين، وترجل منها جندي اسرائيلي بصحبة فريق من الفلسطينيين، إنه جدعون شمولي الذي أخذ يصرخ «أنا اسرائيلي لا تطلقوا النار». جدعون، هذا كان قد أسر بالقرب من صور بعد إصابته بجروح مع زميلين له، ونقله الفلسطينيون إلى مستوصف تحت الأرض في مخيم الرشيدية، واختلط جدعون برفاقه الذين وجدوا أنه لا داعي للخوف بعد الآن فلماذا لا ينتقمون؟ في المقابل، وأثناء غارة جوية على المخيم المذكور، سقطت قذيفة قرب المستوصف، فكاد يغمى على جدعون، لكن ممرضة فلسطينية، هدأت أعصابه «لا تخف نحن لا نقتل الاسرى»، لا شك أنه كان محظوظاً، إذ أن زميلاً له أعدم ساعة القبض عليه.

في هذا الوقت، كان مخيم البص مسرحاً لمعارك عنيفة، فالاسرائيليون قرروا اقتحامه مشياً على الأقدام. يا له من وهم، وجاء الطيران، من المفيد جداً ان تلاحظ عادة الاستعانة بالطيران من قبل المشاة؛ كذلك من المفيد جداً التذكير بأنه كان يطلب من سلاح الطيران تدمير مواقع مسلحة في منطقة مكتظة بالمدنيين، مما حدا بضابط الارتباط الجدي على تقديم احتجاج شديد اللهجة. وهكذا تحول سلاح الطيران، إلى سلاح نفسي في الهجوم على

المخيمات. وكثيراً ما كانت مكبرات الصوت تنذر سكان المخيمات بعدم مقاومة تقدم جنود المشاة، وإلا فإن المدفعية ستدك مدينة صور والمخيمات المحيطة بها. وللتدليل على تنفيذ تهديدهم، كان قادة المشاة، يلجأون إلى التذكير، بالغارات الجوية التي ستحول المنازل والأكواخ إلى حفر وركام؛ ويكفي تحليق أربع طائرات نفاثة فوق صور على علو منخفض وتخترق جدار الصوت، حتى تزرع الرعب في القلوب وتثير الغبار، وبعد قليل ترتفع سحب الدخان الأسود من الميناء؛ ولكن القتال لم يتوقف، ولم تستسلم المخيمات في ضواحي صور إلا بعد ثلاثة أيام من المعارك الضارية.

معركة عين الحلوة، اختلفت جداً عن المعارك السابقة. في هذا المخيم ـ المعقل الأخير للفلسطينيين في الجنوب ـ خاض اللاجئون، معركة الموت، كان يدركون أنهم ينتحرون، ولكنهم فضلوا الانتحار على الاستسلام للاسرائيليين، وتمكنوا من إيقاف لواء غولاني يومين كاملين. تحدث قائد اللواء عن هذه المعركة فقال: «برغم تحذيرات الاستخبارات من أننا سنلقى مقاومة هنا، فوجئنا في صيدا بتصميم الإرهابيين على القتال، لم يفكروا بالهرب، على العكس، كانوا يبذلون أقصى ما يستطيعون لإيقاع أكثر الخسائر الممكنة بين صفوفنا».

في منطقة صيدا، كان علينا أن نخوض معركتين في آن: الأولى عند محاولتنا عبور الشارع الرئيسي لمدينة صيدا، والثانية عند محاولتنا اقتحام مخيم عين الحلوة. في الأولى، كان على القوى المتقدمة بقيادة البريغادير جنرال أفيدور كاهالاني والآتية عن طريق النبطية ان تسيطر على المدينة، أو على شارعها الرئيسي على الأقل ـ صدر هذا الأمر بعد منتصف ليل الاثنين ـ، وهكذا تتمكن القوات الآتية من الجنوب ـ أي جيفا ـ من مواصلة طريقها؛ وبعدها يبدأ كاهالاني بالتوجه شمالاً، بحماية فرقة موردخاي التي عليها بعد الانتهاء من المدينة، التوجه نحو مخيم عين الحلوة لمساعدة لواء غولاني والفرقة المدرعة في تشديد الضغط على المخيم. إنما، بعد يوم بكامله، تبين انه من المستحيل اختراق المخيم إلا بعد تدميره. وبعد جهد جهيد، تمكنت هذه القوى المشتركة من التقدم قليلاً، ولكنها فوجئت بإطلاق النار عليها من الخلف. في النهاية طوّق المخيم من قبل خمسة ألوية مدرعة. وتحت ستار الظلمة، تقدمت هذه الألوية باتجاه المخيم.

وانبلج الفجر، وقاربت الساعة الثامنة صباحاً. كان كل شيء هادئاً. نظر جندي إلى رفيقه وابتسم وكأنه يعبر عن فرحة، وكأن ابتسامته تقول: «وأخيراً انتهى المخيم» إلا أن

رفيقه لم يجب عليه، بل سقط أرضاً مضرجاً بدمه، وانفجر الوضع من جديد وبعنف ـ وكالعادة ـ استدعي الطيران، ليقوم بعشرات الطلعات فوق مخيم عين الحلوة، ومنطقة صيدا، ويشارك المدفعية البعيدة المدى قصف هذه المناطق بعنف.

رجال لواء غولاني لاحظوا ان الفلسطينيين كانوا يتنقلون تحت الأرض، وان مواقعهم غير محصنة كما يجب، لذا شددوا القصف، وفي محاولة لإفساح المجال أمام المدنيين للخلاص بجلدهم، عاد الطيران ثانية، ليلقي القذائف، بل لينشر منشورات تدعو المدنيين بإخلاء المخيم حفاظاً على أرواحهم. وبالفعل شرع البعض بالرحيل، واندس المقاتلون بينهم لا رغبة بالهرب بل بإلقاء نظرة على مواقع الاسرائيليين، ومن ثم العودة إلى حفرهم ومعاودة القتال من جديد.

وعاد الليل ثانية، وتحت ستاره، دخلت قوة مدرعة بضع مئات من الأمتار في قلب المخيم، وانتظرت حتى الصباح لتجد نفسها محاصرة.

بعد ظهر الثلاثاء، وحين كان لواء غولاني يستعد للانسحاب من المخيم، حدثت مفاجأة في صيدا. فشلت محاولتان للتقدم عبر الشارع الرئيسي، رغم الدعم الجوي العنيف. وهكذا، لم يعد هناك أي مجال للتفكير بالمرور عبر صيدا؛ ولم يعد جائزاً ان يبقى لواء جيفا منتظراً حدوث المستحيل، ليمكنه من الوصول إلى عاموس يارون على نهر الأولي، إذن، لماذا لا يكون التفاف من ناحية الشرق، وهكذا كان، ومع فجر الأربعاء، كان رجال عاموس يعانقون رجال جيفا عند الجسر؛ أما كاهالاني فما يزال يحاول دخول صيدا؛ إنما من خلال الطريق الشرقية هذه المرة، وتحت غطاء مدفعي عنيف، وغارات طيران أحياناً. في الواقع، إن هذه المنطقة، هي منطقة سكنية. وأغرب ما جرى في هذا الهجوم، كان الاستعانة بالطيران لضرب موقع قناص، أو قاذف آر. بي. جي .R. P. G، مرعباً الأبرياء الذين تركوا منازلهم طلباً لملجأ أو لمأوى. ولحظة كان سرب من الطيران ينقض على شارع ضيق، اندفع عبره مئات من المواطنين المتوجعين الذين علا زعيقهم حتى على أصوات الرشاشات وكادت أن تقع الكارثة، لولا تلقي الطيارين أمراً بالكف عن القصف. وبعد ظهر ذلك اليوم، فتحت الطريق أمام كاهالاني للعبور شمالاً نحو الدامور فبيروت؛ ولكن علينا ألا ننسى ان مخيم عين الحلوة، ما يزال يقاوم وكذلك المنطقة الداخلية في صيدا؛ وقد تركت مسؤولية إخماد هذه المقاومة إلى اسحاق موردخاي، نظراً للخبرة التي اكتسبها في المخيمات المحيطة بصور.

بعد ظهر الأربعاء، بدأت مرحلة النهاية في معركة عين الحلوة، إذ اتبع موردخاي استراتيجية تقسيم المخيم إلى مربعات صغيرة. وبالواقع ان مقاومة عين الحلوة لم تعد مقبولة إطلاقاً، فالطريق إلى الشمال فتحت، وليس هناك أي أمل في منجد أو مسعف. بعد سقوط المخيم، تبين ان الذي قاد هذه المقاومة لم يكن عسكرياً ولا يعرف عن أساليب القتال شيئاً. إنه الحاج ابراهيم المسلم المؤمن بما يقوله الخميني، الذي تمكن من إقناع رجاله في حزب الله، ان من يموت منهم، يذهب لملاقاة ربه منشرح الأسارير، لذا عليهم القتال «فإما النصر أو الموت» ولكن صباح اليوم التالي، تمكن الاسرائيليون من دخول مخيم عين الحلوة، وبدأوا زحفهم نحو صيدا. إلا أن زعماً صيداوياً حذرهم من دخول المدينة بالقتال ـ والأحياء الداخلية خاصة ـ وذكرهم بما حصل للسوريين عام ١٩٧٦.

في عين الحلوة، لم يشأ موردخاي اقتحام المستشفى، فأرسل بعثة برئاسة طبيب، كان يعمل في مستوصف للفلسطينيين في صيدا، مع اقتراح السماح لجميع الموجودين فيه ـ بما فيهم المقاتلون ـ بالخروج، مع التعهد بعدم التعرض لأي رجل غير مسلح. وبعد مناقشات طويلة عاد الطبيب بصحبة ستة جرحى فقط، معلناً «ان المستشفى سيخلى غداً»، وتخوف الاسرائيليون من أن يكون التأجيل خديعة جديدة، ولكنهم وافقوا. وصباح اليوم التالي دخل الطبيب المستشفى وعاد وحيداً ليعلن «لا أحد».

بعد ظهر يوم الجمعة، وافقت سوريا واسرائيل على وقف لإطلاق النار في بيروت... وعين الحلوة؟ القتال مستمر وبعنف. المبعوث الشخصي للرئيس الاميركي، السفير فيليب حبيب، حاول جعل وقف اطلاق النار شاملاً لجميع الأراضي اللبنانية. منعاً للمجازر التي ترتكب في صيدا. الاسرائيليون رفضوا الاقتراح لأنه يعني تراجعهم عن عين الحلوة وتركهم كجيب مقاومة. واستمر القتال أربعة أيام متتالية؛ كانت مكبرات الصوت تبث الدعوات للمدنيين بإخلاء منازلهم والتوجه نحو الشاطىء ولكن بلا جدوى. فجاء الطيران... وشعر المقاتلون بمسؤوليتهم تجاه مواطنيهم في المخيم.

في اليوم السابق ـ الخميس ـ حاول ثلاثة وسطاء من صيدا، إقناع المقاتلين داخل المخيم برمي السلاح، منعاً لإيقاع الأذى بالأبرياء، مع التعهد بالسماح لهم بمغادرة المكان بأمان. وجاء الجواب سريعاً «خونة... اذهب واخبر اليهود بأن أحداً لن يترك المخيم، حتى المدنيين» واطلق الحاج ابراهيم رشقاً من الرصاص بين أرجل الوسطاء الراغبين في خلاص الأبرياء.. الثاني، عاد بخفي حنين، أما الثالث، فقد عاد برواية تقول إن الحاج ابراهيم

أصدر الأوامر لرجاله باطلاق النار على كل مدني يحاول الخروج. ونفذ الحاج ابراهيم تهديده، وأعدم ثلاثة أطفال أمام أعين والديهم، لأنهم ـ أي الأبرياء ـ دعوا لوقف القتال، فيخلص الأطفال.

مجدداً، حاول الاسرائيليون، إقناع مقاتلي المخيم بوقف دفاعهم، إنما هذه المرة، عبر وسيط صديق لهم، ضابط فلسطيني أسير، تعهد بوضع خبرته العسكرية وهو يشرح الوضع الميؤس منه للمقاتلين؛ لكنه هو الآخر عاد كما ذهب. وروى انه التقى بالقائد الروحي للمقاتلين ـ الحاج ابراهيم الذي يشحن رجاله بحب القتال ومشجعاً إياهم على «الانتصار أو الموت».

استحاق موردخاي، عزم مجدداً على مواصلة التوسط لدى الحاج ابراهيم، إنما هذه المرة، بواسطة علماء النفس، ومن بينهم عالم نفسي من إحدى جامعات اسرائيل جاء خصيصاً إلى صيدا ليقدم النصح لموردخاي، ويرجوه ضبط النفس إلى أقصى الحدود في تعامله مع هكذا تصرف لا عقلاني. موردخاي اطلع الوسطاء الجدد على محاولاته السابقة التي منها توجيه نداء عبر مكبرات الصوت تدعو سكان المخيم إلى ترك منازلهم، إنما دون جدوى. هددتهم بالنابالم، ودون جدوى. هنا اقترح علماء النفس تأليف وفد من أربعين شخص، يضم أطفالاً، شيوخاً ونساء، والوسيط الفلسطيني، عل قلب الحاج ابراهيم يرق ويلين. في اللقاء، استعان عالم النفس بخبراته، لكن الجواب لم يتغير. فتدخل أحد المشاركين في الوفد قائلاً: «ليس هناك أي أمل بالنصر». بدا الحاج ابراهيم غاضباً جداً عض على شفتيه، وتقدم من المتكلم وهزه بكتفه وأمره بالعودة من حيث أتى. وعاد الوفد يخبر موردخاي ان عدداً من المدنيين يقتل على أيدي الاسرائيليين، وان رجال المقاومة، يطلقون النار من حين لآخر، في أطراف المخيم بحيث يسمع المدنيون المحاصرون صوت الرصاص: «إنهم اليهود يقتلون كل من يطل برأسه أمامهم» هذا ما يقوله الحاج ابراهيم ويتابع «من الأفضل لنا أن نموت في المخيم، في بيوتنا، سلاحنا في يدنا، على أن نموت راكعين على أيادي هؤلاء الملعونين».

هكذا وجد موردخاي نفسه أمام الخيار العسكري؛ وصمم على اقتحام المخيم حتى ولو اضطر إلى القتال من بيت لبيت ومن شباك لشباك. وارتفع الدخان، طائرات تغير، مدافع تقذف الحمم، وناس تموت، تتمزق، رائحة البارود في كل مكان. كاتب اسرائيلي وصف المشهد «بالموت». هؤلاء الجنود هم نموذج جديد للجندي الاسرائيلي لم يسبق لهم أن

خاضوا حروباً، قادتهم أكثر خبرة من سابقيهم، ولكن ماذا جنت خبراتهم؟ هل اعتبروا ان محو عين الحلوة، ضرورة حتمية ـ ولو مخيفة ـ أفضل الممكن؟ وهل هذا القصف العنيف، هو نوع من الرد على جميع عمليات الإرهاب ضد الاسرائيليين الأبرياء؟ أو هل هو الإحساس العميق بالثأر من جميع المآسي التي عاناها الشعب اليهودي على مر العصور؟ عبثاً حاول هذا الكاتب إيجاد أجوبة لهذه الأسئلة. ولكنه عاد ليتساءل ماذا سيقول أجداد هؤلاء الجنود إذا رأوا ما يقوم به اسحاق موردخاي؟ أية ذكريات ستنتصب أمام أعينهم؟ وأي خوف سيسيطر على القلوب؟

المدفعية الاسرائيلية تدمر المخيم، تدمر كل بناية يصدر منها نار. وابتدأ الزحف باتجاه الداخل، رغم أنهم اضطروا للتوقف أمام المدرسة بسبب إصابة الدبابة التي تسير في الطليعة. وشرع الاسرائيليون يضيقون الخناق على المقاتلين الذين قدر عددهم بين مئة وثلاثمائة، فعلوا فعل فرقة عسكرية بكاملها.

يوم السبت ١٢ حزيران، تركز القتال في الحي الغربي للمخيم، انها مرحلة النهاية. وانتهت المعركة بعد السابعة مساء بقليل، بانفجار عنيف لمستودع الذخيرة. وبرغم هذا، تواصل القتال ليومين تاليين، إنما على شكل متقطع. فالمدافعون تشتتوا في المخيم على شكل مجموعات صغيرة، إنما دون تنظيم. المركز الأخير كان الجامع. وفيما إذا كان الحاج ابراهيم ما يزال حياً أو لا، فإن المتواجدين فيه، رفضوا الاستسلام مفضلين مواصلة الدفاع حتى حين بدأت القذائف تصيب الجامع مباشرة، صرخات غامضة وصوت بكاء. هذا ما كان يسمع في الداخل، وظل يسمع حتى انهار المبنى على من فيه.

الاثنين ١٤ حزيران سقط المخيم نهائياً، وبدون أي أمل بالنصر، ظل المدافعون عنه متمسكين بمبادئهم وأهدافهم حتى الرمق الأخير، هزيمتهم وضعت حداً لمعركة الجنوب وليس للقتال بين الفلسطينيين والاسرائيليين، ذلك لأنه مع انطلاق آخر رصاصة في عين الحلوة، كانت بيروت تتعرف على مأساة جديدة.

صيدا أم البطولات، وقفت في وجه التاريخ لتكتب تاريخاً ناصعاً بالمجد، كمجد تضامن بَنيها. حتى اليوم، وبعد سنوات عشر من الشحن الطائفي، ما يزال الصليب في صيدا يعانق هلالها، وما يزال دمها يراق دفاعاً عن مدينة التاريخ. وحتى اليوم ما تزال صيدا تلقن الغزاة درساً لا ينتسى. أبناء صيدا هم الذين دافعوا عنها، ها هم اليوم أبناء الجنوب.

الفصل التاسع

جبهة جديدة

حين اندفع جيش الدفاع الاسرائيلي مقتحماً جنوبي لبنان، لم يخطر ببال أحد أن بيروت هي الغاية، غير أن هذا لم يمنع، أن يشعر مساعدو ريغن الذي كان يقوم بأول زيارة رئاسية له في أوروبا، بالمرارة ويتخوفوا من الانعكاس السلبي للغزو الاسرائيلي على زيارة الرئيس، ومن إقدام السوفيات على رفع مقدار ضغوطاته. أما هايغ، على عكس بقية أعضاء الوفد ـ فقد عين نفسه مدافعاً عن سياسة اسرائيل ـ دون طلب من أحد ـ مقدماً دعماً سياسياً لمناحيم بيغن، من خلال التقارير التي كان يدلي بها يومياً للصحفيين المرافقين للرئيس.

في أول تعليق له بعد الغارة الاسرائيلية، على بيروت يوم الجمعة الرابع من حزيران، ربط بين ما قامت به اسرائيل ومحاولة اغتيال السفير الاسرائيلي في لندن، وأعاد إلى الأذهان تحذيرات اسرائيل المتكررة من أنها لن تقف مكتوفة اليدين ازاء استمرار الارهابيين في أعمالهم التخريبية.

ومر يومان، صعدت اسرائيل خلالها من قصفها ووسعت رقعة انتشارها في لبنان. وبدأت الأهداف تتضح، وثانية أطل هايغ أمام الصحفيين ليطلعهم على أهداف تل أبيب من عملية «السلام من أجل الجليل» وليؤكد اهتمام الرئيس بالتصعيد الجديد للعنف في لبنان، وأنه ـ أي الرئيس ـ تشاور مع بيغن في الموضوع، واستدعى فيليب حبيب إلى قصر فرساي تمهيداً لإرساله في مهمة عاجلة لدى اسرائيل. وفي اليوم التالي أعلن هايغ ان واشنطن اتصلت بدمشق مؤكدة لها ان اسرائيل غير راغبة بمهاجمة السوريين في لبنان، إلا دفاعاً عن النفس، وانها غير طامعة حتى بشبر واحد من الأراضي، وان، جل ما تهدف إليه، هو إبعاد الارهابيين مسافة ٤٠ كلم عن حدودها الشمالية. وتوقع ان يصادف جيش الدفاع الاسرائيلي مقاومة عنيفة على الطريق الساحلي، نظراً لوجود ستة آلاف مسلح

وارهابي عليها.

وانتهز هايغ الفرصة ليعبر عن تصوره لمستقبل الوضع في لبنان، فرأى ان المطلوب ليس وقف إطلاق النار، بل إحداث توازن سياسي، وهذا لن يكون إلا بعد إقدام سوريا على تخفيض قواتها بشكل ملموس في لبنان. لم يبد عليه القلق، لأنه لم يكن يدري ـ انه وهو يتكلم ـ كانت جحافل جيش الدفاع الاسرائيلي تتجه شمالاً نحو طريق بيروت ـ دمشق، ليس بهدف إجبار سوريا على سحب قسم من جيوشها، بل لإخراجها نهائياً من لبنان، كذلك، لم يكن يدري ان شارون نوى ـ ولم يفعل ـ الطلب من مجلس الوزراء الموافقة على مهاجمة القوات السورية في لبنان، وانه ـ أي شارون ـ سيقدم، بعد يومين ليس أكثر، على تدمير بطاريات صواريخ سام في سهل البقاع.

أين الغرابة في الأمر؟ هايغ، ليس الديبلوماسي الأميركي الوحيد الذي هو خارج اللعبة الشارونية.

صباح الاثنين وصل فيليب حبيب إلى تل أبيب، وانتظر حتى الساعة السادسة مساء موافقة بيغن على استقباله. دخل حبيب مكتب رئيس وزراء اسرائيل، وفي رأسه سؤال واحد: إلى أي مدى ستمتد هذه العملية؟ وبعد المحادثات خرج الاثنان بانطباع إيجابي. بيغن، صرح أمام وزرائه «ان الايجابية الاميركية هي أكثر مما كنا نتوقع». أما حبيب فركب طائرته متوجهاً إلى دمشق؛ ليؤكد ان اسرائيل لا ترغب بمهاجمة قواتها، ولينقل إلى الرئيس السوري حافظ أسد، مطالب مناحيم بيغن: أولاً: سحب الصواريخ السورية من وادي البقاع. ثانياً: إبعاد الارهابيين المتواجدين في البقاع إلى ما وراء ٤٠ كلم عن الحدود الشمالية لاسرائيل.

مطلبان بسيطان في الظاهر، غير أن الذي يعرف الرئيس الأسد، وأسلوب تعامله مع المعطيات والمستجدات، يدرك سلفاً، ان هذين المطلبين، هما بمثابة الحد الفاصل بين الحرب والحفاظ على الوضع الراهن؛ فإن لم يفِ حافظ أسد بوعوده للفلسطينيين، فلن يجبرهم اليوم على الاستسلام؛ وإذا ما دقق الباحث في مطلبي بيغن، لوجد فيهما ما هو أخطر، فالرئيس السوري مُطَالَبٌ ـ إذا جاز التعبير ـ غض النظر عن تقدم الجيوش الاسرائيلية في البقاع والشوف. بيغن، المتفائل الدائم، توهم ان دمشق ستفاوض فيليب حبيب على الشروط الاسرائيلية. لكن هذا الأخير، الخبير بشؤون الشرق الأوسط، كان يدرك سلفاً انه ذاهب في مهمة مستحيلة.

في اليوم الثالث من يوميات الحرب ـ يوم الاثنين ٨ حزيران، قال الرئيس ريغن في أول خطاب أمام مجلس العموم البريطاني «انه لمن الضروري اقتلاع الإرهاب من الشرق الأوسط» وباليوم ذاته تحدث مناحيم بيغن أمام الكنيست معلناً موافقته على دعوة الرئيس الاميركي له للانسحاب من لبنان، ودعا سوريا إلى عدم دخول الحرب، لأنه لا يريد مهاجمتها. وعن توقف القتال قال: «لن يتوقف إلا حين نبلغ هدفنا: إبعاد الارهابيين ٤٠ كلم شمالي حدود اسرائيل».

فما لو كان مناحيم بيغن صادقاً في قوله، فلماذا هوجم السوريون، بالقرب من جزين؟ ولماذا تخطت الوحدات الاسرائيلية حدود المسافة المرسومة؟ ولماذا، قبل إلقاء كلمته في الكنيست، أغار الطيران الاسرائيلي على السوريين في لبنان؟ ويبقى سؤال: هل كان بيغن يعلم ان شارون يناقش مع نائب قائد سلاح الجو كيفية جعل مجلس الوزراء يتقبل فكرة تدمير الصواريخ السورية في وادي البقاع؟

في الحقيقة إن التحرش الاسرائيلي بسوريا، بدأ منذ اليوم الثاني للحرب، وإن لم تكن بيانات جيش الدفاع الاسرائيلي لم تشر إلى شيء من هذا القبيل، هذه التحرشات اعتبرت رسالة موجهة إلى دمشق تعبر عن عدم رغبة تل أبيب بتحديد مهمة جيشها في لبنان. وإلا لماذا أغار سلاح الجو الاسرائيلي، على محطتي رادار سوريتين في لبنان: الأولى قرب الدامور، والثانية شمالي طريق بيروت ـ دمشق، قرب مطار رياق العسكري، أي على مسافة أبعد من الأربعين كيلومتراً التي حددها مناحيم بيغن وأكدها فيليب حبيب لدمشق. ولكن، ورغم المفاجأة، ضبط السوريون أعصابهم.

هيئة الأركان السورية انقسمت على ذاتها، وانتصر الفريق المطالب بعدم تعزيز القوات المتواجدة في هضبة الجولان، قبل أن تفعل اسرائيل ذلك. حافظ أسد المنزعج من رسائل اسرائيل، قرر إيفاد اللواء علي أصلان، الذي سبق له وكان قائداً للقوات السورية في لبنان، إلى لبنان في مهمة تقصي الحقائق عن كثب ومراقبة تحركات جيش الدفاع الاسرائيلي، وبعد أربعة وعشرين ساعة، عاد أصلان بانطباع مؤكد أن جيش الدفاع الاسرائيلي يبغي الوصول إلى طريق بيروت ـ دمشق.

إذن، منذ الاثنين، كانت اسرائيل تخوض حربين في لبنان: الأولى ضد منظمة التحرير الفلسطينية، والثانية ضد السوريين الذين تضاعف إحساسهم بضرورة القتال، خاصة بعد إعلان حكمت الشهابي ـ رئيس الأركان ـ انه فوجىء فعلاً بالتحركات الاسرائيلية ضد

جنوده؛ وباتساع رقعة العمليات العسكرية ضد منظمة التحرير. اسرائيل بدورها، وجدت نفسها أمام خيارات صعبة، تريد توجيه ضربة لسلاح الجو السوري ولا تريد حرباً أرضية تكبدها خسائر بشرية. إذن، لماذا لا تدمر الصواريخ، فهذا عمل يتم بأقل كلفة ممكنة وهو فعل ردع قوي. بكلمة مختصرة، فاسرائيل - رغم أحداث الاثنين - ما تزال تتحاشى مواجهة حقيقية مع سوريا تحاشياً للخسائر البشرية.

شارون، كان يريد كل هذه الحروب مجتمعة، يريد حرباً ضد منظمة التحرير الفلسطينية، وضد الصواريخ، وضد السوريين براً وجواً وفوراً. وهكذا وضع مجلس الوزراء أمام خيارين: الأول مواجهة السوريين، والثاني مجانبتهم أولاً ومن ثم الالتفاف عليهم من الخلف. وهكذا نجبرهم على الرحيل من لبنان. الخيار الثالث الذي لم يناقش هو الاكتفاء بمحاربة الفلسطينيين في جنوبي لبنان. شارون أعلن تحبيذه للخيار الثاني الذي باركه بيغن. الذي كان غائباً عن الجلسة لانشغاله في متابعة المعارك في مركز قيادة الجبهة الشمالية - وتساءل الوزراء؛ ومن يؤكد لنا أننا سنجبرهم على الرحيل ولن نجبرهم إلى القتال؟ مهما يكن فشارون سينفذ ما يريد.

لربما كان بيغن ووزراؤه مقتنعين فعلاً ان السوريين قد ينسحبون، ولكنهم لو أصغوا جيداً لكلام رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية يشوع ساغي - يوم تكلم أمام مجلس الوزراء - لأدركوا أن التقدم نحو طريق بيروت - دمشق سيكون «تحت النار» ومن سيطلق النار غير السوريين؟ وبناء لخيارات شارون، اختار الوزراء الخيار الثاني دون أن يتساءل واحد منهم ماذا سيحدث لو رفض السوريون الانسحاب برغم محاصرتهم، وماذا سيحدث أيضاً إذا رفضوا شروط بيغن ولم يجبروا مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية على الابتعاد ٤٠ كلم؟ بالنسبة لشارون، سيان عنده الأمر إن عرفوا ما سيحدث أو لم يعرفوا، المهم انه سيحارب السوريين.

معركة جزين - المدينة التي تتفرع منها الطرقات إلى وادي البقاع وجبل الباروك - أوصلت الحرب إلى نقطة اللارجوع. لقد أدرك الاسرائيليون أهمية جزين ومحورها، فالاستيلاء عليها يسهل الوصول إلى وادي البقاع من الجنوب كما من الغرب، وكما الاسرائيليون، كذلك السوريون الذين جعلوها مركزاً للواء ٤٢٤.

مناحيم عينان، رغبة منه في الوصول إلى طريق بيروت - دمشق، بأسرع ما يمكن، ترك خلفه قوات تتولى عملية القضاء على جيوب المقاومة وتابع طريقه حتى وصل جزين عند

الساعة العاشرة من صباح الثلاثاء. من بعيد، بدت القوات السورية، حاول الاسرائيليون محاصرتهم، ولكن المعركة فتحت وتكبد المهاجمون خسائر جمة، لقد خسر الاسرائيليون دبابتين. وتأكدوا من أن مواجهة السوريين ليست بالأمر اليسير.

بعد معركة جزين بساعات، كان أريل شارون يناقش الموضوع مع قيادة الجبهة الشمالية في اجتماعها الليلي «أدركت اليوم أننا سنضطر لمواجهة السوريين... برأيي، أفضل الحلول، ان نمضي قدماً في لبنان» وفي محاولة لحث قادته على الاسراع بالوصول إلى طريق بيروت - دمشق قال: «علينا أن ندرك ان غداً موعدنا للقضاء على السوريين». وانبلج الفجر، واكتشفت الاستخبارات الاسرائيلية، ان تعزيزات سورية، تعبر جبال الشوف باتجاه جزين - في الواقع ان جزين كانت قد عززت تحت ستار الليل دون أن يلاحظ أحد ذلك - فقامت الطائرات الاسرائيلية بقصف هذه القوافل قصفاً مباشراً. انها الغارة الإنذار للصواريخ، وبعد ظهر ذلك اليوم، انقشعت الغيوم وتبددت الأوهام، وتأججت نار الحرب بين سوريا واسرائيل. ولهذا صدرت الأوامر للواء الذي كان يعبر جسر الخردلي نحو جزين، بالاتجاه شرقاً، لكن الكولونيل هاغاي Hagai رأى أن الطريق الوحيد نحو الشرق، تمر عبر جزين، لذا اجتمع بقادة الوحدات وخاطبهم قائلاً: «أيها السادة اننا ذاهبون لمحاربة السوريين». وبالفعل - وبعد دقائق - عند الساعة ١,٣٠ بعد الظهر، اتصل الميجر جنرال أفيدور بن غال - قائد القطاع الشرقي - بهاغاي وأمره بالاستعداد لمهاجمة جزين. غير أن هاغاي واجه مشكلة صعبة، ألا وهي «التنوع» في لوائه الذي يضم وحدات من المدرعات والدبابات، ويفتقر إلى وحدات مدفعية، وفيما حاول هاغاي اللحاق بمناحيم عينان لاستعارة وحدة مدفعية منه، جاءه صوت بن غال على اللاسلكي ليطلب منه البدء بالهجوم فوراً، مع أو بدون مدفعية.

وابتدأ الهجوم. فرقة دبابات، رابطت على التلال المشرفة، فيما تقدمت فرقة أخرى عبر الشارع الرئيسي. جزين العامرة بالحياة، بدت وكأنها مزرعة خوف وترقب. واستمرت الفرقة في التقدم حتى ساحة المدينة، حيث انهمرت عليها قذائف الآر. بي. جي R. p. g. والصواريخ المضادة للآليات من البنايات المجاورة. لكن فرقة الدبابات، تابعت سيرها حتى الطرف الثاني من المدينة حيث دمرت ثلاث دبابات ت ٦٢ T 62 كانت تعرقل الخروج من المدينة. في هذه الأثناء، تعرضت الفرقة المرابطة على التلال إلى عملية كوماندوس سوري، بصواريخ ساغير Sagger المضادة للدبابات؛ تمكن الكوماندوس من تدمير ثلاث دبابات

وإجبار الباقي على التراجع، وهكذا أطبق السوريون على جزين واللواء الاسرائيلي في الوسط؛ مما اضطر هاغاي على توجيه فوجاً لمواجهة الكوماندوس السوري، وفرقة لاختراق المدينة، لكنها أخطأت الطريق، فوجدت نفسها عرضة للنيران التي دمرتها. ولرب ضارة نافعة، هذا ما يقوله المثل، وهذا ما حصل في جزين، تدمير الفرقة كشف مواقع دبابات السوريين، ولم تكد خمس دقائق تمضي، حتى اشتعلت النار بخمس دبابات سورية. وتابع اللواء سيره، فيما خلف وراءه فرقة تخوض المعارك مع الدبابات السورية، وتدمر الواحدة بعد الأخرى، حتى تمكنت من القضاء عليها نهائياً واستولت على جزين، وتابعت طريقها نحو كفرحونا. وهكذا، ومع سقوط الليل، سيطر الاسرائيليون على جزين، بعد خسارة سبعة قتلى. ردة الفعل السورية، كانت إدخال ست بطاريات صواريخ سام ٦ إلى لبنان، وفي الوقت، الذي كانت فيه دمشق تعزز دفاعاتها الجوية في سهل البقاع، واصلت إظهار عدم رغبتها في الحرب. وهنا لابد من الإشارة، إن هذه البطاريات الست التي أدخلت إلى لبنان، كانت قد سحبت من هضبة الجولان، مما يدل على أن سوريا لم تفكر أن الحرب ستصل إلى تلك المنطقة.

في الليلة ذاتها، التي انتهت فيها معركة جزين بنصر اسرائيلي، تبين لمناحيم عينان، ان القوات السورية شكلت عقبة رئيسية له، وأخرت تنفيذ المطلوب منه، أي أن يكون الفك الآخر للكماشة التي ستطبق على السوريين، وهذا يقتضي، منه الإسراع نحو طريق بيروت - دمشق قبل أن يتمكن السوريون من تحصين مواقعهم هناك ويشكلون حاجزاً بوجهه. مسكين مناحيم عينان، منذ انطلق وهو في سباق مع الزمن. بعيد دخوله الأراضي اللبنانية، أمر بتغيير وجهة سيره والعبور على جسر القعقعية بدلاً من جسر الخردلي، ليجد أمامه مئات الدبابات والطريق ضيقة. حتى الاثنين كان عينان يسير خلف كاهالاني المتجه نحو صيدا، وعند مثلث الزهراني اضطر للتوقف من الصباح حتى الساعة الثانية بعد الظهر، سمح له بعدها بعبور الجسور.

إن الأسباب التي أخرت تقدم جيش الدفاع الاسرائيلي - خلال الأيام الثلاثة الأولى - لم تكن من فعل السوريين، بقدر ما كانت من فعل الاسرائيليين أنفسهم الذين أوقعوا أنفسهم بمآزق عدة مردها فقد الترابط بين الوحدات المتقدمة، أحياناً - ونفاذ الوقود أحياناً أخرى. أضف إلى ذلك ان الأوامر بالتقدم، كانت تعطى، ثم تلغى، ثم يطلب تنفيذها. عند الساعة الواحدة بعد منتصف ليل الاثنين وصل عينان إلى جسر بسري في طريقه إلى جبال الشوف،

لكنه تلقى أمراً بالانتظار حيث هو، ريثما تنجلي الأمور، كما أوضح دروري خلال الاتصالات التي تمت بين عينان ومركز قيادة الجبهة الشمالية، لم يتضح، من يقف وراء هذا الأمر. مجلس الوزراء، - لأسباب سياسية - أم رئاسة الأركان ولسبب لا يعلمه أحد. وعند الساعة السابعة صباحاً، صدر أمر جديد يقضي بمتابعة التقدم شمالاً، حتى مشارف الدامور، حين تلقى أمراً جديداً بالتوقف مدة أربع ساعات؛ وثانية نفذ الوقود، فأمر عينان رجاله بالتوجه إلى أقرب محطة محروقات وتعبئة آلياتهم، وسيدفع جيش الدفاع الاسرائيلي ما يتوجب لاحقاً.

بعد ظهر ذلك اليوم، هاجمت طائرات الهليوكوبتر المزودة بصواريخ غازيل Gazelle الفرنسية الصنع، وأعطبت ثلاث دبابات كانت تسير في الطليعة وجرحت أطقمها، وعادت الطوافات ثانية، وأشعلت النار بدبابة أخرى؛ والذي جعل المضي قدماً مستحيلاً، سقوط جرف صخري إضافة إلى انقضاض الطوافات.

وفي حين كان دروري، يضغط على عينان للوصول إلى عين زحلتا، كان هذا الأخير يضغط على قيادته، وأخيراً، وبينما عينان ينتظر فتح الطريق، كان رتل دبابات وفوج مدفعية يحاول الوصول إلى عين زحلتا؛ ولكن دون جدوى، إذ أن السوريين سبقوهم وحصنوا المدينة وعززوا وحداتهم، وأحاطوا مداخلها بالكمائن المشرفة على الطريق العام المحاذي للوادي. إضافة إلى نشر الكوماندوس في قلب المدينة.

عند الساعة الحادية عشر ليلاً - الثلاثاء ٨ حزيران - دخلت المدينة أول وحدة مدرعات اسرائيلية، وتابع قسم منها صعوداً نحو الطريق المؤدي إلى الوادي ليجابه بأعنف معركة دموية استمرت حتى بعد انقضاء يوم الأربعاء محطمة آمال عينان بقطع طريق بيروت - دمشق قبل التوصل إلى وقف إطلاق نار. لواء سوري مدرع واحد وفرقة كوماندوس، حالوا دون تحقيق استراتيجية الكماشة الاسرائيلية، ومنعوا جيش الدفاع الاسرائيلي من الوصول إلى هدفه. لكن شارون، صمم على الانتقام، أين: الصواريخ في سهل البقاع.

تحت ضوء القمر، المطل على عين زحلتا وضواحيها، بدأت الدبابات الاسرائيلية تتململ على الطريق المتعرجة، خلف فرقة مشاة مهمتها تأمين الطريق والتنبه للكمائن، وفجأة دوى انفجار واشتعلت النار في دبابة؛ بعد إصابتها بقذيفة حارقة أطلقتها دبابة سورية مختبئة عند الطرف الثاني من الوادي، هذه القذيفة كانت بمثابة الايذان لفتح نار جهنم، من القذائف الصاروخية وآلآر. بي. جي المنطلقة من قعر الوادي، أجبرت الرتل المتقدم على

الانكفاء تاركاً دبابتين تشتعلان. وبعد ساعتين من القتال الوهمي وثلاث محاولات فاشلة لقصف الوادي بالمدفعية، أبرق قائد اللواء إلى قيادته شارحاً خطورة الوضع واستحالة تدمير مدفعية العدو.

مناحيم عينان، بعد استلامه البرقية، جمع قادة وحداته في مركز القيادة المتقدم، وهو يدري أنه مجبر على إصدار أمر للقوات الزاحفة بالتراجع، ولو كان تحت رحمة النيران السورية؛ عند الفجر، واصل المتراجعون إلى ساحة الضيعة، وعلى الفور دعا قائد اللواء قواد الوحدات لاجتماع عاجل ليشرح لهم خطة الهجوم الجديدة؛ وفيما هم يناقشون هذه الاستراتيجية، انقض بضع عشرات من الكومـانـدوس السوري على تجمع الشاحنـات الاسرائيلية وراح يطلق النار عن بعد مايتي متر ليس أكثر، من أسلحته الرشاشة وقاذفات القذائف الصاروخية، تشاركهم بطاريات صواريـخ سـاغير Sagger مـن الجهـة المقـابلـة للوادي، وهكذا كان على الآليات الاسرائيلية الانسحاب من أمكنتها ولو بدون أوامر؛ وبدون اتجاه، بعضها أصيب مباشرة والبعض الآخر أعطب، وسقط ثلاثة قتلى وهم يحاولون سحب طاقم دبابة تحترق، فصدرت الأوامر بعدم المحاولة ثانية والتركيز على الاستعدادات للمعركة التالية. سبعة عشر جريحاً اسرائيلياً سقطوا في ذلك الفجر الصيفي البارد، إضافة إلى أحد عشر قتيلاً.

معركة عين زحلتا، جعلت أريل شارون في حركة دائمة، ذهاباً واياباً بين القدس ومركز قيادة الجبهة الشمالية ليتابع عن كثب سير المعارك ويطّلع على أدق التفاصيل من خلال التقارير التي ترفع له يومياً في ساعة متأخرة من الليل، وعند ساعات الصباح الأولى.

يوم عاد شارون إلى مركز قيادة الجبهة الشمالية ـ ٨ حزيران، يوم السيطرة على جزين وإيقاف القوات المتقدمة في القطاع الأوسط ـ بدأ يتحدث بلهجة المغرور عن رغبته في مهاجمة السوريين على طول الخطوط الأمامية، ورغـم التقـدم السريـع يـومـذاك، اعترض ساغي، مطالباً القبول بوقف اطلاق النار ابتداء من صباح اليوم التالي؛ حتى نتمكن من تحديد أين نريد أن تنتهي الحرب. ورفض شارون الفكرة أساساً، وكيف يقبل بها ومشاة يعاري ما تزال عاجزة عن اختراق جبهة صيدا، وفرقة عينان متوقفة على بعد أميال من طريق بيروت ـ دمشق. أشياء مزعجة فعلاً خاصة بالنسبة لشارون.

الوزراء كانوا في حيرة من أمرهم. فهو ـ أي شارون ـ يحارب السوريين دون موافقة مجلس الوزراء، وحتى يكمل المشوار، وجد نفسه مجبراً على القول علناً للذين كانوا

مجتمعين في مركز قيادة الجبهة الشمالية، ليلة الثلاثاء «ردة فعل مجلس الوزراء إزاء حرب ـ بكل القوى ـ ضد السوريين، غير واضحة حتى الآن؛ لذا علينا خداعهم بأن هذه الحرب ليست حرباً شاملة».

في هذا الوقت كان جيشه ما يزال يحاول القضاء على مقاومة العدو؛ إذن، من الضروري جداً، استعمال الطيران بكثافة كمساعد فعال للمحاربين على الأرض؛ هذا يعني تدمير الصواريخ، وقـد يثير استنكـاراً سيـاسيـاً ربما أدى إلى وقـف الحرب، «وبـدون سلاح الطيران» كما أوضح شارون، لن يكون بمقدورنا فعل شيء. فالولايات المتحدة الأميركية، لن تسمح لنا، بأكثر من ثلاثة أيام «ومن يدري ما الذي يحدث خلالها؟».

فجر الأربعاء، حمل إليه الكثير من الأخبار السيئة، في القطاع الأوسط، لم يتمكن عينان من الوصول إلى هدفه، وعلى الساحل، ما تزال قوات كاهالاني منشغلة في قتال مرير على أبواب صيدا. لهذا، عاد صباحاً إلى مركز قيادة الجبهة الشمالية ليتحدث إلى القادة هناك بلهجة المتذمر «لماذا توجهوا غرباً بدلاً من التوجه مباشرة إلى الطريق الدولي؟ لماذا لم يقفزوا فوق العدو بالطوافات؟» وحين تلقى نبأ توقف عينان عند عين زحلتا، بعد تعرضه للهجمات السورية التي أوقعت به خسائر فادحة، ازداد غضباً؛ وأمر أفيدور بن غال بالتحرك شمالاً وبأسرع ما يمكن؛ فما كان من الميجر جنرال يوكونيل آدم، مدير «الموساد» الذي لم يكن من عداد الذين حضروا اجتماع الليل الفائت حين أعرب شارون عن رغبته بمهاجمة السوريين، فما كان منه إلا أن تمتم «هذه حرب ضد السوريين» ومضى بقوله متحدياً شارون «أما يتعارض هذا العمل مع ما أقره مجلس الوزراء؟» وهنا نهض نائب رئيس الأركان الميجر جنرال موشي ليفي، ليعلن أن جيش الدفاع الاسرائيلي غير مستعد عملياً لإصدار هكذا أمر لبن غال.

وتمالك شارون نفسه، فيما عيناه تقدحان شرراً. رمق ليفي نظرة استغراب «لقد سبق لنا وناقشنا الموضوع ـ الليلة الفائتة ـ بغيابك» ومن ثم إستدار نحو آدم «لم يسبق لنا وقطعنا وعداً بعدم ملاحقة الارهابيين إلى ما وراء الأربعين كيلومتراً. ولطالما رددت أننا لا نريد حرباً مع سوريا، إنما هم الذين يطلقون النار علينا[1]. وأريدكم أن تعلموا ان كل أمر

(١) أي منطق هو هذا الذي يتكلم بموجبه؟ حتى الدفاع عن النفس ممنوع أما احتلال الأراضي فمشروع.

ـ أي أمر ـ أعطي للجيش هو مستوحى من قرار مجلس الوزراء». أراد ضابط كبير أن يتكلم، فبادره شارون بالقول: «استرح... من يشعر بالحمى يمكنه صبّ الماء على رأسه». فارتفعت أصوات المجتمعين مشككة بصدق ما يقوله وزير الدفاع، متسائلين، عما إذا كان مجلس الوزراء يدرك حقيقة هذه الحرب وأهدافها. هل هذه رغبة الوزراء؟ أم أنه الجيش ينفذ رغبات شارون، على أمل نيل الموافقة على ما يقوم به لاحقاً. وانفض الاجتماع، شارون عاد إلى القدس، أما إيتان ودروري، فتوجها إلى مركز قيادة القطاع الأوسط، ولإصدار الأمر إلى عاموس يارون بالتوجه نحو بيروت. الأمر صدر عن شارون، دون أية مناقشة له في مجلس الوزراء. وبالوقت ذاته، توجه نائب الأركان موشي ليفي Levi إلى عين زحلتا ليخبر مناحيم عينان، ان سلاح الجو سيدمر الصواريخ السورية في ذلك اليوم. وأيضاً، دون أية مناقشة لهكذا موضوع في مجلس الوزراء. في اليوم ذاته ـ الأربعاء ٩ حزيران ـ اجتمع مجلس الوزراء ليناقش سياسة وزير الدفاع، لأنه ولو لأول مرة، يبدو واضحاً انه يخطط للحرب. العدوان ضد السوريين، لم يبتدىء بعين زحلتا بل بجزين، سوريا كانت ما تزال تدافع عن نفسها، لكنها تنبهت إلى مخططات شارون وشرعت بتحريك فرقة مدرعة أخرى ـ الفرقة الثالثة ـ جنوباً. وما إن وصل الخبر إلى شارون حتى قرر التوجه نحو البقاع وبقوة؛ وبعد مراجعة الموقف السياسي، وجد أن تدمير الصواريخ اليوم ـ الثلاثاء ـ سابق لوقته؛ والخميس، يكون قد فات الأوان، إذن فليكن اليوم ـ الأربعاء ـ.

وكإجراء احتياطي، اصطحب شارون عاموس أمير ـ نائب قائد سلاح الجو ـ معه إلى مجلس الوزراء. رئيس الأركان، فضّل أن يبقى بعيداً عن هذه الاجتماعات تاركاً ـ كما سبق وأشرنا ـ لوزير الدفاع مهمة اعطاء التفاصيل والشروحات، رغم أنه، وفي مثل هذه الحالة خاصة، يفترض برئيس الأركان، تقديم المعلومات والشروحات شخصياً إلى الوزراء.

صباح ذلك اليوم ـ الأربعاء ـ وفي الاجتماع الذي عقد في مقر قيادة الجبهة الشمالية، اقترح إيتان تضييق رقعة العمليات العسكرية، مع جعله يبدو وكأنه رسالة موجهة إلى سوريا؛ فهو لم يكن واثقاً من قدرة سلاح الجو على التعامل مع الصواريخ، فكر بذلك، انطلاقاً من كونه أكثر الناس قدرة على فهم هكذا عمليات، ومن كونه يرغب تقليل الخسائر بشرياً ومادياً، كان هناك سبب آخر لتردد إيتان ألا وهو اعتقاده ان تدمير الصواريخ سيتسبب في حرب عنيفة، وستجد اسرائيل نفسها مضطرة على وقف القتال

استجابة للضغوطات الهائلة. دروري بدوره أيضاً، رأى ان تدمير الصواريخ عمل غير ضروري. وفي الوقت الذي توجه فيه شارون إلى مجلس الوزراء، كان دروري يخاطب ضباطه: «يمكننا الاستيلاء على الاربعين كيلومتراً بسهولة، وبدون قصف الصواريخ، بدون حرب شاملة، كما ويمكننا القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية والعودة إلى منازلنا».

في مجلس الوزراء، كان شارون عرضة للنقد، فجيش الدفاع الاسرائيلي تجاوز الحدود التي رسمها المجلس، ويبدو انه لن يتوقف، ومن أجل هذا جاء موردخاي تسيبوري متأبطاً خريطة ومسطرة، لقياس المسافات وتحديد النقاط. ورد شارون بهدوء يخفي غيظاً وغضباً، ان المسافات لا تقاس هكذا، إنما تقاس بالفرجار ـ البيكار ـ على أن تكون المطلة ـ أقصى مستعمرة في شمالي اسرائيل، وكأنه يريد رسم قوس لمدى المدفعية، وفقد أعصابه فصاح غامزاً من قفاه تسيبوري «حين كنت طفلاً، كان الأطفال يأتون لابسين المراويل، واليوم، على كل وزير أن يأتي إلى اجتماعات مجلس الوزراء وبيده مسطرة». ومضى في حديثه محاولاً تغيير مجرى انتباه الوزراء إلى معاناة الجنود في أرض المعركة، مصوراً لزملائه حالة الجنود في عين زحلتا، حيث يتعرض لقصف المدفعية السورية؛ وبالمختصر، نكون مجرمين إذا لم نقدم لهم دعماً جوياً، ويستحيل تقديم هذا الدعم بدون تدمير الصواريخ.

وزير الداخلية يوسف بورغ، تساءل عن حقيقة الوضع، وسبب تناقضه مع مقررات مجلس الوزراء ووصف القتال مع السوريين بالعمل التجاوزي. مهاجمة الصواريخ سيجرنا إلى حرب مع السوريين. ثانية عاد وتكلم شارون مقدراً عطف الوزراء على الجنود، بأسلوب المراوغ الداهية، فما كان من بيغن إلا أن وجه سؤالاً لعاموس أمير عن تقديراته للخسائر، وجاء الرد سريعاً ليس بمقدوري القول إننا لن نخسر شيئاً، إنما الخسارة لن تكون كبيرة». فوافق بيغن على اقتراح شارون . يوسف بورغ علّق «ليس أمامنا سوى خيار واحد. ما العمل؟».

وخرج شارون... إلى أين؟ إلى الهاتف ليصدر أوامره لسلاح الجو بمهاجمة الصواريخ السورية في وادي البقاع. وتبعه الوزراء الذين أدركوا أنهم لم يوافقوا على غارة جوية بل على حرب طاحنة.

الساعة الثانية بعد ظهر الأربعاء، أغار سلاح الجو الاسرائيلي على بطاريات صواريخ سام ٦ SAM 6، وهدفه إثبات وجوده وقدراته، أمام السلاح السوفياتي الذي شل حركته عام ١٩٧٣ ـ حرب يوم الغفران ـ وانتشرت الطائرات في سماء البقاع، كمهرجات

طائرات ورقية في عيد الأطفال. وعبثاً حاول السوريون الدفاع عن خططهم الدفاعي هذا، أربعة عشر قاعدة دمرت وثلاث أصيبت بأضرار فادحة، أما القاعدتان الباقيتان، فقد أطلقت مخزونها على الطائرات المغيرة. ومنذ ذلك اليوم، والروس في حيرة من أمرهم، كيف دمرت الصواريخ؟ انهم لا يفعلون هذا لحفظ ماء الوجه، بل لأنه أمر حيوي ومهم فلا يعقل أن يسكتوا على فعل يمس كرامة سلاحهم الدفاعي وإن يكن هذا السلاح تحت إشراف حلفائهم. اسرائيل من جهتها ما تزال تلتزم الصمت وتحيط استراتيجية قصف الصواريخ بالسرية التامة. إنه اللغز المحير. ومن مراجعات جميع الخطط التي وضعت لهذه الغاية، يمكن الاستنتاج ان عملية التدمير تمت بواسطة المدفعية البعيدة المدى؛ معركة تدمير الصواريخ هذه، تعتبر أكبر معركة جوية في التاريخ، مائتا طائرة تتصارع في مساحة هوائية لا تزيد عن ألفين وخمسماية كلم^{2}، خسرت سوريا خلالها تسعة وعشرون ـ الطيارون الاسرائيليون يقدرون ان الغدد هو أكبر من هذا بكثير ـ وهكذا خلا الفضاء، للطائرات الاسرائيلية من جديد. أهم من الخسائر المادية، كانت الخسائر البشرية. سوريا فقدت العديد من طياريها، وللحق يقال، ان العنصر البشري هو أهم بكثير من الطائرة التي يمكن أن يشترى بديلاً عنها.

الانتصار الاسرائيلي هذا، ليس انتصار سلاح على سلاح إنما هو انتصار لفكر عسكري على آخر، إذن من غير المعقول القول إن السلاح الغربي أو الأميركي قد تغلب على السلاح السوفياتي: ولا يصح القول ـ أيضاً ـ إن السلاح السوفياتي، بل الصحيح ان السوريين لم يعرفوا كيف يتعاملون مع هذا السلاح. المعارك لا تتطلب أسلحة، بقدر ما تتطلب قيادات وخبرات وأجهزة اتصال ـ بما فيها أجهزة الرادار ـ وفوق هذا كله، انها تتطلب العنصر البشري الذي هو الاساس لكل انتصار أو انكسار.

من المشكوك فيه أن تكون هيئة الأركان السورية وقيادة سلاح الجوية تابعتا ما حصل بعد ظهر ذلك الأربعاء عن كثب وتأكدتا مما جرى؛ وإلا كيف تعود وترسل عند عصر ذلك اليوم الكتيبة ٤٧ المدرعة إلى شمالي البقاع عن طريق بعلبك، حيث دمرها الطيران الاسرائيلي قبل وصولها إلى خطوط المواجهة.

بعد معركة الصواريخ، جاء فيليب حبيب إلى دمشق، ولكن الرئيس السوري لم يكن راغباً بمقابلته، ومع وصول الموفد الأميركي، كان وزير الدفاع مصطفى يغادر العاصمة السورية متوجهاً إلى موسكو، في مهمة مستعجلة طلباً لحماية جوية سوفياتية. موسكو

رفضت الطلب وأبدت كل استعداد لتزويد سوريا بما تريد من أسلحة متطورة جداً والمستشارين، أما بالنسبة للمظلة الجوية، فهذا أمر غير مقبول، لا داخلياً ـ بالنسبة لموسكو ـ ولا عالمياً؛ ولم يعط الاشاعات المدعية ان اسرائيل ستقتحم الحدود السورية أية أهمية؛ وبالوقت ذاته أقامت جسراً جوياً مع دمشق، فكانت الطائرات السوفياتية في حركة غير اعتيادية وهي تنقل المعدات والأسلحة إلى المطارات السورية مما ذكر بالجسر الجوي أثناء حرب يوم الغفران ـ حرب تشرين ـ، وتنبهت واشنطن إلى الأمر فتحركت مخافة اتساع رقعة الحرب.

قبيل غروب شمس الأربعاء، وبعد جهد جهيد، دخل فيليب حبيب مكتب الرئيس السوري ليعرض عليه وقفاً لإطلاق النار يسري مفعوله اعتباراً من الساعة السادسة صباح الخميس ١٠ حزيران. وافق حافظ أسد، لكنه رفض الشروط الاسرائيلية جملة وتفصيلاً؛ لأنه لا يريد أن يكون ذليلاً أمام الاسرائيليين ولا غادراً بالفلسطينيين.

« هذا كثير » قال حبيب.

وبسرعة أجاب أسد: « نعم، ونحن أيضاً عندنا شروط لوقف إطلاق النار ـ الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الأراضي اللبنانية ـ ».

هكذا وجد حبيب نفسه بين المطالب والمطالب المضادة. وبعد منتصف الليل عاد إلى قصر الرئاسة السوري حاملاً رسالة من الرئيس الأميركي يضمن فيها الانسحاب الاسرائيلي من لبنان، فألح الرئيس السوري على الانسحاب الفوري. وثانية عاد حبيب إلى السفارة الأميركية في دمشق لاجراء الاتصالات، ولكنه هذه المرة عاد بمطلب اسرائيلي جديد، ترتيبات أمنية في المنطقة الواقعة ضمن ٤٠ كلم.

« هذا أمر لا أقرره أنا » قال الرئيس السوري. أنا لست رئيساً لجمهورية لبنان، ولو كنت لرفضت إعطاء اسرائيل أي حق بالترتيبات الأمنية على تراب أية دولة أخرى. على كل هذا قرار لبناني ».

بعد ظهر الخميس اجتمع مجلس الوزراء الاسرائيلي ليناقش طلب الرئيس الاميركي الموافقة على وقف اطلاق النار، وبعد الجدل، قرر الوزراء الاستجابة لمطلب ريغن ولكن على شرط:

١ ـ تتعهد سوريا ألا ترسل قوات إضافية إلى لبنان.

٢ ـ سحب جميع الفلسطينيين المتواجدين ضمن منطقة الاربعين كيلومتراً.

٣ ـ تسحب سوريا الوحدات التي بدأت تدخل البقاع من الشمال. أمر مفروغ منه سوريا سترفض هذه الشروط. إذ كيف يفرض على سوريا سحب قواتها في حين تبقى القوات الاسرائيلية مستعدة للقتال.

هايغ اتصل ببيغن طالباً منه القبول بوقف اطلاق النار، ورد الثاني بإبلاغه بقرارات مجلس الوزراء، مع كافة الشروط، واستدعاه للحضور إلى اسرائيل للتباحث بالأمر وجهاً لوجه، وقبل هايغ الدعوة. بيغن أبلغ وزراءه ربحنا يوم قتال. دعونا ننتظر حتى يأتي هايغ الذي منعه رئيسه من السفر. مهما يكن، فإن اتصال وزير خارجية أميركا، صار ورقة رابحة بيد مناحيم بيغن الذي كانت قواته ما تزال تعاني من عنف المقاومة على جميع المحاور. فقد مضى خمسة أيام على بداية الاجتياح، دون أن يتمكن جيش الدفاع الاسرائيلي من تحقيق أهدافه. شارون، أبلغ الوزراء، في جلسة يوم الخميس، ان هذا الجيش سيصل إلى طريق بيروت ـ دمشق عند منتصف الليل، مبشراً إياهم بعدم السماح للسوريين بالهيمنة على لبنان «لن يتمكنوا بعد اليوم من السيطرة على بيروت، وهكذا لن يكون بمقدورهم أن يتلاعبوا بالحكومة اللبنانية. انها نقطة حيوية». إذن، احتلال الطريق الدولي صار هدفاً لحرب شارون، وكان كذلك، ولو بدون موافقة مجلس الوزراء. وهذا ما أعاد إلى الأذهان خطة «الصنوبرة الكبيرة». واتضح جيداً، ان شارون لا يهتم بتواجد الإرهاب في بيروت، ولا بسلامة المدنيين في الجليل، بقدر ما يهتم بالسيطرة على بيروت، لإقامة نظام سياسي جديد في لبنان.

بالرغم من تدمير الصواريخ، لم يتمكن مناحيم عينان من التقدم كما يجب في منطقة عين زحلتا، فالسوريون ما يزالون بالمرصاد، وهكذا تحولت المهمة إلى لواء بن غال الذي يزحف شمالاً عبر وادي البقاع. ولكن هل بمقدور هذا الأخير تحقيق هدفه قبل اعلان وقف اطلاق النار؟ فالمسافة بعيدة والمقاومة ضارية. وكلما أتى ليل على الوحدات أن تتوقف حتى انجلائه.

حين أراد بن غال مهاجمة الفرقة السورية الأولى في البقاع وزع جنوده المتعددي القوى إلى ثلاثة أقسام: الأول مضى مباشرة بالاتجاه المستقيم، والثاني بدأ بزحفه عند منحدرات جبل حرمون، أما الثالث، فقد واصل تقدمه على محاذات جبال الشوف، منطلقاً من كفرحونة ـ كفريا فبحيرة القرعون.

عصر الأربعاء تلقى بن غال أمر التقدم شمالاً. وبالفعل جوبه الجيش المتقدم على المحور

المركزي بمقاومة عنيفة خاصة في عين التينة ـ جنوبي بحيرة القرعون ـ وعند جبل الباروك، ولكن كثافة الغارات الجوية، مكنت هذه القوات من متابعة سيرها؛ جبل الباروك، سقط في يد قوات غولاني. وصباح اليوم التالي، تابع الاسرائيليون تقدمهم على المحاور الثلاثة، وبرغم المقاومة السورية التي جوبه بها هذا التقدم، فإن بن غال، بدأ يقترب جداً من خط أهدافه الذي يحتمل الوصول إليه ليلاً.

ليل الخميس ـ الجمعة، ١٠ ـ ١١ حزيران، كان ليل المآسي بالنسبة لبن غال؛ أول هذه المآسي، كان تلقى أمر بسحب كتيبة ببليد خمسة كيلومترات إلى الوراء، تخوفاً من هجوم سوري مضاد، بعد بدء الفرقة السورية الثالثة بالتمركز في البقاع، أمر التراجع هذا، جاء تحسباً لأي طارىء ولمنع وقوع قوات ببليد المتقدمة جداً عن غيرها، بالكمائن السورية. على المحور الشرقي، المحاذي للحدود السورية، كان التقدم سهلاً وأشبه بنزهة، بعد احتلال راشيا، طلب المهاجمون فريق الهندسة لإقامة جسر يمكنهم من العبور شمالاً. وتأثر هذا الفريق حتى الساعات الأولى من صباح الخميس، وفي حالة الانتظار هذه، شن الكوماندوس السوري هجوماً خاطفاً على هذه القوات موقعة فيها خسائر بشرية ومادية فادحة. في هذه الأثناء كان يهود براك، قائد الوحدة المرابطة قرب راشيا، يحث قيادته على الاسراع بمد الجسر. ومع انبلاج فجر الخميس، تابعت القوات الاسرائيلية زحفها، متخطية كل العوائق التي وضعها السوريون الذين كانوا بالمرصاد لكل تقدم، ودارت معركة طاحنة شاركت فيها طائرات الهليوكوبتر السورية والدبابات ت ٦٢ السوفياتية الصنع، وخسر الاسرائيليون خلالها ثمانية دبابات وعدداً من الشاحنات. أما على الجهة الشرقية فقد وصل جيش الدفاع الاسرائيلي إلى قرية ينانطا على الحدود السورية اللبنانية.

أهم معارك المحور المركزي، كانت معركة السلطان يعقوب، عند الساعة الثامنة من ليل الخميس، أمرت فرقة من جيش الدفاع الاسرائيلي بالتقدم شمالاً نحو السلطان، لإقامة خط دفاعي، تحسباً للهجوم المضاد المنتظر أن يشنه السوريون صباح غد الجمعة. وبالفعل بدأت الكتيبة مهمتها، دون أن تدري ان السوريين اتخذوا من التلال المحيطة بالمنطقة مواقع محصنة لهم، والجدير بالذكر، ان الطيران الاسرائيلي كان قد التقط صوراً لمواقع السوريين هذه، لكن هذه المعلومات لم تصل إلى الجبهة، كما وتجدر الاشارة أيضاً، إلى أن السوريين الذين كانوا ينتظرون الاسرائيليين فوجئوا بعدد الآليات الزاحفة نحوهم وعلى محاذاتهم. واستمرت القوة الاسرائيلية تتقدم رويداً رويداً، إنما بثقة بالنفس وبمعنويات عالية رغم

التعب الذي كابدوه خلال النهار. قبل الوصول إلى السلطان يعقوب تنبه قائد القوة إلى وجود قوات سورية على مقربة منه، لكنه تابع سيره، ودخل القرية ليجد بيوتاً مبنية على شكل صفوف، دون علم من أن هذه المنازل ستنهار على رأسه قذائف صاروخية وصواريخ مضادة للآليات من نوع ساغير Sagger التي أخطأت أهدافها بسبب قصر المسافة التي أطلقت منها، فراحت تطلق النار في كل الاتجاهات وهي تواصل تقدمها. قوات افروني Efroni هذه كانت منظمة في ثلاثة أفواج. الفوج الأول توجه نحو الوادي الضيق بالقرب من القرية، أما الثالث فما يزال عند مدخلها فيما الثاني محاصر في وسط البلدة بالقذائف المتنوعة. وأدرك أفروني ان الفوج الأول وقع في الكمين السوري؛ وبرغم من استمرار المناوشات خلال الليل قرر أفروني التريث بمواصلة طريقه ريثما يطلع الصباح وينجلي الأمر. أو كما يقال المثال العامي اللبناني ـ عند الصباح رباح ـ.

وجاء صباح اليوم التالي، ليزيد الأمر خطورة؛ إذ اتضح ان السوريين أحكموا الطوق ـ خلال الليل ـ على قوات «عيرا» Ira أفروني من الغرب والشمال والشمال الشرقي؛ وانهم يتمركزون بمواقع حساسة من الناحية الجغرافية العسكرية، ومع الصباح أيضاً، بدأت الدبابات الاسرائيلية تدمر واحدة تلو الأخرى، والأخطر من هذا، معاناة اللواء من نقص في الذخيرة.

من إحدى الدبابات المصابة، كان صوت يطلب طبيباً، وتبين فيما بعد أن الفريق الطبي كان ما يزال مع القوة المرابطة عند مدخل الضيعة. وكلما مر الوقت كلما ازداد عدد الآليات الاسرائيلية المدمرة.

ومن جديد عاد عيرا يشدد ويلح على القيادة بإرسال المساعدة له، براً وجواً دون جدوى؛ وأخيراً أفيد أن لواء يتقدم لمساعدته، وبعد الاتصال باللواء الآتي، تبين أنه بحاجة لساعة أو ساعة ونصف حتى يصل. أفروني كان مستعجلاً فالوضع خطير جداً، نقص في الذخيرة، والجرحى ليس من يعتني بهم. صعد إلى دبابته وراح يسير بها بين قواته مشجعاً إياهم واعداً بالخير.

وفيما هو ينتظر الطائرات التي لن تأتي مطلقاً، اتصل عيرا أفروني بقائد القطاع الذي أخبره أن قوة المساعدة ستصله بغضون أربع ساعات. وثار أفروني وبدأ بالزعيق على جهاز اللاسلكي «أريد حلاً جذرياً، لأنه إذا كنتم تريدون أربع ساعات للوصول، فحكماً لن نكون هنا» وأجابه قائد القطاع «انسحبو» فصاح أفروني «ننسحب وكيف، هذه عملية

انتحارية» وعاد قائد القطاع ليقول: «وهل من حل آخر؟».

بعد التشاور مع مساعده ـ ميخا ـ، وقبل اتخاذ أي قرار، جال أفروني ثانية على جنوده متفقداً أحوالهم، لكنهم كانوا بصوت واحد يقولون: «لا يمكننا تحمل المزيد مطلقاً»، وأخيراً اختار الانسحاب بعد خسارة عشرة آليات وأربعة قتلى وأسر جندي واحد هو ليبرمان. وماذا يفعل طالما أن الجميع سمعوا صراخه في الوادي وهو يتصل لاسلكياً «لماذا تخليتم عنا؟» وطالما أن كل جنوده وضباطه كان لهم مطلب واحد «عليك تخليصنا من هنا، ذخيرتنا نفذت، هل تريدنا أن نستسلم أو تريدنا جثثاً ممزقة؟».

الساعة ٨,٤٥، أنهى اللواء استعداده للانسحاب وخلال ستة عشر دقيقة ليس أكثر، فإما يخلص أو يهلك وستة عشر دقيقة تحت رحمة نيران المدفعية السورية وقذائف الآر. بي. جي. وعند الساعة التاسعة وست دقائق صاح أفروني: «لقد نجوت، وكيف نجا؟ نجا تاركاً خلفه سبعة دبابات تحتوي على أحدث المعدات العسكرية المصنفة سرية جداً. السؤال المطروح هو لماذا لم يقم سلاح الطيران بتدمير هذه الدبابات بدلاً من أن يتركها للسوريين؟

هذه كانت كارثة السلطان يعقوب.

رغم أنه من المنتظر أن يسري مفعول وقف اطلاق النار عند ظهر اليوم ـ الجمعة ـ ورغم معركة السلطان يعقوب، فإن الفرقة السورية الثالثة، كانت لم تصل بعد إلى خط المواجهة.

عند الساعة الحادية عشر قبل الظهر أطلت طلائعها ومن بينها الدبابة السوفياتية الصنع ت ٧٢ T 72 تسير متخايلة على الطرقات عابرة السهول دون مخافة حتى وقعت في الكمين الاسرائيلي، تماماً كما وقع بالأمس أفروني. ومن جميل الصدف ان إيتان، كان في تلك الساعة بمقر قيادة بن غال، فأصدر الأوامر بالقتال وتدمير هذه الدبابة عن بكرة أبيها. وعندما أزفت الساعة الثانية عشر ـ موعد وقف اطلاق النار ـ اتصل برئيس الوزراء طالباً منه السماح بمواصلة القتال على هذا المحور، لكن بيغن رفض طلبه.

وطبق وقف اطلاق النار. القوات السورية في لبنان أصيبت بخسائر فادحة، لكنها لم تخرج منه، وما تزال بيروت على مرمى مدفعيتها ويكفيها أنها منعت شارون من السيطرة على طول طريق بيروت ـ دمشق.

ويبقى سؤال؛ انتهت المعركة، والحرب هل انتهت؟

الفصل العاشر
ـ بعبدا ـ

ما من شك أن مجلس الوزراء الإسرائيلي لم يوافق على دخول بيروت. وهكذا، أدرك ضباط وجنود القوة الإسرائيلية التي بدأت تقترب من العاصمة اللبنانية، أنهم لا ينفذون إرادة مجلس الوزراء، بل ما يريده وزير الدفاع.

أحداث الأحد الواقع في ١٣ حزيران أثبتت أن شارون لا يعير اهتماماً لأحد، لا للوزراء ولا لرئيسهم مناحيم بيغن. أبعد من هذا، فإن اقتراب جيش الدفاع الإسرائيلي من بيروت، يعني أن هذه الحرب تخطت خطتها المحددة بأربعين كيلومتراً، وتحولت إلى حرب متحركة بدلاً من عملية «سلام من أجل الجليل».

أعضاء الحكومة، كانوا متضايقين جداً، فاحتلال عاصمة عربية ـ أية عاصمة عربية ـ سيجابه باستنكار عام. خاصة إذا جاء نتيجة لعملية عسكرية ـ قيل إنها محدودة ـ كان مقرراً أن يكون الجنوب اللبناني مسرحاً لها. وإن يكن مجلس الوزراء قد انخدع بالحديث عن ٤٠ كلم، فإن الضباط الإسرائيليين، بعد انقضاء الأسبوع من الحرب، توقعوا بشدة ـ إن لم نقل علموا ـ أن وجهتهم الأساسية هي العاصمة اللبنانية بيروت. صباح الثلاثاء الباكر، وقبل السيطرة على صيدا، خاطب الكولونيل يائير قائد وحدة المشاة التي أنزلت على جسر الأولي قائلاً «سأقودكم إلى بيروت، إلى الشارع الرئيسي في بيروت. البريغادير عاموس يارون أعلنها صراحة، منذ اللحظة الأولى، أعددنا أنفسنا للإتصال بالمسيحيين، وتحدثنا عن بيروت حتى قبل وصولنا إلى الدامور يوم الأربعاء.

بعد سقوط الدامور، عقد دروري اجتماعاً لقادة وحداته فيها؛ وأوضح لهم ـ دون أن يعطي أي أمر أو يشرح له ذلك ـ «إن بيروت هدفنا التالي... لنسرع إليها صباح الخميس، نثرت طائرات سلاح الجو الإسرائيلي سماء العاصمة اللبنانية بالمناشير التي تدعو السوريين المتواجدين فيها للإنسحاب، في الوقت ذاته، كان الوزراء في طريقهم إلى

الإجتماع اليومي، وفي قلوبهم غصة، إنهم مرتبكون، لا يفهمون ما الذي يجري وكيف يجري.

لنكن واضحين، معركة الدامور لم تكن باب بيروت، لأنه منذ الإثنين ـ ٧ حزيران ـ أدرك يائير، أن المهمة التي كلف بها بإنزال دبابات من الجو فوق التلال المشرفة على الطريق الساحلي، إنما هي تمهيد الطريق نحو بيروت. وبدأت هذه الفرق، تتقدم من تلة إلى تلة دون مقاومة تذكر، حتى وصلت إلى النبي يونس، حيث أطلقت النار عليها، فقتل ثلاثة جنود قبل تدمير الآلية الفلسطينية المهاجمة. يوم الثلاثاء ٨ حزيران، انتظر الجند طويلاً إنزال المزيد من الآليات ونصف المجنزرات التي ستقلهم في متابعة الزحف؛ ولكنها لم تصل؛ وهكذا تأخر الإستيلاء على الدامور إلى يوم الأربعاء.

على عكس ما كانوا يتوقعون، لم يجد الإسرائيليون في الدامور مقاتلين، جل ما وجدوه بيوتاً مهدمة منذ العام ١٩٧٦. سقوط هذه المدينة المارونية التي أجبر أهلها على الرحيل أثناء الحرب الأهلية، طرح سؤالاً إستراتيجياً وتكتيكياً: أي طريق نسلك إلى بيروت؟ الطريق الساحلي أم الطريق الجبلي عبر عدد من القرى الدرزية؟ رئيس الأركان مانع الفكرة الثانية لأنه لا يريد لهذه القرى أن تتضرر، ولكن ـ وفي الوقت عينه ـ فمن المحتمل جداً، أن يكون الفلسطينيون والسوريون قد زرعوا الطريق الساحلي بالكمائن.

مع مجيء دروري حلت المشكلة. فليكن التقدم على خطين متوازيين ساحلياً وجبلياً. القوة الزاحفة على الطريق، توقفت عند مثلث خلدة، أما يائير Yair الذي بدأ بزحفه عند الساعة الواحدة من بعد ظهر الأربعاء، تمكن من تفادي حقول الألغام التي زرعها الفلسطينيون على الطرق؛ وتمكن أيضاً من القضاء على كمين فلسطيني من أربعين عنصراً، كانوا ينتظرون قدوم الجنود الإسرائيليين والمفاجأة الكبرى، كانت مهاجمة هذا الكمين من الخلف، فقتل إثنا عشر فلسطينياً وأسر الباقون. قبيل منتصف الليل، وعند مداخل كفرمتى، توقف يائير، بانتظار ضوء النهار المساعد على كشف الألغام والكمائن. في هذا الوقت كانت قوات بدر اتخذت مواقع لها في القرية، وعلى طول الطرق المؤدية إليها، ظناً منهم أن الإسرائيليين سيدخلونها محمولين على الآليات. وبما أن قوات يائير كانت تمشط المنطقة مشياً على الأقدام، فقد تمكنوا من الإلتفاف حول كمائن قوات بدر موقعة فيها ما يزيد عن الثمانين إصابة بين قتيل وجريح، مقابل ثلاثة جرحى إسرائيليين لا غير.

بعد كفرمتى، وبعد معركة دامية مع اللواء السوري الخامس والثمانين، توقفت



القوات الإسرائيلية عند مشارف قبرشمون، كان ذلك يوم الجمعة. ودقت الساعة الثانية عشرة، موعد تطبيق اتفاقية وقف النار مع السوريين، فطلب يائير من بقايا اللواء المذكور إلقاء السلاح. فعل ذلك وهو يدرك سلفاً أن طلبه مرفوض. واستمرت المعركة، وبدأ النزف الفعلي يصيب الجسد الإسرائيلي المتقدم؛ أول القتلى كان قائد فوج، ومن ثم نائبه إضافة إلى عدد من الجرحى سقطوا ليلاً. وبعد ساعة، ليس أكثر، أطل أول سبت يهودي على الجنود الإسرائيليين في لبنان، وهم يعلمون علم اليقين، أن سبتهم هذا، لن يمر دون معارك ضارية.

كون يائير، يمضي قدماً، باتجاه بيروت، فقد رأى تغيير وجهة سيره، باتجاه بسابا، كفرشيما، بعبدا، بدلاً من عاليه. درووي وافق على الفكرة، ولكنه استمهله بعض الوقت لأخذ الموافقة من رئاسة الأركان ووزير الدفاع، واقتنع الأخيران. ولم لا طالما أنه بعد الإستيلاء على عاليه، مركز ثقل القوات السورية، ستنعطف القوات الإسرائيلية غرباً لملاقاة الكتائب عند مشارف بيروت.

وصل الجنود إلى حدود بيروت، وما من أحد - أي أحد - بمن فيهم الوزراء، قادر على فهم تصرفات شارون. يوم الخميس، على سبيل المثال، وقف بينهم ليقول إن السيطرة على طريق بيروت - دمشق أمر حيوي وضروري، هذا إذا أردنا منع السوريين من نشر هيمنتهم على العاصمة **وحكومتها**. وأضاف بنبرة الخطيب المتحمس «أتمنى أن تتقبلوا ذلك، حتى ولو كانت النقطة التي سنسيطر عليها قريبة جداً من بيروت، علماً أن جنودنا، لن يدخلوا بيروت مطلقاً، نحن لا نريد دخول بيروت، سنترك الأمر للجيش اللبناني والحكومة اللبنانية، إذا أرادوا. وإذا أرادوا مساعدتنا - قد تلقينا فعلاً طلبات **غير رسمية** من الحكومة اللبنانية لقصف أمكنة الإرهابيين في الشطر الغربي من بيروت - ولكننا حتى اليوم لم نستجب لرغباتهم، لأننا لا نريد توريط أنفسنا هناك».

في الإجتماع ذاته، عاد شارون إلى الكلام، شارحاً لزملائه كيفية سير المعارك بالجبل: «لقد أصدرت أوامري الصريحة والواضحة، وحددت لهم أين تنتهي مهمتهم باتجاه المدينة - بيروت - وأن مهمتهم تقضي بالإلتقاء بقوات [ميناحيم عينان] وليس بالمسيحيين. ولكن إذا أتوا إلينا، فلن نطردهم». وفي الإجتماع الصباحي ليوم الجمعة، عاد شارون وكرر ما قاله بالأمس؛ نافياً وجود أي ضابط ارتباط كتائبي مع قواته. هذا ما ردده شارون، أما على الأرض فالأمر مختلف جداً. فالجيش الإسرائيلي ما يزال يواصل زحفه

نحو العاصمة اللبنانية، وبرفقة ضابط ارتباط كتائبي.

تعمية الوزراء هذه، جعلت العديد منهم يتساءلون إلى أين نحن ماضون، جنودنا في لبنان، ولا نعلم أين هم. وأكثر المتسائلين كان موردخاي تسيبوري، زفلين هامر Zevulun Hammer ، ووزير الطاقة إسحاق بيرومان الذي وقف منددا بطلب شارون الموافقة على التقدم نحو عاليه «لقد أخبرنا شارون أن جيشنا حقق جميع أهدافه، كان ذلك بعد أربع وعشرين ساعة من بدء العمليات، واليوم أعتقد جازماً أن شارون ينفذ خطة «الصنوبرة الكبيرة» بما فيها دخول بيروت؛ وكل هذا لم نوافق عليه». ومضى «يا سيد أريك لربما من الأفضل إطلاعنا على ما تنوي فعله غداً أو بعد غد، بدلاً من طلب موافقات متجزئة».

كلام بيرمان، أثار مخاوف شارون، وشكوكه، وراح يفكر، بكيفية وصول هذه المعلومات للوزراء، واتهم بعض الضباط أنهم هم من ينقلون ما يجري من مناقشات في مركز قيادة الجبهة الشمالية. ذات مرة، وفي حين كانت الطائرة تقله من مركز قيادة درووري إلى القدس لحضور مجلس الوزراء، كان هناك أناس مشغولين على الهاتف، يلقنون وزيراً كل ما جرى في اللقاء. بعد عودة وزير الدفاع إلى الجبهة، وفي اجتماع مع الضباط، قالها صراحة، لا أريد أن أعرف ثانية أن هناك من يفضح أسرارنا هنا لأنني لا أريد دخول مجلس الوزراء لأجد كل... ينتظرني وفي يده مسطرة وتحت إبطه خارطة. ويبقى سؤال ما النفع من أية مناقشة، طالما أنهم في النهاية سيمنحونه البركة.

خلال اجتماعات مجلس الوزراء يومي ١٠ و١١ كرر شارون أكثر من مرة «لا أوامر باقتحام بيروت ولا بالإتصال بالمسيحيين، إلا إذا هم زحفوا لملاقاتنا»، متجاهلاً قراره بالتوجه نحو كفرشيما وبعبدا، بدلاً من التوجه نحو عاليه ليقطع طريق بيروت-دمشق؛ وحتى مناحيم بيغن لم يكن يعلم بما يجري. رغم نفي بشير الجميل وممارسة الضغوط لحمله على الإشتراك في حرب بيروت. كان ذلك، بعد بدء سريان مفعول وقف إطلاق النار مع السوريين. بشير الجميل لم يكن متجاوباً مع طلبات شارون ورغم الضغوطات القوية، لكنه أخيراً رضخ وقبل المشاركة في الحرب، إنما ضمن مناطقه. حين قال شارون «تريد تدمير المنظمة»، أجاب بشير بصوت متردد «سنحاول، إنه أمر صعب». أما شارون فقد خرج وهو يصيح: «نحن هنا بدباباتنا **إفعل شيئاً ما**»

يتبين من اجتماع بشير - شارون عدم رغبة الكتائبيين الإلتزام بأي عمل عسكري ضد منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت ولا ضد السوريين في الجبال، وتبيّن كذلك أن

بشير الجميل يسعى جاهداً للتملص من وعوده السابقة، لكن شارون كان قاسياً في ضغوطاته ونعتهم **بالعرب الجبناء**. نعتهم بذلك، مع أنه اتفق معهم على التلاقي عند مداخل بعبدا صباح السبت، هذا التلاقي أخرته الأحداث إلى يوم الأحد. ولم يرض شارون بالكلام، بل أراد اتفاقاً خطياً موقعاً منه ومن بشير.

على الطريق الساحلي، كانت المعارك تتخذ طابعاً دموياً والمقاومة تزداد عنفاً وضراوة، فاقترح قائد لواء غولاني الإقتراب من بيروت عن طريق الجبل إنطلاقاً من الدوحة حتى كفرسيل التي كان السوريون قد عززوا قواتهم فيها بثمانية وعشرين دبابة من ت ٥٤ T 54. وبالفعل، فقد وصف إيتان هذه المعركة بإحدى المعارك القاسية التي خاضها جيش الدفاع الإسرائيلي في حربه على الأراضي اللبنانية. فالسوريون مدركون، أن سقوط هذا الموقع، يعني أن الطريق إلى بيروت قد فتحت. معركة كفرسيل كانت معركة شوارع بكل معنى الكلمة. السوريون هاجموا الآليات المتقدمة بالآر.بي.جي. ومدفعية الدبابات. أحد قواد الكتائب الملازم أول زيون Zion حاول مرتين تدمير دبابة سورية أعطبت دبابتين إسرائيليتين. في المرة الأولى أطلق رفاقه النار عليه، فعاد أدراجه. وفي الثانية تمكن من إسقاط قذيفة يدوية في قلب الدبابة، وقفز عائداً إلى شاحنته، لكن جنديا إسرائيلياً اعتقده سورياً وأطلق النار عليه فأصابه بجروح. معركة كيلومتر واحد لا غير، استمرت زهاء عشرين ساعة، تمكن بعدها الإسرائيليون من السيطرة على البلدة، وهكذا، منذ صباح الأحد، سيطر لواء غولاني على مطار بيروت **ولو من بعيد**.

على المحور الثاني، كان يائير يتقدم ببطء على خط قبرشمون - شملان. السوريون بعد تراجعهم عن قبرشمون، عززوا وحداتهم على محور شملان، بدبابات وفرق كوماندوس إضافة إلى الفلسطينيين، المنتشرين على أسطح البنايات وفي زواريب هذه المدينة المتعددة الطوائف.

بعد ظهر الأحد، عند الساعة الرابعة بالتحديد، سقطت قبرشمون وبدت شملان على مرمى حجر، منه ومن عين عنوب المجاورة لبسابا المسيحية الخاضعة لسيطرة القوات اللبنانية. وفجأة سمع صوت رفول إيتان على جهاز اللاسلكي منادياً يائير «المسيحيون في انتظارك»، وكان الجواب «أحاول أكثر من مستطاعي». وأثناء الإتصال، كانت دبابة سورية تحترق وسط الطريق، وذخائرها تنفجر قذيفة بعد أخرى، مانعة بذلك الجنود الاسرائيليين من التقدم. تطوع جندي بإزاحة الدبابة بواسطة بلدوزر، فقتل بقذيفة

آر. بي. جي. R.P.G. فتطوع آخر وأخرجها من الطريق، وشرع السوريون بالإنسحاب، ويائير ورجاله في أثرهم.

السوريون في عين عنوب، توهموا أن الإسرائيليين متوجهون نحو عاليه، ولهذا فوجئوا بهم يتقدمون باتجاههم بعيد منتصف الليل، فما كان منهم إلا أن تركوا القرية وولوا، وهكذا تكون عين عنوب قد سقطت بدون طلقة واحدة.

عند الساعة الواحدة من بعد ظهر الأحد، وبالقرب من بسابا، تم الإتصال بين الإسرائيليين والكتائب وعلى رأسهم فادي فرام نائب قائد القوات اللبنانية الذي رحب بهم بحرارة. أحد الجنود التقط صورة تذكارية لفادي فرام ونشرتها مجلة الجندي الإسرائيلي.

بواسطة اللاسلكي اتصل يائير بدروري ليخبره أن الإتصال تم. فسأل دروري «فعلاً... فعلاً؟» وأجاب يائير «بكل تأكيد إنهم يقبلون جبهتي». بعد ذلك جاء بشير ومن ثم تبعه والده الشيخ بيار الجميل. وفي المقابل كان رفول إيتان وأمير دروري قد وصلا إلى مكان اللقاء، الذي غادره الجميع متوجهين نحو جونية. في حين تابعت القوات تقدمها نحو بعبدا فوزارة الدفاع اللبنانية، حيث تمكنوا من قطع طريق بيروت ـ دمشق.

مفاجأة الأحد الكبرى، المضحكة المبكية في آن، تمثلت في نفي مناحيم بيغن وجود أي جندي إسرائيلي في بيروت. المضحك في الأمر، أنه لم تكد إذاعة إسرائيل تنتهي من نفي بيغن المذكور، حتى شرعت بإذاعة تقرير حي عن تقدم قوات جيش الدفاع الإسرائيلي في شوارع بيروت. جلس بيغن كالمشدوه، لا يدري ما يقول، إنه فعلاً لم يكن يعلم شيئاً. هنا تجدر الإشارة إلى أن أحداً لم يشأ تحميل نفسه عناء نقل ما يجري إلى رئيس الوزراء. في اليوم السابق، حذف الرقيب العسكري مشاهد عدة من تقرير تلفزيوني يصور الجنود الإسرائيليين وقد اقتربوا من مناطق المسيحيين المحيطة ببيروت؛ ومن مطار بيروت الدولي.

والذي زاد، تلك الليلة، الطين بلة، لقاء حبيب ـ بيغن. فحين أكد رئيس وزراء إسرائيل أن جيش الدفاع الإسرائيلي لن يدخل بيروت، صاح حبيب دباباتكم تجوب شوارع بعبدا، فماذا تقول أنت؟ منذ لحظات استلمت تقريراً من سفارتنا في بيروت يؤكد وجود الدبابات الإسرائيلية بالقرب من القصر الجمهوري. ومن سخرية القدر، أن يتصل شارون ببيغن ليخبره بما سمعه من فيليب حبيب، فرد شارون «حسناً سآمر بنقل الدبابات من قرب القصر الجمهوري».

هكذا، بالمراوغة والدهاء، وصل جيش الدفاع الإسرائيلي إلى بيروت. نعم بالمراوغة

والتلاعب على الكلام. فبدلاً من القول بالإتجاه نحو بيروت، قال شارون «الإتصال بالمسيحيين». وحين أدين هذا الإتهام، قالوا بعبدا بدلاً من بيروت، وكأن بعبدا ليست جزءاً من بيروت الكبرى. إن هذا التلاعب الذكي على الكلمات جعل الوزراء لا يعيرون أي اهتمام لقرار دخول بيروت.

الفصل الحادي عشر
حصار بيروت

كما مناحيم بيغن، كذلك ياسر عرفات.

كما في إسرائيل، كذلك في منظمة التحرير الفلسطينية.

جيش الدفاع الإسرائيلي وصل بيروت، ومناحيم بيغن ما يزال يصر على عدم معرفته. وكذلك ياسر عرفات الذي اتصل به أحد ضباطه ليخبره «أن اليهود يتجهون نحونا... انهم يسيرون في شوارع المدينة». وصاح ياسر عرفات «هل أنت مجنون؟ عما تتكلم يا هذا؟».

كيف يصدق؟ وهو حتى الآن يعتقد أن الإسرائيليين ما يزالون يحاولون الإستيلاء على كفرسيل، وأن السوريين يصدونهم على محاور الجبل. لم يستلم أي تقرير يشير إلى غير ذلك، إذن كيف يصدق؟ كيف يصدق أن جيش الدفاع الإسرائيلي أطبق الخناق عليه؟ أراد الإستراحة، فأوهم نفسه أن ضباطه انخدعوا بالكتائب وظنوا أنهم يهود. حقاً إنه لأمر مريب؛ في ذلك اليوم، الأحد ١٣ حزيران، اهتز العديد من ضباط منظمة التحرير الفلسطينية وبدأوا يعدون العدة للإلتجاء إلى السفارات الأجنبية فيما خلع المقاتلون العاديون بذاتهم القتالية، وأحرقوا مستنداتهم وملفاتهم. كل مستندات فتح أحرقت. شيء مؤسف. مستندات لم تكن منسوخة على طريقة الميكروفيلم.

مع إشراقة شمس الإثنين، تأكد عرفات من أن الذي قيل له هو حقيقة ساطعة وأن جيش الدفاع الإسرائيلي سيدخل الضاحية الجنوبية ـ الفاكهاني ـ صبرا ـ ـ شاتيلا، برج البراجنة، الأوزاعي، حيث يتمركز رجاله. أراد معرفة موقف الوحدة السورية المرابطة في بيروت، لكن قائدها هلال لم يعطه أي جواب. اتصل برئيس جهاز الإستخبارات في الجيش اللبناني الكولونيل جوني عبدو طالباً منه التدخل لدى الإسرائيليين للسماح لرجاله بالخروج من المدينة، وعلى أي طريق. حتى الآن لم يكن الحصار الإسرائيلي لبيروت قد

اكتمل.

في سيارة مدنية انتقل شارون من ضاحية بيروت الشرقية إلى جونية للإجتماع ببشير الجميل ويُصب جام غضبه. استهل شارون لقاءه بالقول «توقعت، وأنا في طريقي إلى هنا، أن أرى الناس تعبىء أكياس الرمل والشباب متجمهرة أمام مكاتب التطوع، ولكني رأيت الجموع محتشدة أمام دور السينما والملاهي». التزم بشير الصمت لأنه كان يدرك ذلك سلفاً. وفي هذا الإجتماع وجد نفسه مجبراً على التعاون مع الإسرائيليين عسكرياً، أي بمشاركتهم في المعارك، وأخذ دفتراً صغيراً وشرع يدون عليه مطالب شارون واحداً واحداً: تعزيز قواته على خطوط التماس الفاصلة بين شطري العاصمة، وخصوصاً تلك المواقع المواجهة لمواقع منظمة التحرير الفلسطينية، التأكد من أن أحداً من قادة منظمة التحرير الفلسطينية لم يهرب إلى طرابلس، وأخيراً، وهذا أخذه بشير على عاتقه، دعم الرئيس سركيس لمطلب شارون إخراج منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت.

في هذه الأثناء، كان الضباط الإسرائيليون يحضرون مواقعهم؛ إنهم كعرفات، لم يصدقوا في بادىء الأمر، أن وجودهم هنا يعني بداية لحصار طويل. وبالعودة إلى المناقشات السابقة، نرى تحذيرات الإستخبارات العسكرية من دخول بيروت، وهكذا، رأى جيش الدفاع الإسرائيلي في اتصاله مع الكتائب نقطة النهاية وليس بداية لمرحلة جديدة في حصاره لبيروت. تحذيرات الإستخبارات كانت في موقعها: ياسر عرفات أعلن أن المنظمة غير مستعدة على رمي السلاح. وأبلغ جوني عبدو، أن رجاله لن يخرجوا من المدينة. في ١٤ حزيران أعلن جورج حبش أن بيروت ستكون ستالينغراد ثانية.

قضية بيروت، انتقلت إلى قلب إسرائيل، بل حتى إلى قلب الجيش الإسرائيلي بذاته. البعض طالب باقتحام الشطر الغربي من العاصمة، فيما رأى البعض الآخر ضرورة وضع حد لهذه الحرب. شارون لم يوافق على رأي الفريق الأول ولا الثاني.. هذا ما أطلع عليه رئيس أركانه يوم ١٥ حزيران. إذا تقدمنا ببطء وبكل حيطة، نعم بكل حيطة، لن نجد إرهابياً واحداً في بيروت، وبعد أيام ستشتعل الأرض تحتنا وحولنا وستكون خسائرنا أكثر بكثير من خسائرنا في الجنوب. في القدس بلبلة قوية حول بيروت. شارون، رد على انتقادات المعارضة، في اجتماع مشترك للجنتي الدفاع والخارجية «إننا لا نحاصر بيروت، بل نطوّقها». ولكن الوزراء أرادوا معرفة كيف تم دخول جيش الدفاع الإسرائيلي إلى بيروت دون موافقة مجلس الوزراء. وجاء رد شارون: «أسئلتكم هذه أعتبرها إهانة لي... إنكم

يدمرون الثقة بيني وبين جنودي، وهذا أمر خطير جداً». ولكن بيغن صمم أخيرا على إرسال تعزيزات إلى القوات المرابطة عند بيروت، لأي سبب من الأسباب، ولكنه أخيراً رأى أن تحرير بيروت هو مسؤولية كتائبية وليس مسؤوليتنا. ونقل رأيه هذا بصراحة إلى زملائه الوزراء، وأطلعهم على ما جاء في رسالته لبشير الجميل، ناقش هذا الموضوع بجلية «لقد بنينا اقتراحنا هذا إنطلاقاً من قناعتنا أنكم قادرون على ذلك. فعليكم الاستعداد للسيطرة على الإرهابيين في بيروت...». إن أردتم أية مساعدة فنحن مستعدون، ولكن يجب أن تقوموا بما عليكم، أولادنا لن يهرقوا دماءهم هناك».

تفكير بشير يختلف جداً عن تفكير بيغن. في احتفال أقيم في منطقة الكرنتينا تحدث بشير مخاطباً رجاله: «نحن لا ندعم ما يحدث، ولكننا سنسعى لخلاص لبنان. غداً تعودون إلى قراكم وترون بيوتكم مدمرة وأضرحة وتماثيل الموتى اليساريين والشيوعيين. ولكني أقول لكم اليوم: عليكم احترام أي نصب تذكاري والدفاع عن أبناء قراكم، عن ممتلكاتكم، ومعتقداتهم وشعاراتهم، حتى ولو كانوا أعداء». وسكت الجنود لهول المفاجأة. اعتقد معظمهم أنهم مدعوون للمعركة الشاملة. ولكن بشيراً أنهى كلامه «سنجد مكاناً للفلسطينيين خارج لبنان». هكذا اعتقد بشير أنه يرضي شركاءه الإسرائيليين لقبولهم للحرب. وفي ١٦ حزيران أصدر أمراً لفرقة كتائبية باقتحام كلية العلوم على مداخل ضاحية بيروت الجنوبية، وبعد معركة دامت أربع ساعات رفع العلم اللبناني على سطح المبنى، بعد مقتل ضابط كتائبي وجرح خمسة عشر فلسطينياً.

بعد أسبوع، تلقى بشير ومساعدوه دعوة لزيارة القدس بهدف مناقشة ما يتوجب على الكتائب فعله، «إذا اتخذتم على عاتقكم مهمة تحرير بيروت فسنساعدكم بما لدينا من قدرات»، جاء الحديث، وكأنه وعد إسرائيلي بالمساعدة بالقصف، إذا قام الكتائبيون بأي عمل للسيطرة السياسية على الشطر الغربي. ورد بشير «أنا مستعد للقتال، لا تعتقدوا أني خائف، ولكني إذا فعلت ذلك، ستجدونني على رأس دولة مسيحية صغيرة، ولبنان مقسماً، وعلى عداوة مع جيرانه». ولكن الإسرائيليين وعدوه وعداً قاطعاً بضمان مستقبله السياسي. وعاد بشير للحديث «من الأفضل لكم أن أكون رئيساً للبنان واحد وصديقاً لكم، ولكنكم تجبرونني على عمل عسكري، أنتم لستم بحاجة إليه، وبعدها سأكون عالة عليكم». وازداد الضغط الإسرائيلي على بشير بتذكيره باجتماعه الأخير بالزعيم الدرزي وليد جنبلاط برعاية الأمريكيين.

إبتدأ اللقاء بتحذير جنبلاطي «أنا لا أنكر أنك الرابح الأكبر من التدخل الإسرائيلي، ولكن ليس هذا هو الوقت لتفجر أحقادنا السياسية فيه».

وانتقل الحديث إلى بشير فقال «ربما يكون كلامك صحيحاً ولكني في النهاية خائف من الهجوم الإسرائيلي. ما أزال أتذكر السوريين، وأنت تعلم: كل واحد يأتينا ويدعي صحبتنا وفي النهاية يتحول لمحبة نفسه ونبقى نحن نعاني».

بعد أيام من استلام رسالة بيغن التي حثه فيها على العمل جنباً إلى جنب مع جيش الدفاع الإسرائيلي، رد بشير برسالة إلى شارون قائلاً «إذا أرتم اقتحام بيروت الغربية، فأنا على استعداد، وسأكون في مقدمة رجالي، إذا كان هذا قراركم، فليكن، قد أموت في المعركة، ولكن هذا ليس مهماً، فبإمكانكم إيجاد بشير جديد، بعد سبع سنوات».

هذا الحديث ترك الإسرائيليين أمام خيارين، إما إفساح المجال أمام فيليب حبيب للتفاوض من أجل إخراج الفلسطينيين، أو اقتحام بيروت الغربية وتنظيفها من الإرهابيين. الفرق بين هذين الخيارين بسيط، ولكن شارون ماذا يريد؟

يوم الرابع عشر من حزيران، في حين كان مناحيم بيغن ما يزال يلح على الكتائب للإشتراك في حرب من أجل بيروت، في هذا الوقت، وصل فيليب حبيب إلى بيروت، وبدأ يستعد لبدء المحادثات حول المهمة التي هو مكلف بها. بواسطة رئيس وزراء لبنان شفيق الوزان، طلب حبيب من عرفات الإستجابة للمطلب الإسرائيلي الطلب من جنوده مغادرة المدينة. «عليكم التفاوض معي وجهاً لوجه»، هذا ما رد به عرفات، وشعر حبيب أن رئيس منظمة التحرير الفلسطينية يريد تحقيق نصر سياسي مقابل هزيمته العسكرية. كلام عرفات أربك العديد من المسؤولين الإسرائيليين الذين تذكروا تحذيرات يشوع ساغي «وصولنا إلى بيروت سيعيدنا إلى عام ١٩٤٨، وإذا أردنا إخراج الفلسطينيين منها، فمن الضروري جداً أن نعيد إلى الواجهة مسألة إيجاد حل لمشكلتهم». وهذا بالفعل ما حدث، فقد أمضى عرفات قرابة الشهرين بحثاً عن دول عربية مستعدة لاستقبال بضع عشرات من الفدائيين الذين سيغادرون بيروت.

مناحيم بيغن، المتوقع ذهابه إلى واشنطن، احتار في أمر هذه الزيارة. أسباب عديدة تدعوه لإلغائها، وأسباب تدعوه للقيام بها، الأسباب الأولى، بلاده في حالة حرب، وإدراكه أنه لن يستقبل هناك كبطل. أما الأسباب الثانية، فهي رغبته في استعادة الود الأميركي. قد يكون هناك من يوافق بيغن على أن بيروت تحولت إلى مركز للإرهاب

الدولي، وأنها مركز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، ولكن، بالوقت ذاته، ليس بإمكانه نكران أن هناك جبالاً كثيرة ملأى بالإرهابيين ويمكن أن تكون أهدافاً عسكرية بدلاً من مدينة يبلغ عدد سكانها مليون نسمة، وهي عاصمة لدولة مستقلة ذات سيادة. قلب العالم العربي تجارياً. ومن ثم، واشنطن لن تتقبل مواقف بيغن الذي يقفها في القدس، إذ كيف يعقل أن يكون رئيس وزراء دولة لا يعرف ماذا يجري في بلاده. وبعد لأي من التفكير، صمم على الذهاب. وتمت الزيارة بعد ثلاثة أيام من دخول جيش الدفاع الإسرائيلي بيروت، أي خلال الأسبوع الثاني للحرب الإسرائيلية في لبنان. إدارة الرئيس ريغان كانت منزعجة جداً مما يجري على الأرض في الشرق الأوسط؛ وكرد على قصف الجيش الإسرائيلي للعاصمة اللبنانية، سرّب مساعدو ريغان رغبة الرئيس الأميركي بإلغاء موعده مع بيغن، إلا إذا توقفت دورة العنف. من نيويورك، اتصل بيغن بالقدس طالباً وقف قصف بيروت. ولكن من ينفذ هذا الأمر؟ وكتأكيد لاتصاله الأول، عاد بيغن واتصل من واشنطن بشارون شخصياً، طالباً إليه وقف القصف، وجاءه جواب وزير دفاعه «وكيف أحمي جنودي؟» إنه الجواب التقليدي لشارون. فما كان من بيغن إلا أن اتصل بنائب رئيس الوزراء سيمحا أرليخ قائلاً «تصرّف كما تشاء وفقاً للضرورات وأنا على استعداد للعودة ساعة تريد».

إتصالات بيغن هذه، ومداخلات هايغ، مهدت الطريق لرئيس وزراء إسرائيل إلى دخول المكتب البيضاوي في البيت الأبيض.

في الحادي والعشرين من حزيران، في البيت الأبيض، جلس الرئيس الأميركي ريغان قبالة مناحيم بيغن، وكل منهما ينظر إلى الآخر بعين الشك والريبة. وبادر ريغان إلى القول، «أفضل الأساليب هي السياسة وليس اللجوء إلى الشدة». ورد بيغن «هذا التمازج بين الطائرات الأميركية والطيارين الإسرائيليين لهو خير إنموذج للتعاون التجاري». وبعد مناقشات حادة وافق ريغان «على أن الذي حدث قد حدث» ولكن علينا أن نفعل شيئاً للغد. موضحاً أن أي تحرك مستقبلي يجب أن يهدف إلى سحب القوات الأجنبية من لبنان، هذا ما تريده الحكومة الشرعية في لبنان؛ وإنطلاقاً من محادثات حبيب، تم التفاهم على أنه ليس هناك غير بشير قادرا على الإمساك بزمام الأمور. وبعد الإجتماع، رفع هايغ إبهامه لبيغن. وأعلن أن مرحلة جديدة من التفاهم الأميركي - الإسرائيلي قد بدأت وصرح الرئيس ريغان أن واشنطن وتل أبيب متفقتان على ضرورة إنهاء العنف في لبنان والتوصل

إلى لبنان سيد مستقل تحت سلطة مركزية موحدة.

تقارير واشنطن شجعت شارون على ركوب رأسه، وعاد يفكر بالسوريين الذين ما يزالون يتواجدون في منطقة عاليه، انهم عقبة في طريقه نحو السيطرة الكاملة على طريق بيروت ـ دمشق، ما العمل؟ إن أي عمل عسكري ضدهم يعني خرقاً لاتفاقية وقف اطلاق النار، ويتطلب موافقة مجلس الوزراء؛ فرأى أنه لا بد من أن تتقدم القوات خطوة خطوة، تحت ستار «تحصين المواقع» وفي محاولة لاستفزاز السوريين والفلسطينيين، غير أن لهذا التقدم مخاطره أيضاً، إذ لن يكون بمقدور القوات المتقدمة تحصين المواقع ولن تلقى دعماً جوياً كافياً. بدأ الزحف باتجاه مصيف بحمدون عبر طرق صخرية، ببطء ثقيل وممل. سبعة رجال فقدو إضافة إلى عدد من الجرحى. دروري أراد أمراً خطياً لهذه المهمة، ورفض شارون. وسرعان ما وصل الخبر إلى الوزراء فتجمهر ثلاثة منهم في مكتب رئيس الوزراء بالوكالة سيمحا أرليخ لاطلاعه على ما يجري، وليقدموا احتجاجهم الشديد.

«سأتصل بشارون شخصياً، ولكن أين أجده؟» قال أرليخ. وصاح تسيبوري أي قول هو هذا «اتصل بكل دبابة قيادة».

هكذا انكشفت ألاعيب شارون، وفقد ثقة زملائه الوزراء، فكل كلمة سيقولها ستجابه بالأسئلة والاستجوابات. ولكن هذا الداهية لن يعدم حيلة، فهو يريد الظهور بمظهر البطل «في الصباح أذهب لقتال الارهابيين وعند المساء أعود إلى القدس لقتال الوزراء».

يوم الثالث والعشرين، توقف التقدم الاسرائيلي لاصطدامه بكمين كوماندوس سوري. دروري طلب النجدة من شارون، وألح عليه إرسال فرقة من لواء غولاني وصلت إلى خط المواجهة مشياً على الأقدام ليلاً. عند الصباح، تابع دروري ضغوطاته على شارون للسماح له بالاندفاع في تقدمه بدلاً من المشي كالسلحفاة. وفي النهاية استدعي سلاح الطيران لقصف السوريين المتمركزين على رؤوس التلال، بالتعاون مع المدفعية البعيدة المدى؛ في اليوم التالي، وعند الساعة السادسة مساء، بدأ مناحيم عينان التقدم شرقاً من بعبدا باتجاه عاليه. في الجمهور، طلب الاسرائيليون من السوريين، بمكبرات الصوت، أن يستسلموا ولكن السوريين كانوا قد تركوا دباباتهم ومراكزهم وولوا شرقاً. بمحاذاة جنود لواء غولاني الذين سيطروا على بحمدون ووصلوا إلى مشارف عاليه، علماً أن جيش الدفاع الاسرائيلي، كان قد تلقى أمراً بالسماح للجنود السوريين المتراجعين بالمرور بسلام. انه واحد من أكثر المواقف سخرية ووقاحة. الجنود الاسرائيليون والسوريون يسيرون جنباً إلى جنب وبصمت

رهيب، مع اقتراب المعركة من نهايتها، وصل شارون ليؤدي واجب التهنئة للجنود على ما قاموا به، عانق عينان بحرارة، فما كان من هذا الأخير إلا أن رجاه التوجه إلى اللواء الآخر وتهنئته أيضاً، لقد حاربوا معنا؛ فتولي موشي ليفي، نائب رئيس الأركان هذه المهمة، فاستقبل بعصبية حادة. أحد القادة صاح بوجهه: «اننا فوج منكوب، وعليّ لفت نظرك إلى أمور عدة؛ قولوا لنا احتلوا بيروت، نفعل. قولوا لنا احتلوا دمشق، نفعل، فلماذا لا نعطى أي أمر للهجوم؟ لماذا في الصباح يطلب إلينا حفر المواقع، وبعد ساعتين نؤمر بالتقدم؟» لاحظ ليفي موافقة الجنود على ما يقوله قائدهم، حتى أن بعضهم كان ينتحب بصمت ويبكي رفيقاً له. فالفوج خسر عشرة قتلى إضافة إلى ثلاثين جريحاً في معركة طريق بيروت ـ دمشق. وعاد القائد يتكلم: «تأكد بنفسك من عناء الجند، دعهم يرفعون أيديهم وسترا الآثار على أكفهم». حاول ليفي أن يكون ليناً وقاسياً في آن «لا نفقدوا معنوياتكم وإحساسكم الوطني» فقاطعه القائد: «بربك قل لي، ما العلاقة بين احتلال طريق بيروت ـ دمشق والسلام من أجل الجليل؟... لماذا نحن هنا؟ لماذا نهاجم، ونسمع الناطق باسم جيش الدفاع الاسرائيلي يعلن ان السوريين هم الذين بادروا بالاعتداء. لذا أود اعلامكم، ان الإحساس الوطني اهتز نعم اهتز».

«الديمقراطية تقضي على العسكريين إطاعة أوامر السياسيين» قال ليفي.

«هذه ليست ديمقراطية» قال القائد بصوت فيه حرارة وحزن واستهجان؛ «ولماذا يتم الذي يتم بغياب بيغن؟».

بعد الانتهاء من السيطرة على الطريق الدولية، تم التوصل لوقف جديد لاطلاق النار في الخامس والعشرين من حزيران.

مناحيم بيغن، في واشنطن، أمضى يومه يجري اتصالات سرية مع الكسندر هايغ، حليف تل أبيب في واشنطن الذي بسبب هذا التحالف القوي، أثيرت بوجهه المتاعب، خاصة من رئيس مجلس الأمن القومي وليم كلارك الذي كان يحاول دائماً تعطيل سياسة وزير الخارجية الأميركية في لبنان؛ هكذا اعتقد الوزير على الأقل. كلارك اتصل بعرفات عبر السعودية، ناصحاً إياه بأخذ وقته قبل الموافقة على إخلاء بيروت. هايغ فوجىء، بل صدم حين دخل مكتب الرئيس ريغن ليجده بانتظاره «سمعت انك راغب بالاستقالة وأنا صممت على قبولها» وعاد هايغ إلى مستشاريه يسألهم الرأي والمشورة، فقر الرأي على ضرورة الاستقالة؛ وحل جورج شولتز مكانه، المعروف بتعاطفه مع العالم العربي.

شارون توقع تغييراً مرتقباً في سياسة أميركا، فأراد استباق الأمور واستلام شولتز، ووقف أمام مجلس الوزراء ليعلن أن جيش الدفاع الاسرائيلي اخترق فعلاً بيروت الغربية، وعلل ما حدث، انه تم بناء لاتصالات مع زعيم ميليشيا الطائفة الشيعية نبيه بري الذي رغب إلينا دخول الضاحية الجنوبية أو موطنْ الشيعة الجنوبيين الهاربين من ظلم منظمة التحرير الفلسطينية، «ليس من ارهابيين بيننا» أوضح بري للضابط الاسرائيلي، كل الشيعة يطالبون بالجيش الاسرائيلي شرط ألا ينزع سلاحهم من أيديهم ومضى بري يقول: «سنرفع أعلاماً بيضاء على سطوح الأبنية وهكذا تعرفون أين نحن».

معظم الوزراء، اعترض على هكذا تصرف، ورفضوا قول شارون إن عرفات يناور في مفاوضاته مع حبيب كسباً للوقت، لأنه لا يريد أبداً الخروج من بيروت إلا تحت التهديد؛ رفضوا ذلك لأنهم متخوفون من دخول منطقة مكتظة بالسكان كضاحية بيروت الجنوبية، إذ أن أية مقاومة قد تعني مذبحة، كذلك هم متخوفون من ردة الفعل في الداخل وفي واشنطن، واقترحوا إعطاء فيليب حبيب فرصة الوساطة، خاصة وأنه وعد بإنهاء القضية خلال «عشرة أيام». في هذا الوقت أرسل حبيب تحذيراً لعرفات يحثه فيه على الإسراع في الموافقة وإلا فإسرائيل تقتحم غربي بيروت. وجاء رد عرفات سريعاً بمد أقنية الإتصال «كفى تهديداً... لن يتجرأوا على المجيء إلى هنا». جواب رئيس منظمة التحرير عبَّر عن غضبه وعصبيته التي أثارتها رسالة شارون له عبر وسيط لبناني «سأعطيك فرصة للإستسلام أشرف بكثير من تلك التي أعطاها الإنكليز للجنود الأرجنتينيين في جزر الفوكلاند Folklands» كل ما هو مطلوب من عرفات هو رفع علم أبيض فوق أعلى بناية في بيروت الغربية، لكن عرفات غير مستعد لرفع أي علم غير علم منظمة التحرير الفلسطينية بألوانه. رده على شارون جاء عنيفاً وواضحاً «لقد أصدرت أوامري لحرسي الخاص بإطلاق النار عليّ إذا قررت الإستسلام». وعاد شارون وأرسل رسالة ثانية عبر صحفي أميركي «يمنحه فيها الأمان لرجاله في حال استسلام المنظمة». وأضاف «أنسيت أننا نحاصركم؟ أم تعتقد أنكم تحاصرون تل أبيب؟».

عرفات كان ما يزال يراهن على العرب، والسعودية بشكل خاص، لإيجاد مخرج عبر اتصالاتها بواشنطن؛ وكان يعتقد أنه قادر على البقاء تحت ظل الحصار ما بين ثلاثة أو ستة أشهر، فحتى الآن لا يعاني نقصاً في الذخائر، أو في المحروقات أو في المواد الغذائية. والرجال مستعدون للدفاع عن كل شبر من بيروت. إنه يرفض بأي شكل من الأشكال

التخلي عن موقعه، ولهذا فيومية منظمة التحرير الفلسطينية أخذت على عاتقها مهمة رفع المعنوية، وحين قرأ في التوراة «إن أي أذى يصيب لبنان سيرتد عليك» عرف فيها نبوءة إنكسار إسرائيل فأمر بنشرها. أثناء تجواله مع أركانه في المدينة، شرع عرفات يرفع من معنوياتهم ويحثهم على الصمود، وأخبرهم ماذا قال له عبدالناصر أثناء حرب السويس «سأكون فخوراً جداً برؤية منظمة التحرير الفلسطينية تقف بوجه كتيبة إسرائيلية واحدة، وها نحن اليوم نواجه مئة ألف جندي إسرائيلي، فما عساه يقول لو كان حياً؟ وتمتم بصوت خافت «لو يمد العرب لنا يداً لكنا نقضي على أسطورة جيش الدفاع الإسرائيلي» وأي جيش عربي سيأتي؟

بعد ثلاثة أسابيع من الحصار والقصف الوحشي، بدا أن حلفاء الفلسطينيين أخذوا في التفرق. وليد جنبلاط الزعيم الدرزي نصح عرفات بالموافقة على شروط فيليب حبيب، والخروج من بيروت. رئيس الوزراء الأسبق صائب سلام ورئيس الوزراء الحالي شفيق الوزان، زارا عرفات وقدما له رسالة من المجلس الإسلامي للغاية نفسها، فأخبرهما «مغادرتي بيروت رهن بإرادتكم... فإذا وجدتم أن وقت مغادرتي بيروت قد حان، فسأفعل غداً». هذا الذكي أعاد الكرة إلى ملعب اللبنانيين الذين كانوا يصرخون «أنقذوا بيروت»... أنقذوا الفلسطينيين. ولكنهم في الوقت ذاته، رفضوا خروج المنظمة خروجاً مشروطاً، ويسعون لخروج عرفات عزيزاً مكرماً.

استكمالاً لمهمته، عاد حبيب إلى بيروت أوائل تموز لوضع الخطوط النهائية لاتفاقية خروج الفلسطينيين من بيروت على مرحلتين، الأولى يتجمع المقاتلون الفلسطينيون في المخيمات الفلسطينية جنوبي بيروت، ويسلمون أسلحتهم الثقيلة للجيش اللبناني، في هذا الوقت يتراجع جيش الدفاع الإسرائيلي ما بين خمسة وعشرة كيلومترات عن المدينة. وفي المرحلة الثانية يغادر المقاتلون بيروت، ويسمح للمنظمة بإبقاء مركز سياسي في بيروت وما بين ٨٠٠ ـ ١٠٠٠ رجل يعملون تحت إشراف الجيش اللبناني؛ على أن تعود وتنسحب بعد انسحاب الإسرائيليين والسوريين من لبنان.

إسرائيل، وافقت على المبدأ، لكن بشير الجميل رفض السماح لأي فلسطيني بالبقاء في لبنان، وكان الرئيس سركيس يشاطره هذا التخوف، إذ من يدري أنه بعد إنسحاب إسرائيل وسوريا، أنهم لن يرفضوا مغادرة بيروت؟

وبعد أن كانت أميركا وفرنسا تستعدان لإرسال قواتها إلى بيروت للإشراف على

مغادرة الفلسطينيين بيروت، اضطرتا إلى التوقف، بناء لاتصال تم بين دايفيد كيمحي، مدير عام وزارة الخارجية الإسرائيلية، وفيليب حبيب، بيَّن الأول فيه أن وجود القوة المتعددة الجنسيات قد تتيح الفرصة للفلسطينيين بالمناورة ثانية، وإن إسرائيل تقترح خروج المنظمة نهائياً، فلا يبقى لها وجود سياسي أو عسكري.

ولكن السؤال المطروح الآن، ليس خروج المنظمة، بل إلى أين؟ الجزائر، سحبت موافقتها على استقبال عدد من المقاتلين، إلى ليبيا، ومن ينقلهم إلى هناك، لا أحد، لأنهم يتخوفون أن يقدم القذافي على اتخاذهم كرهائن. أما الملك حسين، فقد رجا الولايات المتحدة الأميركية ألا يمر القادمون إلى الأردن عبر سوريا التي رفضت استقبال أي عنصر باستثناء كبار الضباط والسياسيين.

عبدالحليم خدام، أثناء لقائه الرئيس ريغان، بصحبة وزير خارجية السعودية يوم ١٦ تموز، حث الرئيس الأميركي على لعب دور أيزنهاور أثناء العدوان الثلاثي على مصر، وطالب بانسحاب متوازن للفلسطينيين والإسرائيليين معاً من بيروت. لكن شولتز Shaultez، أعاد المناقشة إلى صلبها حين قال: «السؤال المطروح حالياً هو إلى أين يذهب الفلسطينيون؟ وإني أتوجه بالسؤال إلى السيد عبدالحليم خدام، هل سوريا مستعدة لاستقبال ما بين ١٠٠٠ - ١٥٠٠ مقاتل إضافة إلى السياسيين، وهكذا ينتقل الباقون إلى شمالي لبنان ومن هناك يوزعون على الدول العربية التي تبدي استعداداً لاستقبالهم». «ليست المشكلة بما يتراوح ما بين ألف وألف وخمسماية مقاتل، المشكلة أن هناك عائلات المقاتلين، وسوريا غير قادرة على استيعاب هكذا عدد»، هذا ما أجاب به خدام.

«ليس هذا بيت القصيد»، قال ريغان «ونحن لا نسأل سوريا استقبال هكذا عدد، إنما نحن نقول بضعة آلاف مسلح، الكلام الواضح، أما الباقون، فسيجردون من سلاحهم وتتحمل الحكومة اللبنانية مسؤولية الحفاظ عليهم». وأوضح الرئيس الأميركي أن فيليب حبيب سيقوم بجولة على العواصم العربية لحث دولها على استقبال الفلسطينيين وهذا ما حدث.

في هذه الأثناء، كان شارون يزداد قناعة، بضرورة إحكام الحصار على بيروت، وعقد لهذا الغرض إجتماعاً في وزارة الدفاع الإسرائيلية، وافتتح الإجتماع بقوله «يطالب الإرهابيون بالقوة المتعددة الجنسيات لحماية الفلسطينيين من المسيحيين.. إن ما يخيف منظمة التحرير الفلسطينية إقدام أحدهم بقيادة جرافة للبحث تحت أرض المخيمات عن الأسلحة.

لن ننتظر طويلاً... سأقتحم بيروت خلال الأسبوع القادم». في حديثه، كان شارون واضحاً ولأول مرة يستعمل عبارة «مخيمات الإرهاب» في معرض كلامه عن اللاجئين الفلسطينيين وتردد على أنه سيميز بين اللبنانيين وغير اللبنانيين في هجومه هذا، واقترح شارون أن يقف الهجوم عند الحدود الجنوبية لكورنيش المزرعة الذي يقطع المدينة من الشرق إلى الغرب. وهذا يعني أننا لن ندخل رأس بيروت.. أما القسم الجنوبي فيجب أن ينظف، أن يدمر كلية، ولن نمس السكان اللبنانيين. وعاد ثانية ليؤكد «إننا نريد مخيمات الإرهاب، وإلا سيعود الإرهاب لبناء أرضيته التحتية فيها من جديد». هذا الإقتراح - تدمير المخيمات وإبعاد مايتي ألف فلسطيني عن لبنان - سبق لبشير الجميل وقدمه والآن يردده شارون أمام كبار ضباطه. وأكد على أنه «يجب تزويد شمالي بيروت بكل مقومات الحياة من ماء وكهرباء وطعام ومحروقات.. أما القسم الجنوبي فيجب أن يدمر، أن يتساوى مع الأرض. لن نمس المدينة، فقط سنتعامل مع الإرهابيين»... إن اقتحام جنوبي بيروت ليس أمراً سهلاً، في البداية سنقف على مدى أسبوع، بالنسبة لي، علينا عدم الإبقاء على إرهابي واحد.

من غريب الأمور، ومن أسوأ مظاهر تلك الحرب، أنه في اليوم ذاته الذي كان فيه شارون مجتمعاً مع ضباطه يتحدث عن تدمير جنوبي بيروت، في هذا الوقت بالذات، كان ياسر عرفات يوزع مقالاً على رجاله يشرح فيه خطة شارون لمهاجمة بيروت. المقال كان تحت عنوان «هدف الخطة الجهنمية»، جاء فيه: «إنه تدمير بيروت، إستناداً إلى التقارير التي بين أيدينا، قسمت المدينة إلى تسعة أقسام مربعة، وسيتم قصف كل قسم بعد الآخر، حتى تستسلم بيروت».

وفيما كان شارون يشدد على الفصل بين «الإرهاب» و«المدينة»، علت بعض الهمهمات في القاعة دون اعتراض من أحد، بل من عدم ارتياح للخطة عند عدد قليل منهم، ومن بينهم البريغادير جنرال غيورا فورمان Giora Forman الذي لفت الأنظار «يمكنكم تدمير المدينة، سلاح الجو قادر على كل شيء، إنما السؤال الأساسي هل نريد هذا فعلاً؟ أنا شخصياً لا أعتقد ذلك». أتبع ذلك باعتراضات، خاصة ضد أي عمل عسكري على الأرض ضد بيروت الغربية، «إنهم سيقاتلون، أتعلم» قال ساغي «لن تكون عملية سهلة كما تتصورون».

وتساءل شارون: «إلى متى سنبقى محافظين على وقف إطلاق النار؟... طالما نحن

كذلك، فسيبقون في مخيماتهم على سلاحهم». وتدخل نائب رئيس الأركان موشي ليفي قائلاً: «إننا نتكلم عن القصف الثقيل، ليس الطيران وحده، بل المدفعية البعيدة المدى أيضاً. بالنسبة لي، أرى أننا لم نستعمل كامل ضغوطاتنا حتى الآن».

وانتهى الإجتماع إلى ثلاثة خيارات: الإنتظار حتى تنجلي نتائج المفاوضات ـ قصف المدينة بعنف ـ اقتحام القسم الجنوبي من المدينة. وقبيل خروجه، أراد شارون أن يتهرب من مواجهة مجلس الوزراء. واقترح أن يعرض الأمر على مناحيم بيغن فقط، فمجلس الوزراء مشغول بما هو أهم من هذه الأمور؛ تصرفه هذا ليس غريباً مطلقاً بل هو من عاداته في هذه الحرب؛ حتى أنه أنَّب ضابطاً لعرضه الموقف في بيروت الغربية بصدق ودقة أمام مجلس الوزراء. غير أن تسعة وزراء عارضوا الخطة دون عرضها عليهم، وأصروا على معارضتها حتى ولو وافق مناحيم بيغن على تنفيذها. والخطة كانت تقضي بدخول بيروت على محورين، المحور الأول من ناحية الشاطىء، والثاني عبر كورنيش المزرعة. شارون وإيتان قدما ضمانات مسبقة، إنه لن يدخل أي جندي إسرائيلي إلا بعد تدمير الستة آلاف بناية الموجودة في المنطقة. وهكذا انقسم مجلس الوزراء على ذاته. شارون من جهة، وموردخاي تسيبوري من جهة أخرى. لكن تسيبوري ليس وحيداً فقد انضم إليه وزيرا الحزب الوطني الديني يوسف بورغ وزفلين هامر Zevulun Hammer وأربعة آخرون من بينهم وزيران من حزب مناحيم بيغن ـ حيروت ـ وهما نائب رئيس مجلس الوزراء دافيد ليفي ووزير المالية يورام أريدور Yoram Avidor. ومع اشتداد المعارضة لاقتحام بيروت، أقدم مراقب الحزب الديني الدكتور بورغ Burg على زيارة مناحيم بيغن يوم السبت ليحذره من مهاجمة بيروت وإلا فإن وزراء الحزب سيسقطون حكومته. بيغن رد على بيرغ متسائلاً «ما الذي تريد الوصول إليه؟» وأجاب بيرغ «هذا ليس عمل فردي، إنه يعود إلى مجلس الوزراء فإما أن يوافق أو يرفض».

بعد فشل خطة استراق الموافقة على الإقتحام، أقدم شارون على فرض حصار جديد، حصار تمويني، حصار حياتي، لا كهرباء، لا ماء، لا محروقات، لا طعام، وثارت ثائرة واشنطن، ولكن هذا الحصار لم يعط نتيجة، لأن المواد الغذائية استمرت تتسرب إلى الشطر الغربي من العاصمة على يد التجار المسيحيين (بالتعاون مع الميليشيات الكتائبية) طلباً للربح الوفير. أما المحروقات، فلم يعان المواطنون أي نقص فيها.

توقف المراقبون طويلاً، أمام رباطة جأش البيروتيين في مواجهتهم الحصار، حتى في

أشد الساعات قصفاً وحراجة للضاحية الجنوبية، والفاكهاني، صبرا وشاتيلا، كانت الحسناوات في لباس البحر، يستلقين تحت أشعة الشمس على بعد كيلومتر ليس أكثر على طول شاطىء رأس بيروت، ومقاهي شارع الحمراء تستقبل الزبائن وكأن شيئاً لم يكن، وتابع البيروتيون تنقلهم عبر شطري العاصمة بالألوف، حتى تفاح الجليل الذي يصدر للبنان، وجد طريقه إلى قلب بيروت الغربية، إضافة إلى الصحف العربية التي تصدر في إسرائيل، دخلت بيروت الغربية وعرَّفت سكانها على ما يجري في الضفة الغربية وإسرائيل حول قضية الحصار هذا.

الخروج من بيروت يعني «نهاية الثورة»، هكذا فكَّر عرفات. والذهاب إلى سوريا يعني العيش تحت الوصاية. والذهاب إلى مصر يعني الموافقة على اتفاقيات كامب دافيد. ليس هذا ما كان يشغل بال إسرائيل التي منذ أن وصل جيشها إلى بيروت، قررت حسم الأمور نهائياً، كما أوضح ساغي، وتحقيق نصر حاسم أيضاً، أما السماح للمنظمة بالبقاء في بيروت، فيعني هزيمة سياسية.

مهما يكن، وافق مجلس الوزراء أم لم يوافق، فكلمة شارون عند الجيش هي القانون. مع منتصف تموز، وجد دروري Drori نفسه منغمساً في وضع خطة لدخول بيروت خلال ثمانية وأربعين ساعة، ولكن القادة العسكريين اعترضوا على الخطة بشدة، وتوقعوا أن احتلال بيروت يستوجب عشرة أيام على الأقل؛ وإلا فالخسارة البشرية ستكون كبيرة، علماً أن بعض السياسيين على استعداد كلي لعمل أي شيء حتى ولو كان سيودي بحياة الإسرائيليين في غير محلها.

أبرز المعارضين لخطة بيروت كان الكولونيل الي جيفا، الذي لم يكتف بالإعتراض على الأمور العسكرية، بل تعداها إلى السياسة: «هذه ليست حربنا»، هذا ما خاطب به رفول إيتان حين انضم إلى الإجتماع، «علينا عدم التورط في الشؤون الداخلية للبنان. من الأفضل أن يكون في هذا البلد نظام مستقر بإمكانه ضبط الإرهابيين، وليس من حقنا إكراهه على هذا، وندفع نحن الثمن... في البدء كنا نهدف إلى إبعاد الفلسطينيين إلى نقطة معينة. أما اليوم، فالذي نفعله، يثير اهتمام أميركا بالقضية الفلسطينية، ومن يدري، قد نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام حل لا نريده». حين انتهى جيفا من حديثه تقدم منه زملاؤه وشدوا على يديه لأنه عبَّر عن آرائهم. جيفا تساءل بينه وبين نفسه «ماذا أفعل هنا؟» مهما يكن، فالإعتداء على بيروت يتصدّر الإهتمامات، لذا قرر «دق جرس الخطر وكسر جدار

الصمت المحيط بهذه المؤامرة »، وصمم على الإستقالة.

حاول دروري ثنيه عن عزمه هذا، لكن جيفا، أصر على استقالته « لا يمكنني البقاء هنا، ولا يمكنني البقاء هنا كمراقب، فمن أجل رجالي أقدم استقالتي، وحتى لا أكون مشاركاً في قرار دخول بيروت ». وحين رفض شارون استقالته وطلب اليه البقاء في مركزه، طلب جيفا إلحاق فريق طبي باللواء؛ لكن طلبه لم يستجب واستمرت المحاولات لثنيه عن استقالته، فأرسل لعقد لقاءات مع إيتان، شارون وأخيراً مع مناحيم بيغن « دخول بيروت يعني قتل جميع العائلات »، هذا ما قاله جيفا أمام رئيس الأركان الذي رفض مناقشته في الأمور السياسية، ولفت نظره إلى خطورة ما يقوم به في الجيش؛ ولما يئس منه، أرسله لشارون الذي حوله بدوره إلى بيغن.

في لقائه مع بيغن دار حديث صريح:

« كم إصابة تتوقع؟ » سأل بيغن، وأجاب جيفا « بالعشرات حتماً ». وهنا تنبه بيغن إلى تقديرات رئاسة الأركان، فسأل « هل تناقشت مع رئيس الأركان »؟ وأجاب جيفا « نعم ». وبعد ثمانية وأربعين ساعة أعلم جيفا أنه بمستطاعه عدم الذهاب إلى بيروت، بعد إنهاء خدماته في جيش الدفاع الإسرائيلي. جاء في بيان للجيش: إن « الضابط طلب إعفاءه من مهماته قائلاً إن ضميره وموقفه لا يسمحان له بالإشتراك في العملية في لبنان ». بعد ذلك تحوّل جيفا إلى قضية معبِّرة عن ضمير المواطنين.

قضية ضمير جيفا هذه، لم تكن القضية الوحيدة في جيش الدفاع الإسرائيلي، لقد بدا للعديد من الجنود الإسرائيليين المتمركزين على التلال المشرفة على بيروت، بدا لهم أن صورة جيش الدفاع الإسرائيلي كجيش دفاع بدأت تنهار. إن خيطاً رفيعاً يفصل بين الدفاع وبين ما يجري في بيروت الغربية، حيث تنهار بنايات عالية على من فيها من جراء القصف. لقد انقلبت قضية الفلسطينيين رأساً على عقب، انقلبت ـ أمام حصار بيروت ـ إلى قضية أخلاقية.. بعد الإستيلاء على الأربعين كيلومتراً، وبعد الحرب مع السوريين ووقف إطلاق النار المكرس في الجبال الشرقية لبيروت، بعد هذا كله، يريد شارون أن يبقى بطلاً في عيون جنوده، في حين أن إسماً جديداً أطلق عليه « السم » وحين سمع جندياً يقول عنه هكذا، رد هذا الإستفزاز إلى حزب العمل.

طائرات سلاح الجو، دعت مواطني الشطر الغربي من بيروت، بواسطة المنشورات، إلى طلب النجاة خارج منطقتهم، وهكذا تدفّق عشرات الألوف من المواطنين عبر طريق

المتحف طلباً للحياة، ولكن الأغلبية الساحقة فضلت البقاء حيث هي، رغم القصف المجنون براً وجواً. وقد حدث مرة أن طياراً إسرائيلياً أخطأ شباك غرفة عرفات، ومرة ثانية نجا أبو إياد. إذ غادر مبنى القيادة قبل تدميره بثوان. لا عجب بذلك، فزعماء المنظمة مدركون أنهم مستهدفون، عرفات لا يستقر بمكان واحد حتى ليوم واحد، كثيراً ما عقد جلسات سرية ليلاً.

في البدء كان عرفات يحاول إطالة أمد المفاوضات إلى أطول فترة ممكنة. رفض الخروج بحراً وحين سئل لماذا، قال: « يخشى أن يصاب جنوده بدوار البحر ». بشير الجميل ـ على الهاتف ـ طلب منه « ترك بيروت، وإن أردتها ستالينغراد فاذهب إلى بلادك واختر المكان الذي تريد واجعله ستالينغراد ». ورغبة في المماطلة أجاب « لا أعتقد أنه من المفيد مناقشة هكذا أمر معقد على الهاتف ». هذه دعوة للقاء رفضها بشير. كان يسعى إلى جعل الخروج من بيروت عملية انتصار للمنظمة. في نفسه خوف من أن يجبر على الإقامة الجبرية في دمشق، أو في أسوأ الأحوال في موسكو. وبعد أن كان يلتقي يومياً السفير السوفياتي ألكسندر سولداتوف، صار اليوم يمتنع عن لقائه، احتجاجاً على عدم استجابة السوفيات لطلباته؛ وحين اقترح سولداتوف عليه الذهاب إلى موسكو، رفض ذلك وأجاب « أتريدني أن أكون البرازاني الثاني؟ » ولم يكتف بذلك، بل أخذ يهاجم السياسة السوفياتية متهماً موسكو بالتخلي عنه، وتساوت سوريا مع موسكو بالإتهام، فامتنع عن الإتصال بالرئيس السوري حافظ الأسد « السوريون يعرفون من أنا؟ » أما بريجنيف فهو « الصديق المتقوقع ».

وحتى يكسر طوق العزلة من حوله، ويعيد صورته إلى الأضواء، أرسل عرفات رسالة لفيليب حبيب عبر الوسيط اللبناني الرئيس صائب سلام، تتمحور حول إخلاء المنظمة لبيروت إنما بعد تراجع جيش الدفاع الإسرائيلي عن حدود المدينة، وفيما إذا أراد هذا الجيش اقتحام بيروت الغربية، فالمنظمة ستفجر ٣٠٠ مستودع ذخيرة تحت الأرض، جاعلة من المدينة، ركاماً وجحيماً. هذا التهديد الإنتحاري لم يؤخذ بعين الإعتبار كفاية، ولكنه جعل الوسيط اللبناني يرتجف فزعاً.

شارون، ما يزال يركب رأسه ولا يعير أذناً للإحتجاجات المتزايدة ضد حربه في بيروت: إنه مدعوم من مناحيم بيغن، ولن يتراجع قبل القضاء على المنظمة، « إنها حرب القضاء على قادة الإرهاب »، حسب تعبير بيغن في رسالته للرئيس الأميركي ريغان والتي

جاء فيها: «أشعر وكأني أرسلت جيشي إلى برلين للقبض على هتلر». هذه البلاغة لم تقنع ريغان، فواصلت واشنطن ضغوطها على بيغن للحؤول دون اقتحام بيروت، في الوقت ذاته واصل بيغن ضغوطه على حبيب للإسراع في التوصل إلى حل «لن ننتظر أسابيع وشهوراً»... «متى أرى الإرهابيين يستعدون للرحيل؟» وحين جاء رد فيليب حبيب «قريباً جداً»، نظر بيغن إليه مستغرباً «ما الذي تعنيه؟» مكوكية فيليب حبيب أثارت شكوك شارون حول سياسة أميركا تجاه المنظمة. وعبَّر عن شكوكه هذه صراحة، أثناء لقائه حبيب في بيروت. فكلما كان حبيب يستعمل كلمة «**إخلاء**» كان شارون يغضب ويجيب «**إخراج**». وحين اقترح حبيب أن تتم عملية الإخلاء جواً، ثار شارون وصاح لن يكون ذلك، طالما أنا وزير للدفاع. وجاء رد فيليب حبيب حاسماً وقاطعاً «أنا ممثل شخصي لرئيس الولايات المتحدة الأميركية وهذا ما أراه». تصرفات شارون، جعلت حبيب يشتكيه لمناحيم بيغن، «قبل أن أتعرَّف على حقيقة الصهيونية وحين كنت ما أزال طفلاً في بروكلين، كنت صهيونياً، أما اليوم؟» تل أبيب بدوره اعترضت على تصرفات مساعده موريس درايبر Morris Draper والسفير الأميركي في بيروت روبرت ديلون Robert Déllon الذي يكاد أن يكون **لا سامياً** بسياسته المعادية لإسرائيل حتى أنه لم يتورّع عن التصريح «أنه إذا أراد الرئيس الأميركي التعامل مع إسرائيل بحرية فما عليه إلا كسر طوق اللوبي الصهيوني أولاً».

بداية آب، شهدت تحولات جذرية في العلاقات الأميركية ـ الإسرائيلية وفي حصار بيروت. ريغان أرسل لبيغن رسالة شديدة اللهجة تعبّر عن قلقه من الخوف المتزايد لوقف إطلاق النار في بيروت، التي بدأ شارون يضيّق الخناق عليها ويزيد من وحشيته إزاءها. يوم الفاتح من آب قام الطيران الإسرائيلي بمئة وسبعة وعشرين طلعة فوق المدينة، وعلى مدى عشر ساعات متواصلة؛ وإضافة إلى القصف البري والبحري بصواريخ غابريل Gabriel، على المحور الساحلي، تقدّم جيش الدفاع الإسرائيلي إلى حدود مدارج مطار بيروت الدولي لمنع عملية الإخلاء جواً، وسيطر على الأوزاعي، من الشرق، تقدم وسيطر على حي السلم، وعلى منطقة المتحف أو المدخل الشرقي لكورنيش المزرعة. هذا الحصار الجديد، قصَّر المسافة بين جيش شارون ومخيمات الفلسطينيين في برج البراجنة.

ليل الخامس من آب، ليل الصدام السياسي بين تل أبيب وواشنطن، بيغن رفض طلب الرئيس الأميركي القاضي بعودة الجيش الإسرائيلي إلى مواقعه السابقة قبل الفاتح من

آب «اليهود لا يركعون لغير الله». في الليلة السابقة، كان شارون يقدم احتجاجاً شديد اللهجة للقائم بالأعمال الأميركي في تل أبيب بسبب إعلان واشنطن أنها تلقت معلومات من سفارتها في بيروت تفيد أن جيش الدفاع الإسرائيلي يتقدم نحو بيروت الغربية عن طريق المرفأ؛ ويطلب إليه إعلام حكومته أن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث، والمدافع استراحت حتى المساء. ورد براون Brown «كيف هذا وموظفو السفارة شاهدوا بأم عينهم المدفعية الإسرائيلية تقصف؟».

تنهَّد شارون وهو يقول «هذا مركز مدفعية للمخربين»... لقد أرسلت أوامر صريحة لرجالي بالإلتزام بوقف إطلاق النار»... والبقاء في مواقعهم، ولكني أصدرت أوامري باحتلال أي موقع تصدر عنه النار».

موريس درايبر في لقائه مع شارون، حذره بوضوح، إن عدم السماح للقوات المتعددة الجنسيات بالإنتشار في بيروت يعني تأخير الإخلاء. لكن شارون كعادته، أجاب بسخرية وهزء «جاء الرجل إلى بيته ليخبر زوجته أن إبنة الجيران المراهقة حبلى وقد **يلوموننا**». في هذا الوقت أعلن عن اتفاق لجلاء الفلسطينيين عن بيروت، وأكد بيغن ذلك أمام الكنيست، ولكن شارون ـ يوم ٨ آب ـ أرسل جنوده إلى جونية لمنع أي إنزال فرنسي أميركي هناك، وصادف ان تكون طائرة فيليب حبيب أولى الطائرات التي تمنع من الهبوط، مما دعا موريس درايبر إلى الإتصال بالضابط المناوب محذراً «إنكم ترتكبون فضيحة، هذه طائرة فيليب حبيب». بعد ساعات أخليت جونية، إنما بعد انتشار جيش الدفاع الإسرائيلي على طول الشاطىء من جبيل شمالاً حتى بيروت جنوباً. هذه التحركات أثارت مخاوف سوريا التي كانت حتى الأمس القريب ترفض إخراج وحداتها من بيروت. ولهذا السبب اتصل عبدالحليم خدام بفيليب حبيب لافتاً نظره إلى توقع دمشق هجوماً إسرائيلياً قريباً على القوات السورية في شمالي البقاع.

«إني أقدر اهتماماتك وأوافق على أن إسرائيل تريد إرجاع الأمور إلى الوراء»، هذا ما أجاب به حبيب. وحين سأله خدام «ما الذي علينا أن نفعله؟» أجاب: «لا أدري... أنا لا أمتلك أية سلطة على التحركات الإسرائيلية».

أجوبة فيليب حبيب هذه جا ت في محلها، أراد منها تليين موقف حافظ الأسد ونجح. ففي اليوم التالي، وبعد مغادرته إلى القدس، اتصل به عبدالحليم خدام عبر السفارة الأميركية في دمشق طالباً إليه إقناع بيغن بتأجيل ما يفكر فيه، ريثما ينتهي الرئيس الأسد

من دراسة الأمور بروية؛ وثانية عاد خدام واتصل بالموفد الأميركي ليبلغه موافقة دمشق على استضافة ٢٠٠٠ مقاتل فلسطيني.

في اليوم ذاته، العاشر من آب ـ كان ما يسمى «وثيقة حبيب» تسلَّم في القدس للمسؤولين الإسرائيليين. وأكد السفير الأميركي صمويل لويس Lewis أنها نالت موافقة السلطات اللبنانية ممثلة بالرئيس الياس سركيس.

شارون، إنطلاقاً من طبيعته العسكرية، اعترض على الوثيقة، ووضع شروطاً لا حد لها، لا يوافق على اشتراك الفرنسيين في القوى المتعددة الجنسيات ـ اعترض بشدة على انتشار هذه القوات قبل رحيل الإرهابيين ـ طلب ضمانات أنه في حال توقف الإخلاء، تنسحب القوى المتعددة الجنسيات فوراً ـ يريد ضمانات أن الإخلاء سيتم بحراً وليس براً. بكلمة واحدة، إنه يعتبر الأميركيين، مثلهم مثل غيرهم، ينصبون شركا لإسرائيل، وأن الفلسطينيين سيخرجون من بيروت، ليتمركزوا في البقاع؛ ومن يمنع عرفات بعد مجيء الأميركان والفرنسيين والإيطاليين، من تغيير فكره ورفض الخروج من بيروت. وأصر على ألا تبقى هذه القوات المتعددة الجنسيات في بيروت أكثر من ثلاثين يوماً. ولا شك، أن وراء إصرار هذا، يخفي خطته المستقبلية القاضية بدخول الجيش اللبناني والكتائب إلى الشطر الغربي من بيروت وتنظيفها من جميع الفلسطينيين المسلحين.

يوم ١٢ آب، وبعد موافقة مجلس الوزراء عليها، أصبحت «وثيقة حبيب» شبه نافذة. وفي هذا اليوم بالذات، وخلافاً لكل المفاهيم السياسية والديبلوماسية وخلافاً لأي منطق **أعوج** أمر شارون سلاح الجو بقصف بيروت بجنون على مدى إحدى عشرة ساعة متواصلة. بلغ عدد القتلى ذلك اليوم الذي اتفق على تسميته بيوم «الخميس الأسود» ثلاثمائة قتيل، إضافة إلى آلاف الجرحى. والذي زاد مأساة المواطنين ذلك اليوم، هو تفاؤلهم بقرب الحل وانفراج الأزمة فخرجوا من مخابئهم وابتعدوا عن الزوايا في منازلهم؛ وهذا ما كانت تريده هيئة الأركان الإسرائيلية؛ ونظراً لجنونية ووحشية ذلك القصف، أصدرت زوجة رئيس الوزراء اللبناني السيدة وزان صرخة احتجاج تحث فيها ضمير العالم أن يتحرك. أما القادة المسلمون، فاتصلوا هاتفياً بالسفير الأميركي ليضعوه تحت الأمر الواقع ويصفوا على مسمعه ما يحدث، وينقلوا إليه صرخات الإستغاثة التي يرفعها شعب كتب عليه أن يواجه جيشاً يأتمر بأمر **إنسان حاقد لا يفهم من الإنسانية سوى إنه إنسان بشكله وهيأته ليس أكثر**.

التحرك الأميركي جاء سريعاً، ريغان استمر يحاول الإتصال ببيغن ـ على مدى ساعة ـ حتى عثر عليه أخيراً في مكتبه بالكنيست، وطلب منه وقف القصف فوراً وإلا سيضطر إلى استدعاء فيليب حبيب وإنهاء الوساطة الأميركية؛ وبالفعل توقف القصف.

مجلس الوزراء اجتمع بعد ظهر ذلك اليوم، للنظر في طلب آرييل شارون السماح لجيش الدفاع الإسرائيلي بدخول بيروت على عدة محاور، وخاصة عبر محور المتحف ـ المزرعة، ولكن من يزرع الريح يحصد العواصف، وهذا ما جناه شارون في جلسة مجلس الوزراء، عاصفة احتجاجات واتهامات بسبب القصف الوحشي لبيروت.

«هذا تدمير للمفاوضات»، قال أرليخ Erlich.

«ما الفائدة من تخريب اللعبة السياسية»، قال زفلين هامر Zevulun Hammer.

يوسف بورغ رأى «أن الذي يجري مخالف لمقررات مجلس الوزراء».

ورد شارون على بورغ «هل أنت متأثر بأحد أفراد عائلتك؟» إنه يريد الغمز من قناته، لأن إبنه أبراهام Avraham كان يقوم بنشاط فعال لتأسيس حركة مناهضة للحرب.

وللمرة الأولى يضطر بيغن للتدخل ضد شارون «أي كلام هذا الذي تقوله يا سيد شارون»، والتفت نحو يوسف بورغ قائلاً «وزير الدفاع يلتمس عذرك».

وتدخل موشي ليفي لإعادة الأمور إلى نصابها طالباً العودة في مناقشة الموضوع المطروح: «إنك لا تخدع الأمة وحسب، بل ومجلس الوزراء أيضاً يا سيد شارون».

وصاح شارون «إن أي قرار بعدم التقدم هو قرار سيء».

التفت بيغن إليه قائلاً «لا ترفع صوتك... أريد أن أعرف من يترأس الجلسة».

وجال شارون نظره في وجوه الوزراء فوجد نفسه معزولاً. حتى وزير الخارجية إسحق شامير، وجه اللوم له، لعدم تشاوره مع رئيس الوزراء قبل إصدار أوامره بالقصف. وزير واحد، يوفال نعمان من الحزب الراديكالي جناح «هاتحيا» حاول إقناع زملائه الوزراء بالموافقة على اقتراح شارون. ولكن الإجتماع، انتهى بقرار غريب من نوعه بتاريخ الدول كافة، وليس بتاريخ إسرائيل وحدها ـ إنه قرار عدم مسؤولية وزير الدفاع عن سلاح الجو. إنه دلالة واضحة على عدم الثقة بشارون، إنه يسيء استعمال سلطاته.

ليل ١٢ ـ ١٣ آب، اتصل عرفات بالموفد الأميركي معلناً موافقته على **الإنسحاب** من بيروت. سبق ذلك الإتصال، لقاء بين عرفات والزعماء المسلمين في بيروت الذين جاؤوه طالبين منه إنقاذ بيروت. أحدهم، رئيس وزراء سابق ومتقدم بالسن، رجاه وهو يبكي

« سنموت جميعاً... سنموت جميعاً ». وهكذا وجد الزعيم الفلسطيني نفسه أمام مسؤولية مصيرية، سيكون مسؤولاً مباشرة عن تدمير بيروت؛ خاصة وأنه لم يعد لديه أي سبب للرفض. الزعماء المسلمون تخلوا عن دعمهم للمنظمة وله شخصياً، والأميركيون رتبوا عملية رحيل المقاتلين وأخذوا على عاتقهم مهمة نقله إلى تونس. هكذا نجا عرفات من دخول « قفص » حافظ أسد. أبو موسى أحد قادة المنظمة البارزين صرح على أثر ذلك: « وأخيراً اتضح لنا أنه ليس من مصلحة الدول العربية أن تقف إلى جانبنا بعد الآن ».

بعد إعلان سبع دول عربية استعدادها لقبول بعض من مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية، بما فيها القيادة السياسية، أخذت المنظمة تستعد بجدية، طلبت من مقاتليها التقدم من مراكز قيادتهم وحلق ذقونهم وشعورهم والظهور بالمظهر اللائق تمهيداً للخروج من بيروت، عرفات دفع كل ما يتوجب عليه في المدينة - إيجارات مباني - بدل مواد غذائية إلخ. رغبة منه في ترك أثر طيب خلفه.

ومضت أيام، وجاءت الساعة الثالثة بعد ظهر الحادي والعشرين من آب، موعد ابحار أول دفعة من مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية. فيليب حبيب وآرييل شارون تبادلا التهنئة.

على مدى إثني عشر يوماً، رحل ١٤٣٩٨ مقاتلاً فلسطينياً وسورياً ومن ضمنهم ٦٦٤ إمرأة وطفلاً، رحلوا عن بيروت: ٨١٤٤ غادروا بحراً والباقون، وهم في معظمهم جنود سوريون، غادروا عن طريق البر عبر الطريق الدولية التي تربط العاصمة اللبنانية بالعاصمة السورية. حتى في هذه اللحظات، اصطف الموارنة في المنطقة الشرقية على جانبي الطريق يودعون المغادرين بعبارات نابية وإشارات مهينة، مثلهم مثل الرائد سعد حداد الذي دعي لحضور هذا **« الإحتفال »**.

لا أحد ينكر أن منظمة التحرير خسرت بيروت، لكنها لم تنهزم. الخروج من بيروت، كان بمثابة الجرح الذي لا يشفى بالنسبة لعرفات ورجاله، ولكنهم لم يستسلموا لليأس. إن الستين ألف قذيفة مدفعية وإضافة إلى عدد لا يحصى من قذائف الطيران، لم يتمكنوا من دفن منظمة التحرير الفلسطينية.

في إسرائيل، اقترح عدد من كبار الضباط على آرييل شارون، إعطاء تصريح يشير إلى لب القضية الفلسطينية، يعطي هؤلاء الخارجين بصيصاً من أمل، لكنه لم يفعل. ولماذا يفعل؟

الفصل الثاني عشر
صناعة الوحل

بعد خروج المقاتلين الفلسطينيين، بدا أن كل شيء قد انتهى: القتال في لبنان توقف، منظمة التحرير الفلسطينية خرجت من بيروت، المعارضة في الداخل، تناست احتجاجاتها واحتفلت بقطف ثمار **النصر**؛ والآن جاء وقت الهدف الأسمى - الهدف الأساسي لحرب شارون - إقامة نظام « سياسي جديد » في لبنان.

بشير الجميل، المرشح الوحيد لرئاسة الجمهورية، سبق له وأكد للإسرائيليين أنه يضمن فوزه في الإنتخابات. لكنه، بينه وبين نفسه، كان يدرك، أنه بدون الدعم الإسرائيلي، يستحيل ذلك. ولكن شارون وبيغن لا يوزعان المحبة لوجه الله، كل شيء عندهما بثمنه. ويدرك أيضاً أن العقبة الأساسية التي، من المحتمل، أن تحول دون انتخابه رئيساً للجمهورية تتمثل في مقاطعة نواب بيروت المسلمين، وبعض من نواب منطقتي طرابلس وشمالي البقاع، جلسة الإنتخاب، تحت ظل الحراب الإسرائيلية، إضافة إلى عدد من نواب الموارنة الموالين لسليمان فرنجية؛ هذه المقاطعة التي قد تعطل الجلسة لعدم اكتمال النصاب القانوني.

من هنا، فاتكال بشير الجميل على إسرائيل، جاء من يقينه، أنها ستمارس ضغوطاً قوية على نواب المناطق الخاضعة لسيطرتها. كميل شمعون، الذي يترأس كتلة نواب الأحرار - ٦ نواب - لم يعلن تأييده لترشيح بشير، على العكس، كان يسعى لكسب تأييد النواب لإعادة انتخابه. جان نادر، أقرب المقربين لبشير، سعى لدى صديقه، للتراجع عن ترشيحه، فهو - بشير - القوة الفاعلة في لبنان الآن، فلماذا يرتضي الإرتهان لإسرائيل.

في إسرائيل، جمع وزير الدفاع عدداً من الخبراء للتباحث والتشاور بشأن الإنتخابات الرئاسية في لبنان؛ وقد أجمع الخبراء على ضرورة إقناع بشير بالتراجع والتجديد للياس سركيس سنتين أو ثلاث، ومن يقنع بشير بهكذا قول، وهو المقتنع بما سمعه من فيليب

حبيب عن تأييد الولايات المتحدة الأميركية لانتخابه؟ وأخيراً انتهى المجتمعون إلى ضرورة مساعدة بشير في تأمين ما يقارب سبعة أصوات ما يزال بحاجة إليها. رافي إيتان Rafi Eitan مستشار رئيس مجلس الوزراء لشؤون مكافحة الإرهاب، اجتمع بشمعون محاولاً إقناعه بتأييد بشير مقابل تعهد هذا الأخير بإعطاء مناصب حساسة للشمعونيين في إدارته الجديدة؛ في هذه الأثناء، كان بعض الضباط مشغولين بالضغط على نواب الشيعة في الجنوب والبقاع الغربي للإدلاء بأصواتهم لصالح بشير، حتى أن طوافة عسكرية إسرائيلية تولت مهمة نقل نائب بقاعي عجوز إلى بيروت. في المقابل، كان زاهي البستاني يشتري الأصوات وقد بلغ مجموع ما دفعه حوالي مايتي مليون ليرة لبنانية.

احتاط الكتائب لكل الإحتمالات: زاهي البستاني اقترح السيطرة على لبنان بالقوة، إذا فشل بشير في الإنتخاب. وهذا ما دعا ضابط إسرائيلي إلى مخاطبة البستاني بوضوح «نعتقد أن البرلمان سيخذلكم، ولكن كما ترون، فإننا نقف إلى جانبكم». وضحك البستاني وهو يقول «لا تخف... إذا حصل هذا، فإننا سنجبر سركيس على تعيين بشير الجميل رئيساً لمجلس الوزراء»، وهكذا تنتقل الرئاسة إليه حكماً بعد انتهاء ولاية سركيس.

هذه الثقة الكتائبية بالنفس، مستمدة من تحالفهم مع إسرائيل، ولكن بشير، كان يعلن على الملأ، أنه لن يوقع أية إتفاقية سلام مع إسرائيل، وحتى لن يدخل المفاوضات من أجلها، إلا بموافقة **جميع** الأطراف اللبنانية. وحين سئل عن تعاونه مع شارون، قال «تعاون؟ كيف يمكن أن يحصل هذا وثلاثة أرباع مجلس الوزراء ـ الإسرائيلي ـ لا يعرفون شيئاً عن خطط شارون»، حتى أنه نفى أي اشتراك لقواته مع جيش الدفاع الإسرائيلي في العمليات العسكرية حول بيروت، هذا الكلام كان يفترض أن يحدث، بعيد وصول الإسرائيليين إلى الدامور، ولكنكم رأيتم بأم عينكم، أن إسرائيل وصلت إلى بيروت، دون أن أتحرك إنشاً واحداً.

في إسرائيل، سرى استياء عام من تصريحات بشير العدائية ـ أحياناً ـ فجاء من يحذره، ويطلب إليه العمل علانية، لكنه رد عليهم بالتساؤل «ماذا بإمكاني أن أفعل؟ ليس هناك، من يريد التخاطب مع الإسرائيليين علناً، كلهم خائفون».

بعد يومين من البدء بعملية إخلاء الفلسطينيين لبيروت، أي في الثالث والعشرين من آب، انتخب بشير الجميل رئيساً لجمهورية لبنان بأكثرية سبعة وخمسين صوتاً؛ فأطلق الرصاص بغزارة في القرى المسيحية وعلا الإبتهاج وجوه الجميع وعمت الفوضى والهرج

والمرج، وحتى رجال الموساد شاركوا في هذا الإحتفال على الطريقة اللبنانية، أي بإطلاق النار، والغريب في الأمر أن عدداً من نواب المنطقة الغربية لبيروت، جاؤوا بحراسة كتائبية وكذلك عادوا، ولا غرو إن طلب أحدهم من حارسه الكتائبي شهر المسدس عليه، ليظهر أمام الرأي العام أنه مهدد.

بعيد الإنتخابات، وصل مندوب إسرائيلي إلى بكفيا لتقديم التهاني وجس النبض، وجاءه رد بشير واضحاً «شخصياً أنا معكم، أما سياسياً فأسير على خط والدي». وهذا ما لم يتوقعه شارون الذي كان يعتقد أن بشير سينتهج نهجاً مغايراً لأبيه. وبعد أسبوع، في الثلاثين من آب، قرر الإسرائيليون قبض الثمن من بشير: توقيع إتفاقية سلام. وفي الأول من أيلول سافر بشير إلى نهاريا ليقابل مناحيم بيغن ليس كقائد لميليشيا الموارنة بل كرئيس للجمهورية هذه المرة، لكنه انتظر ساعتين كاملتين، حتى اجتمع برئيس وزراء إسرائيل الذي كان يتسلم من صمويل لويس رسالة الرئيس الأميركي ريغان التي تتضمن خطته لحل المشكلة الفلسطينية، بإقامة كيان فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة، مرتبط بالنظام الأردني. وهذا ما أزعج بيغن وأثار غضبه، فهو كان يعتقد أن حرب لبنان وخروج المنظمة، ضمنت له السيطرة الكاملة على «يهودا والسامرة» وهكذا، وبدون أية مقدمات ولا تمهيد، بادر بيغن إلى سؤال بشير «أين أصبحنا من معاهدة السلام؟» «نحن معكم من أجل سلام حقيقي، وليس مصطنعاً»، قال بشير، ومضى «لا يمكنني تقرير ذلك بمفردي، ففي لبنان حكومة ومؤسسات دستورية، ويفترض موافقتها أولاً، وسنتابع السعي من أجل هذا كما سبق لي ورددت مراراً».

وقاطعه بيغن «تعتقد أنه عليك، بعد استلامك سدة الرئاسة، زيارة القدس، أو تل أبيب على الأقل، كتعبير عن إخلاصك لإسرائيل وعن رغبتك في إقامة علاقة طيبة معنا، أوليس من أجل هذا، خضنا حرباً وخسرنا مئات القتلى؟».

وتنبَّه بشير إلى خطورة ما يقوله بيغن فرد عليه كسياسي قديم نافياً ما ورد على لسان بيغن «تعلمون، أننا، مع الأميركيين، وضعنا سلم أولويات لأنفسنا، هدفنا الآني الآن، إخراج الفلسطينيين والسوريين من البقاع وشمالي لبنان، وبعدها يمكننا التصرف كدولة ذات سيادة».

تظاهر مناحيم بيغن بعدم سماع أية كلمة مما قاله بشير، فاقترح نهاية عام ١٩٨٢، حداً أقصى لتوقيع الإتفاقية، معطياً بشيراً مهلة أربعة أشهر، لإعادة تنظيم إدارته والوقوف

على رجليه، وفوجىء بشير بهكذا تاريخ، فطالب بمهلة سنة على الأقل، يضمن خلالها أن «التطبيع» سينعكس إيجاباً على العلاقة بشكل مثمر، «أعدكم إني سأكون ثاني رئيس يزور الكنيست». لكن بيغن لم ينتبه لهذا الوعد، فجعل يعاتبه على عدم تعاونه عسكرياً أثناء الحرب، كان بيغن يتصرف تصرف الإستاذ إزاء تلميذه، مما جعل بشير يشعر بالإهانة لشخصه ويجيب «أنا أعلم أن أولويات إسرائيل مختلفة جداً. إنكم تريدون السلام للجليل، وسأسعى جاهداً من أجل ذلك، وإذا كنتم غير مقتنعين «باليونيفيل» فسأرسل بضعة آلاف من القوات اللبنانية للعمل كحراس لحدودكم الشمالية، وسيبقون حتى يتم التوقيع رسمياً على إتفاقية السلام». «وماذا عن الرائد حداد»، قال بيغن، «ماذا قررتم بشأنه؟».

وضع بشير يده على قلبه وتنهّد ملياً «سعد حداد هو بمثابة أخ لي. لن أحاكمه، لا شك أنه بالتفاهم سنجد حلاً». واعترض بيغن «هذا يتطلب وقتاً، إننا لن نتخلى عن حلفائنا. سعد حداد، يجب أن يستلم منصباً قيادياً في إدارتكم. لنقل قائداً لمنطقة الجنوب، وإذا أثبت جدارته، فيمكن أن يكون رئيساً للأركان».

وأوضح بشير لمضيفه أن سعد حداد، سيحاكم وفقاً لقرار الحكومة اللبنانية، وأكد له أن هذه المحاكمة ستكون شكلية ليس أكثر. وهنا ثار مناحيم بيغن، وخاطبه بلهجة صارمة «سيدي الرئيس، لا أريد التدخل في شؤون حكومتكم الأولى. إننا نثق بكم، ولكن، لدينا تقارير تشير إلى وجود ضباط في الكتائب يتعاونون مع سوريا، وإني على استعداد لوضع هذه التقارير بين يديك لتعرف كيف تتعامل معهم، وإبعادهم من بعبدا، وهكذا تأمن شرهم».

عاد بشير إلى لبنان، ليضع همومه بين يدي والده «لقد عاملني كطفل يا أبي». في الحقيقة أنه فكّر بكل الإحتمالات، لكنه لم يجد بدأً من استمرار تعامله مع إسرائيل وإلا ستزيد من تمركزها في الجنوب.

كبار المسؤولين الإسرائيليين، عسكريين ومدنيين، منقسمون إلى قسمين، في النظر إلى التعامل مع بشير. الفئة الأولى ومن بينها درووري، لا ترى فائدة في الإتكال الكلي عليه، في حين ترى الفئة الثانية، ومن بينها شارون، إيتان وضباط الموساد، رأت أن دعم نظام الجميل هو أفضل حل لمشكلة الأمن على الحدود الشمالية.

بعض ضباط قيادة الجبهة الشمالية، اقترحوا سياسة عامة لإسرائيل إزاء لبنان؛ تتجلى في عدم الإرتياح لبشير الذي إن أعطي السيطرة الكاملة، فسيقضي على سعد حداد وسينتقم

من الشيعة الذين يمثلون الأغلبية لسكان الجنوب. لذلك، اقترحوا أن يتم تفاهم مع سوريا على تقسيم لبنان إلى مناطق نفوذ سورية إسرائيلية، وهذا ما لا يريده شارون مطلقاً. شارون كان يخطط لإخراج السوريين من لبنان.

يوم الخامس من آب، وبيروت الغربية ما تزال محاصرة بشدة، تسلم شارون مذكرة من الخبير بشؤون الشرق الأوسط تحلل سياسة إسرائيل العامة تجاه لبنان، وأهم ما جاء في هذه المذكرة:

١ ـ لا أمل بإقامة حكومة مركزية مستقرة وقادرة في لبنان.

٢ ـ يمكن إخراج الجيش السوري من لبنان، بعد عملية عسكرية، على أن يبقى جيش الدفاع الإسرائيلي مدة طويلة في لبنان.

٣ ـ تحديد مهمة الكتائب بالمناطق المسيحية فقط.

٤ ـ تشجيع قيام ميليشيا ثانية في لبنان: برئاسة وليد جنبلاط المنافس الدرزي لبشير الجميل.

٥ ـ تسليح الشيعة في الجنوب لمنع إعادة استيطان الفلسطينيين في المخيمات، وهكذا يتوزع الفلسطينيون تلقائياً على البلاد.

وانتهت المذكرة إلى اقتراح التفاهم مع السوريين في شمالي البقاع.

شارون رفض المذكرة، معللاً ذلك «لا يمكنني أن أتصوَّر كيف نقبل بوجود السوريين في البقاع وشمالي لبنان».

ومع أن بشير أعطى وعداً بالإهتمام بسعد حداد، فقد أرسل فرقة كتائبية بقيادة جو إده ـ مفتعل حوادث زحلة ـ إلى الجنوب، في محاولة لمد سلطته الحزبية إلى هناك، مما أثار سخط الأهالي وسعد حداد شخصياً. ثار الأهالي ضد أسلوب القوات اللبنانية بالتعامل مع المواطنين عامة ومع الفلسطينيين خاصة. أول عمل قام به جو إده، كان طرده الفلسطينيين من مخيم المية ومية بمساعدة بعض مسيحيي القرى المجاورة، مما اضطر قيادة المنطقة الإسرائيلية إلى استدعاء مخاتير تلك القرى وتحميلهم مسؤولية أي عمل من هذا النوع مستقبلاً.

وجود جو إده في الجنوب أوجد صراعاً قوياً بين الكتائب من جهة وبين جماعة سعد حداد من جهة ثانية، وصل بعض الأحيان إلى حدود الصدام الدموي، مما دفع قيادة المنطقة الشمالية للتدخل لصالح سعد حداد واستصدار أمر من آريبل شارون إلى ما وراء نهر

الأولي، حيث سمح لحداد بالتمركز على الجسر.

سعد حداد بدوره طالب بتسهيلات تساعده بالإستقلال الإقتصادي عن بيروت، فسمح له باستغلال مرفأي صيدا وصور، ولولا قضية جباية الضرائب والخوف من العزلة السياسية، إضافة إلى العزلة السياسية، لكان ربط شبكة كهرباء الجنوب بالشبكة الإسرائيلية.

بعد احتلال الجنوب، ظهرت تغييرات عدة في سياسة إسرائيل إزاء الجنوب؛ فقامت فئة تنادي بدعم الشيعة المترددين عن التعاون مع سعد حداد الكاثوليكي، لأن من شأن هذا التعاون القضاء على حركتهم «أمل» التي أسسها الإمام موسى الصدر في مطلع السبعينات كحركة تنادي بحقوق المحرومين، وجاءت أحداث لبنان لتحول هذه الحركة إلى ميليشيا مسلحة بدعم من الفلسطينيين وسوريا في آن، ورغم هذا، تخلت عن الفلسطينيين أثناء الإجتياح، لاعتقادهم أن لياسر عرفات ضلعاً في اختطاف موسى الصدر واغتياله في ليبيا.

ومن أجل ضمان موقف حركة أمل، كموقف معادٍ للفلسطينيين، اقترح عدد من الضباط الإسرائيليين إشراك عدد من قياديي أمل في مسؤولية الدفاع عن جنوبي لبنان، لكن رجال الإستخبارات حذروا من ذلك، معتبرين أن الشيعة في الجنوب لا يمكن النظر إليهم كحلفاء، ولهم علاقات حميمة مع شيعة البقاع الخاضعين للسيطرة السورية، والأهم من هذا كله، أن بينهم فئة لا بأس بها تؤمن بأفكار الخميني، وهكذا استبعدت فكرة الإعتماد على الشيعة.

المشكلة الأهم التي واجهت إسرائيل في جنوبي لبنان، كانت مشكلة الفلسطينيين. من المعلوم أن إسرائيل خاضت حرباً من أجل القضاء على مقاومتهم المسلحة، ولكن المقاومة المسلحة لم تجد دعماً مادياً واقتصادياً وسياسياً إلا في المخيمات التي هجرها البعض وبقي فيها البعض الآخر، وهو الأكبر عدداً. مناحيم بيغن اقترح عدم السماح لهم بترميم منازلهم المتضررة أو المهدمة. الميجر جنرال داود ميمون، قائد جيش الدفاع الإسرائيلي في جنوبي لبنان، أمر جنوده بإحصاء البيوت المتضررة في المخيمات. وأخيراً توصل الإسرائيليون إلى سياسة وسطية بالنسبة لهذه المشكلة. وترميم للمنازل المتضررة، وطرد اللاجئين إلى ما وراء نهر الأولي، وانطلاقاً من هذه السياسة، أقدمت على نصب خيام إلى ما يقارب الثلاثين لاجئاً الذين فقدوا منازلهم، ريثما تؤمن لهم السكن ثانية. ومن أجل وضع

حد لهذه المشكلة، اقترح ميمون تقسيم الفلسطينيين إلى مجموعات تضم كل واحدة ما يقارب الأربعماية عائلة، وقدر التكاليف لهذه العملية بأربعماية مليون دولار، لكن وزير الإسكان اللبناني سليم الجاهل رفض حتى الفكرة.

من حيث المبدأ، كان هناك اتفاق بين الحكومتين اللبنانية والإسرائيلية، أنه لا بد من إعادة توزيع الفلسطينيين في جنوبي لبنان، ولكن من الناحية العملية، فالاختلاف واضح، والحكومة اللبنانية تعارض أي مشروع. بشير ومساعدوه، كانوا مصممين على إبعاد كل الفلسطينيين نساء ورجالاً، شيوخاً وأطفالاً، عن لبنان نهائياً؛ من هنا انتفت الحاجة إلى درس أي مشروع بهذا الشأن، والحكومة الأميركية رفضت الإمداد مالياً، إلا بناء لموافقة الحكومة اللبنانية. المتعاون الوحيد كان الأمين العام للأمم المتحدة الذي جعل مكتب إغاثة اللاجئين الفلسطينيين في القدس مسؤولاً عن رعاية شؤونهم في جنوبي لبنان.

ومنعاً لأي اعتداء على المخيمات، أقدمت إسرائيل على إنشاء ميليشيات مسلحة في كل مخيم وزودتها بالسلاح اللازم للدفاع عن نفسها ضد محاولات القوات اللبنانية للإنتقام من سكانها، هكذا، وبكل بساطة، تبدلت سياسة إسرائيل، من سياسة طرد الفلسطينيين من الجنوب إلى سياسة تسليحهم للدفاع عن أنفسهم.

أصعب من مشاكل الجنوب، كانت مشكلة الشوف، أو بالحري العلاقة مع الدروز الذين لم يخطروا على بال شارون ومساعديه وهم يخططون لبناء لبنان الجديد، كانوا واثقين جداً من الموازنة، وها هم اليوم أمام الدروز وجهاً لوجه. في البدء أخطأت الإستخبارات الإسرائيلية في تقديرها للمحارب الدرزي، لكنها اليوم وجدت فيه مقاتلاً أفضل من مقاتلي حزب الكتائب. لم يكن الإسرائيليون يعلمون الكثير عن ميليشيا وليد جنبلاط البالغ عدد أفرادها أربعة آلاف عنصر.

قبل الإجتياح لم يكن للكتائب وجود في منطقتي الشوف وعاليه، كان هناك فقط ميليشيا جنبلاط. ومواقع قليلة جداً للفلسطينيين. حتى السوريين، تواجدوا هناك بشكل رمزي ليس أكثر، وهذا ما أعطى المقاتل الدرزي استقلالية القرار وحرية التصرف.

التغلغل الكتائبي في المناطق الدرزية، تم **بمباركة من شارون** وبناء لرغبة بشير بكسر طوق الهيمنة الجنبلاطية على تلك المنطقة. وهكذا دخلت القوات اللبنانية الشوف وعاليه بمؤازرة جيش الدفاع الإسرائيلي. «إننا لا نريد السيطرة على الشوف، بل العودة إلى بيوتنا التي أجبرنا على تركها». هذا ما قاله بشير لشارون. في البدء، كانت مهمة الكتائبيين

البحث عن مخازن الأسلحة ومصادرتها، ولكن سرعان ما تحولوا إلى راغبين في السيطرة على الشوف، وبذات الأسلوب الذي لجأوا إليه في الجنوب؛ فأهانوا الدروز على حواجزهم وخطفوا المارة، وبعض هؤلاء المخطوفين أعدم. وحين احتج الدروز على مثل هذه التصرفات، أقدم قائد جيش الدفاع الإسرائيلي في بحمدون على استدعاء قائد القوات اللبنانية هناك وهدده بالطرد من المنطقة بقوة السلاح، إذا عادوا وتصرفوا كما في السابق؛ لكن المشكلة تفاقمت. فشارون تورط في إعطاء وعد لبشير بالمساعدة على توحيد لبنان تحت حكمه، وهذا يعني السماح للكتائب بالسطرة على الشوف، وبالطريقة التي يرتأونها.

حين أقدم جيش الدفاع الإسرائيلي على مصادرة مخزن أسلحة الدروز في مزرعة الشوف، سكت وليد جنبلاط على مضض. وحين جاءه الموفد الإسرائيلي إلى داره، رأى ألا يجتمع به، وأرسل قائد قواته أنور الفطايري الذي بادر الضابط الإسرائيلي بالقول «إنكم تؤلبون الأغلبية ضدكم، وهذا لن يسهل عملية السلام. دخلتم لبنان لحل مشكلة الفلسطينيين ونجحتم، نجحتم أكثر من السوريين. ولكنكم اليوم تتصرفون ضد مصالحكم». المقصود في كلام الفطايري أن إسرائيل أخطأت في اعتمادها على الموارنة فقط، وهذا درس كان على الإسرائيليين أن يتعلموه بأنفسهم.

بعد شهر، وبرغم الدعم الإسرائيلي، تبيَّن أنه ليس بمقدور بشير السيطرة على منافسه. فالوضع على الأرض تغيَّر كلية، وصمم الدروز على طرد الكتائب من الشوف وحصر جيوب المقاومة المارونية. ومن أجل هذا، ارتكبوا مجازر بحق المسيحيين في بعض القرى، وهاجموا المواقع الكتائبية على مرأى من الجنود الإسرائيليين. في إحدى القرى كان شبان دروز يلعبون برأس إنسان بالكرة، فتقدم منهم طبيب الجيش الإسرائيلي طالباً منهم إعطاءه الرأس لدفنه لكنهم رفضوا.

وارتفعت أصوات الزعامات الدرزية متهمة شارون بأنه وراء مجيء الكتائب إلى الشوف، وربما لهذا السبب، رفض السماح لفادي فرام بإرسال ألف مقاتل إلى الشوف لإعادة التوازن العسكري هناك. ومن أجل تحقيق أهدافهم، شرع الدروز، يرسلون الموفدين لعرفات وسوريا، وفي الوقت ذاته كان جنبلاط يعقد اجتماعات سرية مع عدد من كبار الضباط الإسرائيليين. لم يكن الحديث في هذه اللقاءات عن الهدنة، بل عن كيفية التفاهم السياسي وأولى اهتمامات جنبلاط كانت السماح بجلب المدفعية الإشتراكية من المناطق الخاضعة للسيطرة السورية إلى جبال الشوف.

تتمة لهذه اللقاءات السرية، أرسل جنبلاط موفدين إلى إسرائيل، وبمساعدة من وسطاء الدروز المحليين، تمكن هؤلاء الموفدون من الوصول إلى نوع من التفاهم مع الإسرائيليين على مدى المساعدة التي ستقدمها إسرائيل للدروز في «**حكمهم الذاتي لمناطقهم**» مقابل تعهدهم بعدم السماح للفلسطينيين بدخول الشوف، وكتأكيد على صداقتهم لإسرائيل، تعهدوا بعدم السماح للفلسطينيين بالعمل ضدها، ليس في الشوف وحسب، بل وفي كل المناطق الخاضعة لنفوذهم اعتباراً من الجنوب وانتهاء ببيروت. وهكذا وجدت نفسها بين عدوين، ففضلت البقاء على الحياد.

المؤسف هنا، هو أنه بدلاً من أن تقيم إسرائيل «نظاماً جديداً» في لبنان، صارت تسعى لإيجاد توازن بين الأعداء. التطلع إلى حكومة مركزية قوية، تؤمن المصالحة الوطنية بين الفئات اللبنانية. برعاية الأغلبية المارونية، هذا التطلع الذي ورط جيش إسرائيل بحرب في لبنان، سرعان ما انقلب خيبة أمل وغصة، فادي فرام قام بإحصاء لعدد الطوائف في لبنان، ولكن هذا الإحصاء لم ينشر لأنه بيَّن أن ٣٥٪ فقط من اللبنانيين ينتمون إلى الطائفة المسيحية وفي هذه الحال لا يمكنهم الإدعاء أن لهم حق السيطرة.

بعض مساعدي بشير اقترحوا إعادة تنظيم ما تبقى من الجيش اللبناني على أساس أنه جيش مسيحي، وإعلان الأحكام العرفية، حل البرلمان، تعليق الدستور، والإستيلاء على بقية الأجزاء اللبنانية بقوة السلاح، لكن الرئيس المنتخب رفض الفكرة المجنونة. إنه يريد بناء حكمه على دمج القوات اللبنانية بالجيش اللبناني ليكونا معاً القوة الشرعية التي تعلن الولاء له وحده، وبعد ذلك يدعو الجميع للمصالحة الوطنية ويؤلف حكومته الوطنية، ولكن كان عليه إنجاز كل هذه الأفكار بوجود الجيش الإسرائيلي، إنما بعد عودته من نهاريا تبخرت الأحلام.

بعد عودته من نهاريا، صمم بشير على عدم الإلتقاء ثانية بأي مسؤول إسرائيلي وطلب من مساعديه ذلك أيضاً. ولكنه، بعد حفلة وداع رئيس الموساد، وافق على لقاء شارون. هذا اللقاء تركز الحديث فيه حول موضوعين أساسيين: تنظيف بيروت الغربية والمفاوضات الرسمية. شارون كان يريد التأكد من أن الجيش اللبناني سيدخل المخيمات لإلقاء القبض على المخربين الذين ما يزالون في بيروت، وبشير كان يريد تدمير مخيمات اللاجئين في جنوبي بيروت لإنشاء حديقة حيوانات ضخمة ووعد على أنه إعتباراً من ١٥ أيلول «لن يكون هناك إرهابي واحد في بيروت»، لكنه لم يعط وعداً بإشراك الكتائبيين بهذه المهمة.

الساعة الخامسة من بعد ظهر الرابع عشر من أيلول، كان يفترض أن يلتقي بشير بعدد من رجال الإستخبارات الإسرائيليين. لكنه قبل الذهاب إلى الموعد، عرج على بيت الكتائب في الأشرفية لإلقاء كلمة في محازبيه من الفتيات، لقد اعتاد بشير على هذا الموعد. أعداؤه كانوا يعرفون ذلك وهكذا، تمكن حبيب طانيوس الشرتوني ابن الستة والعشرين سنة من دخول منزل شقيقته في البناء ذاته وزرع المتفجرات التي ستقضي على بشير الجميل. لم يشك أحد من الحراس بطانيوس الشرتوني، فالكل يعرف مدى ولاء هذه العائلة لحزب الكتائب، لم يفكر أحد أن هذا الشرتوني الشاب هو عضو في الحزب القومي السوري الإجتماعي.

بعد ظهر الثلاثاء، أرسل طانيوس الشرتوني شقيقته خارج المنزل ووضع المتفجرة وصعد إلى السطح منتظراً قدوم موكب بشير.

« دعوني أخبركم الحكاية » قال بشير « حين أزيح الستار عن تمثال الرئيس السابق بشارة الخوري اعترض ابنه، لعدم التشابه في الوجه بين التمثال والوجه الحقيقي لوالده، ومع الأيام تحول التمثال إلى مكان تلتقط عنده الصور التذكارية. الشيء ذاته سيحدث اليوم. المعارضة ستتعود على وجه الرئيس الجديد، حتى ولو كانت لا تريده ».

الساعة ٤,١٠. فجر الشرتوني البناء بواسطة جهاز لاسلكي، وهوى البناء، وتطاير الغبار. تجمع الناس بسرعة وسرت الشائعات. بعد دقائق وصل عدد من رجال الموساد، فقيل لهم « لقد تم انقاذ الباش ». وأصر رجل على أنه رأى بشيراً يخرج من تحت الركام ويغادر المكان. رجل آخر قال لقد نقل في سيارة إسعاف رقمها ٩٠. وما هي إلا لحظات حتى قيل أن بشير يعالج من جروحه في أحد مستشفيات المدينة. كل الموجودين أجمعوا على أن بشير حي، حتى الرئيس سركيس اتصل بشركة التلفزيون وطلب فريق مصورين لتصوير الإحتفال الذي سيقيمه الليلة لبشير بمناسبة نجاته بإعجوبة. صولانج الجميل تلقت إتصالاً من رئيس الإستخبارات في الجيش اللبناني الكولونيل جوني عبده أخبرها فيه أن الرئيس نقل بطوافة للمعالجة بإحدى مستشفيات حيفا ».

عند الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة ليلاً، تم التعرف على جثة بشير مسجاة في مستشفى أوتيل ديو وإلى جانبه صديقه الحميم جان نادر. وتم نقل جثمانه أولاً، ولكن أحداً لم يثبت هويته.

في بكفيا سار محازبوه خلفه يصرخون بشير حي... بشير حي. وكأنهم يرفضون الواقع

بإرادتهم. إنه بالنسبة لهم إسطورة. « وإنه لأسباب يعرفها أكثر من غيره اختار قائدهم الإختفاء لبعض الوقت. ولكن اليوم الذي سيعود فيه لهو قريب، سيعود ليعيش بينهم ويقودهم إلى النصر الأكبر » هذا ما اقتنع به أفراد القوات اللبنانية.

وتبقى الحقيقة غائبة.

الفصل الثالث عشر

المجزرة

يوم الخميس الأسود، الثاني عشر من آب، أثناء مناقشة مسألة إخلاء بيروت، في مكتب وزير الدفاع، انبرى رئيس جهاز الإستخبارات العسكرية ساغي ليحذر المجتمعين من نية عرفات إبقاء ما يقارب ألفي إرهابي في بيروت للقيام بأعمال إرهابية. وحذر أيضاً من دخول الكتائب غربي بيروت طلباً للثأر. «وسيأتي يوم تبدأ فيه المجزرة» على مرأى من مراسلي صحف العالم وأمام عدسات كاميرات المصورين؛ وحتى لا تكون إسرائيل مسؤولة، إن مباشرة أو غير مباشرة، علينا أن نترك بيروت: الحرب كانت في أسبوعها العاشر، وساغي وجد نفسه وحيداً في تصوراته: ليس هذا وحسب، بل وحتى غريباً عما يخطط لبيروت، «أنا في وضع حرج» قال ساغي لشارون «لا أعرف شيئاً مما يحاك ويدبَّر، أناشدك كصديق، **يجب** أن أكون مطلعاً عما سيفعله الجيش؛ من غير المعقول أن أكون جاهلاً لأشياء **حساسة**... أرجوك لا تفعل شيئاً قبل إبلاغي... أرجوك».

لم يشأ ساغي القول إن شارون يريد إدارة ظهره لاتفاقه مع حبيب، فاستعمل تعبير «أشياء حساسة». فإخلاء بيروت من المقاتلين الفلسطينيين ليس هو الهدف الأساسي «لحرب شارون». توضيحاً للأمور، لنعد قليلاً إلى الوراء، إلى التاسع من تموز، حين اقترح شارون على حبيب إدخال الكتائب إلى غربي بيروت، واعترض الوفد الأميركي، معتبراً أن هذه مهمة الجيش اللبناني. وفي لقائه مع بشير، بعد ذلك، اقترح شارون على بشير «تغيير قمصان الذين سيدخلون بيروت الغربية»؛ من سينفذ المجزرة، هذا ليس مهماً، المهم عند ساغي، أن المجزرة ستقع.

البند الرابع من «إتفاقية حبيب» ينص على ضمان حياة وسلامة المواطنين الفلسطينيين العزل، وهذا ما ضمنته أميركا وإسرائيل معاً، وتعهدت الحكومة اللبنانية السعي لدى الفرقاء اللبنانيين التقيد بهذا البند. وبناء لإتفاقية حبيب أيضاً يحل الجيش اللبناني محل

القوات الأجنبية بعد ثلاثين يوماً ـ أي بعد أن يكون الجيش قد أصبح تحت سلطة بشير ـ . شارون، رأى أن على هذا الجيش، نزع سلاح «المرابطون» السنّة وأمل الشيعية، وميليشيات صغيرة أخرى، يقدر عدد أفرادها بألف رجل، إنما الأولوية كانت ـ بالنسبة لشارون ـ إجتثاث آخر فلسطيني ما يزال في بيروت ومحو أي أثر لمنظمة التحرير الفلسطينية.

يوم الثالث والعشرين من آب، حاصر جيش الدفاع الإسرائيلي مخيم برج البراجنة، جنوبي بيروت، وبناء لأمر من بشير، دخلت فرقة من الجيش اللبناني المخيم بحثاً عن مخابىء الأسلحة، واعتقال المشتبه بهم، الذين بلغ عددهم ٢٣٠ شخصاً؛ بعض المقاتلين الفلسطينيين هربوا إلى صبرا وشاتيلا والفاكهاني؛ وشرع الجيش اللبناني يهدم الأبنية المخالفة للقانون.

في هذه الأثناء كان الضباط الكتائبيون ينتظرون على مضض؛ إنهم يريدون دخول المخيمات. جسي سكّر، ضابط الإرتباط الكتائبي مع جيش الدفاع الإسرائيلي دعا صديقاً له لمشاهدة دخول الكتائب بيروت الغربية «لقد حان الوقت لتتعلم كيف تستعمل السكين... إنما إنتبه، ممنوع اغتصاب الفتيات دون الثانية عشرة من العمر». واعترض الصديق(١) على هذا القول، فأجاب جسي «لسنا في سويسرا ولا في الدانمارك».

في الإجتماع الأخير الذي تم بين بشير وشارون، تم الإتفاق على إدخال الكتائب والجيش اللبناني معاً إلى بيروت الغربية. ولكن إنفجار الأشرفية الذي أودى بحياة بشير، عقّد الأمور، من يصدر الأوامر للجيش؟ الضابط المسؤول عن حملة برج البراجنة، الميجر جنرال أمير دروري، حاول الإتصال بقائد منطقة بيروت في الجيش اللبناني لإقناعه بإتمام المهمة، لكن القائد اللبناني، رفض، ليس المهمة فقط، بل وحتى الإتصال بدروري.

عند الساعة التاسعة ليلاً، كان مصير بشير ما يزال مجهولاً. استدعى شارون رئيس الأركان إلى مكتبه وطلب إليه تولي المهمة في بيروت، وأن يتولى جيش الدفاع الإسرائيلي السيطرة على المفترقات وكل النقاط الإستراتيجية في بيروت الغربية. رئيس مكتب رئاسة الأركان، قال في شهادته أمام لجنة كاهان إن شارون قرر أن يدخل الكتائب المخيمات بشكل أو بآخر، المهم أن الأمر بتنفيذ عملية **المخ الحديدي** صدر تلك الليلة. دون إشارة إلى مشاركة الكتائب. وتبيَّن فيما بعد، أن الأمر لم يشر، لا من قريب ولا من بعيد، إلى

(١) هذا الصديق هو أحد مؤلفي هذا الكتاب.

النشاط الكتائبي في هذه العملية. وفي الليلة ذاتها، اتصل بيغن برئيس الأركان وطلب إليه تحذير الكتائب من التعرّض للمسلمين. وعند الساعة العاشرة والنصف، بلغ شارون خبر وفاة بشير فاتصل برئيس الوزراء، الذي وافق على إدخال الجيش الإسرائيلي إلى بيروت منعاً للفوضى والبلبلة. هنا تجدر الإشارة إلى أن أحداً لم يطلع بيغن على قرار إدخال الكتائب إلى المخيمات. أما مجلس الوزراء، فقد علم بالأمر بعد ستة وثلاثين ساعة من بدء العملية.

بعد صدور الأمر، توجه إيتان ودروري إلى مركز قيادة الكتائب في الكرنتينا. القادة الكتائبيون كانوا ما يزالون يعانون من هول الصدمة، فوافقوا على الفور، وأخذوا على عاتقهم مهمة دخول المخيمات. طلبوا مساندة المدفعية الإسرائيلية لكن إيتان رفض. فادي فرام قائد القوات اللبنانية، طلب مهلة أربع وعشرين ساعة ليتمكن من تهيئة الرجال. دروري أراد التأكد من موقف الجيش اللبناني.

هكذا، وعند الساعة الخامسة صباحاً ـ ١٢ أيلول ـ بدأت فرقة عاموس يارون تتحرك نحو المخيمات على خطين متوازيين. ومن الشمال، تقدمت فرقة إسحاق موردخاي، إنطلاقاً من المرفأ مروراً برأس بيروت. الفرقتان كانتا تتقدمان ببطء حتى يتم الإتصال فيما بينهما، وهكذا يحكم الطوق على بيروت. يارون اتخذ من بناية ذي ست طبقات مهجورة وتطل على مخيم شاتيلا مقراً لقيادته؛ ومنها راقب إيتان سير المعركة.

شارون وساغي وصلا عند الساعة التاسعة والنصف صباحاً. شارون كان قد رفض اقتراح رئيس جهاز استخبارات الجيش بقطع الإتصالات الإسرائيلية ـ الكتائبية وأصدر أمره بإشراك الكتائب في دخول المخيمات. إيتان قال فيما بعد، إن هذا الأمر نوقش على سطح البناية. ونفى ساغي أي علم له بهكذا مناقشة. وغادر شارون المكان بصحبة ساغي وممثل الموساد، متوجهاً إلى مركز قيادة الكتائب في الكرنتينا، ليلتقي فادي فرام، إيلي حبيقة وزاهي البستاني. في الإجتماع دار الحديث حول أمور سياسية وعسكرية، وحث شارون القادة الكتائبيين على استغلال الفرصة محذراً من إمكانية تشرذم قواتهم، وحثهم أيضاً على تعبئة الفراغ السياسي لبشير وبسرعة، وإلا فإن المسلمين سيستغلون الوضع لصالحهم ويعينون رئيساً مسلماً للجمهورية. واقترح عليهم إحكام السيطرة على الجيش اللبناني **«بمساعدتنا أو بدونها»**. ومضى يثير حماسهم محذراً من أن الأميركيين سيدعمون كميل شمعون في انتخابات الرئاسة، وهكذا تنقلب اللعبة. وعن مشاركتهم في تنظيف بيروت الغربية، أكّد لهم أن جيش الدفاع الإسرائيلي أحكم الطوق على المدينة بشدة.

أحد القادة الكتائبيين قال: « سنحاول أن يكون عملنا شرعياً وإذا فشلنا فسنبقى ككتائبيين، نفيدكم بالعملية». ورد شارون « عليكم السعي لكسب دعم الجيش اللبناني لكم، وإلا فسندعمكم»؛ لا أريد منكم الإبقاء على أي من مقاتلي منظمة التحرير الذين ما يزالون في بيروت. قال شارون هذا وتوجه إلى بكفيا.

بعد شهر علم إيتان ان لدى رئيس جهاز الاستخبارات دفتراً صغيراً دونت عليه محادثات شارون مع القادة الكتائبيين في الكرنتينا، فطلب نسخة منه علّه يجد فيه ما يدين أريل شارون، لكنه فوجىء، حين رأى الدفتر يحتوي على كيفية تعزية شارون للشيخ بيار الجميل.

مهما يكن، وكائناً من كان المسؤول، فالحقيقة ان لجنة كاهان لم تنشر الوثائق التي تجمعت لديها، وكل ما يمكن الاعتماد عليه في هذا السياق هو ما نشر في المجلة الفرنسية نوفيل أوبزرفاتير Nouvell Observateur. وبغض النظر عما قيل في بكفيا وما لم يقل، فإن وزير الدفاع كان ينتقل من مركز كتائبي إلى آخر. وفي مكتب رئيس الوزراء تمت مناقشة الانضباط الكتائبي مع موريس درايبر الذي جاء يستوضح بيغن وشامير معاً عن أسباب تحركات الجيش الاسرائيلي الصباحية في بيروت. فأكد بيغن للموفد الخاص « ان هذه التحركات هي لمنع العنف» السؤال الآن هو كيف سيتصرف الشعب؟...
« الكتائبيون ما يزالون منضبطين قائدهم الجديد فادي فرام ما يزال ممسكاً بزمام الأمور، إنه رجل طيب ونحن نثق به ولن يسبب أية مشاكل للآخرين الذين تعرفهم». وهكذا غادر درايبر مكتب رئيس الوزراء وهو مطمئن إلى أن تحرك جيش الدفاع الاسرائيلي هو محاولة لضبط الأوضاع في المدينة. ولكنه صرح فيما بعد « لو كنت أعلم أن الكتائب معهم، لكنت فعلت ما لم يفعل» وانطلاقاً من اطمئنانه، اتصل درايبر بالمسؤولين اللبنانيين وأخبرهم ان الولايات المتحدة الأميركية ستطلب من اسرائيل الأنسحاب بأسرع ما يمكن من بيروت، ولهذا لا ضرورة لتدخل الجيش اللبناني. وصدق المسؤولون اللبنانيون، وكانت الكارثة.

لنعد إلى بيروت. إلى المخيمات المطوقة. قوات يارون جوبهت بنيران الأسلحة الخفيفة والرشاشة وبعض قذائف البازوكا. ولكن الوحدة تابعت طريقها، واشتدت المقاومة، فخسر يارون واحداً من ضباطه إضافة إلى عشرين جريح. مركز القيادة على سطح البناية تعرض لإطلاق النار من المخيمات مما اضطر الضباط إلى الاختباء خلف الحائط؛ ولكن رئيس الأركان لم يتحرك من مكانه لأنه يريد متابعة مراقبة المعركة.

السؤال الذي لم تناقشه لجنة كاهان، هو أنه كيف تطلق النار من المخيمات في ذلك اليوم، دون الرد على هذه النار؟ بعض الجنود قالوا: « إن حوالي مايتي مسلح فلسطيني شاركوا في إطلاق النار». من حديث مع سكان مخيم شاتيلا، يستنتج ان جدالاً حاداً دار بين المسنين والفلسطينيين الشباب الراغبين في القتال. الكبار رأوا ان لا فائدة من المقاومة، إذن من الأفضل، عدم تعريض حياة الأبرياء للخطر، إلا أن الشباب، رفضوا ذلك واستمروا في إطلاق النار ابتهاجاً بوفاة بشير، وهم بفعلهم هذا شجعوا شارون على تنفيذ خطته.

عند الساعة الثامنة من مساء الأربعاء، اجتمع دروري بقادة الكتائب وحدد لهم موعداً لدخولهم مخيمي صبرا وشاتيلا، وأكد عليهم ضرورة التصرف كجيش نظامي، هذا التأكيد كان واحداً من سلسلة تأكيدات وجهت إليهم وهم داخل المخيمات، للتصرف بانضباطية. كبار ضباط جيش الدفاع الاسرائيلي، كانوا حذرين جداً وقلقين جداً من دخول الكتائب إلى المخيمات. دخل دروري المنطقة الغربية ومنها اتصل بقيادة منطقة بيروت العسكرية التابعة للجيش اللبناني طالباً إليها تحمل مسؤولياتها ودخول المخيمات. لكن طلبه رفض، وأفيد أن رئيس الوزراء اللبناني أصدر أوامر صريحة بعدم القيام بهذه المهمة، وان جل ما لديهم من أوامر، هو اطلاق النار على الاسرائيليين إذا لزم الأمر. ولكن هذه المحاولة لم تكن الأخيرة.

صباح الخميس السادس عشر من أيلول، بدا وان العملية انتهت. أريل شارون أصدر أوامره بوقف التقدم في بيروت الغربية. ولكنه عاد وألغى الأمر، متحدياً بذلك الضغوط الأميركية عليه. ومقتحماً النصف المسلم للمدينة ـ شمالي خط المزرعة ـ.
الساعة العاشرة، وصل إيتان إلى مكتب شارون وأبلغه ان الهدوء يلف المدينة: المخيمات محاصرة وبالامكان إدخال الكتائب والجيش اللبناني إلى المخيمات.
« سأرسل الكتائب» قال شارون. إيتان علق فيما بعد قائلاً: « منذ البدء توقعت منهم الانتقام وان أنهاراً من دماء ستجري» شارون أمسك بسماعة الهاتف واتصل ببيغن ليقول له: « انتهى كل شيء»، ومن الصعب جداً إدراك ماذا كان يعني بهذه العبارة. في هذه الأثناء، كانت بيروت تشهد تطورات مهمة: الضباط الاسرائيليون يحاولون تحاشي صداماً دموياً مع اليساريين اللبنانيين. مندوب كتائبي دخل مكتب يارون، للتباحث معه حول استراتيجية العملية المرتقبة. وفي القسم الشمالي من بيروت، شرعت فرقة خاصة من جيش الدفاع

الاسرائيلي بتجميع الرجال أمام فندق هوليداي إن وتحقق معهم حول مخازن الأسلحة وأماكن تواجد رجال المنظمة ـ خلال العشرة أيام القادمة تمت مصادرة كميات ضخمة من الأسلحة: ١٢ مدفع ـ ٨ مدافع هاون ثقيلة ـ قاذفة صواريخ كاتيوشا ـ ٥٢٠ طناً من الذخائر. وهكذا تحولت مهمة الدفاع عن بيروت إلى مهمة تنظيف بيروت.

الساعة الرابعة بعد الظهر، اجتمع أيلي حبيقة بعاموس يارون لوضع الخطوط النهائية للخطة. حبيقة قال، ان رجاله ما يزالون غير جاهزين. يارون حثه على الإسراع وطلب إليه تنفيذ المهمة بالمئة وخمسين مقاتل الذين هم بحوزته الآن. ونقل إليه تحذير درووري من التعرض للمدنيين وكإجراء وقائي وضع نقطتي مراقبة على أسطح البنايات ليتمكن من مراقبة تصرف الكتائب.

الساعة الخامسة بعد الظهر: موريس درايبر، سام لويس والملحق العسكري في السفارة الأميركية بتل أبيب دخلوا مكتب شارون، ليجتمعوا به بحضور إيتان، ساغي وضابطين كبيرين من مساعدي الوزير. وفيما المناقشات دائرة في مكتب وزير الدفاع، كان حبيقة ورجاله المتخصصون بمقاتلة الفلسطينيين، ينتظرون قرب مخيم شاتيلا إشارة الانطلاق.

استهل درايبر المناقشات بالقول: لقد فوجئت بتحرك جيش الدفاع الاسرائيلي. اللبنانيون يطلبون منكم الانسحاب، بعد ذلك سيدخل الجيش اللبناني المنطقة.

شارون: من سيدخل؟

درايبر: الجيش اللبناني ورجال الأمن.

وهنا تدخل ساغي ليتكلم بحرارة: والكتائب.

«لا ليس الكتائب» قال درايبر بحدة.

«ومن بإمكانه ردعهم؟» تساءل ساغي متحدياً.

«هل أنت **متأكد** من أن الكتائب سيدخلون بيروت الغربية؟» صاح درايبر وبلهجة أظهرت قلقه مما سمعه من ساغي، وكأنه يستحثه لقول المزيد، لكن ساغي اكتفى بالقول: «اسأل قادتهم». هنا عاد درايبر إلى مناقشة الموضوع الأساسي «النقطة المهمة، هي أن ما من أحد إلا ويصدق ما نقول؛ خاصة حين نقول: إنكم لن تدخلوا بيروت الغربية. فقد وعدتم بذلك. انه أمر مهم بالنسبة لنا».

«تبدلت الأحوال» قال شارون.

«كان الشعب يثق بكم» قال درايبر.

وهنا ارتفع صوت شارون «لقد فعلنا ذلك لأن ما بين ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ إرهابي ما يزالون هناك؛ إننا نعرف أسماءهم».

تنهد درايبر وهو يقول: «أريد معرفة هذه الأسماء. أنت قلت إنك تمتلك لائحة «ضخمة»... ولكن الذي تقدم عليه خطيئة لا تغتفر... فاللبنانيون سيهتمون بأمر أولئك الذين ما يزالون في بيروت».

«أنت تعرف اللبنانيين» قال شارون، ولهذا قررنا حل المشكلة بأنفسنا».

«أنت بنفسك قلت إن اللائحة أرسلت إلى الجيش اللبناني وان اثنين منهم اعتقلا» قال درايبر.

«أيمكنني أن أقول كلمة؟» قال إيتان ومضى قائلاً: «دعوني أشرح لبنان مقبل على عمليات انتقامية؛ لا أحد يقدر على وقفها. بالأمس تحدثنا إلى الكتائبيين، وتبين لنا أنهم يفتقرون إلى القيادة القوية، انهم مشحونون بفكرة الثأر. وعليك أن تعلم أن العرب متعودون على ذلك. إذا أمين طلب منهم ذلك، فهذا يعني أنه يكسب عملهم غطاء شرعياً، بعض قادتهم زارني، ورأيت في عيونهم مجزرة رهيبة. بعض الحوادث حصلت اليوم، ولكن من حسن الحظ أننا كنا هناك، بدلاً من الجيش اللبناني لمنع الأمور من التفاقم».

اسمع تفرح، جرب تندم. من يسمع كلام إيتان يتجرأ ويتقدم منه مقلداً صدره وشاح المحبة والشفقة، ولكن كيف يكون ذلك، والكل يعلم ان جيش الدفاع الاسرائيلي لم يحل دون المجزرة بل ساهم فيها. لقد أنكر إيتان فيما بعد أن الكتائب كانوا ينتظرون أمام مداخل مخيم شاتيلا، حين كان يتكلم، وأنكر أيضاً أنه شجعهم على ما فعلوه.

وعاد درايبر ليسأل: «وإلى متى ستبقون هناك؟».

بعد درايبر تساءل السفير: «لقد سيطرتم على بيروت الغربية؟».

«نعم، بالضبط» قال شارون بلهجة الإنسان المولع بالقتال «إنما بعد الذي حدث».

«ولكن هذا مخالف لما اتفقنا عليه» قال درايبر.

«وهل اتفقنا حول موضوع الأسلحة التي خلفوها وراءهم؟» قال شارون بغضب: «لماذا تظهروننا بمظهر الناقض للاتفاقية. **إنهم** من فعل ذلك».

ثانية عاد السفير ليؤكد سؤاله الأول: «ولكن إلى متى ستستمر عمليتكم هناك؟ لماذا لم تجب على هذا؟».

«سأتحدث بصراحة» قال شارون «نعم نحن هناك للقضاء على الارهابيين وسنتصل

بالرئيس الجديد للتفاهم حول هذا الموضوع ».

استغرب السفير الأميركي هكذا منطق وتساءل: « ما يزال للبنان رئيس جمهورية وحكومة وهم يرفضون ما تقومون به ».

وجد شارون نفسه محشوراً في الزاوية، فاعتذر من زواره بحجة ذهابه لحضور مجلس الوزراء، وفهم درايبر انه يصعب التعامل مع وزير الدفاع الاسرائيلي، فهو انسان مولع بالقتال ويلتذ برؤية الدماء وسماع أخبار القتل والتدمير.

وخلافاً لكل الأعراف السياسية، والمفاهيم الديبلوماسية، كان شارون يحاول تبرير اقتحامه بيروت الغربية بغطاء مشروعية القضاء على الإرهاب، والادعاء انه ينفذ هذا العمل بناء لرغبة لبنانية، دخل رجال حبيقة مخيمي صبرا وشاتيلا بقيادة ثلاثة ضباط: ميشال - مارون وبول، وبمراقبة رجال الاستخبارات. دخل الكتائب مخيم شاتيلا من جهتين مختلفتين. جبسي سكر، طلب مساعدة جيش الدفاع الاسرائيلي لإضاءة المكان، بالقنابل المضيئة، وكان له ذلك، إن بواسطة مدافع الهاون من عيار ٨١ أو بواسطة الطائرات فيما بعد.

الساعة السادسة وخمسون دقيقة مساء - أريل شارون توجه إلى القدس لحضور مجلس الوزراء، بعد ذلك بعشر دقائق، كان مخيما صبرا وشاتيلا مسرحاً للمجازر والتقتيل. في مركز القيادة على سطح البناية، سمع صوت أحد قادة الكتائب يسأل حبيقة ماذا يفعل بخمسين طفل وامرأة فرد عليه « لا سؤال بعد الآن، فأنت تعرف كيف تتصرف » وهنا تدخل الضابط المساعد لعاموس يارون، محذراً حبيقة من التعرض للمدنيين.

أمام اللجنة البدائية التي تولت التحقيق بمجزرتي صبرا وشاتيلا، تحدث والد أحد الكتائبيين الذين اشتركوا في العملية. اشترط أولاً إبقاء هويته مجهولة، فأعطي تأكيداً على ذلك، بعدها قال إن حبيقة أفهم مقاتليه ان الهدف من هذه المهمة هو ترويع الفلسطينيين وجعلهم يهربون، لذا فعليهم قتل الشباب، وقال الوالد أيضاً، ان الضابط الاسرائيلي شدد عليهم عدم مس أي مدني.

الساعة السابعة والنصف مساء - الخميس - تحدث مناحيم بيغن أمام وزرائه شارحاً الأسباب التي دفعت بالجيش لدخول بيروت الغربية، ومفصلاً الأحداث التي وقعت بعد اغتيال بشير، محاولاً بذلك ترضية خواطرهم لأنه تصرف دون استشارتهم. موردخاي تسيبوري المعارض الدائم لشارون، اعترض على الطريقة التي يعامل بها الوزراء؛ مبيناً لو

كان جدلاً هناك ما يستدعي التصرف السريع فلماذا لم يدع مجلس الوزراء للانعقاد في الصباح بدلاً من الانتظار ستة وثلاثين ساعة؛ وشاركه زفلين هامر هذا الاحتجاج. وما نفع الاحتجاج الآن؟ شارون لم يشر إلى اشتراك الكتائب في عملية اقتحام المخيمات.

في هذه الأثناء، كانت الأخبار المتسربة من داخل مخيمي صبرا وشاتيلا مقلقة ومتناقضة. جسي سكر ادعى أولاً انه تم قتل ثلاثمائة فلسطيني ثم عاد وقال « لا مئة وعشرون فقط » وللمرة الثالثة، عاد يارون وحذر من المس بأي مواطن. أنباء المخيمات وصلت إلى قيادات أربع فرق اسرائيلية، ولكن أحداً من هذه القيادات لم يتحرك، وصار كل من المسؤولين فيها، يتهرب فيما بعد من تحمل المسؤولية، بالادعاء انهم اعتبروا ما يجري عملاً عادياً ولم يدر بخلدهم ان الكتائب يتصرفون بوحشية. والذي تبين فيما بعد ان نقاشاً حاداً دار بين القيادات الكتائبية نفسها حول أسلوب عمل المهاجمين.

الساعة التاسعة ليلاً، كان مجلس الوزراء ما يزال منعقداً، اعتذر ساغي عن متابعة الجلسة فهو منذ ثلاثة أيام لم ينم. خرج ساغي من الاجتماع، قبل إقدام إيتان على اعلام مجلس الوزراء بدخول الكتائب لمخيمي اللاجئين في صبرا وشاتيلا موضحاً أنهم يقومون بعملهم على أكمل وجه، وان جندياً اسرائيلياً واحداً لن يدخل إلى داخل المخيمات. وأكد ان جيش الدفاع الاسرائيلي يتابع عن كثب - وبمراقبة دائمة - ما يفعله الكتائبيون موضحاً ان المخيمات محاصرة من قبلنا، ومضى معلقاً على ما يمكن ان يحدث بعد اغتيال بشير، قائلاً: هناك احتمالان: الأول انهيار الهيكلية الكتائبية، وهو ما لم يحدث، والثاني هو انفجار عمليات الثأر والانتقام. هذا الانفجار نعرف كيف سيبدأ، ولكن المهم هو كيف سينتهي؛ هذا الانفجار سيكون شاملاً، ولن يكون بمقدور أحد مد يد المساعدة لوقفه، حتى الاميركيون، سيقفون موقف العاجز. يكفي مقتل درزي واحد اليوم، ليذبح غداً أربعة أطفال مسيحيين. التقيت أمس عدداً من ضباط الكتائب، لاحظت آثار الصدمة النفسية على وجوههم. شيء رهيب ان يذوب الأمل الكبير بلحظة واحدة. وفي عيونهم قرأت استعدادهم للثأر.

رئيس الموساد شارك إيتان في تصوره للوضع. الوحيد الذي اعترض على ما يجري وعلى ما يناقش كان نائب رئيس مجلس الوزراء دافيد ليفي « عندما اعرف ان الكتائب سيدخلون منطقة معينة - وأنا أعرف سلفاً ما هو مفهوم الثأر عندهم، وأتصور نوعية المذابح - عندما أعرف هذا، أدرك أيضاً أن أحد لن يصدق ادعاءاتنا اننا دخلنا بيروت

لفرض النظام، وهذا ما يوجب علينا تحمل المسؤولية، وعبثاً سنحاول اعطاء التفسير تلو الآخر». وكما سبق للمجتمعين وأصموا آذانهم عن تحذيرات ساغي، فانهم اليوم أيضاً، تجاهلوا كلام ليفي. مناحيم بيغن ادعى فيما بعد انه كان يراجع مسودة مشروع القرار الذي سيطرحه على الوزراء.

مهما يكن، الوزراء في القدس مشغولون في المناقشات، والكتائب في صبرا وشاتيلا يرتكبون المجازر ويزرعون الرعب والخوف. وبسبب الحصار المفروض، لم يتمكن الكثيرون من الهرب.

الساعة العاشرة ليلاً، علم ضباط استخبارات الجبهة الشمالية ان الكتائب سيشاركون في عملية تنظيف بيروت. فحذروا من وقوع مجازر هناك أيضاً. ضابط الاستخبارات التابع لفرقة يارون، اتصل من على سطح البناية بمركز القيادة في عاليه واطلعها على ما سمعه على لسان سكر من ان ثلاثمائة شخص قتلوا، فطلب إليه التحقق من ذلك.

خلال ليل الخميس - الجمعة ١٦ - ١٧ أيلول، تسربت المعلومات عما يجري داخل المخيمات إلى أربع قيادات ألوية تابعة لجيش الدفاع الاسرائيلي. مركز قيادة يارون قرب المخيم، مركز قيادة الجبهة الشمالية المتقدم في عاليه - مركز قيادة لواء مناحيم عينان في بحمدون، وشعبة الاستخبارات في تل أبيب، لكن أحداً من مسؤولي هذه القيادات لم يكلف نفسه عناء الاتصال بدروري، أو إيقاظ ساغي من نومه لإطلاعه على ما يجري.

تلك الليلة، وفيما كان ساغي نائماً، حدث أمران مهمان في مركز قيادة يارون من سطح البناية: الأول طلب جسي سكر مزيداً من الإضاءة للمخيمات؛ لكن ضابط العمليات رفض طلبه موجهاً التهمة إلى رجاله انهم يقتلون المدنيين، أما يارون، فقد ثار في وجه ايلي حبيقة وحذره المس بالمواطنين العزل وطلب إليه الاسراع في العملية. أما الأمر الثاني فهو النقاش الحاد الذي دار بين القادة الكتائبيين أنفسهم حول طريقة العمل داخل المخيم، وقد شوهد جسي سكر يتكلم مع زملائه لاسلكياً والغضب باد على وجهه.

الشيء الذي لا يصدق، هو أن سكان المخيم لم يعلموا بما يجري حولهم من مذابح وقد تحدث عدد منهم فيما بعد «لو كنا نعلم ان الكتائب دخلوا المخيمات لكنا هربنا». مختار صبرا تحدث فقال: «كنا متأكدين من أن جيش الدفاع الاسرائيلي سيدخل المخيم، لذلك فضلت الانزواء في منزلي، لقد شاهدنا الجنود الاسرائيليين على سطح البناية والدبابات تعبر الطرقات، ولكن لم نلاحظ البتة أية تحركات كتائبية».

بعيد منتصف الليل - ليل الخميس - الجمعة - اعلنت إذاعة اسرائيل بناء على تقرير مراسلها في بيروت ان الكتائب كلفت مهمة تطهير المخيمات. وهكذا انكسر جدار الكتمان الذي أحاط بالعملية.

الساعة السادسة والربع صباح الجمعة، اتصل ضابط استخبارات في قيادة عاليه بساغي وأبلغه ان ٣٠٠ نسمة، قتلوا في المخيمات، فأمره بالتحقق من الأمر وإبلاغه النتائج لكن شيئاً لم يحدث. نفى ساغي أمام لجنة كاهان علمه بدخول الكتائب المخيمات ولم يصدقه أحد، إذ أنه حضر ثلاثة اجتماعات خصصت لمناقشة هذا الموضوع.

الساعة السابعة والنصف من صباح الجمعة، وصلت أخبار «الذبح»[٢] إلى زئيف شيف مراسل جريدة هآرتس Haartez العسكري، لكن المصادر العسكرية نفت ذلك. فتوجه المراسل إلى موردخاي تسيبوري فلم يجده[٣]، وهكذا لم يجد أمامه سوى الإصغاء إلى محطات الإذاعة اللبنانية.

الليوتنات آفي غرابوفسكي نائب قائد فرقة دبابات، كان على مقربة من المخيم -- ورأى جنوداً كتائبيين يقودون الرجال والنساء إلى منطقة المدينة الرياضية. وبعدها رأى مقاتلين كتائبيين يعودان بصحبة شابين إلى المخيم، ومن ثم سمع صوت رصاص، وعاد الكتائبيان وحدهما. وحين سئل أحد الكتائبيين لماذا تقتلون النساء؟ أجابه الكتائبي: النساء تلد الأطفال، والاطفال يكبرون ويصبحون إرهابيين[٤].

صباح الجمعة أيضاً، وبعد انتهاء عمليات القتل تقريباً، سد الكتائبيون مداخل المخيم ومنعوا الخروج منه. مصدر التلفزيون الدانماركي شاهد بأم عينه كتائبياً يوقف امرأة تركض بشكل هيستيري محاولة الهرب، لكنه لم يدرِ ان جسد هذه المرأة تعفن على بعد بضعة أمتار من المكان الذي أوقفت فيه. وفي ذلك الصباح أيضاً، حاول عدد من الذين هربوا ليلاً العودة إلى منازلهم. رجل متوسط العمر كان ذاهباً لجلب الحليب لأطفاله.

(٢) وردت هذه الكلمة باللفظ العربي في النسخة الانكليزية وفي النسخة العبرية ووضع إلى جانبها معناها باللغتين المشار إليهما.

(٣) في النسخة الانكليزية لم نشر إلى التقاء زئيف تسيبوري لأن الأخير أمضى ليله في الجبهة الشمالية، بينما في تقرير لجنة كاهان، وحسب شهادة تسيبوري، فإن الإجتماع تم بين الأثنين وان تسيبوري حاول الحصول على مزيد من المعلومات دون جدوى فعاد واتصل بشامير لهذا الغرض.

(٤) هذا القول يذكّر بتفكير الأميركيين أثناء حرب فيتنام «كل طفل هو مشروع ثائر».

هؤلاء الأطفال ما يزالون حتى اليوم ينتظرون عودة والدهم. أربعة كتائبيين اغتصبوا امرأة صغيرة السن كانت آتية لزيارة والدتها. امرأة أخرى تقدمت من جندي اسرائيلي تشتكي من أنها ضربت على وجهها بعقب بندقية، ورجل قدم مطالباً بإعادة ابنه الذي خطف، لكن أحداً لم يتكلم عن مذابح.

مندوب الصليب الأحمر الدولي، في بيروت اتصل بزميله في اسرائيل شارحاً ما يجري، ومبيناً ان المستشفيات الفلسطينية في بيروت أخليت، باستثناء مستشفى غزة الذي لا يزال فيه القليل من الجرحى وأربعة أطباء.

في هذا الوقت كان فؤاد أبو ناضر قائد العمليات الكتائبية قد وصل إلى مركز قيادة يارون ليبلغه ان قوة أخرى جاهزة للتدخل، رحب يارون بالفكرة لأن رجال حبيقة لم يتصرفوا كجنود نظاميين، واعطاه أبو ناضر صوراً جوية للمخيم ودعاه للاجتماع به ثانية لوضع الخطة النهائية.

الساعة الحادية عشرة، وصل دروري إلى مركز قيادة يارون للاطلاع على الوضع عن كثب، يارون أخبره بما فعله الكتائب وطالبه بإيقافهم عند حدهم ومنع إدخال أية تعزيزات لهم، فاتصل دروري برئيس الأركان ناقلاً إليه ما سمع، ومن أخبر يارون ان رئيس الأركان آت إلى بيروت؛ وطلب إليه وقف العمليات الكتائبية والبقاء حيث هم.

الساعة الحادية عشرة وخمسة عشرة دقيقة تقريباً، التقى زئيف شيف وزير المواصلات موردخاي تسيبوري في مكتبه وأطلعه على ما لديه من معلومات حول «الذبح» وسأله استقصاء الحقائق. حاول تسيبوري الاتصال بعدد من ضباط الاستخبارات والأمن العام، لكنه فشل، فاتصل باسحق شامير متمنياً عليه المساعدة في الموضوع، لكن وزير الخارجية أهمل تمني تسيبوري، ونكر أمام لجنة كاهان، أن يكون تسيبوري قد اتصل به، مسكين شامير لم يكن يعلم ان زئيف شيف ما يزال حياً ويمكنه قول الحقيقة.

الساعة الواحدة بعد ظهر الجمعة، تنكر يارون لأوامره السابقة القاضية بوقف الأعمال الكتائبية في المخيمات وسمح باستبدال فرقة حبيقة بأخرى، فاندفع مئة وخمسون جيب إلى داخل مخيم شاتيلا، لكن رجال حبيقة لم يخرجوا، وهكذا، بدلاً من أن تكون العملية عملية تبديل قوات تحولت إلى عملية تعزيز قوى.

الساعة الثالثة بعد الظهر، اتصل أمير دروري بنائب رئيس الأركان اللبناني اللواء عباس حمدان مبدياً رغبة ملحة في تحمل الجيش اللبناني مسؤولية حماية المخيمات «لأنه ما من

أحد يعرف ماذا يفعل اللبنانيون ببعضهم، حين تقابل الوزان، أخبره بالأمر، لقد حان الوقت لتفعلوا شيئاً، ستقابلون اليوم درايبر فاطلبوا منه النصيحة أنا متأكد من أنه سيوافق على دخولكم المخيمات. إنه أمر مهم. إنه وقتكم الآن».

لم يكد دروري ينهي كلامه مع عباس حمدان، حتى هبطت طائرة إيتان في مطار بيروت، فانضم إليه وغادرا المكان إلى مركز قيادة الكتائب في الكرنتينا يرافقها عاموس يارون. بالوقت ذاته وصل مراسل التلفزيون الإسرائيلي رون بن يشاي Ron Bin - Yishai لإرسال تقريره اليومي عن تحركات الجيش الإسرائيلي في طائرة عسكرية. قائد الطائرة استوضح المراسل عما إذا كان يعلم عما يجري داخل المخيمات، فأجاب بن يشاي «لا... وأنت هل رأيت شيئاً». هز القائد رأسه وهو يقول «سمعت أن الكتائبيين ارتكبوا الفظائع». فعاد المراسل أدراجه يستقصي الحقيقة، ووجد فرقة كتائبية تنتظر الأمر للتحرك نحو صبرا وشاتيلا. فأرسل إلى رئيس الوزراء - بعد ثلاثة أيام - الرسالة التالية:

أخبرنا ضباط وجنود تلك القوى بوضوح أنهم ينسقون مع جيش الدفاع الإسرائيلي وأنهم في الطريق لإخراج الإرهابيين من المخيمات. بعض هؤلاء الجند، صرَّح علناً، أنهم سيقتلون المقيمين داخل المخيمات دون شفقة ولا رحمة. وكل الحركات التي يقومون بها، إضافة إلى ألفاظهم النابية، كانت تؤكد أنهم يعرفون ما يقولون.

إن ما سمعته من قائد الطائرة ومن رجال الميليشيا المسيحية أثار قلقي، وقررت دخول مخيمات اللاجئين، وأنا في الطريق، وفي حرم المطار، التقيت واحداً من مساعدي دروري فسألته عن حقيقة الأمر، وأجاب «شيء مقرف، الكتائب في المخيمات». ومد يده من نافذة سيارته وشدّ على ساعدي دون أن يتفوه ببنت شفة رغم إلحاحي عليه بالسؤال. الصمت كان معبّراً. حاولت سؤال أكثر من ضابط في المنطقة، بعضهم كان مثلي، والبعض الآخر كان قد سمع أشياء.

الساعة الرابعة بعد الظهر، جاء ثلاثة مراسلين أميركيين إلى السفارة الأميركية في بيروت وأبلغوا واحداً من كبار مسؤوليها بالأمر؛ فاتصل هذا المسؤول بالقائم بالأعمال الذي بدوره اتصل بموريس درايبر. إلى جانب هذه الإتصالات، كان هناك اتصال مع أمين الجميل لنفي أو تأكيد ما يشاع، إلا أن الشيخ أمين لم يتمكن من استجابة الطلب فوراً حتى يتحقق من الأمر. وبعد دقائق عاد واتصل بالسفارة مؤكداً وجود الكتائب داخل المخيمات، لكنهم سينسحبون بأقصى سرعة.

بعد نصف ساعة، كان مركز القيادة الكتائبية يشهد اجتماعاً مهماً يشارك فيه عن الجانب الكتائبي: فادي فرام، زاهي بستاني، فؤاد أبو ناضر، جوزف أبو خليل، وإيلي حبيقة، وعن الجانب الإسرائيلي: رئيس الأركان، ونائبه موشي ليفي، أمير دروري وعاموس يارون، ودار النقاش حول خروج القوات اللبنانية من صبرا وشاتيلا. تكلم إيلي حبيقة فأوضح أنه فقد قتيلين أما الجرحى فقد بلغ عددهم أربعون. وأكد أن المخيمين، أصبحا خاليين مطلقاً من المدنيين. لكنه لم يشر أبداً إلى مقتل مدنيين عزل على أيادي رجاله. بعد حبيقة تكلم فادي فرام فطلب مساعدات طبية وأثار قضية ضغط الأميركيين عليهم للخروج من المخيمات. وانتهى الإجتماع دون إثارة قضية التصرف اللامعقول، من قبل أيٍ من الوفد الإسرائيلي. على العكس، فقد وعدهم إيتان أنه سيسمح لهم بالبقاء هناك حتى فجر اليوم التالي.

وحين طلب القادة الكتائبيون جرافات لهدم البيوت، اعترض موشي ليفي مبيّناً أن هكذا طلب يجب أن يدرس على أعلى المستويات السياسية؛ لكن ممثل الموساد أبدى استعداداً لتلبية طلبهم وشاركه إيتان الرأي. وتم الرأي على إعارتهم جرافة واحدة، إنما بعد طمس جميع الإشارات التي تشير إلى أنها مستعارة من جيش الدفاع الإسرائيلي ـ أعيد هذا البلدوزر إلى الإسرائيليين دون استعماله ـ .

الساعة السادسة مساء، أخبر ضابط المظليين، «يائير «Yair أنه شاهد نساء وأطفالاً يهربون من المخيمات وهم يروون ما يجري في الداخل. وانتبه يارون إلى وجود قائد فوج آخر يتسمع على الموجة، فأمر يائير بالإتصال به دون غيره؛ ومن ثم أصدر أوامره لضباطه بمنع الكتائب من التجول خارج المخيمات تمهيداً لإخراجهم صباح اليوم التالي.

الساعة السادسة والنصف: اتصل درايبر بأمين الجميل متسائلاً عن الأسباب التي حالت دون إخراج الكتائب من المخيمات حتى الآن. بعد ذلك بحوالي الساعة والنصف اتصل المبعوث الخاص للرئيس الأميركي بممثل وزارة الخارجية الإسرائيلية في بيروت بروس كشدان Bruce Kashdan لينقل إليه احتجاج رئيس الوزراء اللبناني شفيق الوزان على ما يرتكب من فظائع. كشدان اتصل بدافيد كيمحي، فأفيد أن الكتائب دخلوا المخيمات عبر حواجز الجيش اللبناني.

الساعة السابعة، اتصل بن يشاي بمناحيم بيغن لينقل له صورة واقعية عما يحدث. إلى جانب بن يشاي وقف عدد من الضباط تعبيراً عن احتجاجهم، كان ذلك مساء ليلة عيد

الرأس العبرية؛ وهم كذلك شاهدوا بلدوزر يدخل المخيم ليطمر جثث القتلى.

قبل ذلك وعند الساعة التاسعة ليلاً، وصل رفول إيتان إلى مزرعته في الجليل واتصل بشارون ليخبره أنه أصدر أوامره بوقف النشاط الكتائبي وسيخرجون غداً صباحاً. واصفاً ما فعلوه «فوق العادة».

الساعة الحادية عشرة ونصف، اتصل رون بن يشاي بشارون. لخص بن يشاي حديثه مع شارون فيما بعد بما يلي:

أعتذر لإزعاجك في مثل هذه الساعة وأوضحت له أني أتصل من بيروت. أخبرته كل شيء أعرفه، لم أستعمل تعبير «الكتائب» بل «حلفاءنا»، ورجوته أن يفعل شيئاً ما، فضباط جيش الدفاع الإسرائيلي اطلعوا على الأمر، وسنكون في وضع حرج. وزير الدفاع سألني إن كنت مطلعاً على التفاصيل، فأجبته محدداً أين وقعت أعمال القتل، بمكان لا يبعد مطلقاً عن مركز قيادة الفرقة المكلفة مراقبة مخيم شاتيلا. وأخيراً تبادلنا التمنيات بمناسبة عيد رأس السنة.

الساعة السادسة والنصف من صباح اليوم التالي ـ السبت، وقف يارون يراقب المخيم من خلال منظاره فرأى عدداً من جنود القوات اللبنانية يقودون ١٥ شخصاً يرتدون الأبيض ويتجهون بهم نحو مركز قيادته. هؤلاء الأسرى كانوا أطباء وممرضات أجانب، يعملون في مستشفى غزة الفلسطيني. أما زملاؤهم اللبنانيون والفلسطينيون فقد أمروا بالوقوف إلى جانب حائط في صبرا مع مئات آخرين وأيديهم مرفوعة إلى فوق. وفيما هم متجهون نحو مركز القيادة، رأى هؤلاء الأسرى الجثث مرمية على الطرقات والبلدوزر يطمرها.

وطار صواب يارون، فأسرع بالهبوط على الدرج بصحبة ضابط طبيب. قائد المجموعة الكتائبية هرب، لكن الضابط ألقى القبض عليه، فأوضح ليارون أن هؤلاء من مجموعة «بادر ماينهوف» الإرهابية، فما كان من يارون إلا أن أمسك به وقذفه خارج البناية. الطبيب الإسرائيلي اعتذر من زملائه وهدّأ روعهم. ثلاثة من هؤلاء استدعيوا للإدلاء بشهادتهم أمام لجنة كاهان.

بعد هذه الحادثة، شدد يارون أوامره بإخراج الفلسطينيين من المخيمات عند الساعة الثامنة كحد أقصى؛ وعند الساعة عينها وصل رون بن يشاي مع فريق التصوير لينقل لبيغن ما رآه صوتاً وصورة.

كانوا يسوقون صفاً طويلاً من النساء والأطفال والشيوخ. بعضهم كان مدمّى وبعضهم كان يبكي وينتحب؛ وحين شاهدونا، صرخوا في وجوهنا، لقد فصلونا عن شبابنا وأزواجنا. حاول جنود القوات اللبنانية منعنا من التصوير بإطلاق النار علينا. وفيما نحن في جدال معهم، تدخل ضابط إسرائيلي وأنهى النقاش. وعبر مكبرات الصوت طلب من النساء والأطفال العودة إلى بيوتهم، وطلب من رجال الميليشيا المسيحيين بإخلاء المنطقة فوراً. وهكذا توقف حمام الدم.

بعد ذلك، تجمّع مئات من الفلسطينيين في المدينة الرياضية، حيث وزّع الضباط الإسرائيليون عليهم الحليب والكعك [٥]، وحيث أيضاً باشر المحققون عملهم بحثاً عن جماعة منظمة التحرير الفلسطينية. تم استجواب ٤٥ واحداً لم يشر أي منهم إلى المجزرة.

وما هي إلا ساعات، حتى بدأت وسائل الإعلام تتناقل أخبار المجزرة. راديو صوت الأمل أعلن عن دخول الكتائب المخيمات وتطهيرها، فرد عليه صوت لبنان معلناً أن قوات حداد هي التي دخلت المخيمين واعتقلت بعضاً من الشباب وقتلت من قتلت والجثث ما تزال مرمية عند أطراف المخيمين.

الساعة العاشرة صباحاً، درايبر طلب من كشدان نقل رسالة مستعجلة إلى شارون يطلب فيها وقف المذابح فوراً، وإن إسرائيل هي المسؤولة مباشرة عن الأمن في المنطقة «أرعبوا الناس، وقد أرسلت مندوبين لإحصاء الجثث، عليك أن تخجل، لقد قتلوا الأطفال». وعند الساعة الواحدة بعد الظهر جاء الرد لدرايبر أنه تم إخراج الكتائب من المخيمات.

الساعة الحادية عشرة ونصف، جاء دروري إلى مركز قيادة يارون، ووضعت بين يديه كل التقارير الآتية من خارج المخيم فأصدر أوامر مشددة بمنع أي جندي إسرائيلي من دخول صبرا وشاتيلا. وإلا فإن جيش الدفاع الإسرائيلي سيكون كبش المحرقة. حتى بعد ظهر يوم السبت، كانت قيادة يارون تتوقع عدد القتلى بالعشرات.

الساعة الخامسة مساء، اتصل بيغن بشارون مستفسراً عن صحة ما سمعه من إذاعة البي بي سي B.B.C. فاتصل هذا الأخير برئاسة الأركان طالباً منها تقريراً مفصّلاً عن

(٥) هكذا تصرَّف بيلاطس البنطي مع السيد المسيح، غسل يديه وقال إفعلوا ما تشاؤون، وكانت النتيجة أن صلب يسوع وها هم اليهود اليوم يعبدون التاريخ. (المترجم).

ذلك؛ ولأول مرة يدخل الشك عقل شارون لكنه نفى أمام السفير الأميركي في تل أبيب أية علاقة لجيشه بالعملية الكتائبية.

صباح الأحد، توجه إيتان إلى بيروت واجتمع بفادي فرام وطلب منه الإعتراف بمسؤولية قواته عن المجزرة. إلا أن هذا الأخير رفض ذلك. أمين الجميل استنكر مثل هذه الأعمال، كائناً من كان الفاعل. الجميل الأب، اعتبر المرتكبين عملاء لأسرائيل ونفذوا العملية لصالحها. إيلي حبيقة رفض تحمّل مسؤولية ما جرى رافضاً أن يكون رجاله كبش فداء يفتدى بهم جميع المشاركين.

انتهت المجزرة، لكن الآثار ما تزال ماثلة للعيان، الخوف ما يزال يسيطر على السكان في صبرا وشاتيلا. يوم السبت دخل المنطقة صحفيون وديبلوماسيون، وتأكدوا من خروج القوات اللبنانية. ويوم السبت أيضاً: جاءت بعض النسوة لتخبر رجال الموساد أن المجزرة ما تزال مستمرة.

يوم الأحد، وقعت عدة أحداث مماثلة: نساء وأطفال أتوا إلى قرب جامع عبد الناصر على كورنيش المزرعة وطلبوا من رجال الإستخبارات دخول جيش الدفاع الإسرائيلي منطقتي صبرا وشاتيلا لحمايتهم. صبية شهدت أمام المحقق أنها شاهدت بأم عينها كتائبياً **يقتل أمّاً وأطفالها** داخل المخيم. مئات من النسوة الغاضبات خرجن مولولات «جماعة حداد» آتون لقتلنا. الكولونيل يائير ركب سيارته ودخل المخيم لمعرفة سبب هذه الهستيريا، لكنه لم يجد في الداخل ما يدعو إلى القلق، أو أية آثار لأعمال عنف. وفي طريق العودة عرج يائير على دروري الذي جاء خصيصاً للتحقق من صحة ما سمع، وأعلمه أن لا شيء مطلقاً في الداخل. لجنة كاهان لم تتمكن من التحقق أن الكتائب خرجوا فعلاً صباح السبت. والحقيقة أن هناك احتمالاً كبيراً أن تكون أعمال القتل قد استمرت يومي السبت والأحد، إنما في الأزقة الضيقة والبيوت؛ وذلك بالرغم من وجود عدد كبير من المراسلين والمصورين.

مساء الأحد، اجتمع مجلس الوزراء للإطلاع على تفاصيل ما جرى. استمع الوزراء إلى ثلاثة: شارون، إيتان ودروري، أكدوا دخول الكتائب إلى المخيمات بالتعاون مع جيش الدفاع الإسرائيلي. أما الخطأ، فقد وقع بسبب ضعف القيادة الكتائبية التي لم تتمكن من السيطرة على عناصرها. وأقسم الثلاثة على أنهم، ساعة اكتشفوا «القيادة السيئة» تدخلوا وأخرجوا الكتائب من المخيمين.

إسحق موداي، ذكر رئيس الوزراء بقوله إننا ندخل بيروت « لحماية حياة الناس ».
ورد عليه بيغن « فعلاً هذا كان هدفنا، وتحدثت تلك الليلة إلى رئيس الأركان بهذا الموضوع وطلبت إليه إتخاذ أقصى درجات الحيطة لحماية **المسلمين**[٦] من الإنتقام الكتائبي. لقد توقعت ذلك بعد مقتل قائدهم المحبوب بشير، توقعت أنهم سيفجرون حقدهم ضد المسلمين ».
زفلين هامر، ضحك ملء شدقيه « إذا فعلاً كنا نتوقع منهم ذلك، فكان يجب علينا العدّ للعشرة قبل السماح لهم بالدخول ».

وانتهى مجلس الوزراء بإعلان بيان يتهم فيه « جماعة لبنانية » دخلت المخيمين « من مكان بعيد عن مواقع جيش الدفاع الإسرائيلي ». هذا مع العلم أن الوزراء يعرفون تمام المعرفة أن شاحنات جيش الدفاع الإسرائيلي تولت نقل الكتائب إلى المخيمات. إن هذا البيان يمكن النظر إليه على أنه واحد من إثنين: إما أنه خديعة للذات، أو محاولة فاشلة لطمس الحقيقة.

ومع إهتمام الصحافة المحلية والعالمية بالمجزرة، ارتفعت صيحات الإحتجاج مطالبة بتأليف لجنة تحقيق مستقلة، تستقصي الحقائق. وأخيراً ولدت لجنة كاهان لتقول إن جيش الدفاع الإسرائيلي ووزارة الخارجية، قدما معلومات مغلوطة وغير دقيقة للتأكيد على أن الكتائب دخلوا المخيمين بدون معرفة جيش الدفاع الإسرائيلي.

في المقابل، كان في الجيش ضباط عديدون يهتمون بالقضية إهتمامهم « بسمعة جيش الدفاع الإسرائيلي ». البريغادير جنرال أمرام متزنا Amram Metezna من كلية الأركان، طلب إعفاءه من الخدمة احتجاجاً على رفض شارون تحمل مسؤولياته الوزارية لتغطية كل ما قام به جيش الدفاع الإسرائيلي. الكولونيل يائير طلب مقابلة رئيس الوزراء، لإفراغ ما في صدره من شكوى، لكن شارون تدخل لدى رئيس الوزراء « سأذهب وأرى ما يريده هذا الضابط المنتمي إلى هاشومر هاتزير » Hashomer Hatzair[٧]. كذلك عقد عدد من كبار الضباط مؤتمراً صحفياً منددين بمواقف وسياسة شارون الذي لم يزر بيروت للإجتماع

(٦) مرة أخرى نلاحظ اللعب بالكلام، فالمسلمون، كما درجت العادة عند قادة إسرائيل هم اللبنانيون، أما الفلسطينيون فهم إرهابيون. (المترجم).

(٧) جناح يساري من حركة العمل الصهيونية مناوئة لمناحيم بيغن.

بضباطه الغاضبين. لكنه مثل يوم الأربعاء ٢٢ أيلول أمام الكنيست ليعلن، ولأول مرة، أن الكتائب دخلوا صبرا وشاتيلا بالتعاون مع إسرائيل. لكن هذا الإعلان لم يغير شيئاً من طبيعة الرأي العام الثائر، والمطالب بتأليف لجنة تحقيق مستقلة؛ بعد أسبوع، تظاهر ما يقارب النصف مليون إسرائيلي في تل أبيب مطالبين باللجنة؛ فرضخ بيغن للأمر واختار رئيس المحكمة العليا القاضي إسحاق كاهان لترؤس هذه اللجنة.

عشرة أيام مليئة بالمضايقات والأحلام المزعجة، أمضاها بيغن. إنها الأيام الفاصلة بين تسرب أنباء المجزرة وتأليف لجنة التحقيق، استقال خلالها إسحاق بيرمان من الحكومة، وأذاع التلفزيون تصريحات لشخصيات إسرائيلية محترمة أمثال رئيس الدولة إسحاق نافون والبروفسور أفرايم أورباخ Ephraim Urbach رئيس الأكاديمية الإسرائيلية للعلوم الإنسانية. ناطق باسم حزب ليكود حذّر من أن يكون تعيين هذه اللجنة بمثابة اعتراف بالذنب. مساعدو بيغن أثبتوا أكثر من مرة أن رئيس الوزراء حاول تغطية رئيس الأركان؛ لأنه، مهما تكن الظروف، إنسان طيب ونبيل.

حاولت لجنة التحقيق الثلاثية والمؤلفة من: رئيس المحكمة العليا، إسحاق كاهان، والقاضي في هذه المحكمة آهارون براك، والميجر جنرال إحتياط، يونا إفرات Yonah Efrat الإستماع إلى شهود من خارج إسرائيل، البعض أبدى إستعداداً والبعض الآخر رفض؛ ومن هؤلاء الصليب الأحمر الدولي، والنيويورك تايمز؛ رفض هؤلاء إرسال مندوبيهم في بيروت للإدلاء بشهاداتهم تخوفاً من المستقبل. أما فادي فرام وبعض قادة القوات اللبنانية، فقد أدلوا بشهاداتهم ـ بسرية تامة ـ. القادة اللبنانيون أكدوا تواجدهم في المخيمات، لكنهم نفوا أن يكونوا قد ارتكبوا أية جرائم قتل بحق المدنيين، أما القتلى فقد سقطوا ضحايا القتال العنيف بينهم وبين بقايا الإرهابيين، إضافة إلى أن الإرهابيين أقدموا على قتل الرهائن الذين كانوا بحوذتهم. ولإثبات آرائه قدم نسخة عن تقرير بخط أسعد جرمانوس المدعي العام العسكري اللبناني والمكلّف من قبل رئيس الجمهورية التحقيق بالقضية ذاتها. في الحقيقة أن المحقق اللبناني لم يستمع لأحد تقريباً. الفلسطينيون لم يحضروا خوفاً، وقادة القوات اللبنانية امتنعوا عن الحضور. وتقريره يحدد عدد القتلى بـ ٤٦٠ قتيلاً، من ضمنهم ١٥ إمرأة و٢٠ طفلاً، أما الباقون فموزعون على الشكل التالي: فلسطينيون ٣٢٨ ـ لبنانيون ١٠٩ ـ سبعة سوريين، جزائريان، ثلاثة باكستانيين وواحد وعشرين إيرانياً.

العدد، ليس دقيقاً كفاية. لجنة كاهان اعتمدت تقديرات الإستخبارات الإسرائيلية التي تتراوح ما بين ٧٠٠ – ٨٠٠ ضحية. الهلال الأحمر الفلسطيني قدَّر عدد القتلى بما يقارب الألفين. نظمت شهادات وفاة لألف ومايتين، إنما لا يمكن الوثوق بهذه الشهادات، لأنه بإمكان ثلاثة شهود إثبات وفاة من يريدون.

ما من كتائبي عوقب بسبب تصرفه في صبرا وشاتيلا. حبيقة ثابر أعماله الحزبية محاولاً تقوية مركزه «كرجل قوي» وكواحد من كبار قادة الحركة، يدعمه بعض الضباط الذين عملوا تحت إمرته في المخيمين المذكورين. جسي سكر ترك العمل في القوات اللبنانية وأخذ يتعاطى التجارة.

ليل السبت ١٨ أيلول، دخل الجيش اللبناني المخيمين. وبعد أسابيع، بدأ هذا الجيش يعتقل الفلسطينيين ويرحّل الذين دخلوا البلاد بصورة غير قانونية. وبرغم هذا ما يزال مخيما صبرا وشاتيلا يعجان بالناس، حتى أن البعض عادوا ورمموا منازلهم المتضررة أو المدمرة. أمنية بشير أن يرى الفلسطينيين يخرجون من بيروت بأعداد هائلة، لم تمت معه، بل انتقلت بالوراثة إلى الذين استلموا مقاليد حكم القوات اللبنانية من بعده.

يوم التاسع من شباط ١٩٨٣ أصدرت لجنة كاهان تقريرها النهائي حول مذبحة مخيمي صبرا وشاتيلا، وأصدرت أحكام التقصير بالمسؤولية على كل من الميجر جنرال أمير دروري – الميجر جنرال يشوع ساغي – والبريغادير جنرال عاموس يارون. ساغي أعفي من منصبه كرئيس لشعبة الإستخبارات وأحيل على التقاعد. يارون رقّي بعد سنة إلى رتبة ميجر جنرال. دروري ثابر على القيام بمهامه كقائد للجبهة الشمالية وأرسل بعدها للدراسة في الولايات المتحدة الأميركية لمدة سنة.

بالنسبة لرفول إيتان، فقد أوصت اللجنة بإقالته، ولكن وبما أنه سُيحال قريباً على التقاعد، فلا بأس من تأجيل القرار. رئيس الوزراء أدين بأنه لم يقم بواجباته كاملة. أما شامير فأدين لأنه لم يقيّم الموقف الذي أطلعه عليه الوزير تسيبوري.

أما بالنسبة لشارون، فقد قررت اللجنة ما يلي:

بالنسبة لنا، فإن وزير الدفاع بما له من سلطة، وبما أنه فشل في تقدير مدى رغبة الكتائب بالإنتقام دموياً من لاجئي المخيمات، وكونه لم يأخذ بعين الإعتبار هذه الأخطار، حين قرر السماح للكتائب بدخول المخيمات، ونظراً إلى المسؤولية المعطاة له والتي لا يمكن أن تستغل استغلالاً سيئاً...

لذلك نرى أن وزير الدفاع يتحمل مسؤولية شخصية. وإن على رئيس الوزراء، فور استلام هذه الملاحظات إعفاء شارون من منصبه كوزير للدفاع.

شارون رفض توصيات اللجنة ومناحيم بيغن تعذب كثيراً واحتار ماذا يفعل. وعادت البلاد إلى الغليان من جديد، مطالبة بتنفيذ توصيات لجنة كاهان. حركة السلام الآن، نظمت مسيرة إحتجاج، وتقدَّم مجهول ورمى قذيفة يدوية على المسيرة، تسببت بمقتل إميل غرونزويغ Grunzwig وجرحت عشرة آخرين بمن فيهم أبراهام بورغ، إبن يوسف بورغ. بيغن، صار محرجاً. لكن شارون خفَّف من حربه حين أعلن أنه سيستقيل من وزارة الدفاع ولكن لن يستقيل من الحكومة.

مهما يكن. ومهما تكن توصيات لجنة كاهان، فإسرائيل تتحمل مسؤولية ما حدث في صبرا وشاتيلا. وكم من مرة قال شارون لمساعديه ولرئيس الأركان «دعوا الكتائب تنظف غربي بيروت. أولم يرسل الكتائب إلى داخل المخيمات بدون موافقة مجلس الوزراء؟»

الفصل الرابع عشر

كان صرحا . . . وهوى

في بكفيا نعش بشير يخترق صفوف المشيعين. آل الجميل ومحازبوهم يذرفون الدمع دماً.

في تل أبيب، هم جديد. من سيشغل قصر بعبدا بعد الياس سركيس؟ أمين؟ لم لا؟ أو لم يقل على مسمع شارون ـ سأسير على خطى البشير؟ لكنه وثيق الصلة بدمشق ينقل إليها كل معلوماته ـ هكذا كان يقول بشير ـ بعض المراقبين الاسرائيليين، اعتبروا هذا التناقض في العلاقات بين تل أبيب ودمشق، نوعاً من مسك الحبل على طرفيه. بالوقت ذاته، فكر الاسرائيليون بأسوأ الاحتمالات. فكروا بجوني عبده رئيس استخبارات الجيش اللبناني، الوثيق الصلة بآل الجميل وبسركيس، بالزعماء المسلمين، وبالاميركيين والفلسطينيين؛ الذين اعتبروه قناة الاتصال بواشنطن.

يوم السادس عشر من أيلول، وصل درايبر ـ على متن طوافة اسرائيلية ـ إلى بكفيا للقيام بواجب التعزية؛ انه يعرف أمين حق المعرفة، ويعلم أيضاً، انه غير مدعوم ـ كالمرحوم أخيه ـ بالدبابات الاسرائيلية، حازم، صادق، له سياسته الخاصة. يرفض العنف ويسعى للمصالحة الوطنية، سياسي عريق، لماذا لا يخلف أخاه؟ استغل درايبر المناسبة وطرح عليه فكرة الترشيح للرئاسة بدعم أميركي شامل[1].

في الحادي والعشرين من أيلول، انتخب أمين رئيساً للجمهورية بأغلبية سبعة وسبعين صوتاً. المسلمون، اقترعوا لصالحه، لاعتقادهم انه مدعوم من أميركا وليس من اسرائيل. وبعد يومين ـ ٢٣ أيلول ـ أقسم اليمين الدستورية وتسلم منصبه الجديد في قصر بعبدا. وفي حين كان شولتز وموفدوه للشرق الأوسط، يصوغون أفكارهم لوضع خطة لتحقيق السلام في الشرق الأوسط، برعاية أميركا، كان الاسرائيليون يقدمون للإدارة الاميركية «ورقة عمل» للتفاوض على أساسها مع لبنان.

الاميركيون، حصروا اهتماماتهم في التعامل مع الوجود الاسرائيلي في لبنان، أما الوجود السوري، فمتروك أمره لما بعد، لأن - بناء لاعتقادهم - طريق دمشق تمر عبر بعبدا؛ خاصة وان أمين أقنع الادارة الاميركية انه يمتلك تعهداً خطياً من الرئيس الأسد، بسحب الجيش السوري من لبنان بعد انسحاب اسرائيل؛ الاميركيون فسروا ذلك خطأ، واعتبروه دلالة ضعف في الموقف السوري، وانطلاقاً من الخطأ شرعوا يخططون لاصطياد عصفورين بحجر واحد؛ تحريك المفاوضات الاسرائيلية - اللبنانية وإبعاد سوريا عن السوفيات، وإدخالها في محيط دائرة نفوذهم، كما فعلت مصر من قبل. وكما كان شارون يعتقد ان خلاص لبنان، لن يكون إلا على يد بشير، فوزير الخارجية الاميركية اليوم يعتقد ذلك على يد أمين: وهنا وقع الاميركيون بالخطأ ذاته الذي وقع به الاسرائيليون، حين لم يعيروا اهتماماً كافياً لموقع الرئيس حافظ أسد.

بعد استلام أمين مهامه الدستورية، واقتناع الاميركيين انهم قادرون على «الفعل». المسؤولون في تل أبيب، انقسموا إلى تيارين: الأول يقول بضرورة إعطاء جيش الدفاع الاسرائيلي حرية التحرك فوق الأراضي اللبنانية، حتى ولو أعطيت سوريا هذا الحق في وادي البقاع. أما الثاني فيقول، بضرورة انسحاب الاسرائيليين من لبنان، بعد إيجاد منطقة أمنية، تتولى مسؤوليتها حكومة لبنانية مركزية وقوية، على أن تقوم سوريا بخطوات مماثلة، ورغم هذا فقد طالب هذا الفريق بنقاط مراقبة.

بعد جلسة مجلس الوزراء - يوم الحادي عشر من تشرين الأول - والموافقة على ورقة العمل، طار شامير إلى واشنطن ليسلم الادارة الاميركية نسخة عنها. شولتز، أثنى على الورقة واعتبرها منطقية ومعقولة. ماذا تضمنت الورقة؟

١ - إقامة لجنة دائمة لوضع اتفاقية السلام - حتى ولو استمر ذلك سنوات -.

٢ - اعطاء جيش الدفاع الاسرائيلي الحق بالقيام بدوريات، جواً، بحراً وبراً على أن يكون ذلك بالتنسيق مع سلاح الجو اللبناني.

٣ - إقامة ثلاث محطات إنذار في جنوبي لبنان، واحدة منها في الباروك.

٤ - تدمج قوات سعد حداد بالجيش النظامي اللبناني.

٥ - حل جميع الميليشيات المسلحة في لبنان - كان هناك اعتقاد ان القوات اللبنانية ستصبح جزءاً من الجيش اللبناني -.

٦ - إقامة منطقة منزوعة من الأسلحة الثقيلة - مدافع، بطاريات صواريخ - تمتد حتى

خمسين كيلومتراً انطلاقاً من الحدود الشمالية لاسرائيل.

٧ - لا يحق الترخيص لمنظمة التحرير الفلسطينية بفتح أي مكتب لها في العاصمة اللبنانية.

٨ - تأليف لجنة تتولى تطبيع العلاقات، على أساس حدود مفتوحة.

هذه الوثيقة، التي اعتبرها شولتز «واقعية ومعقولة» كانت تفتقر إلى الواقعية في التفكير. اعتقد واضعوها ان أمين الجميل، سيتمكن قريباً - وقريباً جداً - من السيطرة على الأطراف المتنازعة في لبنان - هكذا اعتقدوا -؛ ولربما من هذا المنطلق أيضاً، وضع الاسرائيليون شروطاً لتنفيذها؛ الأول: انسحاب منظمة التحرير الفلسطينية من الجبل والبقاع نحو الشرق (؟). الثاني: تبادل الاسرى. الثالث: بعد هذا يتراجع جيش الدفاع الاسرائيلي إلى خط دفاع على عمق يتراوح بين ٤٠ - ٥٠ كلم ضمن الأراضي اللبنانية، في هذه الأثناء ينسحب الجيش السوري من منطقة الجبل، ويحل محله عناصر من القوى المتعددة الجنسيات خاصة على امتداد طريق بيروت - دمشق. ويبقى جيش الدفاع الاسرائيلي في جنوبي لبنان، حتى التوصل إلى تحديد المنطقة المنزوعة السلاح في الجنوب، وتطبيع العلاقات بين البلدين؛ ويتم هذا الانسحاب الأخير وفق جدول زمني، يتزامن فيه انسحاب الجيشين السوري والاسرائيلي من جميع الأراضي اللبنانية.

وافق أمين على الورقة، لكنه اعترض على مبدأ **تطبيع** العلاقات الذي ذكره باتفاقية السلام المصرية - الاسرائيلية. أما سعد حداد، فلا بد من مثوله - ولو شكلياً - أمام المدعي العام العسكري للنظر في قضيته وتبرئته من تهمة الخيانة والهرب من الجيش. ولكن واشنطن، اعتبرت الاعتراضات غير مانعة للتفاوض، لذلك، وبتشجيع من شولتز، واينبرغر، حبيب ودرايبر، تمكن الطرفان من تحديد موعد للبدء في هذه المفاوضات، وهذا ما أزعج شارون الذي لم يكن على علاقة طيبة مع مبعوثي واشنطن، بسبب حصار بيروت، وها هو اليوم يراهم يخطفون منه أضواء إدارة المفاوضات مع لبنان، وهكذا، وبينما الاتصالات الرسمية تسير على قدم وساق، كان هناك وسيط سري ينتقل من بيروت إلى تل أبيب وبالعكس غير أن أمين الجميل، وضع ثقته الكاملة بالرئيس الاميركي ريغن، وهذا ما أعلنه رسمياً أثناء زيارته لواشنطن أواسط تشرين الأول ١٩٨٢ «لست رئيساً للولايات المتحدة الاميركية وحسب، بل وللبنان أيضاً. وثق أني سأتقبل نصائحك بكل طيبة خاطر». إضافة إلى ذلك، اطلع الرئيس اللبناني حبيب ودرايبر على المحادثات السرية مع

شارون.

بالفعل، توصل الفريقان اللبناني والاسرائيلي المتفاوضان سرياً، إلى وضع تصميم نهائي « للوثيقة السرية » فاستبدلت عبارة « تطبيع » بعبارة « علاقات طبيعية ». وقد نصت مقدمة هذه الوثيقة التي يفترض أن تكون سرية، والمؤرخة بتاريخ ١٤ ك ١ ١٩٨٢، على أن يسعى الفريقان للوصول إلى اتفاقية بأسرع ما يمكن، وعند الانتهاء من هذه الوثيقة حضر أريل شارون للتوقيع بالأحرف الأولى، ورغم ان الوفد اللبناني كان مستعداً للتوقيع فوراً، ورغم ان كيمحي وتامير شجعا شارون على التوقيع، رغم هذا كله، عاد شارون ورأى ضرورة اطلاع رئيس الوزراء على مضمون الوثيقة قبل التوقيع، وهكذا بقيت الوثيقة بدون توقيع. الجانب اللبناني عاد بدوره ورفض التوقيع بحجة أنها تفاهم سري بين الحكومتين اللبنانية والاسرائيلية، وتعتبر مجرد انطلاقة نحو المفاوضات الرسمية. يوم السادس عشر من كانون الأول ١٩٨٢، أي بعد يومين من رفض شارون التوقيع على وثيقة التفاهم السرية، اجتمع فيليب برئيس الوزراء مناحيم بيغن ليناقش معه « ورقة العمل » التي قدمها شامير قبل أسابيع، وما إن شرع حبيب بالحديث حتى **استل** شارون من جيبه ثلاث صفحات ـ وثيقة التفاهم السرية ـ وشرع بتلاوتها بصوت عالٍ، فيما مساعدو حبيب يسرعون بالتدوين خوفاً من ضياع أية كلمة.

وتساءل حبيب: « هل الرئيس جميل موافق على هذا؟ ».

« طبعاً... موافق » أجاب شارون.

حملق حبيب وهو يقول: « سمعت غير ذلك في لبنان ».

بعد أربع وعشرين ساعة من هذا اللقاء، أطل شارون، ليعلن بفخر وسرور فحوى « وثيقة التفاهم السرية » التي تم التوصل بعد اتصالات مباشرة بين بيروت وتل أبيب، أراد شارون بفعله هذا، إثبات قدرة البلدين على الوصول إلى اتفاقيات بدون مساعدة واشنطن. المفاوض اللبناني، ازداد صلابة في رفضه التوقيع، شارون، في محاولة منه لممارسة الضغط على أمين الجميل، زار بيروت يوم الثالث والعشرين من كانون الأول ١٩٨٢ وقابل الشيخ بيار الجميل مهدداً من أن ابنه سيلاقي الصعوبات في حكمه للبلاد، ولن تمتد رقعة سلطته أبعد من حدود قصر بعبدا. وأجاب بيار الجميل « لن أخسر واحداً وعشرين دولة عربية في سبيل كسب ود اسرائيل ». وصدق قول شارون، وبدأ أمين يواجه الصعوبات، فوضع اللوم على شارون؛ وعندما بدأت المعارك في الشوف بين الدروز والكتائب أيقن أمين أن

شارون يضغط عليه، ليس هذا وحسب، بل واتهمه أيضاً بإرسال الجنود الدروز لمساعدة جنبلاط وتزويده بالأسلحة، وكل هذا يتم التفاهم عليه بلقاءات سرية بين جنبلاط وممثلين اسرائيليين. مواجهته الثانية مع اسرائيل كانت حين أقدم شارون على توسيع رقعة انتشار قوات سعد حداد. أما المواجهة الأهم فكانت حين أقدم أمين على إجبار فادي فرام لسحب قواته من بيروت الشرقية وإحلال الجيش اللبناني فيها واستلام الحوض الخامس في مرفأ بيروت. هذا الحوض الذي كان يدر أموالاً طائلة على الكتائب؛ وأصدر قانون خدمة العلم، بهدف انخراط الشباب في صفوف الجيش بدلاً من الالتحاق بالميليشيا.

برعاية الوسيط الاميركي، افتتحت المفاوضات اللبنانية ـ الاسرائيلية الرسمية يوم الثالث من كانون الثاني ١٩٨٣. الوفد اللبناني تمثلت فيه جميع القوى السياسية والطائفية في لبنان: الدكتور انطوان فتال، السفير ابراهيم خرما، اللواء عباس حمدان وضابطان، واحد مسيحي والآخر شيعي. أما الوفد الاسرائيلي فكان برئاسة دايفيد كيمحي، الذي تربطه علاقات حميمة بأمين الجميل، والجنرال تامير. الولايات المتحدة الاميركية تمثلت بفيليب حبيب وموريس درايبر؛ وكانت تتم مداورة بين خلدة في لبنان وكريات شمونة في اسرائيل، وأخيراً استبدلت بناتانيا. منذ اليوم الأول، رفض المفاوض اللبناني ان تتضمن الاتفاقية أية اسس تسيء إلى العلاقات اللبنانية العربية، وهذا حكماً يعني رفضاً لفتح الحدود بين البلدين، ومنح مكاتب التمثيل الصفة الديبلوماسية.

أثناء المحادثات، كانت عين أمين على واشنطن، تراقب باهتمام بالغ كل ما يجري. ومثله مثل السادات من قبل، لم يكن ينظر إلى الاتفاقية على أنها نهاية المطاف، بل كان ينظر إليها على أنها الباب لكسب الدعم الاميركي لنظامه، وبالفعل، فقد استطاع أمين الحصول على وعود أميركية ومساعدات عسكرية واقتصادية، فتم تزويد الجيش بالمعدات الحديثة وتدريبه عليها. وكان يهدف أيضاً إلى الحصول على تعهد من الرئيس ريغن لضمان سيادة لبنان واستقلاله ضمن حدوده المعترف بها دولياً.

طوال فترة المفاوضات، كانت واشنطن تسعى جاهدة لطرح الهم السوري جانباً، على العكس الوفد اللبناني؛ فسوريا ما تزال تسيطر على نصف البلاد تقريباً، وما يزال جيشها قوياً؛ وما يزال أيضاً، للرئيس السوري نفوذ فعال لدى الفئات الاسلامية واليسارية في بيروت، مما يعني أن النفوذ السوري قادر على تفجير الوضع ساعة تشاء دمشق. ولكن استراتيجية ريغن كانت تقضي بتأجيل الموضوع السوري، وهذا ما باح به لشامير « دعنا من

سوريا الآن»، غير أن هذا لم يمنع سريان إشاعات تقول بلقاءات سرية بين دمشق وتل أبيب خاصة بين شارون ورفعت الأسد ورئيس الأركان السوري حكمت الشهابي. وهذا ما دعا الدكتور فتال إلى طلب تفسير رسمي لهذه الإشاعات، فجاء جواب كيمحي نفياً قاطعاً، وهل النفي وحده يقنع؟

موضوع الاتصالات السورية ـ الاسرائيلية، أثير مع المفاوضات حول نقاط المراقبة الاسرائيلية في لبنان. موريس درايبر اقترح على الجانب الاسرائيلي أن يتولى «حلفاؤهم الكتائب استلام هذه النقاط». ولكن شارون صرح في بيروت، ان موضوع نقاط المراقبة ليس أمراً حيوياً بالنسبة له لأنه يرغب **بإعطاء** السوريين مثل هذا الحق. وهنا ارتفعت الأصوات في القاعة، بشكل يتنافى والأعراف الديبلوماسية. فتساءل الدكتور فتال «هل انضم شارون إلى جبهة الرفض؟» وتصدى له الجنرال تامير قائلاً: «لم نأتِ إلى هنا لنسمع هجوماً على وزير في الحكومة الاسرائيلية... لعمري ما سمعت كلاماً كهذا يقال في جلسة مفاوضات».

وانفجر فتال «شارون يريد أن يعقد صفقة مع سوريا على حسابي... مع أية دولة تريد تقسيم بلدي؛ فكيف تريدني أن أتفاوض مع مهووس كشارون؟».

واستغل الوفد الاميركي هذا النقاش ليبعد الوفدين عن الموضوع السوري، لأنه شأن لبناني، محاولاً تمرير سلام لبناني ـ اسرائيلي ـ فلسطيني، ومتى تم ذلك، فهذا يعني أن دمشق ستجد نفسها بعزلة تامة؛ والجدير بالذكر أن منظمة التحرير الفلسطينية هي جوهر أي بحث في مشروع سلام. فبالعودة إلى الوراء ـ إلى ١٢ آب ١٩٨٢ ـ نعلم أن وزير الخارجية الاميركية جورج شولتز حذر شارون من أن واشنطن ترى أن تدمير منظمة التحرير الفلسطينية واخلاءها بيروت ما هما إلا مقدمة لحل القضية الفلسطينية ـ مشروع ريغان، كان يومها ما يزال قيد الاعداد ـ وأخبره «بالنسبة للقضية الفلسطينية، أنا أدرك... والرئيس يدرك، أنه لا بد من الاهتمام بها. لا بد من تشتيت منظمة التحرير الفلسطينية، وهي بالفعل تشتتت، ولكن طالما ان المشكلة الفلسطينية لم تحل، فإن منظمة تحرير جديدة سترتفع من بين الركام، وهذا يبهج السوفيات الذين هم على استعداد لمدها بالسلاح». كذلك حذر شولتز شارون من عدم الاهتمام بما يقوله الرئيس الاميركي «أنا أعرفه جيداً، إنه رجل جدي ورابح بطبيعته: ويعرف كيف ينال ثقة شعبه. والكونغرس أيضاً. انتبه له... تذكر أنه صديق لاسرائيل، ويعرف الكثير عن الشرق الأوسط. فلا تخطىء في تقديرك له».

مع اطلالة الفاتح من أيلول، أعلن الرئيس الاميركي ريغن مشروعه للسلام في الشرق الأوسط، وبدا أن ياسر عرفات سيتفاهم مع الملك حسين للعمل معاً من أجل السلام على أساس مشروع ريغن؛ وبعد أن انتهى الرجلان من التفاهم على كل شيء، سافر عرفات إلى الكويت لافتتاح جلسات اللجنة التنفيذية لحركة فتح التي اعترضت على المشروع، ورفضته. في المقابل، اتفقت سوريا واسرائيل على رفض المشروع، وإن يكن لكل منهما أسباب خاصة.

خلال شهر شباط ١٩٨٣، حاولت واشنطن ثانية، الضرب على الوتر الحساس، فأوفدت، سرياً، إلى تونس، موفدين للقاء عرفات وإقناعه بانسحاب ما تبقى من ماتلي منظمة التحرير الفلسطينية من طرابلس، بحراسة القوات المتعددة الجنسيات. وخلافاً لكل التوقعات، أعلنت حكومة العراق موافقتها على استقبال أغلبية المقاتلين الذين سيخلون طرابلس، وكذلك فعل الأردن.

وهكذا بدأ السيناريو الاميركي يشق طريقه إلى الاشرطة السينمائية، ولكن الممثلين امتنعوا عن إكمال اللعب أمام الكاميرات. فالسيناريو ينص على أنه بعد عملية الاخلاء الثانية، تبدأ المفاوضات لحل المشكلة الفلسطينية على أساس مشروع ريغن، ولكن، وبعد تفاهم بين حسين وعرفات، وجد هذا الأخير نفسه غير معني باخلاء ما تبقى من مقاتليه في لبنان، وهكذا هوت الآمال.

الهدف الاساسي للمناورة الاميركية هذه، هو عزل سوريا، وتنبهت دمشق للموضوع وتحركت بقوة لتثبت انها ما تزال تتمتع بنفوذ سياسي قوي في المنطقة. فأقدمت على معاقبة عرفات لمغازلته الملك حسين وأميركا معاً، بتحريك العناصر المناوئة له في منظمة فتح ونجحت في ذلك، فبدلاً من الاخلاء بموجب اقتراح اميركي، أجبر عرفات على اخلاء قواته من البقاع إلى طرابلس ومن طرابلس إلى دول عدة تحت ضغط البندقية الفلسطينية الموالية لسورية، وبالوقت ذاته مارس الاسد ضغوطاً قوية على الجميل لمنعه من تنفيذ الاتفاق مع اسرائيل، فساعد الدروز اعداء الجميل العنيدين، وعزز قواته في لبنان، وكأنه يريد ابلاغ اسرائيل انه ما يزال قادراً على مواجهتها معتمداً على الدعم السوفياتي لنظامه؛ وبالفعل ضاعف السوفيات عدد مستشاريهم في سوريا إلى خمسة آلاف، وأحيطت دمشق ببطاريات صواريخ أرض ـ جو البعيدة المدى سام ٥ Sam 5، وبإشراف مباشر من الخبراء السوفيات.

بالمختصر، اصطدمت المشاريع الاميركية بجدار منيع. فبدلاً من أن يركع حافظ أسد على ركبتيه، وقف على رجليه معتزاً بقوته، فخوراً بنفسه.

مع نهاية شهر نيسان وصل شولتز إلى اسرائيل، بعد جولة في الشرق الأوسط، بهدف تحريك المفاوضات اللبنانية ـ الاسرائيلية. وفي لقائه مع بيغن قال: «تكلمت مع عدد كبير من العرب، وحتى حين يتكلمون بالمنطق، كنت استشف حقدهم عليكم، أما في لبنان فلم ألمس شيئاً من هذا».

وفي مجلس الوزراء تمكن الجنرال تامير من إقناع المجتمعين بالقبول بالدوريات ومراكز المراقبة المشتركة بدلاً من محطات الإنذار. وعارض شارون، ولكنه لم يعد وزيراً للدفاع ولم يعد لمعارضته قيمة تذكر. وبدأت سبحة التنازلات الاسرائيلية تكر، فتخلت عن مبدأ التطبيع، وعن مطالبة أمين الجميل بالالتزام علناً بفتح الحدود بين البلدين ولكنها ظلت مصرة على إنهاء حالة الحرب ومنع تواجد قوى معادية لاسرائيل على الأراضي اللبنانية.

وانتهت المفاوضات إلى ما سمي اتفاق ١٧ أيار الذي نال موافقة مجلس النواب اللبناني بأغلبية ٨٠ صوتاً، بالنسبة لاسرائيل، هذا الاتفاق، كان يهدف إلى إخراج الجيش الاسرائيلي من المستنقع اللبناني، والحؤول دون وقوعه فريسة حرب استنزاف تودي بحياة العشرات من جنودها.

هذا الاتفاق قوبل بالرفض السوري ـ الدرزي.

عرفات الذي فقد كل مواقعه، باستثناء طرابلس، اكتشف ان له حلفاء وأصدقاء بين صفوف الكتائب أمدوه بالسلاح الاسرائيلي والذخيرة ليدافع عن معقله الأخير طرابلس.

مع نهاية آب ١٩٨٣ انسحب الجيش الاسرائيلي من جبال الشوف إلى خط جديد على طول مجرى نهر الأولي؛ هذا الانسحاب كان يفترض أن يتم قبل ذلك التاريخ، ولكن المداخلات الاميركية حالت دونه، أملاً بتوصل جميل وجنبلاط إلى اتفاق يقضي بحلول الجيش اللبناني محل الجيش الاسرائيلي المنسحب.

هكذا انتهى السيناريو الاميركي؛ انتهى بانقلاب جذري؛ فبدلاً من لبنان موحد، صار هناك لبنانان، وبدلاً من طرد السوريين، صارت الكلمة للسوريين. وبدلاً من أن يتمكن جيش الدفاع الاسرائيلي من حماية نفسه، أجبر على خوض حرب استنزاف في جنوبي لبنان.

وبعد ؟ [١]

هذه الـ «وبعد» هي النهاية المنطقية لهذا الكتاب ـ الوثيقة ـ العظة.

الكتاب الوثيقة، لأنه يؤرّخ فترة حرجة من تاريخ منطقة الشرق الأوسط وليس من تاريخ لبنان وسوريا والقضية الفلسطينية.

والكتاب العظة، لأنه آن لنا أن نتعظ من أخطاء الماضي، آن لنا أن نخرج من قمقم الترهات والخرافات والهوبرات والخطب الحماسية إلى فسيح الواقع الرحب، إلى منطق التفكير. لن ننهض من نكسات التاريخ، إلا بمعرفة أسبابها والعمل دون تغلغلها مجدداً في يومياتنا السياسية والثقافية والإقتصادية والإجتماعية إلخ. أما آن لنا أن نربي «أبا طيّب» جديد وعنترة لا يركب فرساً بل دبابة، وأبا فراس لا يقع في أسر ولا يستجدي دموع جارتـه؟

هذه الحرب، حرب إسرائيل في لبنان كيف ولدت؟ وأين؟ هل صحيح أن شارون ـ وحده من دون سائر وزراء إسرائيل وحكامها وقادتها العسكريين ـ هو المسؤول عنها؟ بالطبع لا، فشارون ليس أكثر من مكبّر صوت، بث أصوات جميع زملائه الذين كانوا يهمسون لأنفسهم. فمن خلال قراءتنا لهذا الكتاب، ولغيره من الكتب والصحف وقصاصات الورق، نعرف أن شارون إنسان مولع بالقتال، محب للحرب، ليس في نفسه شفقة، لا يحمل من الإنسانية ـ كصفات ومزايا ـ إلا كونه إسم إنسان بناء لتعريف علم النحو والصرف، والحال هذه كيف يعيَّن وزيراً للدفاع؟

إن هذه الحرب، لم تترك آثارها على لبنان: والجيش السوري، ومنظمة التحرير

(١) هذه الخلاصة، هي ثلاث خلاصات معاً، خلاصة الطبعة العبرية التي فيها المزيد من التفاصيل أحياناً والنواقص أحياناً أخرى ـ وخلاصة الطبعة الإنكليزية، وأخيراً الخلاصة الشخصية للمترجم الذي هو كمواطن لبناني، رفض إنتماءه لأية طائفة، إلا من خلال إنتمائه للبنان الوطن السيد والجنوب الصامد. (المترجم).

الفلسطينية، وحسب، بل غطى دخانها سماء إسرائيل أيضاً، وتسببت بالأذى للذين خططوا لها. هل كان طلب ياسر عرفات نشر الآية التوراتية القائلة «إن أي أذى يصيب لبنان سيرتد عليك» في محله؟ قد يكون ذلك.

ولدت حرب إسرائيل في لبنان، بنفس إنسان مهووس مغرور معقَّد بقوة جيشه لا يعترف بوجود غيره، لم يكتفِ بتجاهل زملائه الوزراء، بل خدعهم وخدع نفسه أيضاً، لم يسمح لأحد من مساعديه أن يتكلّم إلا إنطلاقاً من تفكيره، فدفع شباب بلاده إلى حرب، كانت في البدء دفاعية، ومن أجل سلامة الجليل، فإذا بها تتحوَّل إلى حرب إبادة واجتثاث، وكانت أيضاً تهدف ـ بناء لزعمه ـ إلى حماية المسيحيين، فإذا بها تسبّب تهجيراً جديداً لهم وتريق من أجسادهم دماً جديداً.

دفع جنوده، بما له من سلطة كوزير للدفاع، إلى أرض بعيدة، إلى أبعد بكثير من المدى الذي وافق عليه مجلس الوزراء ـ ٤٠ كلم ـ ومقابل هذا الوضع اللامنطقي، تكبَّد جيشه ما يقارب السبعماية[٢] قتيل إضافة إلى عدد كبير من الجرحى. أما الخسائر المادية فحدِّث عنها ولا حرج. قاد شارون الحرب، وفقاً لما أراد لها هو أن تكون، رغم التحذيرات والتحفظات العسكرية والسياسية؛ بدا شارون وكأنه يحاول تغطية تصرفاته بغطاء سياسي من مجلس الوزراء، ولكنه في الحقيقة، لم يكن مهتماً بهذه التغطية، بقدر اهتمامه بتحقيق طموحاته. كان يطلب من مجلس الوزراء موافقات على خطط غير موضوعة، وإن طلب منه شرح التفاصيل يتهرَّب من الإجابة بتغيير مجرى الحديث، وسبَّب أمراضاً نفسية لبيغن، وأجبره على الإستقالة من منصبه.

نعم، شارون تصرَّف كفرد في أمَّة وكأمَّة في فرد، حال دون مساعديه ومرؤوسيه والمسؤولين الكبار. لم يسمح لرئيس الأركان أن يشرح المواقف أمام الوزراء، ولم يسمح كذلك لرئيس جهاز الإستخبارات، لقد جعل نفسه قناة الإتصال الوحيدة بين الجهاز العسكري للدولة والجهاز السياسي، فجرجر خلفه الوزراء وحرَّم عليهم أن تزل قدم أحدهم.

لم يكتفِ شارون بخداع زملائه، بل خدع مناحيم بيغن الذي وضع فيه كل ثقته. أقنعه أنه لن يكون هناك صدام مع السوريين ولن نطلق النار عليهم إلا دفاعاً عن النفس،

(٢) هذا الإحصاء لا يشمل قتلى المقاومة الوطنية في الجنوب. (المترجم).

دون أن يقول له كيف ستعبر دبابات جيش الدفاع الإسرائيلي وجيوشه مناطق خاضعة لسيطرة الجيش السوري وتحت إشرافه، دون إقدام هذا الأخير على إطلاق النار؟ أجبره على مساندته وإسكات معارضيه أمثال تسيبوري، وحوَّل الحكومة من حكومة مدنية تتحكم بجميع أجهزة الدولة بما فيها الجهاز العسكري، إلى حكومة محكومة من قبل حاكم عسكري غير معلنٍ عنه، هذا الحاكم هو شارون نفسه، أوكل هذه المهمة لنفسه، دون إنقلاب، وبلا أي بلاغ رقم واحد، مشوهاً بذلك وجه الديمقراطية الإسرائيلية التي كانت حكومات إسرائيل تتباهى بها أمام «العالم الحر» لتحريضه على الوقوف إلى جانبها في نزاعها مع العرب.

كل الذي تقدَّم يقودنا إلى سؤال: أوَلم يكن من الممكن تغيير زاوية الأحداث لو تحرّك الوزراء والعسكريون والصحافة؟ قد يكون ذلك وقد لا يكون، لكنه من المؤكد أنه لو تحركت هذه الأجهزة، لكانت خففت من وقع «الصدمة». إذ من غير المعقول أن يتسلّم عجلة القيادة سائق متهور لا يعرف كيف يدوس على الفرامل، وهو في الأصل غير مرخص له بالقيادة. نقول هذا، لأن خطة شارون لغزو لبنان لم تكن مبنية على أسس منطقية وواقعية، بل على سذاجة في التفكير وبساطة، وإتكال على مبدأ القوة. لقد أراد إيجاد «**نظام سياسي جديد**» في لبنان وتغيير خارطة القوى العسكرية في المنطقة، والقضاء على النفوذ السوري، فإذا بهذه الأشياء كلها تنقلب عليه وتجبره على الإستقالة ـ إن أي أذى يصيب لبنان سيرتد عليك ـ. فالنفوذ السوري، نما وتناسل وامتد حتى قصر بعبدا، وضفاف النيل ـ إن صح التعبير؛ أراد طرد السوفيات من المنطقة، ولو لم يعلن ذلك، فإذا بالسوفيات يعززون وجودهم السياسي والعسكري. وأراد أيضاً جعل العالم العربي يركع طالباً منه الرحمة والغفران، فإذا بهذا العالم يكبو لفترة، لكنه يعود وينهض. حتى **مصر كامب دافيد**، وقفت مندِّدة بسياسة إسرائيل شارون ـ لا فرق بين شارون وغيره ـ.

حرب إسرائيل في لبنان، هي نتيجة حتمية لاعتقاد قادة إسرائيل أن «**العسكريتاريا**» قادرة على تغيير الواقع السياسي للشرق الأوسط: فإذا بالعسكريتاريا تفتش عن مخرج تنفذ منه بجلدها من مستنقع لبنان. الأربعة وعشرون ساعة، امتدت شهوراً وتخطت السنوات. حلفاؤه كانوا أذكى منه في تقييم المواقف وتحليل المعطيات، لذلك رفض بشير إشراك قواته في الحرب إلى جانب جيش الدفاع الإسرائيلي، رغم الضغوطات **فوق العادية** عليه، وهكذا جاءت مشاركة الكتائب بمثابة رفع العتب، وليس هم «عرب

جبناء » على حد تعبير شارون.

مشكلة شارون، ليست في انعدام القدرة التحليلية عنده وحسب، بل في عدم قدرته على تقييم أعدائه وحلفائه معاً وفهمهم. فهو لم يفهم أن عليه قول الحقيقة لجنوده لأنهم **هم** الذين يدفعون ثمن الإنتصارات عرقاً ودماً. وهذا ما اشتكى منه جنود فوج المشاة في بحمدون، « تقولون أحفروا الخنادق وحصنوا المواقع، وبعد ساعتين تأتوننا بأمر جديد تقدموا ». حرب طريق بيروت ـ دمشق نبهت أولئك المشاة، والذين يقودون الدبابات الخ. إلى أن سلامة الجليل، **كشجرة الغراب** في المسرح اللامعقول؛ وهكذا فقد شارون مصداقيته لا أمام العالم الخارجي، بل أمام أهل بيته وجنوده الذين رأوا في سلاحهم حياة له وموتاً لهم ولغيرهم في آن.

لقد استغل شارون كل منتوجات العلم الحديث على الصعيد العسكري ولكن العلم بدون ضمير يدمّر العالم، وهكذا استفاق ضمير ألي جيفا Eli Geva وطلب إعفاءه من الخدمة، لأن ضميره يعذبه، ولهذا أيضاً رفض العديد من الجنود القتال في لبنان. كان الجندي الإسرائيلي يحترم بندقيته ويقدسها، ولكنه بعد حرب لبنان، وجد أن هذه القدسية انتهكت والحرمة اغتصبت، وجاءت مجازر صبرا وشاتيلا لتعمّق هذا الشعور عنده.

أراد شارون التخلص من الفلسطينيين في الجنوب، فإذا به يجابه بشعب الجنوب كله، وإذا حرب الإستنزاف تمتد وتتغلغل؛ وها هي إسرائيل تبحث مجدداً عن نقطة ماء تغسل بها وجهها لتنجي نفسها من قبضة المقاومة الوطنية في الجنوب وكأن قول الشاعر الإنكليزي كوليريدج يتردد اليوم « الماء.. الماء في كل مكان، وليس من قطرة لنشرب ».

وإن كان يحق لنا إعطاء نتائج لحرب شارون في لبنان، فعلينا المبادرة إلى القول، إن هذه النتائج لم تكن بمستوى طموح بيغن ـ شارون، بقدر ما كانت خيبة أمل لهما.

١ ـ تمكنت إسرائيل من تدمير منظمة التحرير الفلسطينية وإخراجها من بيروت، وتمكنت أيضاً من إبعاد البندقية الفلسطينية عن الجليل إلى ما هو أبعد بكثير من الأربعين كلم. ولكن الحقيقة أن إسرائيل لم تدمّر المنظمة، بقدر ما المنظمة ساهمت في تدمير نفسها: خاصة بعد إنشقاقها على ذاتها؛ والصدام الدموي الذي وقع بين فصائلها في سهل البقاع أوائل صيف ١٩٨٣، ولكن هذا لا يعني أن بذور الإرهاب اقتلعت من أرضها التي هي المخيمات المنتشرة في الجنوب وبيروت والشمال والبقاع، لأن هذا الإرهاب لا يمكن القضاء عليه طالما أن القضية الفلسطينية لم تحل بعد.

ترى من يمنع عودة المنظمة إلى بيروت؟ حكومة مركزية قوية، وهذا ما يفتقر إليه لبنان حتى اليوم، فالوفاق الوطني بين الفئات اللبنانية المتنازعة، ما يزال حلم اللبنانيين أنفسهم، وما طلب إسرائيل اليوم من لبنان، ضمان أمن حدودها الشمالية ـ ترتيبات أمنية ـ إلا إعترافاً واضحاً وصريحاً من إسرائيل أنها لم تتمكن، بعد كل الذي قامت به، من القضاء على جذور المقاومة الفلسطينية.

٢ ـ حرب شارون في لبنان، تسببت في هزيمة سياسية لتكتل ليكود وبإجبار شارون نفسه على الإستقالة من منصبه كوزير للدفاع، والبقاء وزيراً بلا وزارة رغم توصيات لجنة كاهان. وهذا، إن عنى شيئاً فيعني إنهيار الديمقراطية في بلد طالما تغنى بالديمقراطية، وإلا كيف قتل إميل غرونزويغ؟ ألأنه تظاهر من أجل تطبيق حكم لجنة، طبل الإعلام الإسرائيلي لها ـ ويا للأسف الإعلام العربي أيضاً ـ على أنها رمز الديمقراطية؟

٣ ـ ما من أحد ينكر أن إسرائيل تمكنت من تدمير بطاريات الصواريخ السورية في البقاع، ومن تدمير آلية الجيش السوري الذي كان متواجداً في لبنان، ولكن هذا لم يقضِ على سورية ولا أطاح بحافظ أسد، ولا أخرج السوفيات من الشرق الأوسط، على العكس، فالسوفيات، أعادوا بناء آلية الجيش السوري وبمعدات أحدث من التي دمرت، وحتى اليوم ما يزال السوريون في لبنان.

٤ ـ هنا، لسنا ندري من ضلّل الآخر، المسيحيون أم شارون؟ إنما الذي نعرفه أن المسيحيين خسروا مواقعهم في الشوف وعاليه، خسروا ٦٠ قرية وبلدة.

٥ ـ ضعف العلاقة بين إسرائيل والجاليات اليهودية في العالم.

بالمختصر المفيد، صدقت نبوءة حبقوق « إن أي أذى يصيب لبنان سيرتد عليك ».

القسم الثاني

لبنان اطول حروب إسرائيل

ـ يعقوب تيمرمان

- ١ -*

بالنسبة لي لم تبدأ حرب شارون عند الساعة الحادية عشرة صباح السادس من حزيران ١٩٨٢، بل قبل ذلك بست عشرة ساعة؛ أي حين ذهبت إلى منزل ولدي في شارع بيرلا Burla في تل أبيب لأبلغه نبأ استدعائه للخدمة وأصطحبه برفقة زميل له يسكن بجواره إلى مركز التجمع.

قبل الخروج من المنزل، دخل ولدي مع زوجته إلى غرفة النوم لثلاث دقائق، إنها من الجيل الإسرائيلي الثالث. غير معتادة على إظهار المشاعر العاطفية، مثلنا نحن معشر الأصل اللاتيني. حتى إبني يشعر بالخجل، كثيراً. حين نزلت من السيارة لوداعه، شعرت أنه يكاد ينفجر. أخذته بين ذراعي وقبّلته بحرارة. صديقه كان يراقب هذا المشهد باندهاش وفوجيء حين قاطعت كلمات وداعه بمد يدي لمصافحته.

الإسرائيليون يتباهون ببرودتهم في الأوقات الصعبة، إنهم مخطئون. إنهم يعاقبون أنفسهم ويتحملون عذاباً نفسياً هم في الواقع بغنى عنه. هناك طريقة واحدة يعبّرون بواسطتها عن عواطفهم: إصغِ إليهم وهم ينشدون، إصغ فقط. إنهم دائماً يغنون: على الطرقات، في الحدائق، في الملاعب، في كل مكان، كل من ولد ونما في إسرائيل، يغني.

النصر كالهزيمة، الماضي والمستقبل. موسم حصاد جديد في مستعمرة نائية عند أطراف صحراء النجف، أو رؤية غروب الشمس، من على تلة لم يزرها أحد منذ ألفي عام. كل سبت يتجمعون هنا وهناك ويغنون. وكل مرة في مكان ما، على العشب، على الشاطيء، وحتى في مدينة صغيرة، ما تزال قيد الإنشاء. وكل سبت يعرض التلفزيون هذه المشاهد، إنه يلاحق تلك الوجوه، وخاصة وجوه المسنين، حين يغمضون عيونهم، وعلى شفاههم ترتسم الإبتسامات، تاركين أنفسهم تحلّق في الفضاء على جناح النغم. إنها الصورة النقيض لذاك اليهودي القديم الذي أفنى حياته منتحباً متضرّعاً لربه. إنه لأمر غريب أن ترى رجلاً مسناً

★ لقد اخترنا من هذا الكتاب ما ليس موجوداً في الكتاب الأول وما هو متعلّق بصلب الموضوع فقط، وذلك منعاً للتكرار، ومنعاً لإلهاء القارىء بأشياء خارجة عن الفكرة التي نريد طرحها.

يسير وسط الزحام وأزرار قميصه مفككة، لسعت حرارة الشمس وجهه وجسده، وسعيداً، هذا إذا كان يحق لي القول إن الإسرائيليين يعرفون السعادة. ♦

بعيد قدومي إلى إسرائيل عام ١٩٧٩، كنت بزيارة الكاتب عاموس عُوز Amos Oz في مزرعته هيلدا، سـألني عن مشاريعي، فأجبته: أريد أن أكون سعيداً، فأنا لم أعرف السعادة من قبل، وهنا ضحك صاحبي وقال: بنو البشر ليسوا بحاجة للسعادة، لأنهم لن يكونوا كذلك. وحده الإسرائيلي يمكنه قول هذا، بسهولة، وببرودة أعصاب، حتى ولو كان ما يزال شاباً وسيماً، ويصارع الحياة من أجل مستقبل سعيد، كعاموس عُوز تماماً.

في الجيش مئات الفرق، التي تغني على أنغام الغيتار، وأنات الناي أحياناً. ويستغل الإعلام هذه الظاهرة، فيعرض التلفزيون هذه الصور، إنهم جنود من مختلف الأعمار، ويغنون أغاني حديثة وقديمة أيضاً. فلماذا لا ننظر اليوم إلى وجوه الشباب ذوي الشعور الطويلة، واللحية الطويلة أيضاً، وتلك الحليقة. إنهم نماذج حيوية لمجتمع الغناء. وحتى تندمج في حياتهم، ما عليك إلا أن تشرب وتشرب، وساعتئذ فقط، يمكنك أن ترى إسرائيلياً مرتاحاً سارحاً مع أحلامه، ولكن لن أتجرّأ على القول: سعيداً.

لنعد إلى شارون. حربه، بدأت عملياً، بعد استدعاء الأولاد إلى الخدمة؛ أي حين أمر ثلاثة من ألويته بالزحف. حين تقلع الطائرات لتقصف أهدافاً عربية لا يشعر الإسرائيليون أنهم في حالة حرب، لأن هذه الطائرات ستعود إلى قواعدها سالمة؛ أما حين يشترك المشاة في القتال، فالأمر مختلف جداً. فيما مضى، كان من السهل جداً التفكير بعملية عسكرية، أما اليوم، وبعد استلام شارون لمهامه في شهر آب ١٩٨١، فمن غير المعقول أنه سيقتنع بأي شيء غير الحرب.

مساكين هؤلاء الذاهبون إلى حرب شارون. ففيهم من يعتقد أنه ذاهب لحماية أرواح المواطنين المعرضة للخطر، ولربما هذا ما جعل الإسرائيليين يتناقلون الأخبار دون تعليق. إنها الحرب في حياتنا اليومية. ابن بائع الزهور استدعي للخدمة، إنه مظلي، ووالده يعرف مكان تواجد المظليين: على الخطوط الأمامية. وآخرون وآخرون، مشاهد تعيد إلى الأذهان «مواكب التضحيات».

وجوه كثيرة اختفت لا أعرف أسماء أصحابها، ولكني كنت ألتقي بها في الشارع وفي كل مكان. ليس لدى الإسرائيليين سوى مقولتين: الأولى تفاؤلية «كل شيء سيتحسن»، والثانية تشاؤمية حزينة «ستكون حياتنا أسوأ في الأرجنتين»... في جنوبي

إفريقيا لن يكون لك مستقبل... أو «اختفت الحياة اليهودية من تركيا».

شارون غيَّر النظرة إلى الحرب، وامتزجت الأحاسيس بالقرف، إنه مجرد مولع بالقتال، وبدونه، قد لا تنشب حرب، ولكن ها نحن في حرب، بالطبع فشارون، الجندي العظيم، ممسك بزمام الأمور. إننا لا نريد حرباً على الإطلاق، ولكنه من الأفضل أن نربح. وبما أنه لا خيار لنا، فليس بوسعنا سوى سماع الأخبار.

شارون في كل مكان، وحوله يتحلّق الإسرائيليون، وعلى وجوههم ترتسم علامات التشاؤم والتفاؤل، وترقب المزيد من الشدائد. في غير هذه الحرب، كانت المعنويات مختلفة جداً.

حتى اليوم ما زلت أتذكّر زيارتي لمقر قيادته في بيئير شيفا Beer Sheva، عام ١٩٦٩. لقد كان بديناً، إنما أنحف بكثير مما هو عليه اليوم. أمضى ساعة كاملة وهو يشرح على خارطة كبيرة لشبه جزيرة سيناء، كيف قاد قواته، أيام حرب الأيام الستة، نحو قناة السويس غرباً، وشرم الشيخ جنوباً. انفعل وهو يتكلم، ولم ينزعج لعدم إلمامي بالأمور العسكرية، وأجاب على كل أسئلتي السياسية إنطلاقاً من مفهومه للإستراتيجية العسكرية. يومها تعرفت عليه، وعرفت أنه لا يفكر بالحلول السياسية، بل بالحلول العسكرية. وأسمح لنفسي اليوم، استعادة ذكريات اللقاء، بدا سعيداً، وليس عاطفياً، غير مقتنع بما أنجز وغير موهوب؛ وحتى اليوم ما يزال كذلك. بالوقت ذاته، أدركت أن القوة التي تحركه، غير متوفرة عند غيره. كلمة حق، إنه على علاقة دائمة مع الجغرافيا العسكرية؛ قد يخدع نابليون، فيحبه قبل خوضه معركة، وقد يقدم له الدعم أثناءه، ولكنه سيقطع رأسه بعدها.

حرب شارون، ابتدأت مع شارون. فالحرب مهنته وصنعته. وقد تكون الحرب بدأت في ذلك اللقاء، أنا لا أعني غزو لبنان، ولكني أعني تجذر فكرة الحرب عند شارون.

خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٨٢، عرف الجميع أن حرب شارون ستتخذ **شكل** غزو لبنان. وخلال هذه الفترة لم ينبرِ سياسي واحد ليناقش هذا الأمر، رغم جميع التقارير الواردة من باريس، لندن وواشنطن، وتنصح إسرائيل بالبقاء خارج المستنقع اللبناني. ورغم وجود ثلاثة رؤساء أركان سابقين في الكنيست ـ إسحق رابين، حاييم بارليف، وموردخاي غور، وسبق لهم وعبَّروا عن رأيهم بصراحة، إن غزو لبنان لا يحل المشكلة الفلسطينية. لم تكن هناك أية عقبات تعترض حياة سكان الجليل، على العكس،

كانوا يتنعمون برغد العيش.

لماذا لا نمنع الحرب؟ ما من جواب أقنعني. وأخيراً توصلت إلى نتيجة لم تخفف من أهمية السؤال، بل، قدمت لي بعض المساعدة: حين يقتنع جيش بالنصر، يتعب كثيراً من أجل تحقيق قناعته. ولن يقف بوجهه أحد؛ وحتى أكثر الناس رغبة بالسلام، يؤخذون ببريق النصر. ولكن حين تنظر إلى وجوه الأمهات، خاصة وجوه الأمهات اللواتي فقدن أبناءهن في حرب شارون، فلن تجد سوى خيبة الأمل والذهول. فالموت يؤلم. وفي الحرب لا بد من الموت؛ ومن المستحيل التفكير بالموت، بموت الإبن أو الذات: وإن قبلت الأم بالحرب، بكل ما للكلمة من معنى، فإنها ترفض موت إبنها. كلنا كنا نعلم - الإسرائيليون والفلسطينيون، أن حرب شارون ستتخذ شكل غزو لبنان، وهذا الذي جعلنا نتألّم سلفاً؛ وهل بمقدورنا أن نفعل غير ذلك؟ قبل الغزو بثلاثة أشهر، اقترحت على البروفسور ميشال والزر Walzer من معهد الدراسات المتقدمة في برنستون - نيوجرسي Princeton - Newjersy أن ننتحر معاً للتعبير عن رفضنا لحرب شارون، علّنا بذلك نحرّك فيه شيئاً من الإنسانية. وفعلاً، ماذا بمقدورنا أن نفعل؟ كل علماء مركز برنستون، وحتى كل مفكري الولايات المتحدة مستعدون للتوقيع فوراً على اقتراح حل لقضية الشرق الأوسط، ولكن هل سيقرأ شارون هذا الإقتراح، إن لم يفعل هو، فهل يفعل مساعدوه؟ خبراء الصواريخ؟ الطيارون، البحارة، استخباراته السرية ورموز الحرب في جيشه؟ هل سيعيرون إنتباهاً لما يقدمه العلماء، أو هل سبق لهم وقرأوا كتاباً من بين مئات، لا بل آلاف الكتب التي كتبها هؤلاء المفكرون؟ وهل يؤمن شارون بما يقوله هؤلاء. وبعد البحث توصلنا، والزر وأنا، إلى نتيجة واحدة، حتى ولو انتحرنا، فلن يكون لدى شارون وقت ليذرف دمعة واحدة علينا، وحتى لو فعل يهود العالم مثلنا، لن يتراجع عن تفكيره.

يوم الثالث من تموز ١٩٣٦، انتحر المخرج السينمائي اليهودي الأصل ستيفان لكن Stephan Likn في جنوه، مقر عصبة الأمم يومذاك، ليلفت نظر العالم إلى مأساة يهود ألمانيا. مات هو، وتابع هتلر حرق اليهود؛ وكثيرون لم يعرفوا أن لكن أحرق نفسه. فعله ترك أثراً عند اليهود الذين مات من أجلهم، واليوم وفي دائرة المعارف اليهودية Encyclopedia Judaica لا نجد سوى عشرة أسطر فقط عنه. مات ولم يخلّص حتى عشرة أنفار من اليهود. إذن، ماذا سيفعل العالم، اسرائيل، أو حتى شارون نفسه بجثتينا.

طريق الحرب، دائماً سهلة. في اليوم الأول، تجاهلنا الأخبار، وفي الثاني سمعنا

أخبار الإنتصارات، وهكذا، شعرنا في اليوم الثالث، أن المعركة ستنتهي بعد ساعات. وفي اليوم الرابع تناسل القلق وتنامى. حتى الآن، بالنسبة لنا، ما يزال أطفالنا، أطفال لبنان أحياء، ما تزال منازلهم غير مدمرة. كنا ما نزال مرتاحي الضمير، لم نشعر بأي أذى نفسي.

في نفس كل يهودي شيء من الماضي، ورغبة في البطولة. ولكن هل تدمير وإحراق مدن هو عمل بطولي؟ رجل يعبر **بقايا الخراب** وعلى يديه إبنه، البالغ من العمر سنوات عشر. رجال ونساء، أطفال يرفعون أياديهم إلى الأعلى: وعلى وجوههم ترتسم ملامح الغضب، ملامح، بإمكان أي يهودي أن يقرأها، إن أتعب نفسه وحدّق في عيونهم. للأسف نسينا، أو قل تناسينا، أننا كنا ضحايا الغير، فجعلنا الغير ضحايا لنا، هذا ما بدأ مع بداية اليوم الرابع للحرب، حرب شارون لها تاريخان: تاريخ البدء بالزحف: ٦ حزيران، وتاريخ البدء بالإجرام ١٠ حزيران.

كان على مناحيم بيغن أن يعي ما يحدث: إذا قصفنا صور فماذا عن كوفنتري Coventry؟ وإذا دمرنا صيدا من الجو والبحر فماذا عن ديرسدن Dresden؟ فطالما هناك سياسيون يبحثون عن حل سياسي لقضية الشرق الأوسط، فلماذا لا نتخلى عن شبح شامبرلين وانحطاطية ميونيخ؟ وأخيراً، إذا عرض تلفزيون إسرائيل - بالصدفة - مشهد طفل لبناني قتل في الحرب - وهذا مشهد مألوف - فهل يتذكّر رئيس الوزراء المليون ونصف مليون طفل يهودي أحرقهم النازيون؟ أو هل يتذكّر ما حل بعائلته؟ ومهما حاول بيغن الإدعاء أنه كان يجهل ماذا يحدث، فإن الشعب لن يغفر له أبداً، إنه كرجل دولة، يجب أن يكون مسؤولاً، وإلا كيف يطالب الناخبين بالوقوف إلى جانبه؟

من أهم مميزات إسرائيل، أن الجدل حول الحرب، بدأ مع انطلاق الرصاصة الأولى. وبعد أسبوعين، شعرنا بعدم جدوى نقاشنا. نعم إن لكل واحد من صانعي الحرب، خصائصه ومميزاته، ولكنهم في النهاية يتحدون ضمن نطاق الأنموذج العام؛ حرب لبنان، غيَّرت المفاهيم، وبيغن أدرك ذلك. فلأول مرة يفكّر الإسرائيليون بما سببوه لشعب آخر؛ لقد شعروا بالخجل مما ارتكبوه من جرائم، ومن غرائب الأمور، إنها المرة الأولى منذ ألفي سنة يشعر اليهود بالخجل، بسبب جرائمهم، فكل جرائمهم السابقة مغفورة، لأنها ارتكبت بحجة الدفاع عن النفس. ولأول مرة يخوض الإسرائيليون حرباً ليست رداً على استفزاز؛ وليست دفاعية، ورغم ذلك لم يلح في الأفق أي نذير باحتجاج شعبي

واسع، لربما بسبب انشغال الجميع بأخبار لبنان، حقاً، إنه ليس عملاً سهلاً. هذا هو ملخص أحاديثي مع عدد من الإسرائيليين، على مختلف المستويات: قادة، خبراء، أكاديميين، صحفيين، إلخ.

«كيف يمكنني أن أفكّر بذلك وكل تفكيري محصور بأولادي الثلاثة الذين يحاربون في لبنان؟ أريدهم أن يعودوا بأسرع ما يمكن، ولهذا فعلينا أن ننهي حربنا بسرعة، فما من عائلة إلا ولها أولاد يحاربون، وأنت يا تيمرمان Timerman ؟» هذا جواب من عدة أجوبة.

وأجبته: إبني الأكبر.

أين؟

لا أدري، استدعي منذ اليوم الأول وتوجه شمالاً.

أفهمت الآن؟

بعد أيام، تأكد النصر، فعم الإرتياح الجميع وبدا ذلك واضحاً في تصرف الجميع. إسرائيل بلد الذكريات: الأشكينازي - اليهود الغربيون - ما يزالون يتذكرون صور الدمار في أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية، ولهذا، فإن مشاهد الخراب في لبنان ستهز ضميرهم، وكذلك بالنسبة للسفارديك - اليهود الشرقيون، «ومعظمهم من المغرب»، فهؤلاء في أغلبيتهم يعرفون لبنان حق المعرفة، لذلك فهم يتذكرون كل شارع وكل مدينة؛ وهم حتى اليوم لم ينسوا المغرب ولا تونس، ويترقبون يوماً يمكنهم فيه زيارة عائلاتهم التي ما تزال هناك.

إسرائيل بلد صغير مساحة، وقليل العدد سكاناً، لذلك فالأخبار تسري فيها بسرعة البرق. في اليوم العاشر للغزو عاد فريق من الجنود إلى أهله. جندي نال إجازة ٢٤ ساعة، فكيف يمكن أن يصل إلى أهله ضمن هذه الفترة؟ بعض هؤلاء العائدين، كان مذهولاً، ويرفضون ما يرون. فالإسرائيليون تعودوا على الحروب، وخاصة حربي الأيام الستة والغفران، ولكن أيا من حروبهم لم تكن حرب تدمير مدن وقتل المدنيين بالمئات. هؤلاء العائدون، تحدثوا بصراحة عما شاهدوه وتركوا انطباعاً لدى ذويهم أن هذه الحرب لا هدف لها سوى تحقيق رغبة شارون. إضافة إلى الفريق الأول، عاد أيضاً فريق ثانٍ، وخاصة مراسلو الصحف الذين كانوا قد أوقفوا سياراتهم في المطلة، ودخلوا لبنان بسيارات عسكرية، ها هم اليوم يعودون بإجازات لا تتجاوز الثمانية وأربعين ساعة، وإن لم

يسمح لهم بالتعبير عن معاناتهم كتابة أو تعليقاً عبر الإذاعة والتلفزيون فإنهم نثروا شيئاً واحداً: رائحة الجثث التي لم تدفن. من المعلوم أن رائحة الموت ليست أمراً جديداً على إسرائيل التي فقدت ألوف الجنود في حروبها على مدى خمسة وثلاثين عاماً. أما الشيء غير المألوف وغير المستحب هو رؤية جثث النساء والأطفال في الشوارع وعند منعطفات الطرق. وهكذا، وفيما كانت العائلات الإسرائيلية تنتظر عودة أطفالها من المدارس، بدأ أفراد هذه العائلات يتحدثون عما يجري في لبنان. أمور كثيرة تغيَّرت. فحتى في أحواض السباحة في تل أبيب وملاعب التنس، والحدائق، حيث كان الشباب والعائلات يلتقون في العطل للشراب واللهو، حتى في هذه الأماكن تبدّلت المفاهيم. في السبت الأول بعد الغزو، جاء أحدهم بغاز مركَّب ذي رائحة تشبه رائحة الموت وصاح «رائحة الموت في لبنان»، واستبدل البعض عبارة «أرز لبنان» بالموت في لبنان. كذلك تحدث العائدون عن تدمير صيدا، صور وما تبقى من الدامور، بقصفها براً وبحراً وجواً. قد يبدو ذلك أشبه بأكذوبة ولكنه حقيقة، ونتيجة طبيعية لحرب يخوضها جيش ضخم مزود بأحدث آلات الموت.

حتى أولئك الذين ما يزالون متأثرين بمآسي اليهود عبر التاريخ، والذين سبق لهم ورفضوا سماع أية شكوى ضد تصرّف جنودنا في لبنان، عادوا وتساءلوا هل من المحتمل أن يكون اليهود قد فعلوا هذا؟ إنه سؤال بسيط، بالنسبة لمن لم يعش في إسرائيل؛ ولكنه بالنسبة للإسرائيليين سؤال مهم جداً.

الإسرائيلي فخور بكفاءة جيشه، وبشجاعة جنوده، وبروح التضحية عند ضباطه، لكنه حذر من سوء استعمال هذه الصفات. فهو يعلم أنه يقاتل ضد منظمة ليس لديها جيش نظامي ولا طائرات ولا بوارج. وهكذا وجد الجندي الإسرائيلي نفسه مخدوعاً، يريدونه بطلاً، وكيف يكون بطلاً وهو يدمّر المنشآت المدنية؟

مناحيم بيغن، ما يزال يصر، عبر أجهزة إعلامه، أن المنطقة التي سيحتلها جيشه، محدودة جداً، ويعلن، أن إسرائيل لن تقف أبداً مكتوفة اليدين، إذا ما تعرضت لأي إعتداء. هل تراه اكتشف البارود؟ فالإسرائيليون جميعهم - دون استثناء - يعرفون هذا، ويعرفون أيضاً، أنه منذ المئة سنة الأولى للنشاط الإستيطاني اليهودي، ونحن نرد على الإعتداء بأقوى. ولكنه من الواضح جداً، أن شيئاً ما تغيَّر اليوم. بيغن لم يفكّر بأطفال ونساء لبنان المدفونين تحت الركام في صيدا، صور والدامور، وبأن رائحة هذه الجثث بدأت تزكم الأنوف. من الواضح، أن الإسرائيليين غير موافقين على ما يفعله بيغن، غير

أنهم لم يفكروا حتى الآن بكيفية ردعه.

واندفع الإسرائيليون بالتفكير في مساعدة لبنان: شوكولا لأطفال لبنان، ثياب، مواد بناء، أطعمة طازجة، إنهم يريدون التعبير عن رفضهم لحرب شارون، بأساليبهم الخاصة، بانتظار ارتفاع صرخة كبار القادة المأمورين من قبل رئيس الوزراء. لقد أقدم الإسرائيليون، على ما لم يفعله التشيكيون عام ١٩٣٨، لمواجهة وحشية هتلر. بعد الإعلان عن هذه الحملة، دار الجدل حول جدواها. إننا نريد اليوم أن نعود أربعة وثلاثين سنة إلى الوراء؛ مع فارق بسيط وكبير في آن، الفلسطينيون في لبنان لا يمتلكون آلية الدمار، في حين أرتال الدبابات الزاحفة تحمل إشارة جيش الدفاع الإسرائيلي. عام ١٩٣٨، تنكرت فرنسا وبريطانيا للتشيكيين، واليوم، أميركا تزود إسرائيل بالطائرات، المدافع، الذخائر، مدافع دبابات ميركافا، وتقدم لها الدعم السياسي. ترى هل كان بإمكان إسرائيل أن تقدم على أية حرب لولا هذه المساعدات؟ سؤال مرّ ومن الأفضل ألا يطرح.

الإسرائيلي، غير مرغوب فيه في الشرق الأوسط. لكنه لا يخشى إبادته: إنه خائف على حاله من حاله، ولهذا يطلب السلام للمنطقة، يرفض أن يجبر على القتل ثانية، كما فعل في لبنان، كذلك لا يرغب بالتفكير متى سيكسب الحرب القادمة.

برفقة حفيدي كنت أسير في الحديقة. التقيت صديقاً فسألني عن عمره، أجبته سنتان، فقال الصديق، إذن سيأتي دوره ليخوض الحرب ذات الرقم ٩٩.

خلال الأسبوع الأول: عرض التلفزيون عدة برامج حيا فيها بطولة أولئك الجنود، وفي الاسبوع الثاني، وبعد عودة عدد من الجند بانطباع ساخر، حين سئلوا: إلى أين يتوقعون أن يستمروا في تقدمهم، أجاب أحدهم، «هناك في أنقره، معبد يهودي مهدم، قد نصل إليه لإعادة بنائه، وفي موسكو، قواعد لصواريخ كاتيوشا، من يدري قد يطلب الوصول إلى هناك لتدميرها؟». وأجاب آخر، قبل التفكير بـ« إلى أين سنصل.. فكروا بالأطفال القتلى». وأخيراً تحدث جندي عمره ١٩ سنة من لواء غولاني المشهور، فقال «الحرب... ما هي الحرب؟ تدمير وموت ليس أكثر...» ورغم هذا فإن هؤلاء الجنود، ما يزالون يعتبرون أن هذه الحرب هي حربهم.

في اليوم التالي كان ضابط إسرائيلي ينتظر الباص عند نقطة جيشر هازيف Gesher Haziv على شاطىء البحر لينقله إلى لبنان عبر صور، تكلم هذا الضابط بمرارة «سنعبر شمالاً، لن نجد مقاومة عسكرية، ولكن هل تسمح لنا رائحة الموت أن نمر؟»

- ٢ -

ومع بداية الأسبوع الثالث، جاء الصيف، بحره وبحره، وغصّت المسابح بالسابحين الإسرائيليين. السواح اختفوا، ربما بسبب الحرب، أو ربما بسبب انتقاد الحرب. مهما يكن، خسرت إسرائيل أموالاً طائلة.

ولاحظ المراقبون أن التلفزيون لا يعرض صور المسابح الإسرائيلية، حتى لا يُقال إن شعب إسرائيل غير متضامن مع جنوده في لبنان؛ على العكس، كان يعرض مشاهد لمسابح جونية وهي تغص بالرواد، ليظهر للعالم أن الغزو الإسرائيلي للبنان لم يسبب أي أذى للمدنيين المسيحيين، الذين هم فرحون به. وفي مستهل كل نشرة أخبار، كان التلفزيون يعرض على شاشته أسماء الجنود القتلى، مع تاريخ ميلادهم. إنهم شباب. ترى لماذا لم يعرض التلفزيون صور المدن المهدمة، صور الشعب المشرّد، لا مأوى، لا طعام؟ لترى هذه المشاهد ما عليك إلا الذهاب بنفسك، بالحري إذهب أولاً إلى تل أبيب والقدس، ومن ثم إلى صور وصيدا. فكيف لكائن بشري، أن يتقبّل هذه المشاهد معاً؟ مشاهد السابحين والسابحات على شواطىء جونية، ومشاهد وجوه سكان صور التائهين بين الركام، وفوق أطلال مدينتهم المهدمة بحراسة جنود إسرائيليين؟ بالطبع، لا أعتقد ذلك. وفي الوقت ذاته نرى شواطىء تل أبيب تعج بالبشر، ونشرة أخبار التلفزيون **تعج** بأسماء الجنود الموتى. هل بدأ عالمنا بالإنحلال؟ لست أدري.

صباح الإثنين، مطلع الأسبوع الرابع للحرب، حصل في إسرائيل ما لم نكن نتوقعه. في هذا الصباح، سمح لي بزيارة صور وصيدا. وفي هذا اليوم بالذات ـ الثالث والعشرين للحرب ـ كتب مراسل الجيروزاليم بوست، هيرش غودمان Hirsh Goodman بعضاً من خواطره، ومن نكاته، ومما جاء في مقاله: «حاصر عدد من كبار ضباط أربع وحدات، ثلاثة مراسلين عسكريين إسرائيليين، ووجهوا لهم تهمة الكذب وإخفاء الحقيقة؛ وسألوهم لماذا لا يعبّرون فعلاً عن مشاعر المرابطين على الجبهات بدلاً من أن يكونوا متزلفين لوزير الدفاع؟ لقد اتهمونا بتشجيعه على توسيع رقعة حربه، وبأننا نردد ما يقال على مسامعنا، مع علمنا أنه كذب». فإن دلّ كلام غودمان على شيء فهو يدل على إحساس الإسرائيليين، بأن شيئاً غير طبيعي يحدث، ولكن الذي يجري، لم يسبق للدولة أن عرفت

مثيلاً له، إنه تحدٍّ للحكومة ورغبات كبار قادة الجيش.

أشياء كثيرة، لم تحدث من قبل. فلأول مرة تهاجم إسرائيل بلداً مجاوراً، دون أن تهاجَم. ولأول مرة تصعّد إستفزازاتها حتى تصل مرحلة الحرب. ولأول مرة تقدم إسرائيل على تدمير المدن: صور ـ صيدا ـ الدامور ـ بيروت. ولأول مرة يكذب الناطق العسكري. ولأول مرة تشارك الصحافة في تضليل الرأي العام، ولأول مرة يخوض الجيش حرباً ولا يعرف الضباط ـ كبار الضباط على الأقل ـ أهدافها وأبعادها. ولأول مرة تتسبب بهذا العدد الهائل من القتلى الأبرياء، لأول مرة يعتبر المحافظون أنفسهم مدانين، ولأول مرة يكثر التنكيت في إسرائيل.

إستناداً إلى الجيروزاليم بوست، سأل ضابط رئيسه المجنون ـ هناك مجانين في كل وحدة ـ إلى أين تريدني توجيه مدفعي، لأنه ما من مرة نطلق قذيفة، إلا ويعلن الناطق العسكري أن الأعداء يقصفوننا؟ نكتة أخرى. كان ضابط يدرّب جنوده على كيفية إطلاق النار في الهواء، في حال حدوث أية مشاكل مع المدنيين، وقبيل الإنتهاء حذرهم «إنتبهوا أطلقوا النار في الهواء وليس في هواء صدورهم».

خلال الحرب السابقة لم تطرح أسئلة، كانت حروباً خاطفة. أما حرب شارون فطويلة، ولهذا كثر التساؤل الخبيث، فكل شيء يتزعزع: المعنويات، مصداقية علاقاتنا، كل شيء، أجل كل شيء. وهذا ما يجعل لائحة «ولأول مرة» لا نهاية لها. ومع هذه للانهاية، حتاّمَ نستمر نخدع أنفسنا والعالم معاً، والمؤسف، أننا غير قادرين على إيقاف هذا الخداع، لأننا سيفترض بنا أن نخجل من أفعالنا. إنه لشعور غريب فعلاً، أن يدرك اليهودي أنه ضحية نفسه.

في الواشنطن بوست، كتب ريتشارد كوهن Cohen وفضح زيف الإدعاء الإسرائيلي، إنه فعلاً إنسان صادق، وعلينا توجيه دعوة له لزيارة إسرائيل، إنه أفضل بكثير من أولئك الذين يطبّلون ويزمّرون لنا، لا حبّاً بنا، بل بمصالحهم. وعلينا كرجال إعلام إسرائيليين إستعادة ما كتبه كوهن: كانت إسرائيل محط تقدير، كانت صادقة فيما تقول، لكنها اليوم تحوّلت إلى حالة مرضية، مصداقيتها ذهبت مع الريح. غزو لبنان كلّفها كثيراً. وما ربحته من أراضٍ احتلت، خسرتِ بديلاً غالياً عنه: الثقة، ثقة الآخرين بها، وهذا ما ليس بمستطاع أحد أن يعيده إليها.

حين نعتنا البعض بالنازية، كان يقدّم خدمة لشارون. نحن لسنا نازيين، ولكن

هكذا إتهاماً يخدم شارون، مرتين: الأولى يفسح له المجال لصب غضبه على موجه التهمة، والثانية يسمح له باستغلال المناسبة لإعلان براءته وغسل يديه من دم أطفال لبنان ونسائه والحقيقة: نحن لسنا أبرياء.

بعد عبوري الحدود صباح اليوم الثالث والعشرين للحرب، اكتشفت أننا لم نخسر براءتنا وحسب، بل ما فعلته وحشيتنا خلال الأسابيع الثلاثة التي مضت.

عند الساعة السابعة صباحاً، كنت مع رفاق، نتناول طعام الفطور في كيبوتز جيشر هازيف. إنه كيبوتز نموذجي، وقد لاحظنا جميعاً أن عدداً من المراسلين المحليين والعالميين ينتظرون ـ مثلنا ـ السماح بعبور الحدود، بحراسة جيش الدفاع الإسرائيلي. كنا مؤمنين أن إسرائيل دولة ديمقراطية، إنه طبعنا ـ وكلنا اليوم ـ بعدما قرّر بيغن وشارون احتلال لبنان ـ صرنا نتساءل، إلامَ سنبقى خاضعين لحكم عسكري وبدون أن نتفوه حتى بكلمة احتجاج واحدة. هل سيكون مصير جنودنا في لبنان، كمصير جنود الولايات المتحدة الأميركية في فيتنام؟ هنا تلعب منظمة التحرير الفلسطينية دوراً كبيراً، فإن عدل قادتها عن استراتيجية رفض الحلول[...؟] وعن تكتيك الإرهاب، واتجهوا نحو المسعى السياسي، فساعتئذ قد لا نصبح أميركيين في فيتنام.

الضياع... الضياع... كلنا نتساءل ماذا سنفعل؟ والدة جيورا هارفيك تتساءل عما إذا كانت محقّة في تنشئة ولدها تنشئة وطنية وغرست في صدره حب التضحية من أجل إسرائيل؟ لماذا؟ لينفذ أوامر شارون، أم ليموت من أجله؟ من يدري، لو لم تفعل ذلك، لربما كان هناك جيورا ما يزال حياً. أم جندي آخر، كانت تتساءل أيضاً لماذا علّمته حب السلام؟ فهو اليوم مستدعىً للخدمة في لبنان، لكنه يرفض الخدمة مع جيش احتلال؛ فعوقب بالسجن لمدة شهرين؛ وحين خرج للحرية، وجد نفسه في سجن أكبر، كيف يمكنه أن يجد وظيفة، وكل الوظائف تطلب من المتقدم لها سجل خدمته العسكرية، فما كان منه إلا أن غادر إسرائيل، ولا أظنه سيعود ثانية.

كنت كلما حدّقت في حديقة الكيبوتز ـ وأنا أعرف أنها كانت أرضاً صحراوية ـ أتعجّب من هذا الشعب المحب للحياة، الناشط، الذي حوّل الرمال إلى ورود، أتعجّب منه، كيف لم يتمكّن من إيقاف حرب، قبل حدوثها؟ فالإستعدادات كانت معروفة لدى الجميع، والأسباب لا تمت إلى الحقيقة بصلة، إلا في عقل الجنرال.

كيف يمكن لشعب، أن يتجاهل ما به من أخطاء، ويجلس مترقباً أخطاء غيره؟ لقد

غرزوا فينا الرغبة في التطلّع إلى مجانين ما وراء الحدود، ليصرفوا نظرنا عن المجنون الأخطر الذي يعيش بيننا. هذا المجنون الذي «أبدل مفهوم الجيش الإسرائيلي. مؤسسو الدولة، أطلقوا عليه «جيش الدفاع الإسرائيلي» واليوم تحوّل إلى جيش احتلال للأراضي الأجنبية، وجيش مهاجمة أمم أخرى». وهذا ما قلته يوم الحادي والثلاثين من كانون الثاني ١٩٨٢ ـ أي قبل بدء الحرب بشهور ـ وحذّرت يومها، من أن شارون يعد لحرب «فمن الذي يقدر على لجم هذا الجنرال المجنون؟».

وأخيراً عبرنا الحدود، وتجولنا في صيدا وصور. دمار وخراب، أمهات تبكي أبناءها، مأساة هاتين المدينتين، ليست فيما حل بهما من جراء القصف البري، البحري والجوي، وحسب، بل هي في دموع الآباء والأمهات والنساء والأطفال الباحثين عن ولد مفقود أو زوج معتقل، أو والد خرج ليجلب الطعام لأولاده وحتى الآن لم يعد. أين هو؟ من يدري قد يكون طار على جناح صاروخ بحري، أو في المعتقل. وعبثاً حاولت الإقتراب من مخيم المعتقلين جنوبي صيدا[1]، لأتحدّث إلى إمرأة تنتظر في الخارج منذ ساعات، علّها تتأكد من وجود إبنها هناك ـ هنا تذكّرت زوجتي وولدي. تذكّرت كيف وقفا أمام قسم البوليس في الأرجنتين، وهما يبحثان عني في معتقلات الطغمة العسكرية الحاكمة هناك ـ ولكن التحدّث إلى سجين أو إلى أحد من أفراد عائلته، يستوجب الحصول على ترخيص مسبق. وهذا ما كنت بحاجة إليه. حاولت السير منفرداً في الأسواق، ومنعت، لماذا؟ إدعوا أنهم خائفون عليّ، ولكنهم في الحقيقة، كانوا خائفين على أنفسهم، فقد أكتشف الأجساد البشرية التي ما تزال تحت ركام الأبنية، وحتى لا نتعرّف إلى حقيقة ما حصل بآثارات صور، التي يفترض، أن تكون ملتقى جميع الأمم الراغبة بالوقوف في حضرة التاريخ. كم يكون جميلاً، لو نضع هنا، بيانو، فرقاً موسيقية، ونأخذ صوراً تذكارية بدلاً من تهديم هكذا أمكنة. من صنع هذا؟ نحن الذين فعلنا، فعلنا ذلك، بصمتنا المتناهي عن سيناريو وحوار شارون. ولا شيء يبرر ما سببنا لغيرنا من دمار، ومهما زعم الجنرالات أنهم وجدوا مستودعات أسلحة، وأنهم يردون الإرهاب عنا، فإن هذا لا يبرر ما حدث. حاول تحليل الأمور منطقياً: فقبلت فكرة العين بالعين والسن بالسن، ولكن ما ذنب آثارات

(١) ـ معمل صفا للحمضيات الذي حوّله جيش الإحتلال الإسرائيلي إلى أكبر معتقل بعد معتقلات هتلر.

صور، هل هي إرهابية أيضاً؟

حاولت إحصاء المنازل المهدمة، فتوصلت إلى نتيجة واحدة، لم يسلم بيت واحد. لاحظت هذا، بعد دخولنا الحدود اللبنانية، حيث كل البيوت، إن لم تكن مهدمة، فهي تحمل على جبينها خاتم جيش الدفاع الإسرائيلي، وعدت بالذاكرة إلى مستوطنات الجليل، علّه يحق لي إجراء عملية مقارنة، وكيف يحق لي مقارنة الدمار هنا، بحدائق الجليل وملاعب أطفاله؟ بعض الأبنية تهدمت وتقوقعت على ذاتها مشكّلة تلة من صنع حضارة شارون، وأخرى محروقة، وثالثة نصف مهدمة، أما النصف الثاني فأهول: يا له من شعب عظيم، هذا الذي يجاور غبار الدمار ورائحة الموت، في عملية تحدٍّ لأقوى جيش في الشرق الأوسط.

في زيارتي الثانية لصور، برفقة مراسل التايم الأميركية، منعني الحراس من التحدث إلى المواطنين، فقط سمح لي بطرح أسئلة على أناس معينين، وفعلت ذلك، باللغة الفرنسية ـ الضابط الإسرائيلي لا يتقنها ـ ولكنه منعهم من الإجابة بغير الإنكليزية أو العربية؛ لماذا يا ترى؟ نحن الذين سبق لنا ودخلنا السجن لأسباب سياسية، نتقن لغة التخاطب بالعيون، ونعرف ما معنى الكلام المقال أمام الحراس! وهكذا فهمت ما يريد أولئك المجبرون على التحدث بالإنكليزية قوله.

أثناء تجوالنا في الشوارع، كنا نتلقّى التحية بالعبرية ـ شالوم ـ إنه التاريخ؛ الذي يشهد على أن الشعوب، كثيراً ما تتقمص عادات ولغة الأمة التي تحتل أراضيها. وكم مرة اضطررنا نحن اليهود لفعل ذلك.

أثناء تجوالي في صيدا وصور، تساءلت كيف يمكن لبشري أن يتخيّل مشهد القتل؟ لقد سبق لي ورأيت هذا المشهد كثيراً في أفلام السينما، أما في الواقع فلا. ولكني اليوم ألمسه لمس اليد، من شبابيك الأبنية المدموغة بخاتم الجيش الإسرائيلي، أطلّ الأطفال برؤوسهم وكذلك الأمهات، في عيونهم خوف وبؤس، وجباههم موسومة بعار الحضارة. إزاء هذا الذي أرى، ليس لي إلا كتاب بابلو نيرودا «الإنسان أين كان؟» الذي يصف به مدينة الموت في البيرو ـ ماشو، بيشي ـ. حقاً، بين ركام هاتين المدينتين الأثريتين، لا بدّ من التساؤل عن الإنسان صاحب القيم وليس المحتل. أين هو؟ وتابعت طريقي بين الخرائب ومع أشعار نيرودا، بحثاً عن الإنسان الميت، الإنسان السجين، الإنسان الذي ما يزال هارباً من وجه التاريخ.

في الأسبوع الرابع عادت الحياة طبيعية، تم إصلاح كل شيء. أسواق الخضر،

عادت إلى الوجود، إنما دون الإستعانة بالتجار الإسرائيليين. وسمحت لنفسي وأنا أرى آليات جيش الدفاع الإسرائيلي تعبر الطرقات، أن أسأل حارسي «هل من قوة في الشرق الأوسط، تقدر على مجابهة جيشنا؟» وجاء الرد سريعاً: «لا، نحن قادرون على احتلال جميع عواصم الدول العربية». شيء مؤسف حقاً؛ **فإذا كان ليس بمقدور أحد أن يتحدانا، فكيف يمكن لأحد أن يعتدي علينا؟** سؤال برسم الإجابة. فالجليل في سلام منذ سنوات. وإذا كنا نمتلك هذه القوة، فلماذا لم نفعل ما نريد بدون تدمير لبنان وارتكاب المجازر بحق النساء والأطفال؟ إنها أسئلة سياسية ولا يحق لحارسي الإجابة عليها.

وعدنا إلى إسرائيل عن طريق الناقورة، وبرأسي إنطباع واحد: هذا الدمار سيعود إلى عمرانه، ومع كل حجر سيبنى من جديد، سنجد عدواً جديداً. قالوا، سنشق الطرق الواسعة التي تصل حدودنا بلبنان، لأن التجارة ستزدهر، فضحكت في سري، لأنهم يحلمون.

- ٣ -

ليل السبت - الأحد ٣ - ٤ تموز، نظمت حركة السلام الآن، مهرجاناً ضم ماية ألف مواطن تعبيراً عن الإحتجاج على حرب شارون، وطالب المتظاهرون بالإنسحاب الفوري من لبنان، والبدء في مفاوضات مع الفلسطينيين - بغض النظر عمن يمثلهم - لإقامة دولة مستقلة لهم في الضفة الغربية. الملاحظ، أن الأغلبية الساحقة لهؤلاء المتظاهرين كانت من اليهود الغربيين.

حول مكان المهرجان، كانت جماعات أخرى تحاول التشويش علينا بأناشيدها الغوغائية «بيغن ملك إسرائيل».

يقول الشاعر جورجي لويس بورجيس Jorge Luis Borges الذي سبق له واعتقل أيام البيرونية في الأرجنتين «الديمقراطية وليدة الأكثرية». في الواقع أنا لا أوافقه على هذا الرأي. وكلي ثقة، أنه هو نفسه غير متوافق مع قوله. إن تجمّع ماية ألف نسمة تحت راية «السلام الآن» لا يعني أنهم سيغيرون مجرى تفكير حكومة بيغن، ولن يحولوا دون تنفيذ قرار شارون، لكنهم في الوقت ذاته يعبّرون عن رفض الإسرائيليين لغزو لبنان، وإنهم يؤكدون، أن سياسة شارون القاضية بتحويل «جيش الشعب» إلى «دولة الجيش» ستواجه

بمعارضة شديدة.

ذهبت إلى الإحتفال برفقة حفيدي البالغ من العمر سنتان، حملته على كتفي. وعبر مكبّر الصوت قرأت رسالة من والد حرمه شارون نعمة صيرورته «جداً»، لأنه فقد ولده الوحيد في لبنان، وقبل ذلك بأيام قتل إبن أخيه أيضاً. علماً أن كثيرين من عائلته قضوا في الحروب السابقة. وهنا تساءلت: كم سنة سأستمر في النضال، لأمنع «دولة الجيش» من إرسال حفيدي إلى حرب جديدة؟

كنا نريد إشراك الجنود معنا، ليقولوا الحقيقة. فالأغلبية، لا تعرف مدى الدمار الذي حلّ بالمدن اللبنانية، وغير مطلعة على أرقام ضحايا أخلاقياتنا من المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين على حد سواء. إن تسعين بالمئة من الشعب الإسرائيلي، يدرك أن الأسباب الرئيسية لهذه الحرب، هي أسباب سياسية وإستراتيجية، وليست دفاعية. لكن كبار السن فضلوا تأجيل ذلك - إشراك الجنود - إلى ما بعد عودتهم من الحرب، لأن الرقابة ستشطب أقوالهم وتدبج ما تريد، هذا إن لم تنزل بهم العقاب بتهمة إضعاف معنويات رفاقهم. شيء رهيب أن يشارك أبناؤنا الجنود في هذا المهرجان الذي تنظمه حركة السلام الآن في تل أبيب، وحيث يرفع الرسام إيغال توماركين لوحة تقول «أريك - شارون - جزار لبنان أريك أمير الأردن - أريك ملك إسرائيل» في حين يبدو وزير الدفاع متوجاً بمكنسة مصبوغة باللون الأحمر.

عودة الجند إلى بيوتهم، حدث سياسي بارز. يوسف غويل المعلّق السياسي في الجيروزاليم بوست، ناقش هذا الموضوع «مع اقتراب الحرب في لبنان من شهرها الثاني، لن يكون بإمكان أحد إخفاء مشاعره، وسترتفع صيحات الإحتجاج والإستنكار. وسيزداد الضغط الشعبي، كلما ازداد عدد القتلى على الجبهة. ولكن من الجنون، أن نبقى صامتين، حتى ذلك الزمن، لأن الوقت يمر بسرعة.

كنتيجة ضمنية، وطبيعية، إن التململ والتذمر الذي يسري هنا بين الناس سينعكس حكماً على معنويات الجنود المتواجدين عند الخطوط الأمامية، والأغرب أن الذي يجري هنا، هو نتيجة لما يقوله العائدون من لبنان، من هنا، فالخطورة في الموضوع، تكمن في الإنتقادات والتشويش، بين صفوف المحاربين، الخطورة هنا، إن المعنويات هناك تتأثر مباشرة بما يجري.

لأول مرة في إسرائيل، تم مناقشة نتائج الحرب، قبل انتهائها، والسبب، هو أن

هذه الحرب طالت أكثر من العادة، وبالنظر، لما اعتاده العسكريون والمدنيون في السابق، فالذي نشهده الآن، لا يمكن أن يصدّق. فالشعب وجد نفسه مخدوعاً، كما وجد نفسه مجبراً على مناقشة القضية الفلسطينية، إلى جانب قضية خداعه، إن لم يكن بدلاً منها.

واستنتج الجنود، أنهم يخوضون حرباً، تختلف جداً عن تلك التي شرحها لهم ضباطهم، من الصعب جداً أن نعثر على حادثة مماثلة في تاريخ إسرائيل؛ أضف إلى ذلك، أن الجنود وجدوا أنفسهم متورطين في قتل الناس الأبرياء وتدمير المدن؛ مما أوقع الكثيرين منهم ضحية نوبات عصبية صعبة. إنضباطياً، يجب أن يبقى صامتاً، وإنسانياً لم يعد قادراً على تحمّل صمته. من الصعب جداً، كم من الجنود سيطالبون بمحاكمة قوادهم، بتهمة إساءة استعمال السلطة، كما حصل عام ١٩٥٦، حين أقدم أربعة قواد كتائب على تحدي قائد وحدتهم، لعبثه في إرسال جنوده للموت[1]. والسؤال المهم، من كان قائد تلك الوحدة؟ للأسف كان آرييل شارون، ويومها اتهموه أيضاً، بالتبذير بإصدار الأوامر والتضحية بأفراد وحدته، دون أن يكون أمامه أي احتمال بسيط لتحقيق أي تقدم عسكري؛ ولولا تدخّل موشي دايان، لكان قضي على مستقبله.

حركة السلام الآن، لا تمثل اليوم ضغطاً شعبياً هائلاً، لكنها ستكون يوماً ما كذلك، وأعتقد جازماً أنه يوم قريب. فالرأي العام لا بد ويتأثر بما يجري، وبما ينشر، في باريس صدر بيان موقع من ثلاثة يهود عالميين: مانديس فرانس، رئيس وزراء سابق، فيليب كلوتزنك **Klutznich** الرئيس السابق للمنظمة اليهودية في أميركا، وناحوم غولدمان، رئيس سابق للمنظمة الصهيونية العالمية، والمؤتمر اليهودي العالمي؛ ماذا قالوا؟

«السلام ليس إنجازاً بين أصدقاء، إنما هو بين أعداء عانوا وتعذبوا. ومن فهمنا للتاريخ اليهودي، وبعد النظر إلى واقعنا الحالي، نود أن نؤكد، أن الوقت قد حان لاعتراف متبادل بين إسرائيل والشعب الفلسطيني. وآن الأوان لإنهاء الرفض العربي لدولة إسرائيل، والرفض الإسرائيلي للإعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني. المسألة الحقيقية، لا تكمن في معرفة، ما إذا كان للفلسطينيين الحق، أم لا، المهم، هو كيفية تحقيق ذلك، وفي الوقت ذاته تحقيق سلامة حدود إسرائيل، والتوازن في المنطقة، الحكم الذاتي، أمر لا يكفي، إذن لماذا لا نفكّر بالإعتراف المتبادل ودون تأخير. ويجب الشروع في مفاوضات

(١) ـ اثنان من هؤلاء الأربعة: رفول إيتان وموردخاي غور اللذين أصبحا فيما بعد، رئيسي أركان.

تؤدي إلى الإعتراف بإسرائيل وبحق الشعب الفلسطيني بتقرير مصيره».

إن هذا البيان، يعتبر وثيقة تاريخية. إنه يدعو لوقف الموت والدمار، ويساعد اليهود على استعادة أخلاقياتهم، إذ يصعب جداً، أن يتخيَّل المواطن الإسرائيلي نفسه منفصلاً عن تاريخه؛ هذا التاريخ الذي نستغله اليوم لتبرير غزونا للبنان، وكم يضحك بيغن وهو يردد في جميع خطبه «طريق التضحيات».

في حين كان هؤلاء الثلاثة، لا يفكرون بالنصر العسكري، كان بيغن يمازح أصدقاءه أنه سيزور بيروت قريباً. والحل الحقيقي يكمن في ما قدمه فرانس، غولدمان وكلوتزنك.

والملاحظ، أن تقرير مصير بيروت لا يتقرّر بالسلاح، بل بالمفاوضات. فالجنود في أحاديثهم، وفي رسائلهم، يطالبون ذويهم بالضغط على الحكومة لوضع حد لهذه الحرب، حتى أن فريقاً من الجنود، تجرّأ وأرسل بياناً إلى إحدى الصحف بهذا المعنى. رد فعل الحكومة كان، البحث عن وسيلة قانونية لتقديمهم إلى المحاكمة.

بعد انتهاء الشهر الأول، والبدء في الشهر الثاني، صار معلوماً وواضحاً أن النصر العسكري لم يكن مقروناً بالنصر السياسي، مما يعني أن بيغن أصيب بهزيمة سياسية، بدليل إرتفاع الأصوات، بنسبة أكبر، المطالبة بحل القضية الفلسطينية. إنما يبدو أن علينا، الإنتظار لنسكر من ارتشاف دموعنا، وبعدها يمكننا القيام بجردة الربح والخسارة لحربنا في لبنان. فحتى الذين كانوا يعارضون توجيه أدنى انتقاد لسياسة بيغن، لأن هكذا انتقادات تضعف موقف اليهود عالمياً، تحولوا مؤخراً، وانضموا إلى جماعة المطالبين بوضع حد للحرب والإعتراف بحق الشعب الفلسطيني بتقرير مصيره. إن الشرق الأوسط يمر بلحظات تاريخية حاسمة. فالشعبان اليهودي والفلسطيني يدفعان معاً، ضريبة الدم، ويواجهان معاً مصيراً مجنوناً، ولمن الحماقة بمكان، أن نعتقد ـ نحن الإسرائيليين ـ أن الحل السياسي، هو نتيجة حتمية لخوفنا من نتائج الغزو. لم لا، فلكل حرب نتائج إيجابية، وأخرى سلبية، ونحن سنبقى لسنوات نفكّر بما ألحقناه بلبنان من دمار وخراب.

حين أقدم الملك حسين على ارتكاب المجازر بحق الفلسطينيين عام ١٩٧٠ ـ كما يفعل شارون اليوم في لبنان ـ اعتقد أن القضية الفلسطينية، نامت في أدراج العالم لسنوات. كان مخطئاً، إذ عاد الفلسطينيون وانبعثوا من جديد وبزخم أقوى وأشد، لكنهم ما يزالون يرتكبون ذات الأخطاء، اعتقدوا أنهم قادرون على حل قضيتهم عسكرياً، وها هي النتيجة.

نحن وهم ندفع الثمن، والشعب اللبناني يدفع معنا ثمن شيء لا يعنيه.

الفلسطينيون، ارتكبوا أخطاءهم، لربما بسبب عدم خبرتهم السياسية، وعدم قدرتهم على فرض الحل السياسي الذي يريدون، لهذا لجأوا إلى وسائل إرهابية كخطف طائرة ونسفها، ويعتبرون أنفسهم حققوا انتصار معركة واترلو، أو اقتحام مدرسة واحتجاز الأطفال ومن ثم قتلهم؛ ويعلنون عن ذلك، كما لو أنهم اللورد نيلسون يعلن عن تحطيم الأسطول الفرنسي. فالإرهاب لم يعطِ أية نتائج لا محلياً، ولا عالمياً، بالعكس، عقّد المشكلة، فالمتصلبون الإسرائيليون، ازدادوا تصلّباً.

حتى أصدقاؤهم مفكرو هارفارد - برنستون - وكولومبيا، الذين حملوا قضيتهم، واعتبروا منظمة التحرير الفلسطينية نموذجاً لحركات التحرّر العالمي، عادوا وتحولوا عن هذا - دون أن يتحولوا عن مساندة كفاح الشعب الفلسطيني في سبيل تقرير مصيره - بسبب سياسة المنظمة اللامبرمجة، والمتبعة لأسلوب الإرهاب، وبلاهتها في التخطيط وإنكارها للتاريخ.

في الحقيقة، إن الفلسطينيين، كانوا ضحية الأصدقاء، كما هم ضحية أنفسهم، إن أحداً من أصدقائهم في أوروبا الغربية، لم يتعب نفسه عناء الإيضاح لهم، إن التاريخ لا يعود إلى الوراء وإنهم غير قادرين على فرض حل عسكري، على دولة تمتلك جيشاً قوياً كإسرائيل. والحديث عن المجازر والمذابح بحقهم قد تثير العواطف وتجرح المشاعر، لكنه لن يؤدي إلى حل لقضيتهم.

الكاتب الفرنسي فرنسوا واهل Wahl كتب منتقداً اليساري الأوروبي الذي يعتقد أن منظمة التحرير الفلسطينية، تقبل بوجود إسرائيل، لأن الحقيقة تقول إن الفلسطينيين غير مستعدين للإعتراف بدولة إسرائيل. وإسرائيل كذلك. الياس فريج، رئيس بلدية بيت لحم، في حديث له مع صحيفة فلسطينية، أعلن أن «على منظمة التحرير الفلسطينية الإعتراف بإسرائيل فوراً وبدون شروط مسبقة». إن أي نصر سياسي كان يحققه الفلسطينيون، في أوروبا، أو في الأمم المتحدة، كان يزيدهم تصلّباً وانحرافاً عن الخط المستقيم؛ أما مساندة دول العالم الثالث لهم، فهي مساندة كلامية، وليست فعلية، فالعالم الثالث، لو كان قادراً على مساعدتهم، لكان أولى به مساعدة نفسه. إنه في الأساس غير موجود، والذي أعطاه قوة وبريقاً هو الإعلام الفلسطيني.

بعد عشرين يوماً من بدء القتال، اجتمع وزراء الخارجية العرب في تونس. فماذا

فعلوا؟ شاركوا أيضاً في خداع الشعب الفلسطيني ليس أكثر، قدموا لهم المال بسخاء وكرم، مما جعلهم - الفلسطينيين - قادرين على شراء كميات هائلة من الأسلحة والذخائر. صانعو الأسلحة فرحوا للخبر وهلّلوا له. لكن أحداً من الأصدقاء لم يتعب نفسه ليوضح لهم أن كل ما سيشترونه من أسلحة لن ينفع، ولن يتمكنوا من الوصول إلى الدرجة التي وصلت إليها إسرائيل في هذا المجال.

الإسرائيليون... من نكون؟ إننا شعب خدع أن لا وجود للفلسطينيين، ولا لجيش فلسطيني. وكنا نعيش بسلام في الجليل، حتى أتى شارون وخرق الهدنة مع الفلسطينيين. بيغن وشارون، خدعانا حين رددوا على مسامعنا، أننا شعب منبوذ، وجعلا منا نشعر بالخوف على المصير، لنقدّم الطاعة العمياء. إن أياً منهما لم يتكلّم عن قوتنا وطاقتنا وتفوقنا العسكري، فقط أخافانا، ولكننا عدنا واكتشفنا خداعهما، إنما بعد فوات الأوان. إننا، كالفلسطينيين، مخدوعون.

حين قيل لنا إننا محاصرون، سألت نفسي، ترى من يحاصر الآخر، نحن أم جيراننا؟ وفي كل مرة كان شارون يعدّد على مسامعنا عدد الضحايا الإسرائيليين. كنا نشعر بالألم، وتردّد وسائل الإعلام كلامه، في محاولة لجعلنا نتقبّل فكرة دخول بيروت. فقد أعلن على شاشة التلفزيون أن ألفاً وثلاثمائة واثنين وتسعين إسرائيلياً ذهبوا ضحية الإرهاب الفلسطيني. المحرّر في دوفار حنا سيمير Semer، قام بجمع ضحايا الإرهاب على مدى خمسة عشرة سنة، فلم يصل إلى رقم شارون، الذي لم يجب عليه حتى بكلمة.

كل الذي يريده شارون هو تحقيق مخططه - الجيوسياسي، لقد أوهمنا أنه قادر على الإستيلاء على لبنان، وإبقاء خمسماية ألف فلسطيني فيه، يعيشون كمواطنين من الدرجة الثالثة. وأوهمنا أيضاً أنه سيضم الضفة الغربية، ومن أجل توسيع رقعة المشاريع الصناعية والعمرانية، فلا بأس إن زاد عدد الفلسطينيين المبعدين إلى الأردن.

أرادنا شارون أن نعيش الخوف، وكان له ذلك.

إنه قدر الإسرائيليين، ألا يتساءلوا عن مصيرهم. أما مناحيم بيغن فقد حطّم هذا القدر، وجعل التساؤل صديقاً للإسرائيليين. إننا نريد جواباً سياسياً عن مشكلة الشرق الأوسط. لقد جرّنا وراءه بالخديعة، حتى اكتشف أنه مخدوع؛ هذا ما أعلنه صراحة في اجتماع لنواب حزبه، أثناء الأسبوع الخامس للحرب. لا أحد ينكر أن بيغن رجل سياسي من الطراز الأول وفي الوقت ذاته، ليس بمستطاع أحد نكران ما حدث له في حرب لبنان.

لقد سبق لنا وخضنا حروباً، ماذا كانت النتيجة؟ لا شيء!!! لم نجد حلاً لمشكلة الشرق الأوسط، وابتدأنا، كما العالم كله، نؤجّل الحلول ونطيل أمد الصراع ولكن إلى متى؟ فمتى ندرك، أن الحرب لن تكون سبباً في نهاية عالم، ولا في نهوض عالم بديل له. إنه لأمر مؤسف؛ مؤسف فعلاً.

معضلة الشعب اليهودي، أنه غير قادر على التخلّص من الزمن. والزمن عنده حرب. في الماضي، في الحاضر، وفي الغد الآتي؛ أينما حاولت الهرب من الحرب، فستقع في معضلة الزمن اليهودي. نحاول الهرب، ولكن إلى أين؟ ففي كل أنحاء العالم ستجد يهوداً معذبين.

- ٤ -

عملية عسكرية محدودة، كان يفترض أن تستمر ما بين ٤٨ - ٧٢ ساعة، استمرت شهوراً وجاوزت الـ ٩٦٠ ساعة. الإعلام الرسمي يقول إن قتلى جيش الدفاع الاسرائيلي بلغ ثلاثين، في حين ان ما لا يقل عن ثلاثمائة جندي وضابط قد دفنوا؛ إضافة إلى عدد كبير من الجرحى. البلاغات العسكرية تسير إلى أن الحرب ستستمر شهوراً، مما يعني أن فترة خدمة الاحتياطيين ستطول، ولن يتمكن أحد من تقدير نفقاتها. ولا أحد يعلم كم سيفرض غداً على الشعب الاسرائيلي من ضرائب جديدة لتغطية هذه النفقات.

حين أجبت على هذه الأسئلة التي طرحها صديق وصل لتوه من الارجنتين، لم أحاول إعطاءه الحقيقة كاملة. إنه آت لاكتشاف هويته اليهودية، وأنا لا أريد، ان أشوش فكره وعقله. فالبلاد بحد ذاتها تناقش هويتها، فغزو لبنان وما استبقه، هز الأسس الأخلاقية التي بنيت عليها اسرائيل. ولكنه استقل الطائرة وعاد إلى بيونس ايرس، جاء بناء لفلسفة الدولة اليهودية، وليس من أجل تناقضات اسرائيل؛ أنا أيضاً جئت إلى هنا مدفوعاً بهذه الفلسفة. ووجدت نفسي متعايشاً مع التناقضات اليومية لحياتنا.

خلال الأسبوع الخامس؛ أعلن رئيس الوزراء، ان الحرب تحقق أهدافه الرئيسية. وأعلن وزير الدفاع، انه حضر وخطط لهذه الحرب منذ نيف وسنة؛ ولم يشأ رئيس الأركان أن تفوته فرصة البطولة، فانبرى وأعلن - بدوره - انه خطط للغزو، وأضاف مأثرة على سابقيه، انه خطط أيضاً لمحاصرة بيروت. مات الذين يشعرون بالخجل، إذ مما لا شك فيه مطلقاً، ان اثنين من هؤلاء الثلاثة كاذبان؛ والذي يؤكد هذا الاستنتاج ان كلا منهم تحمل المسؤولية - البطولة - لوحده دون مشاركة أحد.

إننا اليوم نعلم أن رئيس الوزراء، اتهم وزير الدفاع، في مجلس الوزراء، انه يعطل الدور الاميركي في بيروت، هذا الدور الذي سيؤدي إلى إخلاء منظمة التحرير الفلسطينية بيروت. شارون يريد قطف ثمار النصر، لذلك أعلن الناطق الرسمي باسمه ان اقتحام بيروت الغربية، لن يكلف أكثر من مئة وخمسين قتيلاً [...؟ كذا] ولماذا الاقتحام طالما أن بيروت ستخلى؟ يجيب شارون، سيبقى فيها مخربون، وهؤلاء سيهددون أمن اسرائيل، إذن لماذا لا تضحي بمئة وخمسين **فقط** من أجل سلامة اسرائيل؟ وماذا إذا لم يكن هناك أي تهديد لاسرائيل؟ وفي حال وجود تهديد فعلاً، فهل الحرب هي الرد الوحيد؟ أم أنها أفضل الحلول؟

أغلبية الاسرائيليين رأوا أن الحرب هي الحل الوحيد. ولكن لماذا؟ لأن العرب ما انفكوا يعلنون عن عزمهم على محو دولة اسرائيل من الوجود. هذا لا يعني أبداً، أن علينا اختيار الحرب، ففعالية جيش الدفاع الاسرائيلي كفيلة بلجم أي تحرك عدائي.

الاسرائيليون في حربهم في لبنان، كانوا كلاعبي القمار. من يربح يصعب عليه مغادرة الطاولة، والاسرائيليون ربحوا معارك في لبنان، فكيف يتراجعون؟ بويز أيفرون، كتب بصحيفة تصدر في تل أبيب، معبراً عن مشاعر الاسرائيليين فقال: «إن صورة هذه البلاد صارت مرتبطة بالمعارك، إن الحلول عندنا لا تأتي إلا عن طريق الدبابة والبلدوزر، وهذا ما أسوأ ما يصاب به مجتمع، هذه البلاد، هل هي بلادنا؟».

لا أحد ينكر، إنها ما تزال بلادنا. أقول هذا ونحن على أعتاب الأسبوع السادس للحرب؛ والذي قد نجد أنفسنا نحصي أسابيع بعدها، ولكن المؤسف، هو أن جيشنا لم يحتل أرض لبنان وحسب بل خسر مصداقيته، التي أهم مقوماته. فالجندي الاسرائيلي قلق، إنه يعيش التناقض؛ إذ أن فعالية جيش الدفاع الاسرائيلي لم تبنى على تفوقه في السلاح، بل على طهارة هذا السلاح. والشيء المؤسف أيضاً، ان الشعب اليهودي لا يريد ضمان حياته بالسلاح بل بالديمقراطية.

هذه النظرة الجديدة للجيش، ستنعكس على آراء العديد من الآباء والأمهات الذين سيطرحون أسئلة، لم يسبق لهم أن فكروا فيها: «لماذا لا يسرحون ولدي من الخدمة؟»، «ماذا سيفعلون به بعد؟»، وإنه لمن الطبيعي، أن يتساءل الآباء والأمهات، في حال استدعاء أبنائهم للخدمة ثانية «لماذا يأخذون ولدي؟... وماذا سيفعلون به؟» بالنسبة للجنود، سيسرعون للالتحاق بوحداتهم؛ لكنهم سيسألون قادتهم أسئلة أكثر بكثير من

السابق؛ وعلى الأرض، سيحاولون التأكد من صدق هؤلاء القادة.

إننا في الأسبوع السادس، وأريل شارون، ما يزال يخاطب الشعب، كما خاطبه في الأسبوع الثاني طالباً منه «القليل من الصبر»؛ هذا في الوقت الذي أدركنا فيه أننا حققنا نصراً كبيراً في لبنان، إنما بالرغم من هذا، اتضح للجميع أن جيشنا سيمضي الشتاء في لبنان، وعلينا أن نقدم خلاله، الطعام، المنازل، العمل، الثقافة لملايين الناس، وعلينا أيضاً الحؤول دون عودة الفئات اللبنانية إلى التصارع دموياً؛ وإلا سنجد أنفسنا متورطين في نزاعاتهم ومآسيهم. لقد أصبحنا عبئاً على لبنان، على مسلميه ومسيحييه، على فلسطينييه ولبنانييه.

في الأسبوع السادس أيضاً، عاد ثمانية وستون احتياطي إلى اسرائيل؛ حيث بعثوا رسالة إلى كل من رئيس الوزراء، ووزير الدفاع، طالبين فيها «ألا يرسلوهم ثانية للبنان؛ وبالانسحاب الاسرائيلي من لبنان، مؤكدين، انهم في حال استدعائهم للخدمة ثانية، فسيخدمون في اسرائيل وليس خارجها». لأنه تقتيلاً بالبشر دون أن نعرف لماذا» واتهموا الاثنين معاً «انهما يحاولان إقامة نظام جديد في لبنان. وانهما يضحيان بدمائنا ودماء الآخرين من أجل الكتائب» وأضافوا «ليس من أجل هذا دخلنا لبنان، الحرب، الكذب، وفقدان الحس الوطني. أعيدوا الجنود إلى بيوتهم».

في هذا الأسبوع بالذات، تجمهر عدد من الجنود العائدين من لبنان أمام مكتب مناحيم بيغن في القدس، مطالبين بوضع حد فوري للحرب، وباستقالة أريل شارون؛ وساندهم في عملهم هذا جنود قدماء. باسم هؤلاء تحدث جندي مظلي، سبق له وحارب في حرب ١٩٧٣، ومؤخراً، منذ أربعة أيام بالتحديد أصيب بجروح طفيفة. إنه يعد لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ من الجامعة العبرية، وزوجته تعد أطروحة الدكتوراه في علم النفس. إنه نموذج عن أولئك الذين يحاربون في لبنان تحدث فقال: «ينفذ واحدنا الأمر على أكمل وجه؛ ولكنه حين يعود من الحرب، فليس بمقدوره إلا قول الحقيقة، ويصف ما حدث».

هذا الذي يعود مشحوناً بالأخلاقيات، كيف سيعود إلى الحرب ثانية؟ سيذهب ولكن كيف؟ انه يدرك، ان السلاح الذي يمتلكه الفلسطينيون، ليس حديثاً، ولا يمكن أن يشكل تهديداً مباشراً أو غير مباشر لأمن اسرائيل. وهكذا فمن غير المعقول مطلقاً، أن ننعت ـ كما فعل بيغن ـ عرفات بأنه هتلر، في محاولة للضرب على وتر مأساة اليهود.

ترديد «أبداً لا..» الذي سبق لنا ورفعناها بوجه تاريخ التضحيات، بوجه الفلسطينيين، لا يعني مطلقاً، ان الفلسطينيين قادرون على إنهاء اليهود. ولا يعني مطلقاً ان علينا الاحتفاظ بصميم ذاكرتنا بذكرى تاريخ التضحيات، وإلا فإن العالم سيتعامل معنا على هذا الأساس؛ فكفانا لجوءاً إلى المخادعة، طالما خدعونا بها فغزو لبنان، حتى أني، صرت اتساءل أحياناً هل هي فعلاً حقيقة، أم أنها تنبيه لنا نحن الأحياء؛ حتى نمنع حدوثها ثانية، ليس بحقنا وحسب، بل وبحق شعوب أخرى.

لربما، تجعلنا هذه الحرب، أكثر تمدناً، وأكثر تواضعاً، في تل أبيب تظاهر ثلاثمائة جندي احتياطي مسرح، لتنظيم حركة ضد الحرب. هؤلاء تركوا عائلاتهم بعد عودتهم من القتال مباشرة، وجاؤوا إلى تل أبيب مشياً على الأقدام لأنه كان يوم سبت. إنهم يفكرون بالذي أحسوا به في لبنان، ولهذا يطالبون بإيقاف الحرب فوراً. إضافة إلى هؤلاء أرسل ستة وعشرون طياراً رسالة إلى رئيس الوزراء محتجين على الحرب، وعلى فقدان عدد كبير في معركة طريق بيروت ـ دمشق في الأسبوع الأخير من شهر حزيران، لكن أحداً من أعضاء الحكومة لم يتعب نفسه للتحقق من صحة هذه المعلومات التي يعرفها رئيس الأركان الذي بعد أن دخلت البلاد أسبوع الحرب السادس، تسرب أخباراً لم تنشر حتى اليوم؛ اسرائيل تقاتل في لبنان لكسب معركة أرض اسرائيل التوراتية، وليس لحل المشاكل في لبنان والجليل. اسرائيل الكبرى هذه، هل ستتحقق بضم الضفة الغربية وقطاع غزة؟ أمن أجل هذا يقاتل الجنود؟ لهذا اقترح هؤلاء الجند المحتجون تسمية منظمتهم «الجندية ضد الصمت» أو «التسريح ضد الصمت».

من يدري، فقد يطلع يوماً شارون علينا، برغبة غزو الأردن، وخلال ثلاثة أيام نتمكن من السيطرة عليه، ونقيم فيه حكومة حليفة. وهكذا نضمن دولتين عربيتين صديقتين: لبنان والأردن، وبإمكانهما امتصاص أكبر عدد ممكن من فلسطينيي الضفة الغربية وقطاع غزة، وهكذا نجعل اليهود يستوطنون الضفة الغربية.

لائحة المعترضين على غزو لبنان، تزداد يوماً بعد يوم وصارت تضم أسماء من مختلف الزعماء والمستويات: آباء، أمهات، فلاحون، عمال ومعلمون الخ.

من نيويورك، استلمت رسالة فيها مقالة، نشرت في النيويورك تايمس، وكتبها ناتان غليزر وسيمور مارتن ليبست، واقتطف منها ما يلي:

«على اسرائيل ان تعي انه ليس بمقدورها صنع السلام ولا وضع حد للإرهاب

بـدون الاعتراف بحق الشعـب الفلسطيني لتقـريـر مصيره. وعليهـا أن تعترف ان الأمـة الفلسطينية هي واقع تاريخي، مثلها مثل الأمة اليهودية؛ وانه بمقدور هذه الأمة ان تنفس عن مشاعرها دون أي تهديد لاسرائيل».

«النتيجة السياسية الحتمية للغزو الاسرائيلي للبنان، هي محاولات اسرائيل لمفاوضة الفلسطينيين على أساس اعطائهم حق السيطرة على الأرض التي تحتلها، لأنها تريد **هضم** حقهم بتقرير مصيرهم فوق الضفة الغربية وقطاع غزة».

- ٥ -

مع تشكيل حكومة مناحيم بيغن عام ١٩٧٧، بدأت اسرائيل تعاني من مأساة انتهاك حرمة الديمقراطية والمؤسسات الدستورية. هذه المعاناة، انعكست على حياة الشعب الاسرائيلي، وازدادت خطورة خلال الاسبوعين المنصرمين، فحكومة بيغن تحاول إقناع الشعب أن يتكيف مع حرب لبنان. أطول حرب منذ عام ١٩٤٨، ورغم هذا فإن اثنين من أصل ثلاثة مواطنين، يعارضون محاصرة بيروت، كما اتضح من استقصاء للرأي العام قامت به جريدة يدعوت اهرونوت Yediot Ahronot.

واليوم ونحن على أبواب الأسبوع السابع، أعلنت منظمة جديدة - منظمة الجنود الاحتياطيين المناوئين للحرب عن مؤتمر صحفي، تضع فيه برنامج مجلتها الجديدة التي اسمتها «يوش شيفيل» ومعناها «لكل شيء حدود». تضم هذه المنظمة ١١٢ جندياً احتياطياً، وفي الخدمة الفعلية. وككل الآخريـن المعـارضين للحـرب، أرسلـوا لـرئيس الوزراء، ولوزير الدفاع رسالة يطلبون فيها وقف الحرب فوراً والانسحاب من لبنان؛ هذه المنظمة تختلف عن غيرها من حيث التنظيم العسكري؛ إذ تركت لكل عضو فيها حرية الاختيار في الذهاب إلى لبنان أو لا؛ ولأول مرة ترفع منظمة عسكرية احتجاجاً على معاقبة العسكريين الذين يرفضون الخدمة في الضفة الغربية.

خلال الأسابيع الأربعة الأولى، بدا واضحاً، اننا نخوض في لبنان حرباً، شبيهة جداً بحرب الاميركيين في فيتنام، حتى بتسارع الأحداث بأسرع مما خطط لها. رد وزير الدفاع على الحركات العسكرية جاء سريعاً وواضحاً «لن أسمح مطلقاً بجمعيات عسكرية» إنه منطق الفاشية. النائب العمالي افـراهـام كـاتـزوز، اتهم مسـاعـدي وزيـر المواصلات موردخاي تسيبوري، باستعمال الأساليب الفاشية «إنها الفاشية بعينها» كما واتهم العاملين

تحت سلطة الوزير بالتجسس على بعضهم لصالح الوزير.

بالنظر إلى التاريخ، نرى بيغن، يستعمل الأساليب الديمقراطية، لتقويض أسس الديمقراطية، تماماً كما فعل بيرون من قبل في الارجنتين. وهنا المأساة. حكام ينالون أصوات الأكثرية، في غياب ايديولوجية ديمقراطية، إما عن طريق الانتخابات المباشرة - بيرون - أو باتفاقية رضائية بين تحالف أحزاب على اكتساب الغنائم في الحقائب الوزارية، كما هي حال بيغن. خلال السنوات الأخيرة، خسرت اسرائيل الكثير من مظاهر الديمقراطية، خاصة، منذ بدء الغزو الاسرائيلي للبنان؛ الذي امتص موازنة الدولة بكاملها، حتى موازنات المساعدات الاجتماعية والأبحاث العلمية التي من شأنها المساهمة في مضاعفات صادرات اسرائيل التكنولوجية؛ غزو لبنان أجبر الحكومة على تأجيل مشاريع عمرانية وإنشائية كان من شأنها تشغيل اليد العاملة، بدلاً من أن تضطر هذه اليد إلى الهجرة وبكثافة.

هذه السياسة، ستنعكس، بلا شك، على طبيعة اسرائيل. فالمجتمع الاسرائيلي سيصبح مجتمعاً مغلقاً، وأكثر تعصباً، وأكثر بدائية، هذه المبادي المناقضة لمبادىء القانون الدستوري الاسرائيلي، هي وليدة حكومة، أجبرتنا على مواجهة اللاديمقراطية.

اسرائيل تشهد - في ظل حكومة بيغن - تحولات جذرية، ومن أهم هذه التحولات ضم القدس الشرقية، وهضبة الجولان السورية المحتلة منذ عام ١٩٦٧. هذه الأفعال ستجعل اسرائيل في حالة مواجهة دائمة مع دول الشرق الأوسط.

حكومة بيغن، تعتبر القوة غير المحدودة للأغلبية البرلمانية، هي مظهر من مظاهر الديمقراطية. وبيغن نفسه، لا يعطي أية أهمية لقرار الأغلبية، وهنا تتضح عملية خرق الديمقراطية التي من الممكن أن تحول بلادنا، إلى مجتمع حكم الأكثرية البرلمانية. والأهم من هذا كله، هو إعلان الحكومة رغبتها في ضم الأراضي المحتلة، مما يعني أن المسلمين سيعيشون بيننا كمواطنين من الدرجة الثانية، ومما لا ريب فيه، هذه أبسط قاعدة لا ديمقراطية.

عام ١٩٨٠، وقبيل وفاته، كتب المؤرخ يعقوب تالمون في الهآرتز كلمات موجهة إلى رئيس الوزراء تحت عنوان «البلاد في خطر». تالمون Talmon لم يستعمل كلمة بلاد بالمفهوم المطلق، لكنه كان يشير إلى القيم الأساسية لبلاده، ومن خلال رسالته هذه أوضح انه يرى الديمقراطية الاسرائيلية، تحتضر. تالمون، وصف بوضوح، التحولات السياسية في

اسرائيل داخلياً واقليمياً، وفي الحالتين تبقى هذه التحولات العدائية للبلدان المجاورة، اقليمياً، وخداع الشعب محلياً، لعبة لا ديمقراطية وفاضحة.

حقاً، حكومة بيغن حولت الديمقراطية إلى «توتاليتارية» على حد تعبير تالمون نفسه، وإلا كيف يقف رئيس الوزراء أمام الكنيست، ليعلن ان اجتياح لبنان، تم لتحقيق أهداف محدودة، في حين تحول الاجتياح المحدود إلى حرب واحتلال؟ مهما يكن، فرئيس الوزراء ووزير الدفاع، كانا يتهربان من حضور جلسات لجنة الدفاع والشؤون الخارجية، وانهما كانا يجيبان على أسئلة النواب، بالعموميات، وبإعطائهم معلومات كاذبة. وحتى الأسبوع السابع، كان البرلمان يجهل الكثير من المعلومات الدقيقة، فالحكومة لا تؤمن بحق الأقلية بمناقشة هكذا مواضيع. مما حدا بوزير الخارجية السابق أبا إيبان إلى توجيه رسالة احتجاج «لم تعرف لجنة الدفاع والشؤون الخارجية وضعاً كهذا في تاريخ اسرائيل؛ إنه وضع لا يطاق».

بعد شهر من بدء الحرب، وقف النائب سولامي آلوني، في الكنيست، يناقش أمراً أصدره شارون، لكبار ضباطه أعطاهم فيه حق اعتقال أي شخص وفي أي مكان، خارج لبنان، متهماً وزير الدفاع، بإقامة عسكرية في لبنان، رغم إرادة الحكومة اللبنانية، وبشكل مخالف للقانون الاسرائيلي، اللبناني وحتى القانون الدولي، ورغم هذا، لم يتمكن الكنيست من نيل جواب بسيط من الحكومة، لأنه ما من أحد بعد اليوم يضمن بقاء الديمقراطية في اسرائيل.

النائب يوسي ساريد، طلب إيضاحاً من الحكومة عن الدافع الذي جعلها تبالغ في أرقام السلاح ونوعيته الذي تملكه منظمة التحرير الفلسطينية، ولم يجد مجيباً، كرر السؤال، ولم يلق مجيباً؛ فثار واتهم الحكومة بمحاولة خداع نواب الأمة، فعلى سبيل المثال، بدلاً من خمسماية دبابة حديثة الصنع، نجد تسعين دبابة ت ٣٤ قديمة الصنع، تطلق النار ولا تتحرك؟

وحتى على المستوى العالمي، رفضت حكومة بيغن أي تأكيد للرأي العام العالمي على قراراتها. انها حكومة شوفينية. والحقيقة، انه مهما قيل في حكومة بيغن يبقى قليلاً، لأن تكرار الأمثال لن يفيد.

- ٦ -

بعد عودة صاحبي الارجنتيني إلى تل أبيب من جولة له في البلاد، لم أسأل عن انطباعاته، ولا هو فتح الموضوع. كل ما قلته، أنه يشبه غريب البيرت كامو مع فارق بسيط، **غريب** الكاتب الفرنسي عاش سنة ١٩٤٢ في الجزائر، أما صاحبي، فهو يهودي أرجنتيني جاء اسرائيل ـ دولة اليهود ـ فإذا به **غريب** عام ١٩٨٢.

ضحك صاحبي وهو يتساءل: «إذن **غريب** كامو لعام ١٩٨٢ هو يهودي؟».

وأجبته: «بدون شك».

«استناداً إلى التقاليد اليهودية، لن أكون أنا ذاك **الغريب**، فأمي مسيحية» عاد صاحبي يقول وهو يبتسم.

بدا لي واضحاً، انه لا يريد الخوض في الموضوع. فأطبق شفتيه على كل كلمة. فقاطعت صمته «في هذه الحال، اعتقد انك **أفضل غريب** للسنوات الاربعين المنصرمة. انت غريب لأنك يهودي، وغريب لأنك لست يهودياً. وغريب، لأنك تعتقد ان لك **مكاناً** في الحياة، مناسباً لك. وحين ستلقى هذا المكان، سيجعلك غريباً عن جميع الكائنات البشرية. بالمختصر، أنت الغريب الذي لم يولد بعد والذي لن يشعر بالغربة، لأن لحياتك هوية ومصيراً».

ونهض صديقي عن كرسيه واتكأ على حديد الشرفة وأغرق عينيه في منظر غروب شمس ذاك اليوم، فعلاً كان منظراً غريباً أيضاً، لون الاحمرار كان قوياً، حتى ما بعد اختفاء خلف مياه المتوسط، الخبراء ردوا هذه الظاهرة إلى كثافة الغبار في الفضاء، ولكن التجربة تقول إنه دخان البارود المتصاعد من بيروت؛ ينتشر في السماء جنوباً وغرباً.

وحين أطلعني على رغبته في العيش باسرائيل ـ وبالتحديد بتنتورا Tantura ـ نصحته بأخوة وبصداقة ألا يفعل، أن ينتظر نهاية الحرب على الأقل، وساعتئذ يقرر ما يريد. أسلوبي في التخاطب معه كان أسلوباً هجومياً، لست أدري لماذا. وبالوقت ذاته خشيت أن استمر في حديثي فلربما يكون صديقي سعيداً في حياته باسرائيل.

ولما أزفت ساعة الوداع، ودعته وكلي يقين اني لن أراه ثانية، بسبب حديثي الصريح معه. أما هو فتمتم قائلاً: «أنا اسرائيلي أكثر منك» قد يكون مخطئاً. ومن المحتمل أن

تكون تغيرات داخلية في نفسي، ولكن ذلك بسبب سبعة أسابيع حرب، كشفت لنا طبيعة حرب لم نألفها من قبل. فنحن لا ندري أية سياسة ننتهج ولا أي وقف اطلاق بإمكانه حماية جنودنا، ولا أي مصير ينتظرنا.

صديقي لم يتجاذب أطراف الحديث مع الجنود العائدين مؤخراً. فبعد سبعين يوماً، لم ندرِ لماذا نقاتل، وليس بمقدورنا القول ان هذه الحرب ستنتهي بهزيمة الاعداء؛ لأننا نعرف من أين ابتدأ العدو، ولا نعرف أين ينتهي. ليس بمقدورنا القول ان الحرب ستنتهي بانتهاء الاعداء عند حدودنا، لأننا نعرف أين تبدأ حدودنا، أما أين تنتهي؟ فلا أحد يعلم.

علينا كإسرائيليين، مواصلة الكفاح، لتجديد القيم والمثل التي تعطي بعثاً جديداً لهذه الأمة. فالرسائل عبر الصحف، اعتراضات الجنود، إطالة الحرب، صعوبة الحياة اليومية، فقدان الثقة بالحكومة، السخرية من تقارير الجيش، كل هذه، عناصر جديدة، تضيف إلى مأساتنا، مأساة جديدة.

روى بعض الجنود، ان بعض كبار الضباط، بما فيهم جنرالات، سألوهم عما إذا كانوا يوقعون عرائض الاحتجاج بصفتهم المدنية، أم بصفتهم العسكرية. شيء مضحك فعلاً، أليس كذلك؟

رواية أخرى: فلسطيني قال لصديقه: أظن ان الاسرائيليين يعتقدوننا طيوراً، لهذا يطلقون النار في الهواء بغزارة، كي نقع.

وهذه ثالثة: لشارون ثلاثة سائقين: السائق الذي يقود به إلى بيروت يقول له، من الأفضل أن ننسحب من لبنان. أما الذي يقود به أبعد من بيروت فيعتبر ان الوقت لم يحن بعد لاتخاذ مثل هكذا قرار. أما الثالث الذي يقود به داخل اسرائيل فينصحه باحتلال بيروت.

بلادنا، هي الإطار المجسد لاستمراريتنا اليهودية، لاستمراريتنا الروحانية، واليوم فقدنا كل شيء. الصحفي الفرنسي جان دانيال والصديق الحميم لاسرائيل، كتب مؤخراً يقول: «اسرائيل بلد ككل البلاد». لا اسرائيل ليست كغيرها من البلدان. لم تخلق لتكون كذلك. وأفضل ضمان لأمنها، هو الحفاظ على مبادىء مؤسسيها، كما كتب الفيلسوف جان بيار فاي في «الموند» «هذه حكومة بيغن... هذه دولة بيغن... ولا يمكن أن نهاجم الدولة الصهيونية بسبب سياسة بيغن».

الاستمرار هو أبعد بكثير من إعلان رسمي؛ وأبعد بكثير من العيش على

الذكريات، ذكريات تاريخنا المأساوي. الاستمرار هو كما وصفه ياكوف غوترمان في الجيروزاليم بوست، إنه علاقة حاضرة بالماضي وبالمستقبل. «إنه أصوات دماء أبنائنا المرتفعة من تحت التراب».

لمن السخرية بمكان أن نكون في الأسبوع السابع للحرب، وما نزال نعيش عقلية اليوم الثالث، خلافاً لكل منطق نؤمن به نحن الاسرائيليين. كلنا كنا نعتقد ان الحرب لن تطول أكثر من ثلاثة أيام.

ثلاثة أيام، أية أكذوبة هي هذه، استولت على تفكيرنا وسيطرت على تصرفاتنا اليومية وسلوكنا النفسي. نحاول طردها من خيارها، وعبثاً نحاول. إنها تنمو في أعماق صدورنا، حتى بات يخشى أن تحدث تبدّلاً مهماً في كيفية تفكيرنا. حتى ما بعد الأسبوع السابع، ما زال أمراء الحرب يتحفوننا كل يوم بلائحة طويلة تعدّد جرائم الفلسطينيين، دون أية إشارة إلى ما نرتكبه نحن من جرائم. متى نسلك درب الهدى والعقل، ونعي أن القضية الفلسطينية لا تحل عسكرياً.

وفي الأسبوع السابع أيضاً، تمّت عملية تبديل القوات، وعاد الجنود وبجعبتهم قصص المآسي، عن الأطفال الذين هم دون العاشرة، عن النساء المتسولات، بعد أن خسرن كل شيء من متاع الدنيا، ومنهن قد خسرن الأزواج والأولاد إضافة إلى البيت والمال. وعادوا أيضاً بقصص الإندفاع البطولي، أطفال تطوعوا للخدمة في المستشفيات لمساعدة الجرحى، وممرضات، حللن محل الأطباء ورفضن أن يتركن مراكز عملهن. كل شيء غريب في هذا العالم. إننا نحاول قتلهم ولكنهم يرفضون الموت، حتى بعد أن يذبحوا من الوريد إلى الوريد، يرفضون الموت.

عاد الجنود بانطباع جوهري وأساسي، هو أن الشباب الفلسطيني يتباهى بهويته الفلسطينية، ولا يتذمر، إنه مستعد لتحمّل شتّى أنواع العذابات، في سبيل الإحتفاظ بهذه الهوية، لأنه يرى مستقبله وحاضره فيها.

يقول المؤرّخ الإلماني جوهان هويزنيكا، في كل حقبة، هناك من يتطلّع لعالم أفضل وكلما اشتدت الأزمات، كلما ازداد التطلّع إلى مستقبل أفضل؛ وهذه هي حالنا وحالهم. نحن في أزمة وهم كذلك. نحن نقول، هذه الحرب لن تنتهي، نقول هذا لأننا نريد فعلاً أن تنتهي، أن تكون آخر حروبنا.

في تل أبيب عُرضت مسرحية بعنوان «صور الآخرين» يشترك في تمثيلها ثلاثة من

العرب وثلاثة من الإسرائيليين. تنتهي المسرحية بضياع الكل. إنها الحقيقة، الصراع العسكري لن يعطي نتيجة. وهذا ما توصّل إليه قائد قوات منظمة التحرير الفلسطينية في صيدا، إذ أعلن ـ بعد سقوط صيدا ـ أن مرحلة الصراع العسكري انتهت، وأن على الفلسطينيين أن ينتهجوا النهج السياسي، إذا أرادوا حلاً لمشكلتهم. إنه محقّ « كائناً من كان القتيل، فلسطينياً أم إسرائيلياً، فهذا لن يساهم في الحل، على العكس، قد يزيد الأمور تعقيداً ويجذّر الحقد ». وبالوقت ذاته لماذا نحاكم شعباً بكامله لتهمة ارتكبها بعض أفراده؟.

أنصل حقاً إلى هذه المرحلة، ومتى؟

ـ ٧ ـ

اليوم، الخامس والأربعون للحرب، لا بدّ من أن نتذكّر قول شارون، في اليوم الأول من الحرب، خلال أربعة وعشرين ساعة، سنطرد الفدائيين الفلسطينيين إلى ما وراء ٤٠ كلم عن الحدود.

في هذا اليوم، الخامس والأربعين، تعرّضت مستعمرة في الجليل للقصف بالصواريخ من المنطقة التي يسيطر عليها جيش الدفاع الإسرائيلي. لا ضرورة للتعليق على هذا الحادث، ولا على حادث تعرض دورية إسرائيلية لهجوم فلسطيني أوقع فيها خمسة قتلى.

بعضنا اعتقد أن هذين الحادثين، هما نتيجة حتمية لعدم إخراج الإرهابيين من بيروت. والبعض، ردهما إلى فشلنا في فهم التاريخ، وإن إسرائيل لن تعرف الهدوء طالما أن الفلسطينيين ما يزالون بدون وطن؛ وطالما أن إسرائيل ترفض التخلي عن الضفة الغربية وقطاع غزة، لإنشاء دولة فلسطينية مستقلة. هناك من أكّد أن الفلسطينيين الذين يحاربون جيش الدفاع الإسرائيلي في لبنان هم إرهابيون. لنسلّم جدلاً بهكذا تفكير، ولكن حكومتنا، ليست إرهابية، لقد خدعتنا، وادعت أنها قضت على الإرهاب الفلسطيني في جنوبي لبنان. أي خداع هو هذا: عشرة آلاف إرهابي، كانوا يسرحون ويمرحون في مخيمات لا يقل عدد سكانها عن أربعمائة ألف نسمة. أما تدري حكومتنا، أن الذين قضت عليهم ليسوا إلا جيلاً من أجيال الفدائيين المتتالية؟ لماذا لا تتجاهل التاريخ الذي يخبرنا أن جولة القتال القادمة، ستكون أكثر شراسة وأكثر ضراوة؟

إذن هذين الحادثين، برهنا، على عدم صحة الإدعاء، أن غزونا للبنان، أنهى جميع

مشاكلنا الأمنية، وأن علاقة جديدة ستكون بيننا وبين الولايات المتحدة؛ وكذبت التقارير القائلة بإمكانية ظهور حركة ثورية ناشطة وفعّالة في الضفة الغربية وقطاع غزة، والتي أكدت أن نصرنا في لبنان، لن يؤمن السلام للجليل وحسب، بل وسيثبت الهدوء والإستقرار في يهودا والسامرة.

بدأ اليأس يتسرّب إلى عقولنا من جديد. فكل إمكانيات جيشنا وقدراته لم تحل دون قيام فريق فلسطيني من قصف الجليل، ولا من مهاجمة دورية، ولا من اغتيال مسؤول إسرائيلي في بيت لحم. ما من أحد يشك أنهم لن يتمكنوا من القضاء علينا، وبالوقت ذاته، لن نتمكن نحن من القضاء عليهم.

إلى جانب ذلك، نحن متأكدون، أن عظمة جيشنا وجبروته، هي نتيجة حتمية لتضامننا معه، وتعاون الولايات المتحدة الأميركية؛ وهكذا فالإعلان عن وقف شحن الأسلحة الأميركية إلى إسرائيل، لم يؤثر في معنوياتنا، إذ أننا واثقون أننا الحليف المفضّل لواشنطن في الشرق الأوسط، ولا شيء يشير إلى تغيّر جذري في هذه العلاقة، ولكننا نخشى حدوث ذلك يوماً ما.

حتى اليوم، ما يزال الوطن الإسرائيلي، يقرأ ويسمع، عن العلاقات الوطيدة مع أميركا، لكنه، في قرارة نفسه، يشعر أن حليفه هذا، لن يستمر طويلاً في علاقته هذه؛ إذن وفي مثل هذه الحال، لماذا لا ننسى إمكانية معاقبتنا؟ وماذا أيضاً؟ هناك الآخرون؛ الوجود الأزلي والأبدي للآخرين: الفلسطينيون الذين لا يمكن ولا بأي شكل من الأشكال محوهم من الوجود.

حين أحاول، كل ليلة ـ بعد سماع نشرة أخبار التلفزيون، وتعداد أسماء الجنود القتلى ـ قلّة منهم تفوق أعمارهم العشرين ـ تحليل ما حدث لنا، وما يزال يحدث، أصل إلى نتيجة واحدة: الفلسطينيون. لا أعني أنهم السبب، لأن السبب نابع من ذاتنا، فكّرت كثيراً بالموضوع، فكّرت كيف أن المنتقم يسحق ضحيته، تعبيراً عن حقده، إنها ظاهرة غريبة فعلاً، واليوم نفعل نحن مثله، ونمجّد فعلنا ونقدّسه، بدلاً من إنزال العقاب به.

هل نحلم ونصدّق أن الحلم حقيقة؟ إذا كنا لا نصدّق ذلك، فكيف إذن، نوهم أنفسنا، أننا سنزيل الفلسطينيين من المنطقة، ولن يبقى لهم أثر؟ وكيف نحلم أننا سنجعلهم سعداء في أي مكان من العالم، إنما بعيداً عن هنا؟ أما آن لنا أن نفكّر بالأمور الثلاثة الآتية: اليهودية لا تقرّ بالجريمة بحق الإنسانية ـ أية جريمة بحق الفلسطينيين هي منافية

لليهودية ـ وأخيراً، إن فكرة اللاسامية هي من خرافاتنا القديمة.

إن الحقيقة الماثلة أمام العيون، كلانا مجرم. نحن والفلسطينيون. وكلما اعتدي علينا ازددنا تعلّقاً بالأرض، وكلما مارسنا **العقاب** ضدهم ازدادوا قناعة بحقهم. إن مأساة لبنان اليوم، والضفة الغربية وقطاع غزة، ستشكل معاً، دفعاً جديداً لولادة جديدة؛ تماماً كولادة السياسة اليهودية، التي انبثقت بعد انتشار حركة اللاسامية في فرنسا أواخر القرن التاسع عشر. فالتاريخ يعلّمنا أن الضرورة تعطي القوة التي لا تقهر.

مع نهاية الأسبوع السابع، بدأنا نطرح أسئلة جديدة. قيل لنا، سندمّر منظمة التحرير، سيختفي الإرهاب، سكان الضفة والقطاع سيرضخون لنا، وستكون في لبنان حكومة قادرة وقوية وديمقراطية، تحالف إسرائيل، وهكذا تسنح لنا الفرصة لنستفيد من كل الذي حدث. وسيصبح الشرق الأوسط، مفتوحاً لنا، ولحليفتنا الولايات المتحدة الأميركية. قيل وقيل، وكله يعبّر عن النصر القريب، والأسابيع تمرّ.

ها نحن دخلنا الأسبوع الثامن، فماذا حققنا، حتى الآن لا شيء، بالعكس، فحليفتنا وثّقت علاقاتها بالعالم العربي، تماماً، كما في السابق. أميركا تبحث عن أصدقاء لها في المنطقة وليس من صديق واحد.

الفرص التي قيل إنها ستتاح لنا، أتيحت لفرنسا ومصر: مصر عادت إلى أحضان العالم العربي، بدون قطع علاقاتها مع إسرائيل. وفرنسا عادت إلى الشرق باسم الديمقراطية والتقدمية التي ينادي بها الرئيس الفرنسي.

اليوم ونحن ندخل الأسبوع الثامن، ما نزال نحن، نحن، وهم، هم. واليوم، بعد أربعين سنة من الخصومة والصراع، تقاتلنا خلالها، مات منا، ومات منهم، تعذبنا وتعذبوا، وما نزال نحن هنا، وما يزالون هم لاجئين مشردين، فقط، تبدلت بعض السياسات، وبعض التحالفات، لكنها لم تنعكس، لا سلباً ولا إيجاباً على موضوع الصراع.

وفي حين قال جان دانيال في باريس، إنه اكتشف أن إسرائيل كبقية الدول، أعلن في واشنطن الكاتب الصحفي ماغ غرينفيلد Meg Greenfield، أن إسرائيل حوّلت ذاتها لتصبح مثل الآخرين. قد يكون هذا حقيقة، لكنه ليس الحقيقة الوحيدة. من المريح القول، إن جيشنا في لبنان يتصرّف بوحشية أقل بكثير من تلك التي هي بين العراق وإيران. ومن تلك التي ارتكبها الأميركيون في فيتنام. ومن المريح جداً القول إننا لم نتصرّف في لبنان، تصرّف جنوبي إفريقيا في ناميبيا. هذا يعني أننا أفضل من الأسوأ،

ولربما نكون أفضل من الأفضل، في هذه الحال، نكون قد خطونا بإقدام على طريق توقّف إستمراريتنا اليهودية. علينا، التطلّع إلى الخلفية التاريخية لشعوب المنطقة، والشعب الفلسطيني خاصة، وإن فعلنا، فسنجد أنفسنا مجبرين على التعامل مع الدول العربية من زاوية أخلاقية، وإن تمكنّا من استغلال هذه النظرة للتاريخ، نكون نسعى فعلاً للحفاظ على مستقبل استقلالنا بسلام.

أثناء زيارة لشارون، بصحبة وفد صحفي، لبيروت وجونية، شاهد جنوده المتعبين، ممددين على رمال شاطىء جونية؛ يأكلون السمك الطازج، ويشربون الخمر والعصير وعلى أذرعتهم رؤوس الفتيات اللبنانيات، بشعورهن الناعمة الملسة. الصحفي الفرنسي رينيه باكمان Backman علّق على المشهد بقوله: ما يكاد الجنود الإسرائيليون يتركون أرض المعركة حتى يتحولوا إلى بشر من نوع آخر، كباقي البشر. بالنسبة لأوقات المتعة هذه، لا يلام الجندي الإسرائيلي، بل اللوم يقع على فتيات لبنان، اللواتي كلما أتاهن غريب استقبلنه بالأحضان والقبلات، وما هو أبعد من ذلك. إنه التعبير عن عدم الإرتباط بالأرض والتاريخ والوطن. هناك شعب لبناني ـ من مختلف الطوائف ـ يموت وتدمّر منازله، وهن يرفّهن عن جنود شارون القلق على مصير جيشه. إسرائيل لا تعيش بجيش كجيوش الآخرين أبداً، إسرائيل لا يمكنها العيش بجيش الدولشي فيتا، وإلا نكون **نغتنم** حربنا في لبنان.

وماذا أيضاً؟

إن على إسرائيل أن تتقبّل بالمنطق، هؤلاء **اليهود** الجدد في الشرق الأوسط، هؤلاء الصهاينة، بدون هيرتزل، ولا بن غوريون، هؤلاء الفلسطينيون الذين رفضوا الإضمحلال، والذين رفضوا نسيان بلادهم، جرائمهم وأخطاءهم، لا تنفي مطلقاً حقهم التاريخي، فإذا قدرنا على الإعتراف بهويتهم الإنسانية، كما فعلنا مع الإلمان بعد الحرب العالمية الثانية، يكون علينا الإعتراف بهويتهم القومية.

برغم كل جهود حكومتنا وإعلامنا الرسمي، لإخفاء حقيقة الأمر، وإنكاره، فالفلسطينيون، كانوا وما يزالون، على استعداد للإعتراف بإسرائيل؛ وقد لمحوا إلى ذلك أكثر من مرة، لكننا لم نشأ أن نفهم معنى هذه الرسائل، لأننا لا نريد ذلك، لأنه في غير مصلحتنا؛ من هنا علينا المجاهرة بخطأ كيسنجر، حين فكّر بحرب لبنان، فإن هذه الحرب، على عكس توقعاته، وعلى عكس ما أقنعنا وأقنع الولايات المتحدة الأميركية به، لم نقض

على القضية الفلسطينية ولا على جذورها؛ بل بالعكس، فمن أولى نتائجها، إعطاء الطوافات مهمة جديدة: نقل جثث جنودنا القتلى. وأوضحت قدرتنا على السيطرة، واحتلال لبنان، حتى ولو أدى ذلك إلى جعل الصحافة العالمية توجه لنا الإنتقاد تلو الإنتقاد..

ولكننا نعود إلى الإنغلاق - الغيتو الفكري - إلى التفكير بأن الحياة، تعني كره الآخرين لنا، وإلحاق الهزيمة بهؤلاء الآخرين. لماذا نعود إلى هكذا تفكير طالما أن قيام دولة إسرائيل، قام على أساس نهايته؟

ولماذا أيضاً، نطوّق أنفسنا بالأعداء، ونقبع منتظرين عمّنا الثري ليأتي إلينا حاملاً المال والمساعدات؟

لا ريب، وبكل التأكيد، بيغن ما يزال يفكر بالغيتو، ويتصرّف على أساس أنه ما يزال يعيش فيه. هنا أعتقد جازماً، أنه آن لنا أن نعتق، وندرك أننا بحاجة للفلسطينيين مثلما هم بحاجة إلينا، لنتكامل معاً في حياة ديمقراطية. ورغم هذا ما تزال بيروت الغربية تتعرض للقصف، براً وجواً وبحراً، وما نزال نهاجم السوريين في المنصورة وبرالياس وبعلبك وعلى طول طريق بيروت - دمشق. إنها الحرب التي ستعيدنا إلى إنتظار:

أولاً: إنتظار مشترك، وترقّب مزدوج لنبأ وفاة جندي أو مقاتل عند خطوط القتال.

ثانياً: إنتظار الليل لنسمع نشرة أخبار التلفزيون لنعرف عدد قتلانا وأعمارهم. قد لا نعرف أحداً منهم، لكن هذا لا يمنع كونهم بشراً أن نتأسف على شبابهم.

مع الأسبوع الثامن، بدأت المفارقات تتضح؛ اللبنانيون - كل اللبنانيين، صاروا يطالبون بانسحاب الفلسطينيين والسوريين والإسرائيليين؛ وصار المسيحيون يهددون المسلمين باقتراب جيش الدفاع الإسرائيلي منهم؛ أما المسلمون والدروز، فيهددون المسيحيين ببقاء الإسرائيليين في لبنان.

ومع إضاءة شموع **سبت** الأسبوع السابع، صليت مع زوجتي للرب، ليمنح حكامنا قدرة تفهم وجوب وجود دولة فلسطينية مستقلة. إذ أنه آن لنا أن نهدم الجدران التي تفصلنا عن غيرنا.

- ٨ -

خلال الأيام الأولى للإجتياح، كان ضباط جيش الدفاع الإسرائيلي معتقدين أن إنسحاباً قريباً سيتم من لبنان، أو من بيروت على الأقل. ولكن الوقت مرّ، وبدلاً من أن ننسحب تقدمنا. والناطق الحكومي - غير الرسمي - يعلن أن «الوقت يمرّ مسرعاً». ومع مرور الوقت، نجد اللبنانيين والفلسطينيين والإسرائيليين، **يحتفلون** يومياً بتشييع قتلاهم. وكأنه مكتوب علينا، نحن سكان هذه المنطقة، أن نبقى هكذا، نقتل بعضنا بعضاً بحثاً عن السلام، دون أن نتقدّم نحوه ولو قيد أنملة.

بيغن اتهم عرفات، بأنه هتلر هذه الأيام، وردّ عرفات الإتهام ذاته لبيغن: أوَليس شيئاً جيلاً هو هذا؟ والصحافة تردّد، وتخترع من عندياتها. وأخيراً تكلّم ليونيد بريجنيف واتهم إسرائيل بإبادة الشعب اللبناني والفلسطيني معاً. كلام بريجنيف هذا، جاء تحذيراً لنا، لئلا نركب رأسنا ونقتحم بيروت، ولكنه في الوقت نفسه ذكّرنا بإبادات شعوب أخرى: ذكّرنا بمليون ونصف مليون أرمني أبيدوا على يد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى، هذه الإبادة التي تعتبر أفظع وأبشع جريمة في التاريخ. كما ويحق لنا أن نتذكّر العشرين مليون سوفياتي الذين قتلوا أثناء الحرب العالمية الثانية، والستة ملايين يهودي الذين قضى عليهم هتلر. ولكن لا أعتقد مطلقاً أن إسرائيل تشن حرب إبادة Genocide في لبنان.

مع بداية الأسبوع الثامن، كان الكل في ورشة تحرّك سياسي وديبلوماسي. وزيرا خارجية سوريا والسعودية عادا إلى بلديهما بعد جولة في عدد من العواصم الغربية، بما فيها واشنطن. الموفد الأميركي فيليب حبيب، غادر بيروت لزيارة بعض عواصم المنطقة. ولكن لا أحد يدري ماذا عليه أن يفعل؛ رغم طرح حلول عدة للمسألة.

ومع بداية هذا الأسبوع، أيضاً، بدا واضحاً، أن شعبنا، ملّ انتظار ساعة عودة الجنود إلى بيوتهم، وكلما أعلن عن موت جندي يرتفع سؤال مر: إلى متى سيبقى شعبنا يقتل؟ نعم إلى متى؟ سؤال لن يجد جواباً، فكل الحركات التي قامت منذ السبعينات حتى اليوم والمناوئة للحرب أو **لعسكرة** حياتنا، لم تصل بعد إلى مرحلة التأثير في مجرى السياسة العامة للبلاد. والأمرّ من التساؤل، هو فهمنا لحقيقة لا ردع لها ولا حجب، ألا وهي أنه برغم انتصاراتنا في حروبنا السابقة منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم، لم نتمكّن من تحقيق

سلامتنا. نعم ألحقنا بالعرب وبالفلسطينيين الهزائم، لكننا لم نتمكَّن من تحقيق التفوق عليهم، وإسكاتهم. ولو افترضنا جدلاً، أننا حققنا **فعلاً** التفوق والسيطرة، ولكننا لم نصل إلى **السلام** بعد، ولا إلى **الضمانات الأمنية**، وما نفع القوة إن لم تكن قادرة على تحقيق هذه الأهداف؟ الآخرون يرفضون التفاوض معنا، خوفاً من قوتنا، التي هي الضمان لوجودنا. فكيف نصنع السلام إذن؟

انطلاقاً مما سبق، أظن أن تغيرات مهمة قد تحدث في مجتمعنا، لتجعل المواجهة بين شعبين لكل منها حقوق، وكلاهما محق في حقوقه، ومتساوين في الحقوق أيضاً. أردنا التسهيل فإذا بنا نقع في التعقيد. دعونا نوضح: من المعروف أن الأعداء يوقعون اتفاقية سلام، وبما أننا أعداء، فإنه من المحتمل أن نصل إلى السلام، لكن الذي يجعلنا نستمر في التحارب، ليس كوننا أعداء، بل لأننا نتصارع حول حقوق، والحال هذه، لماذا نبحث عن اتفاقية سلام، بدلاً من البحث في كيفية الوصول إلى هذه الحقوق بأساليب سلمية. ولكن، وبما أن إسرائيل تمتلك القوة، فهذا يعني أنها قادرة على الحفاظ على حقوقها.

وفي هذا الأسبوع أيضاً، ما تزال قواتنا الجوية والبحرية والبرية تقصف بيروت والفلسطينيين والسوريين الذين أعلن وزير دفاعهم أن لدى سوريا صواريخ سوفياتية حديثة الصنع قادرة على تدمير أية مدينة في إسرائيل. وماذا يعني به، يعني مزيداً من الدمار، مزيداً من الخراب، مزيداً من الخوف.

بالعودة إلى الأسبوع الثالث، نعلم أن شارون كلف أحد خبراء إعادة التسكين والإعمار وضع ملف شامل عن حاجات لبنان. وبعد أن قدم دراسته لوزير الدفاع، جاءه الرد، أن الذي حدث في لبنان شيء مؤلم، ولكنهم يرفضون أية مساعدة، ويفضلون إعادة بناء بيوتهم على نفقتهم. إنه يتهرب.

ولكن الذي حدث، بعد ذلك، هو إعطاء حرية أوسع لرجال الصحافة في التجول في لبنان، دون أي حق بدخول المخيمات، صديق صحفي تلقى دعوة من ضابط احتياط «تعال وانظر بيروت تحترق، تعال وافعل مثل نيرون». ولكن أحداً لم يتلقَ دعوة لزيارة مخيمات اللاجئين، التي استناداً إلى معلومات الناطق الرسمي يوجد فيها عشرون ألف نسمة بلا مأوى، واستناداً إلى تقديرات الخبراء، يوجد فيها ما يقارب الستين أو السبعين ألفاً بلا مأوى.

دايفيد شيبلر David Shipler، كتب من صيدا ونشر في «النيويورك تايمس»:

«يسعى الجيش الإسرائيلي أكثر من مستطاعه، لإبقاء جرائمه بعيدة عن الأعين، لذلك فهو يمنع الصحفيين منعاً باتاً من زيارة المخيمات».

ياكوف ليفي Yaakov Levy الموظف في قسم المعلومات بوزارة الخارجية، أعلن أن أي ضابط يسمح لصحفي بزيارة المخيمات، سيعاقب بالسجن، ولهذا لم يسمح لمراسل «النيويورك تايمس» بزيارة مخيم عين‌الحلوة، في حين سمح لمئات الفلسطينيين بالعودة للعيش بين خرائبه.

إن إعادة الحوار بين يهود الداخل ويهود العالم، تستوجب قيام الأوائل بحركة ما للمساعدة في إعادة إعمار لبنان، ومساعدة الفلسطينيين الذين يعيشون اليوم ضمن ظروف صعبة وقاسية والذين لا يطلبون المنزل، بل ضمان وجودهم ومستقبلهم وحياتهم.

هل من تغيير فعلي في تفكير الفلسطينيين؟ إننا، كإسرائيليين، ما نزال نرفض هكذا اعتقاداً، وهم أيضاً يرفضون الإفصاح عن ذلك، لكننا، نعلم أنهم قبلوا بوجود إسرائيل إنما ليس حساب وجودهم: هذا الوجود المهدد دائماً، بالمجازر، ابتداء من الأردن وانتهاء بما يحدث حالياً[1].

متى ننتهي من السياسات المتناقضة؟ جيش له قدرات لا تقدر، واستراتيجية إرهابية، وما النتيجة: ها هي اليوم في لبنان: تدمير لمنازلهم، مدارسهم، مزارعهم، مستشفياتهم، بكلمة كل شيء، أما النتيجة الثانية فهي الإنتظار: إنتظار التحركات السياسية التي تقوم بها مصر، فرنسا، العربية السعودية،والولايات المتحدة الأميركية لحل مشكلة ٦٠٠ ألف فلسطيني ما يزالون في لبنان. ومن أجل الحفاظ على مليون وربع مليون فلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة.

أوليس من سخرية القدر، أن تكون الحرب مشرفة على بداية اسبوع تاسع، دون أي تبديل في المواقف؟ طائراتنا ما تزال تقوم بغاراتها اليومية التي أصبحت كالتمارين الروتينية، وضحايا الفلسطينيين والسوريين تزداد يوماً عن يوم وكذلك ضحايانا. أمس أعلن عن سقوط طائرة إسرائيلية وأسر طيارها لدى السوريين، واليوم تسري شائعات مخيفة عن احتمال نشوب حرب شاملة وواسعة مع سوريا، مما حدا بعدد من النواب إلى المطالبة بوجوب الفصل بين القوات السورية والقوات الإسرائيلية في لبنان على طول

(١) يبدو أنه غير مطلع على مجزرتي كفرقاسم ودير ياسين عام ١٩٤٨.

خطوط المواجهة في القطاعين الأوسط والشرقي من لبنان، وشدد النائب روبنشتاين في سؤاله لرئيس الوزراء، على أن هذا الفصل، يحول دون المواجهة الشاملة، ويعجل بوضع الحلول في لبنان. في هذا اليوم بالذات، وافق بيغن على ضم الجناح اليميني المتطرف لحزب تحيا إلى حكومته. هذا الجناح ما يزال يرفض كامب دايفيد، لأنه يرفض إعادة سيناء إلى مصر؛ إنه جناح متطرف، لا يفهم بالحلول السياسية. وفي هذا اليوم أيضاً، وافقت حكومة بيغن على تخصيص مئة وخمسين مليون دولار لبناء ستة آلاف منزل وسبع مستعمرات في الأراضي العربية المحتلة؛ وكل هذا بتحريض من نواب هذا الجناح الذي يمثله في الحكومة الوزير يوفال نعمان، الخبير النووي والمؤمن أن حدود إسرائيل تشمل الضفة الغربية وقطاع غزة إضافة إلى جنوب لبنان.

- ٩ -

مع نهاية الاسبوع الأخير من الشهر الثاني للحرب، أصبحت بيروت مدينة مفتوحة لقذائفنا البرية والبحرية والجوية. قيادة الجيش أعلنت أنها دمرت تحصينات الأرهابيين هناك، وعادت الطائرات إلى قواعدها سالمة.

إنه اسلوب جديد يلهينا عن حر آب. لنتحدث عن الحرب، ومن يا ترى يقدر على فعل غير ذلك؟ حكومتنا تحاول إخفاء حقيقة مهمة. حقيقة ما خلفه تدمير التحصينات: غبار، ركام، بنايات منحنية تقبل بعضها، نقص في المياه، جرحى بلا مستشفيات، موتى بدون مقابر، أباء يبحثون عن مكان يضعون فيه أطفالهم. ستة أيام من القصف المستمر. «الأوريان لو جور» اللبنانية وصفت ما يجري بالقول «اثنتا عشر ساعة من الجنون». أهذه هي أخلاقياتنا اليهودية؟.

وجاء البلاغ الرسمي، ليعلن عن استمرار العمليات العسكرية والمفاوضات السياسية جنباً إلى جنب، دون أية إشارة إلى مقتل أي جندي أو تهديم منزل، أو حتى إلى كلمة **الأعداء** أو أي رد علينا. ماذا يعني إذن، أن نستمر في قصف مدينة لمدة اسبوع، أمن أجل إخراج سبعة آلاف إرهابي، نصب أكثر من ستين ألف قذيفة على بيروت؟ وأخيراً جاءت الحقيقة عبر الصحافة الأجنبية، أربعمائة قتيل في بيروت من جراء القصف الإسرائيلي وكلهم من المدنيين.

ترى من أعطانا الحق لنقرر أن على هؤلاء المدنيين أن يموتوا لأنهم لم يعرفوا كيف يهربون في الوقت المناسب؟ ومن أعطانا هذه القدرة الكلية؟

وحين أطلت الحكومة علينا ببيان يعلن إن إخلاء منظمة التحرير الفلسطينية لبيروت يحل مشكلة لبنان. أما حل القضية الفلسطينية فيتم بتوطينهم في الأردن، تذكرت رئيس بلدية بيت لحم إلياس فريج، واستعدت بعضاً من كلماته، بحثاً عن منقذ من مأزقي النفسي. كلام حكومتنا لم يقنع المراسلين الأجانب، لكنه أثار مخاوف الإسرائيليين الذين قادتهم البراغماتية للقبول بمبدأ «أن المدنيين يقتلون في بيروت لأنهم مجرمون، مجرمون لأنهم غير قادرين على فعل شيء» يا لها من جريمة؟ أي قانون نص على عقوبة هذه الجريمة؟

قال إلياس فريج: «جذوري هنا في بيت لحم، هنا منزلي، الذي ورثته عن جدي الذي ورثه بدوره عن جد جده. إسرائيل تمتلك آلية الحرب المتطورة والمدمرة، وتحاول فرض حلولها على سكان المنطقة، تحاول تحويل لبنان إلى محمية، لكننا نحن الخمسة ملايين فلسطيني المنتشرين في العالم، نحن شعب عنيد وذكي ولن نقف مطلقاً».

ضباط جيش الدفاع الإسرائيلي مثقفون جداً وفخورون ببزتهم العسكرية، ويعتبرون من أفضل ضباط العالم، رواد مكتبات، ومطلعون على تاريخ الأمم، غير أنهم بعد شهرين من الحرب في لبنان، اكتشفوا إنهم غير قادرين على مواجهة الشك، وانهم يفتقرون إلى البعد الإنساني الذي يساعدهم على استيعاب الشك الذي قد يتسبب بعذابهم، إنهم غير معتادين على تحويل القلق إلى فعل. وهذا يعني افتقارهم إلى أهم ميزة إنسانية.

يوم الجمعة الأخير من الشهر الثاني للحرب، خصصت جريدة «يديعوت أحرونوت» مساحة كبيرة لقضية الي جيفا - ٣٢ سنة - أصغر ضابط في رتبته والضابط الألمع والأشجع الذي تمكن من تحويل القلق إلى فعل إنساني. قضية الكولونيل جيفا ليست قضية معقدة، بالعكس إنها قضية الإنسان الذي وعى إنسانيته.

تلقى الكولونيل جيفا قائد اللواء المدرع الأول بالتوجه نحو بيروت. ركز قواته ونظم خطوط دفاعه وتموينه؛ حتى أنه نظم عملية إخلاء الجرحى. قبل ذلك زار عائلات الجنود الذين قتلوا وهم يعملون تحت أمرته. تردد كثيراً قبل دعوة هيئة أركانه لإجتماع يشرح لهم فيه أوامر القيادة كما تلقاها، وليضعهم في الأجواء السياسية العامة، نقل كل ذلك، إلى ضباطه باسلوبه المرح الممزوج بالدعابة. جيفا ابن لجنرال سابق وشقيق لضابط محترف. صعد جيفا إلى برج مراقبته مع منظاره وراح يتأمل بيروت الغربية شارعاً شارعاً،

بيتاً بيتاً، بل قل شباكاً شباكاً، راقب كل شيء بدقة. فعل ذلك، رغبة منه بتحديد أهداف مدفعية دباباته: حين يتلقى أمراً بالتقدم حثيثاً. ومرت الأيام وهو يفعل كذلك. ذات يوم رأى مجموعة فلسطينية مسلحة، فتابعها بمنظاره، فلاحظ أن هؤلاء المسلحين يقتربون من ملعب أطفال، فركز منظاره على الأطفال، وفي مرة لاحقة جلس وراء منظاره لفترة أطول، وهو يراقب الأولاد يلعبون في الشارع، وفي مرة ثالثة، تابع مسير مجموعة أولاد حتى وصلوا إلى المدرسة، وهكذا، صارت بيروت بالنسبة لجيفا، مدينة الأطفال. وراح يتساءل: ماذا يحدث لهؤلاء الأطفال، حين يبدأ رتل من الدبابات الحديثة بدخول المدينة؟.

حين حاول مناحيم بيغن إقناعه بسحب طلب إعفائه من قيادة اللواء المدرع الأول أجابه بهدوء معرباً عن مخاوفه من أن محاصرة بيروت والإستمرار في قصفها يعني مجزرة بحق الأطفال والطفولة. لكن بيغن الذي لم يفكر لحظة بكلمات جيفا، سأله: «هل تلقيت أمراً بقتل أولئك الأطفال؟ إذن مما تشتكي؟».

في الحقيقة، ان علينا، النضال، حتى لا نصل إلى يوم نسمع فيه مثل هكذا امر، الأمر بقتل الأطفال، وإلا لن يكون أمامنا سوى مستشفيات المجانين. ولكن علينا ألا ننسى شعور جيفا: الأطفال يقتلون في الحرب، ولا ضرورة لإصدار أمر.

ونحن نهلل ونقدم التسبيح والتبجيل لرئيس وزرائنا الذي لم يصدر أمر بذبح الأطفال، نتوجه إليه، - إلى رئيس وزرائنا - كم عدد الأطفال الذين قتلوا في لبنان برصاص جنود جيش الدفاع الإسرائيلي؟ وقد يكون من الجنون بمكان أن نرد على جيفا بسؤاله عن عدد الأطفال الإسرائيليين الذين قتلوا على يد الإرهابيين في الجليل، لأنه يعرف أكثر من غيره الواقع ومطلع على كل شيء ولا يمكن خداعه، وسيرد عليهم بالقول: خلال شهرين فقط، قتل من أطفال لبنان مئات أضعاف الأطفال اليهود الذين قتلهم الإرهابيون خلال ثلاثين سنة.

إننا، شعب شجاع موحد ومحب للسلام. كولونيل الي جيفا، رأى وجوه أطفال بيروت وأدرك باحساسه الإنساني أي مصير ينتظر هؤلاء الأطفال في حال دخول دباباته شوارع المدينة، وفي حال وجه، رجاله نيران مدافعهم نحو الأبنية. إضافة إلى ما تقدم، وعى الكولونيل جيفا، أن موت هؤلاء الأطفال ، ليس مرتبطاً بوجود منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت، سياسياً وعسكرياً، لكنه مرتبط بمشيئة الله وقدرته. ورغم هذا

رفض جيفا الاستمرار في أن يكون اداة لقتل الأطفال أو لإرهابهم على الأقل.

هناك وجه آخر لقضية جيفا، وجه جنوده الذين يعرفهم واحداً واحداً، ويعرف عائلاتهم وعناوينهم ومهنهم. إنه لا يريد لهؤلاء أن يموتوا بناء لمشيئة شارون، فكر ملياً، فكر باللحظة التي سيزور فيها آباءهم أو زوجاتهم أو أولادهم لينقل لهم نبأ وفاة إبنهم أو زوجهن، أو والدهم دون تعليق، دون أن يكون قادراً على القول، ماتوا من أجل الوطن فهو يربأ بنفسه أن يكون شريكاً لبيغن وشارون في خداع شعب إسرائيل. يربأ بنفسه أن يكذب على أبنائهم وزوجاتهم، إخوتهم وشقيقاتهم، كما هو كاذب اليوم على جنوده عبر اسمه وكما هو كاذب اليوم بالنسبة لأطفال بيروت الذين يلعب معهم عبر منظاره، فطلب إعفاءه من الخدمة وبإلحاح.

الكولونيل جيفا كان صادقاً مع نفسه، فلماذا لا نكون نحن صادقين مع أنفسنا؟ لماذا لا ندافع عن أنفسنا ضد الخداع والكذب. جيفا أعطى بعداً لجيش الدفاع الإسرائيلي: البعد الحضاري، ومنح جنودنا حصانة ذاتية ضد **«مترنخية»** رئيس الوزراء.

أروع ما في قضية جيفا، أنه رفض أن يكون قائداً يأمر بإيقاع الموت بالآخرين وارتضى لنفسه أن يخدم جندياً عادياً، حتى ليبقى إلى جانب جنوده الذين أحبهم، لكن القيادة رفضت وجوده نهائياً.

فكم حري بجيشنا اليوم تنظيم حلقات دراسية لقضية جيفا؟.

تقديراً لجيفا قررت الذهاب إلى راعنانا Raanana والتظاهر أمام منزله، وحين وصلت، اكتشفت شيئاً: لم أكن وحدي هناك. كثيرون مثلي: وهناك أمام منزله، تذكرت قصيدة جورجي لويس بيرجيس التي أهداها لإسرائيل تعبيراً عن تعلقه بيهوديته.

إنسَ من كنت.
إنسَ الإنسان الذي كنته في تلك البلاد.
التي اعطتك صباحاتها وأمسياتها.
والتي عليك الا تشعر نحوها بأي حنين بعد اليوم.
سوف تنسى لغة والدك.
وتتعلم لغة الجنة.
ستكون إسرائيلياً، جندياً.
ستبني بلاداً من لا شيء.

وستجعلها ترتفع من بين رمال الصحراء.

بالمناسبة، مناسبة الحديث عن جيفا، لا بد من الحديث عن مطران صور للروم الكاثوليك المونسينيور حداد، الذي ابدى في البدء كل رغبة في التعاون مع جيش الدفاع الإسرائيلي من أجل انقاذ المدينة، لكن مشكلته أنه رفض أن يكون دمية بيد حكومتنا، رفض ذلك، انطلاقاً من حسه الوطني وتعلقه بشعبه فأعلن احتجاجه واستنكاره لما يقوم به جيش الدفاع الإسرائيل؟.

«في مطلق الأحوال نرفض الاسلوب الذي يتبعه جيش إسرائيل في اعتقال المواطنين، لا نعتقد أبداً أن وجود اسم ما في مكتب من مكاتب الفلسطينيين يعني أن صاحبه كان فدائياً، بالعكس، لم لا يكون مطلوباً منهم؟ وهنا لا بد من التذكير أن ٩٥٪ إن لم نقل ٩٩٪ من المعتقلين هم أبرياء.

ولكن المؤسف فعلاً، هو أن تكون مندوبة واشنطن لدى هيئة الأمم المتحدة، تفكر تماماً كحكومتنا، أو قل كشارون. إنها تفكر فقط بسبعة آلاف إرهابي، وتنسى أن غربي بيروت، يضم نصف مليون نسمة، هم بحاجة للماء والغذاء. شيء رهيب، كابوس مرعب، لنا نحن الإسرائيليين: إننا نحاصر غربي بيروت ليس عسكرياً وحسب، بل وتموينياً أيضاً، إننا نحاصر بيروت، هكذا تقول حكومتنا. أما كيرك باتريك ـ الملكية أكثر من الملك فتقول: «سبعة آلاف إرهابي». والحقيقة التي يعرفها الجميع، هي أننا نحاصر نصف مليون إنسان.

حين أتخيل أطفال بيروت يعانون العطش، أشعر بالغثيان لفقدان الإحساس عندنا، إننا هنا نعرف معنى العطش.

بيروت محاصرة بجنودنا، ونحن محاصرون بالألم؛ وأخيراً تكلم زعيم حزب العمال وطالب الحكومة بوقف قصف بيروت. ولكن الانفجارات كانت أعلى من صوته. بيروت مدينة الشهادة والإستشهاد.

الغضب والأمل

التاريخ: الخامس من آب ١٩٨٢.

الحدث: الحكومة تعلن عن سقوط ١٩ قتيلاً في حرب، هي رسمياً غير موجودة، في معركة احتلال بيروت، في غزو هو رسمياً غير **مرخص** به.

التاريخ: الخامس من حزيران ١٩٨٢.

الحدث: الجنود الاحتياطيون يتسابقون للالتحاق بوحداتهم للتوجه شمالاً، نحو حدود لبنان، وفي ذهابهم ومجيئهم ينشدون أغنية عن الحرب تقول فيما تقول: كثيرون من الذاهبين إلى الحرب يعودون، وكثيرون آخرون لا يعودون.

إذن اليوم عرفنا أن ١٩ جندياً لن يعودوا. ما المهم، فالحكومة أكدت أنها أنبأت عائلاتهم بموتهم في معركة غير معترف بها من الحكومة، حتى وزير الدفاع يعلن نفيه لحدوثها. إذن كيف مات هؤلاء؟ أذهبوا بمفردهم لمحاصرة بيروت؟

ليل أمس، كان رئيس الوزراء يتحدث أمام الكنيست عن مأساة الشعب اليهودي في التاريخ، ترى هل كان يعلم بقتلى اليوم؟ ولكن الحقيقة أن رئيس وزرائنا يحب العيش مع الذكريات أكثر منه مع الحاضر، إذن لماذا يفكر بالذي يجري. دعوه يفكر بالذي سبق له وحدث: بالمليون ونصف المليون طفل الذين قتلهم النازيون. والجدير بالذكر هنا، أن بيغن وعرفات، يتهم كل واحد منهم الآخر، بأنه هتلر، بالنسبة لي، كلاهما هتلر، وكلاهما مجرم بحق شعبه.

وفي خطابه، أعلن بيغن، أنه أرسل رسالة للرئيس الأميركي ريغن يخبره فيها أن وجود جنوده في بيروت اليوم، يشبه وجود جيوش الحلفاء عند أبواب برلين عام ١٩٤٥. يا لسخرية القدر، أي فارق هو هذا، بين جيش هتلر الضخم وسبعة آلاف إرهابي؟

البروفسور زئيف مانكويتز Mankowitz علق على كلام رئيس الوزراء، متهماً إياه بالرياء، إذ أن الأغلبية العظمى من الشعب الفلسطيني تعيش تحت السيطرة المباشرة للحكومة الإسرائيلية، في حين يعيش الباقون في مناطق خاضعة لسيطرة جيش الدفاع الإسرائيلي. ومضى يقول: هل نريد فعلاً استعادة ذكريات ميونيخ ونورمبرغ، بتحويل مخيمات اللاجئين مثلها. وهل نحن فعلاً نرى صيدا على أنها ديرسدن، وبيروت على أنها برلين؟ إن رئيس وزرائنا يفعل كذلك. وكذلك يفعل وزير دفاعه. يا للعار؟.

... «هذه الأسابيع تمثل العصر الأسود في تاريخ أخلاقيات الشعب اليهودي»

إنها حقيقة، لأننا غداً سنعيد كتابة تاريخ هذه الحقبة والفلسطينيون سيفعلون أيضاً، وعلينا نحن الإسرائيليين أن نتنبه إلى أن نعطي شارون حقه دون نسيان مناحيم بيغن، أوليس هما بطلا حرب «السلام من أجل الجليل».

هذه الأسابيع السود لن تكون نهاية إسرائيل ولا نهاية الفلسطينيين. فغداً، سنبدأ

نحن بالبحث عن قادة يبحثون عن السلام وهم كذلك، سينبعثون من جديد ويفتشون عن قادة لا تفكر بالإرهاب بل السلام أيضاً. لقد امتزج دمنا بدمهم خلال هذه الأسابيع التسعة، التي تنتهي اليوم، غير أن هذا لا يعني مطلقاً أن الزمن الآتي لن يكون موجعاً ولا مؤلماً.

ألم يكن حري بالعالم، بحركات السلام في العالم أن تأتي لتفك الحصار العسكري الإسرائيلي المفروض على بيروت. لماذا لم يأتوا وهم يعرفون: ونحن أيضاً فلسطينيون. لقد خسرت حركة السلام فرصة تاريخية.

إن على الفلسطينيين إعادة تنظيم أنفسهم سياسياً، عليهم الإتكال على أنفسهم، فإن أحداً لن يساعدهم. وعلينا نحن الإسرائيليين أن نكف عن الهلوسة بتاريخ التضحيات ونبدأ مرحلة جديدة.

علينا نحن الإسرائيليين إعادة بناء ما هدمناه في لبنان، إننا اليوم أقلية صغيرة لكننا غداً نصبح أكثرية، وساعتئذ يكتشف شعبنا، أننا نحن القادرون على صنع السلام وليس دبابات شارون ولا هلوسة بيغن.

لله ما أروع الصدف: الأثنين ٧ حزيران ١٩٤٨، حاصر العرب القدس أثناء حرب الاستقلال. واليوم الأثنين ٧ حزيران ١٩٨٢، جنود إسرائيل يتوغلون في عمق الأراضي اللبنانية حتى بيروت. صيف ١٩٨٢، هو تاريخ الفلسطينيين. أمس دفن عشرة جنود إسرائيليين من الذين سقطوا في معركة بيروت، واليوم يدفن الباقون. أما الجرحى فيعالجون بأرقى المستشفيات في حين أن الثلاثمائة قتيل لبناني وفلسطيني ما يزالون ينتظرون من يتكرم بدفنهم. **لا شك أن الفئران قد اعتنت ببعضهم**. وفي حين ٦٧٠ جريحاً لا مستشفى لهم.

تل أبيب
٨ آب ١٩٨٢

ملاحق

حركة المعارضة للحرب

١٩٨٢

إسرائيل تعترف بـ ١٣٥٢ إصابة بينهم ٦٨ ضابطاً قتيلاً
مناحات في المقابر الإسرائيلية: «نتمنى لو شارون يرقد هنا»

تل أبيب ـ باريس ـ الوكالات ـ اعترفت إسرائيل أمس بأن جيشها الذي غزا لبنان قد أصيب حتى الآن بخسائر فادحة. وحسب ما أذاعته وزارة الدفاع الإسرائيلية أمس فإن هذه الخسائر بلغت ١٣٥٢ إصابة، منهم ٣١٤ قتيلاً بينهم ٦٨ ضابطاً و١١١٤ جريحاً إصابة ٧٦ منهم خطيرة و٢٣ مفقوداً وأسيراً واحداً. وقال الجنرال موشي ناتيف إنه «يتعذر حتى الآن تحديد عدد الأسرى الإسرائيليين الذين سقطوا في أيدي السوريين والفلسطينيين».

وكانت الإذاعة الإسرائيلية قد اعترفت أمس الأول بأن ضابطاً جديداً برتبة جنرال هو أهارون سوداك من لواء غولاني قد جرح أمس الأول في قتال شوارع في مخيم عين الحلوة. وقالت الإذاعة في نشرتها العبرية إن الجنرال سوداك، وهو أحد قادة الحملة على لبنان، قد نقل إلى مستشفى رام باب في حيفا ثم إلى مستشفى تل هاشومير العسكري قرب تل أبيب.

«النداء» ١٩٨٢/٦/١٨

في مؤتمر صحافي عقد في باريس
معارضان إسرائيليان ينددان بالغزو:
الهدف إقامة حكومة كتائبية عميلة

باريس ـ «السفير»:

عقد «رئيس مجلس السلم الإسرائيلي» متشلي بيليد وزعيم حزب شيلي يوري أفنيري مؤتمراً صحافياً هنا أمس، نددا فيه بالعدوان الإسرائيلي على لبنان وطالبا بسحب القوات الاسرائيلية من لبنان فوراً.

وقدَّم للمؤتمر المفكّر الفرنسي مكسيم رودنسون.

وقال بيليد وأفنيري إن الغزو الإسرائيلي للبنان لم يكن يستهدف توفير الأمن للمستوطنات لأن ذلك يمكن أن يتم بأساليب أخرى كما أنه لم يكن للرد على مقتل السفير الإسرائيلي في لندن، وإنما هو عملية سياسية تستهدف تحطيم منظمة التحرير الفلسطينية وطرد السوريين من لبنان وتشكيل حكومة فاشية من الكتائبيين في لبنان.

واتفقا على القول إن حكومة مناحيم بيغن تبحث منذ ستة أشهر عن مبرر لعمليتها المقررة منذ ذلك الوقت وأن الولايات المتحدة الأميركية على علم بها قبل تنفيذها وقد اتخذت من حجة خرق وقف النار في الجنوب وشموله حتى تظاهرات الضفة الغربية وقطاع غزة مبرراً لتحضير العملية ثم تنفيذها.

وقال بيليد: إن هذه الحرب تختلف عن كل ما سبقها من الحروب، إذ أنها استطاعت أن تفجر تيارات إسرائيل. فقد أرسلت بيانات تحمل مئات التواقيع إلى الصحف ضد العدوان، كما قامت تظاهرات في القدس وتل أبيب إضافة إلى تصويت عدد من أعضاء الكنيست ضده.

وحول موقف حزب العمل قال : إنه كان في البداية ضد الغزو ، إلا أنه الآن يقف إلى جانب الحكومة .

وأضاف أن حكومة بيغن أدخلت إلى لبنان منذ بداية الغزو قوة تعادل ما أدخل لمواجهة الجيش المصري في حرب العام ١٩٦٧ أي ٨٠ ألف جندي . وقال إن هذا يعني أن الهدف لم يكن تأمين الـ ٤٠ كلم شمال الحدود كما قال بيغن ، بل كان فرض وضع جديد في لبنان كله .

وأشار إلى « أن إسرائيل سوف تطالب لبنان بالتخلي عن بعض الأراضي » . وقال إنه من أجل تحقيق ذلك سيمكث الجيش الإسرائيلي لفترة طويلة من الوقت في الأراضي اللبنانية .

وقال أفنيري إن حكومة بيغن كانت تتمتع عندما بدأت عملية الغزو بموقفين إثنين :

ـ دعم غير مشروط من إدارة رونالد ريغان .

ـ موافقة فرنسية على أي موقف تتخذه واشنطن .

وأضاف : إن الوسيلة الوحيدة الآن للضغط على إسرائيل من أجل وقف النار وسحب قواتها من لبنان ليست عن طريق أميركا أو أوروبا وإنما عن طريق الرأي العام الإسرائيلي الذي يرفض هذه الحرب تماماً والرأي العام الدولي .

وعن العلاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية قال أفنيري : كنا على اتصال مع منظمة التحرير خلال السنوات الماضية ، إلا أننا نحرص الآن على سرية هذه الإتصالات إلا إذا أراد الفلسطينيون إعلانها .

وحول احتمال دخول بيروت قال : التهيئة والإعداد للعملية وحجم القوات تشير إلى أن حكومة بيغن تنوي اقتحام المدينة . لكن القرار يعتمد على تقدير حجم الخسائر في مثل هذه العملية ورد الفعل الإسرائيلي والدولي عليها .

« السفير » ١٨ حزيران ١٩٨٢

تشكيل لجان إسرائيلية معادية للحرب
لجنة « معاداة الحرب » تتظاهر اليوم ضد بيغن
الفيلسوف لايفوفيتش للجنود : تمردوا على أوامر قادتكم

أخذت تستعر في قلب المجتمع الإسرائيلي مشاعر الحقد والغضب والإدانة على الجرائم البشعة التي ترتكبها الطغمة العسكرية الفاشية بحق الشعبين الفلسطيني واللبناني وانبثقت هيئات إجتماعية وسياسية لتعمل من أجل إيقاف المجازر التي ارتكبها الإسرائيليون وينوون الإستمرار بها .

ففي تل أبيب بدأ الفيلسوف الإسرائيلي المعروف لايفوفيتش حملة نشطة من أجل فضح بشاعة الجرائم التي يرتكبها الإسرائيليون في لبنان ضد الشعب الفلسطيني والشعب اللبناني وأهداف الحملة البربرية التي يرتكبها بيغن وشارون . ونصح لايفوفيتش الجنود الإسرائيليين بضرورة التمرد على أوامر قادتهم التي يريدون من خلال تنفيذها إلغاء وجود شعب من على وجه الأرض ، الأمر الذي عجز عن تحقيقه هتلر بحق أي شعب من شعوب العالم .

وعلى الصعيد الجماهيري تشكلت في إسرائيل غداة الغزو الإسرائيلي للأراضي اللبنانية لجنة « معاداة الحرب » ونشطت في تحشيد القوى الإجتماعية والسياسية التي تقف ضد الحرب الهمجية التي يشنها التوسعيون الصهاينة . ولقد أعلنت هذه اللجنة أنها ستنظم مظاهرة جماهيرية يوم السبت المقبل في تل أبيب لتعلن الجماهير الإسرائيلية من خلالها عن إرادتها من أجل السلام ولتؤيد إقامة دولة فلسطينية .

وبعد مضي خمسة أيام على الغزو الإسرائيلي للأراضي اللبنانية تشكلت لجنة النساء الإسرائيليات المعادية للحرب والتي أعلنت أنها ستقوم بتظاهرة واسعة اليوم (الثلاثاء) إحتجاجاً على غزو لبنان ومن

أجل حل يفرض إقامة دولة فلسطينية مستقلة وقبل التحضير لتظاهرة الإحتجاج قامت اللجنة النسوية هذه بنشاط واسع لإظهار الجرائم التي ارتكبها القاتل بيغن بحق الفلسطينيين واللبنانيين .

« النداء » ٢٢ حزيران ١٩٨٢

نساء إسرائيليات يتظاهرن أمام مكتب بيغن
تنديد بالغزو ودعوة للإنسحاب الفوري

تل أبيب ـ باريس ـ الوكالات ـ نظمت أمس « اللجنة النسائية لمعاداة الحرب » الإسرائيلية التي شكلت في أعقاب الغزو الإسرائيلي للبنان تظاهرة في القدس ، نددت فيها بالغزو الإسرائيلي للبنان وهتفت أمام مكتب مناحيم بيغن مطالبة بالإنسحاب الفوري من لبنان .

وناشدت حركة « التغيير » الحكومة الإسرائيلية « عدم الإنجرار وراء مبادرات آرييل شارون وزير الدفاع ، ووزراء آخرين يرغبون في توريط إسرائيل في جولة أخرى من الأعمال الحربية » . ودعت الحركة في بيان أصدرته أمس إلى « المحافظة على وقف إطلاق النار والموافقة على فصل القوات الإسرائيلية عن القوات السورية في القطاع الشرقي من لبنان » .

وفي باريس صرح الحاخام دانييل فارمي رئيس « الحركة اليهودية الليبرالية الفرنسية » والحاخام لال غرونافالد مدير مجلة « تزيبور جويف » الإسبوعية ، « إن أحداث لبنان أثارت ، لأول مرة ، نوعاً من القلق داخل الطائفة اليهودية الفرنسية » .

وقال الحاخام فارهي « إننا معشر يهود الشتات نقف مكتوفي الأيدي وموزعين إزاء هذا الأمر الرهيب الذي نراه يحدث والذي يقوم به إخواننا » .

وتساءل : من أين يأتي هذا الشعور بالضيق الذي يعترينا والذي لم نشعر به خلال الحروب السابقة .

وقال : إن هذا يرجع بالتأكيد إلى أنه في أعوام ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ كانت إسرائيل تحارب من أجل البقاء ، أما اليوم فإننا نشعر بأن هجوم إسرائيل ضد دولة من جيرانها ليس له مبرر ذي قيمة » .

وأضاف : « ولذلك فإن هذا التصرف لا يحتمل على الصعيد الأخلاقي ، خاصة عندما يصدر من إسرائيل . إنه أمر حتمي وربما ضروري ولكنه غير محتمل » .

« النداء » ٢٣ حزيران ١٩٨٢

١٠ آلاف إسرائيلي يتظاهرون
في تل أبيب ضد الحرب في لبنان

تل أبيب ـ ٢٦ ـ اف ب ـ ي ب ـ تظاهر أكثر من عشرة آلاف إسرائيلي في تل أبيب اليوم للإعراب عن معارضتهم للسياسة التي تتبعها الحكومة الإسرائيلية في لبنان .

ونظمت التظاهرة ، التي تعد واحدة من أكبر التظاهرات في تاريخ إسرائيل احتجاجاً على العمليات الحربية « لجنة مناهضة الحرب في لبنان » التي تطالب بوضع حد للقتال وانسحاب الجيش الإسرائيلي وإجراء مفاوضات مع « الممثلين الرسميين للفلسطينيين » .

حمل المتظاهرون لافتات منها « بيغن ، شارون : غادروا لبنان » ، و« مكاسب أكثر تعني أمناً أقل » ، و« لا للحرب ، لا لإراقة الدماء » .

« السفير » ١٩٨٢/٦/٢٧

«رويتر» تنقل إنطباعات المواطنين الإسرائيليين
المفجوعون نفوسهم تمتلىء بالغضب والمرارة
لأن الثمن الذي تدفعه إسرائيل لا يستحق الدفع
موجة الحزن المرتقبة أكبر مما حصل بعد ١٩٧٣

القدس - رويتر - من بازي زبليزر - جرى إبلاغ إمرأة نبأ مقتل إبنها بينما كانت تحضر جنازة أحد أصدقائه الجنود. وقد قتل الجنديان وهما من المشاة أثناء القتال على طريق بيروت - دمشق الرئيسية.

هذه الحالة من مئات الحالات التي تعيشها إسرائيل في هذه الأيام، حيث يتكهن بعض الخبراء المحترفين في علم النفس، أن انتفاضة سيكولوجية ستواجه إسرائيل في أعقاب غزوها للبنان، لن تقل في عنفها عن أية صدمة عانتها إسرائيل في حروبها الخمس الماضية.

وقال عامل اجتماعي في القدس يعالج الآن خمس عائلات «إن المفجوعين تمتلىء نفوسهم بالغضب والمرارة لأنهم غير متأكدين من أن الثمن الذي تدفعه إسرائيل هذه المرة يستحق الهدف».

ولقد فاجأ الغزو الإسرائيلي للبنان قبل ثلاثة أسابيع بالضبط الكثيرين من الإسرائيليين. وقد كانت إسرائيل تتوقع معركة تستمر يومين أو ثلاثة أيام لكنها خاضت بدلاً من ذلك حملة ضارية وطويلة أدت إلى ما قبل يومين إلى سقوط أكثر من ٢٥٠ قتيلاً وأكثر من ١٠٠٠ جريح.

وقال الأطباء النفسيون والعمال الإجتماعيون الذين يساعدون المفجوعين والثكالى الجدد إن عنف الحملة العسكرية غير المتوقع، وعدم توفر إجماع على أن إسرائيل تشن حرباً تستحق كل هذا الثمن سيجعلان الشفاء أكثر صعوبة بالنسبة إلى مئات العائلات التي فقدت أباً أو زوجاً أو إبناً.

ويقول الأطباء النفسيون والعمال الإجتماعيون إن وحدة الصف الإسرائيلي بشأن الغزو ربما لا تعيش طويلاً. وهم يلاحظون أنه صدرت فعلاً دعوات قليلة إلى استقالة وزير الدفاع آرييل شارون ويقولون إن الجدل حول الحملة العسكرية يتزايد.

وهم يحذرون أيضاً من أن الوقت لن يطول قبل أن يجد المفجوعون أنفسهم في فراغ.

وقال أحد الأطباء النفسيين البارزين في القدس «إن الأمة الآن في حالة صدمة وعندما تنتهي الصدمة فإنني أتوقع موجة من الحزن والكآبة على مدى البلاد تماثل الموجة التي ضربتها بعد حرب سنة ١٩٧٣».

وتحاول وزارة الدفاع تأمين عدم تكرار المشاحنات التي أدت إلى تحطيم المعنويات بعد حرب سنة ١٩٧٣.

وضمت وزارة الدفاع صفوفها إلى الجيش ووكالات الخدمات الإجتماعية المختلفة لوضع برنامج دعم كبير لعائلات القتلى والجرحى.

وبموجب سياسة الجيش يجب أن يتولى ضابطان يرافقهما طبيب نفسي إبلاغ عائلات القتيل فوراً.

وإلى جانب المساعدات المقدمة إلى عائلات الجنود القتلى في وضع ترتيبات الجنازة فإن وزارة الدفاع توفر منافع مادية طويلة الأمد وباهظة التكاليف ومعالجة نفسية إذا لزم الأمر.

(وتتلقى أرملة لها طفلان علاوة شهرية على مدى الحياة ومرتبطة بمعدل التضخم تبلغ قيمتها ١٢،٠٠٠ شيكل (حوالي ٥٠٠ دولار) بالإضافة إلى تسهيلات في ضريبة الدخل والرسوم الجمركية على السيارات والأجهزة الكهربائية الكبيرة وتعليم الطفلين مجانا).

وتحصل عائلات الجنود الجرحى على فوائد مماثلة ولكنها أصغر ويقررها مدى عجز الجندي.

وبينما تقبل عائلات الجنود القتلى والجرحى المساعدات المادية المقدمة من وزارة الدفاع فإنها أقل حماسة عندما يأتي الأمر إلى طلب المساعدة النفسية.

وتقول طبيبة نفسية إن المرأة التي يقتل زوجها في الحرب ينظر إليها في إسرائيل على اعتبار أنها من النخبة.

وتقول الطبيبة إن قدرة العائلات المفجوعة على مواجهة حزنها قد تتوقف على المدى الطويل على ما

إذا كان الإسرائيليون يشعرون بأن الحرب في لبنان والخسائر البشرية كان لها ما يبررها.

«النداء» ١٩٨٢/٦/٢٨

مهرجان يحضره ١٠ آلاف إسرائيلي
يطالب بوقف أعمال الغزو في لبنان

ذكرت الإذاعة الإسرائيلية (ر.أ.أ.) أن حركة «السلام الآن» الإسرائيلية نظمت أمس الأول مهرجاناً حضره نحو عشرة آلاف شخص، طالب بوقف الحرب في لبنان وبإيجاد تسوية سياسية مع الفلسطينيين.

وقالت الإذاعة في تقرير لها حول المهرجان: «حضر آلاف المؤيدين لحركة السلام الآن المهرجان ووقف أربعة متحدثين، ثلاثة منهم اشتركوا شخصياً في الحرب في لبنان، وأبرزهم الشالوم ديلم من زعماء الحركة الذي طلب من وزير الدفاع الإسرائيلي آرييل شارون أن يقدم استقالته.

ونقلت عن ديلم قوله: «لقد برهن شارون أنه الديكتاتور الذي يعتقد أن بالإمكان إنجاز أهداف سياسية بالقوة.. وإن معضلتنا كمواطنين وجنود هي كوننا نقاتل من أجل سياسة لا يمكن إنجازها».

أضاف: «ومع ذلك، وبعد الذي حصل كله فإننا نرى أنه ليس هناك مساندة لتلك السياسة.. ويجب تغيير هذه الحكومة لأن الحل السياسي الذي تقترحه للمدى الطويل غير مقبول من السكان».

ومضى يقول: «ونحن نرى وجوب إيجاد حل وسط مع الفلسطينيين».

وقال: «إن الحكومة لجأت إلى شن الحرب في لبنان لخشيتها من أن يفرض عليها توقيع اتفاق مع منظمة التحرير الفلسطينية».

استطرد قائلاً: «لقد أوجدنا سابقة قصف المدن، وأنا أخشى ذلك اليوم الذي سيقومون فيه بقصف مدننا».

ودعا قائد طائرة مقاتلة في الإحتياط إلى التظاهر ضد الحكومة والإعراب عن رفض هذه الحرب، دون خوف أو وجل. وأشار إلى أن «معنويات الجنود الإسرائيليين في الجبهة قد هبطت لأن الجمهور في الجبهة الخلفية يتظاهر ضد هذه الحرب».

في هذا الوقت ذكرت الإذاعة الإسرائيلية أن المناقشات بين وزارتي المالية والدفاع الإسرائيليتين مستمرة للأسبوع الثاني على التوالي لتقدير نفقات الحرب.

وأشارت إلى أنه نتيجة هذه الحرب فإن التوقعات باستمرار هبوط التضخم قد تبددت، «ويواجه مسؤولو وزارة المالية معضلة جديدة إضافة إلى المعضلات الكثيرة الأخرى، وهذه المعضلة هي كيف يمكن أن يوضح للجمهور نفقات الحرب في لبنان».

وتساءلت قائلة: «هل يلجأ المسؤولون إلى تضخيم الأمور ليتمكنوا من تبرير اتخاذ إجراءات إقتصادية متطرفة، وجباية أموال بشكل طارىء من خارج البلاد.. أم يمتنعون عن إعطاء أرقام مبالغ فيها للحؤول دون إعطاء مسؤولي وزارة الدفاع ذخيرة تمكنهم من المطالبة بزيادة ميزانيتهم بنسبة كبيرة في ظل الوقوف على أبواب بيروت».

«السفير» ١٩٨٢/٦/٢٩

إعتصام ضد الغزو
أمام مكتب بيغن

القدس المحتلة ـ أول تموز ـ اف ب ـ ترابط مجموعة من المعارضين للتدخل الإسرائيلي في لبنان منذ أربعة أيام أمام مقر رئاسة مجلس الوزراء الإسرائيلي.

ويحرك هذه المجموعة التي تضم ١٥ شخصاً بعض أعضاء حركة «السلام الآن»، ويزورها عشرات من المتعاطفين معها مساء كل يوم.

وقد طالب أمس ١٥ جندياً من جنود الإحتياط الذين اشتركوا في غزو لبنان بوقف العمليات الحربية على الفور وباستقالة وزير الدفاع الإسرائيلي آرييل شارون.

وقد تليت أمام المعتصمين رسالة وجهها والد أحد الجنود الذين قتلوا خلال العملية، يناشد فيها رئيس الوزراء مناحيم بيغن بالتخلي عن جائزة نوبل للسلام التي حصل عليها.

«السفير» ١٩٨٢/٧/٢

إحتجاجاً على استمرار غزو لبنان
١٠٠ ألف يتظاهرون في تل أبيب
ويطالبون باستقالة بيغن وشارون

عقد مهرجان شعبي ضم حوالي مئة ألف شخص باعتراف الإذاعة الإسرائيلية، في تل أبيب أمس، إحتجاجاً على غزو لبنان، وهو أكبر تجمع ضد الحرب تشهده إسرائيل في تاريخها. وقد هتف المشاركون فيه ضد استمرار الحرب على الشعبين اللبناني والفلسطيني.

وقالت «يونايتد برس» الأميركية إن المتظاهرين حملوا «بحراً من اللافتات» دعوا فيها إلى استقالة رئيس الوزراء مناحيم بيغن ووزير دفاعه آرييل شارون وإلى انسحاب فوري للقوات الإسرائيلية من لبنان.

وقال أحد أعضاء حركة «السلام الآن» التي نظمت المهرجان أفاشلون فيلان: «لقد رأينا ما هي منظمة التحرير الفلسطينية، لكننا أدركنا أيضاً مدى خطورة القضية الفلسطينية».

وذكر آخر، ويدعى نيمرود شافيتس، وهو ضابط مظلي احتياطي شارك في الغزو الإسرائيلي: «إننا نحاول إقامة حكومة من اختيارنا في لبنان... علينا إيقاف هذه العملية التي ستتكرر في الأردن والسعودية.. وسندفع نحن جميعاً الثمن».

وذكرت الإذاعة الإسرائيلية أن الشرطة الإسرائيلية اعتقلت ١٣ شخصاً «حاولوا التشويش وعرقلة التظاهرة التي دعت إليها حركة «السلام الآن» في ميدان ملوك إسرائيل في تل أبيب إحتجاجاً على السياسة الحكومية في لبنان».

ونقلت الإذاعة عن مصادر الشرطة أن حوالي ١٠٠،٠٠٠ شخص حضروا هذه التظاهرة وحملت عضو الكنيست جيتولا كوهين على منظمي هذه التظاهرة وقالت إن تظاهرات من هذا النوع تشجع نمو ظواهر كاجتماع يوري أفنيري بياسر عرفات، كما أنها تشجع سفك دماء جنود جيش الدفاع الإسرائيلي».

ودعت كوهين إلى وقف ما أسمته «الحروب بين اليهود في الوقت الذي لا يزال الجيش يحارب».

وقالت إن «هذه ليست ديموقراطية وإنما فوضى يجب وضع حد لها».

وقد سئل وزير الخارجية الإسرائيلي إسحق شامير عن المهرجان، فقال: «إن مثل هذه التحركات ليست جديدة في إسرائيل، وحتى المنظمات المتطرفة تستطيع التعبير عن آرائها لكن الحكومة لن تعير اهتماماً لظاهرة التظاهرات، هي تتخذ قراراتها على أساس المصالح القومية».

من جهة أخرى، قال مسؤول الأفراد في هيئة أركان الجيش الإسرائيلي الجنرال موشي ناتيف إن احتياطي الجيش قد يتم استدعاؤه من الآن فصاعداً لمدة ٦٠ يوماً سنوياً بدلاً من ٤٥ يوماً».

وأشار، من جهة أخرى، إلى أن الجنود السوريين الأسرى يعاملون معاملة أسرى الحرب. بينما يعتبر المقاتلون الفلسطينيون سجناء. وأوضح أن الفارق في المعاملة يتجلى باختلاف النظام في المعتقلات.

«السفير» ١٩٨٢/٧/٤

جنود إسرائيليون:
سئمنا القتل بلا سبب

تل أبيب ـ ٩ ـ اف ب ـ وجه ستة وثمانون عسكرياً إسرائيلياً كلهم من الإحتياط وتم تسريحهم من الخدمة العسكرية رسالة إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن ووزير الدفاع آرييل شارون يطلبون فيها أن لا يتم إرسالهم مرة أخرى إلى لبنان حتى ولو دعت الضرورة.

وبرر هؤلاء الجنود طلبهم في الرسالة التي نشرت نصها صحيفة «جيروزاليم بوست»، بأنهم «شئموا أن يقتلوا، أو يقتلوا، بدون معرفة السبب».

واستنكروا رغبة الحكومة الإسرائيلية في فرض نظام جديد في لبنان، وأعلنوا «أنهم لم ينخرطوا في سلك جيش الدفاع لإراقة دمائهم ودماء الآخرين من أجل الكتائب».

كما نشرت صحيفة «هاآرتز» نص رسالة موجهة إلى بيغن وشارون من قبل ٣٥ جندياً يصفون فيها الغزو الإسرائيلي بأنه «محاولة مغامرة».

أضافوا «إنها ليست حرباً دفاعية، وإنما هي محاولة مغامرة للتوصل إلى نتائج سياسية بعمل عسكري باهظ التكاليف بالنسبة لجنود جيش الدفاع والسكان المدنيين على حد سواء».

«السفير» ١٩٨٢/٧/١٠

منشورات ضد الغزو
وزعت على الجنود في لبنان

تل أبيب ـ ١١ ـ رويتر ـ بحث مجلس الوزراء الإسرائيلي اليوم (أمس) موضوع المعارضة الداخلية للحرب. وقال ناطق بإسم الحكومة أن الوزراء تبلغوا بأن حزب «مابام» وهو الجناح اليساري في تحالف «المعراخ» (العمل) المعارض وزع منشورات على جنود الخطوط الأمامية انتقد فيها الغزو.

وأضاف الناطق يقول إن الحكومة تنظر «نظرة خطيرة» إلى نقل الحملة السياسية إلى منطقة القتال وهي اتخذت توجهاً حازماً في هذا الشأن.

وكان حوالي مائة ألف إسرائيلي قد شاركوا قبل أيام في تظاهرة هي الأكبر في تاريخ المعارضة الإسرائيلية، ورفعت فيها لافتات تعارض غزو لبنان وتدين سياسة تكتل «الليكود» الحاكم.

«السفير» ٨٢/٧/١٠

٣٠٠ جندي إسرائيلي
يطالبون بوقف الحرب

القدس المحتلة ـ ١١ ـ اف ب ـ طالب ثلاثمائة من جنود الإحتياط الإسرائيليين أمس السلطات بوضع حد للمعارك الدائرة في لبنان وعدم الزج بالجيش في معركة لاقتحام بيروت. ومما يذكر أن هؤلاء الجنود خدموا مؤخراً في لبنان.

وخاطب الثلاثمائة جندي من قوات الإحتياط المجتمعون في تل أبيب الرأي العام الإسرائيلي مطالبين بوضع حد لجدار الصمت وأعربوا عن إعتقادهم بأن الشعب ليس على بينة بظروف الحرب الحقيقية.

وأفادت إذاعة إسرائيل أن الجنود المسرحين ذكروا أن الحرب في لبنان لا تلقى التأييد الشعبي الكامل في إسرائيل وصرحوا بأنه «لا يوجد حل عسكري» للمشكلة الفلسطينية.

ومما يذكر أنه منذ بدء الغزو للبنان يثور جدال متزايد في داخل الجيش الإسرائيلي بما في ذلك القوات الخاصة (الكوماندوس والمظليون) حول جدوى العملية العسكرية بالرغم من أن السلطات لم تشر إلى وقوع حالات من العصيان.

«السفير» ١٩٨٢/٧/١٢

إحتجاجاً على غزو الأراضي اللبنانية
مجموعة جديدة من الجنود الإسرائيليين
تطلب تسريحها من الخدمة في لبنان

اتسع نطاق التذمر في صفوف الجيش الإسرائيلي بسبب الحرب في لبنان وتقدمت مجموعة جديدة من جنود الإحتياط بطلب للتسريح من العمل في الجيش والإعفاء من الخدمة العسكرية في لبنان (أ.ب ـ ر.أ).

وقالت وكالة «أسوشيتد برس» الأميركية إن خمسة من جنود الإحتياط الإسرائيليين الذين أنهوا خدمتهم في لبنان أعلنوا أنهم جمعوا تواقيع ١١٢ عسكرياً بينهم عدد من الضباط الذين يعملون في لبنان ويعارضون الخدمة العسكرية في الأراضي اللبنانية.

ويذكر أن هذه هي المجموعة الرابعة من جنود الإحتياط الإسرائيليين التي تعرب عن رفضها ومعارضتها للحرب التي تشنها إسرائيل في لبنان.

وقال رقيب الإحتياط يهودا ميلتزر إن هذه التواقيع لا تعني رفضاً جماعياً للخدمة في لبنان، ولكنها ستدعم أي عضو سيرفض بشكل فردي الخدمة في الأراضي اللبنانية.

وقال هؤلاء إنهم يعارضون الحرب في لبنان لأنهم لا يعتقدون أنها ستحل القضية الفلسطينية، ولأنهم ضد أي صدام يوقع إصابات كبيرة في صفوف المدنيين الأبرياء.

وأشاروا إلى أنهم بعد أن اطلعوا رئيس الوزراء مناحيم بيغن على وجهة نظرهم سيقومون بحملة شعبية مضادة للحرب في لبنان.

في هذا الوقت قال ضابط التربية الرئيسي في الجيش الإسرائيلي العميد أبي زوهر إن بعض المحاضرين المكلفين بشرح أهداف العملية العسكرية الإسرائيلية للجنود الإسرائيليين قد طردوا من مناصبهم لأنهم أعربوا عن وجهات نظر تخالف وجهة النظر الرسمية.

وأشار إلى أن الجدل الشعبي حول أهداف هذه الحرب وصل إلى صفوف الجيش، وإن الجنود يعارضون امتداد العملية العسكرية إلى عمق أبعد من الـ ٤٠ كيلومتراً التي حددت في البداية.

على صعيد آخر، قالت الإذاعة الإسرائيلية إن وزارة العدل تجري مشاورات بشأن توزيع بيان موقع بإسم حزب «مابام» على جنود الجيش الإسرائيلي في لبنان يعارض تطور العملية العسكرية الإسرائيلية في الأراضي اللبنانية.

ويذكر أن البيان أشار إلى أن العملية العسكرية، قصد منها إنجاز هدف غير ممكن وأن نجاحها غير ممكن، وأن غايتها فرض نظام جديد على لبنان يكون تحت السيطرة الإسرائيلية.

«السفير» ١٩٨٢/٧/١٤

تحقيق «رويتر» عن الخطوط الأمامية
الجندي الإسرائيلي يتمتع بخدمات خاصة
لكنه قلق «وقد فقد زخمه»

أعلن الناطق العسكري الإسرائيلي في بعبدا أن جنود الإحتلال «فقدوا زخمهم» لأنهم «ينتظرون حول بيروت منذ عدة أسابيع».

هذا الإعتراف يعكس حالة القلق التي يعيشها الجنود الإسرائيليون الذين يرابطون في مواقع تحاصر بيروت الوطنية والضاحية الجنوبية، رغم أن هؤلاء الجنود يعيشون أحوالاً «يحسدون عليها»، بفضل ما تنعم عليهم به عصابات الكتائب من ضيافات وما تقدمه لهم من مساعدات.

فقد كتب جيريمي كليفت مراسل وكالة «رويتر»، تحقيقاً عن حياة القوات الإسرائيلية في الخطوط الأمامية، يقول فيه:

بين جولات القتال يمكن للحياة في الخطوط الأمامية أن تتخذ شكلاً فوق الواقعي بالنسبة إلى بعض الضباط الإسرائيليين العسكريين حول بيروت.

ويقول هاري سديرسكي من مكتب الناطق العسكري الإسرائيلي في بعبدا في التلال المشرفة على بيروت «إن قمصاننا الخاكية تعود من المصبغة مغلفة في أكياس من السيلوفان».

وأضاف يقول: «إننا نرسلها إلى مصبغة مجاورة وتعود إلينا مغلفة بشكل جميل كأننا نقيم في فندق من الدرجة الأولى، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا في لبنان».

وبينما تربض الدبابات والمدفعية بين أشجار الصنوبر تحتسي مجموعة من ضباط الجيش الإسرائيلي كأساً مثلجاً من العرق اللبناني في مطعم فخم يطل على العاصمة اللبنانية المحاصرة.

وعلى مائدة مجاورة ترتشف فتاتان لبنانيتان، لفحت الشمس وجهيهما وترتديان أحدث الأزياء الباريسية، قهوتهما العربية.

وعلى الطريق اضطر رتل من السيارات المدرعة إلى التوقف لأن بعض اللبنانيين كانوا ينقلون مشترياتهم إلى سياراتهم الكاديلاك الأميركية ولا يبدو أن أحداً يلاحظ هدير المدفعية الذي يسمع من بعبدا بين الحين والآخر.

ويقول صاحب المطعم للضباط الإسرائيليين وهو يقدم لهم اللحوم المقددة المستوردة من إيطاليا والجبنة المستوردة من فرنسا: «لقد انتظرنا مجيئكم طوال السنوات السبع الماضية».

لكن الإسرائيليين يدركون أن العلاقات مع السكان المحليين يمكن أن تتحول قريباً إلى علاقات سيئة إذا ما وقعت أية حوادث ولذلك منعوا جنودهم من دخول بيروت الشرقية وهم خارج الخدمة إلا بموجب تصاريح لا تمنح إلا نادراً.

ويقول الناطق سويرسكي «إن الجنود هم جنود ولا بد من أن يحدث شيء عاجلاً أو آجلاً إذا لم نقيد الأماكن التي يمكن لرجالنا أن يذهبوا إليها».

واقع التجارة وحقيقة الخوف

وكل شيء هنا تقريباً ، من الويسكي إلى أجهزة التلفزيون ، أرخص ثمناً مما هو في إسرائيل .

وفي حين أن الفدائيين الفلسطينيين محاصرون في بيروت الغربية فإن المتاجر في القطاع الشرقي الذي تسيطر عليه ميليشيات الكتائب مكتظة بالبضائع .

ولا يسمح للجنود الإسرائيليين بشراء بضائع محلية . لكن اللبنانيين باتوا معتادين على قبول العملة الإسرائيلية الشاقل في مطاعم ومحلات بيع المواد الغذائية .

وقال مدير محل حلويات في بعبدا « إنهم يشترون زجاجة بيبسي أو شيئاً ويدفعون بالشاقل ، ونحن بدورنا نبدل الشاقل بالدولار » .

وأحضر الإسرائيليون بنوكاً متنقلة لخدمة الجنود في الجبهة .

ولمنع عمليات النهب والتهريب ، فإن مخبرات إسرائيليات يفتشن السيارات العائدة من مناطق القتال إلى إسرائيل بحثاً عن بضائع مخبأة مثل أجهزة الفيديو والكحول والمخدرات .

محنة المحتلين

وتحاصر الدبابات والمدفعية الإسرائيلية بيروت الغربية منذ شهر . والكثيرون من الجنود في الجبهة هم من جنود الإحتياط الشبان ، وهم يحصلون أحياناً على إذن لمدة ٤٨ ساعة لزيارة عائلاتهم في إسرائيل . وتنقل سيارات ركاب كبيرة إسرائيلية هؤلاء الجنود من الحدود وإليها .

ووافق طبيب في الجيش يبلغ من العمر ٢٣ سنة ، وهو عائد إلى إسرائيل في السيارة على امتداد الطريق الساحلي من بيروت ، على أن الإنتظار بينما يحاول الدبلوماسيون تأمين جلاء سلمي للفدائيين عن بيروت هو أمر مرهق للأعصاب .

وقال « سنكون كلنا سعداء عندما ينتهي الأمر » .

وسئل الناطق الإسرائيلي في بعبدا عن مدى صمود المعنويات في وجه لعبة الإنتظار فاعترف بأنه « من الصحيح القول إن الجنود فقدوا زخمهم ، وعلى كل حال فإنهم ينتظرون حول بيروت منذ عدة أسابيع الآن » .

وأضاف الناطق يقول « لكن لا يزال هناك قصف مدفعي حول المنطقة وهذا يبقيهم في حالة حذر » .

« النداء » ١٩٨٢/٧/١٥

المثقفون الإسرائيليون والحرب : قلق وتساؤلات خطرة
« نخشى أن نصبح بريتوريا الشرق الأوسط »
يجب التحرك ضد بيغن .. إنها « حرب ملغومة »

القلق ، والهلع ، الدعوة إلى مؤتمر لمحاسبة مناحيم بيغن ، والتشاؤم تجاه مستقبل الوضع في إسرائيل ، هذه أبرز عناوين التحقيق الذي أوردته من القدس وكالة الصحافة الفرنسية ، بقلم برنار كوهين ، عن المثقفين الإسرائيليين والحرب في لبنان .

يقول التحقيق :

تستولي على المثقفين الإسرائيليين ، مهما تكن اختياراتهم السياسية وتقديرهم لمسلك حكومة مناحيم بيغن ، حالة من الحيرة يغلب عليها الهلع حيناً والقلق حيناً وأحياناً الأمل الوجل وذلك في مواجهة مصير بيروت غير المضمون وأمام حرب لا تنتهي .

وكان عدد من المثقفين الإسرائيليين - وهم أيضاً من قوات الإحتياطي - موجودين في لبنان خلال الأيام القليلة الماضية في إطار حالة التعبئة . وينطبق ذلك على بتريك بيلي ، المتخصص في علم أعراق البدو ، وعلى المؤرخ إيلي بن غال وكثير من الباحثين العاملين في مركز « سيلوك » للدراسات الإستراتيجية في تل أبيب .

ويرى الذين ظلوا في « المؤخرة » أن نتيجة المواجهة الإسرائيلية - الفلسطينية في بيروت تظل هي الموضوع الأكثر إثارة للقلق . ويقول الكاتب أ . ب . يهوشوا ، الذي حققت بعض رواياته نجاحاً كبيراً في الغرب : « لا ينبغي دخول بيروت الغربية وإلا وقعت الكارثة » . ثم يضيف : « إنني متشائم لأن بذور الحرب ستظل باقية طالما لم يبدأ الحوار مع الفلسطينيين ولكن بيغن لا ينوي إجراء مثل هذا الحوار » .

ويقول برميهاو بوفيل ، استاذ الفلسفة بجامعة القدس : « لقد أصيبت منظمة التحرير الفلسطينية بانتكاسة كبيرة وهي تستحق ما حدث لها ، بيد أنني لا أريد أن تصبح هذه الحرب حرباً ضد الشعب الفلسطيني » . وأضاف : « نحن نواجه موقفاً جديداً الآن ولا بد أن نتوصل إلى حل وسط تاريخي مع الفلسطينيين وأن نبعث الأمل في نفوس العناصر المعتدلة في هذا الشأن » .

ويدرك مثقفون إسرائيليون كثيرون أن رهان حرب لبنان يتحدد أولاً في الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة إلا أنهم لا يجدون مفاوضاً سياسياً فلسطينياً .

ويقول الروائي عاموس عوز إن « قوى السلام في إسرائيل تجد نفسها في موقف حرج لأننا نعترض على سياسة بيغن بدون أن تتوافر لدينا في الجانب الآخر قوة نبدأ معها حواراً بمعنى الكلمة » .

تضيع في العنف

أما الكاتب أعارون ميجيو فلم يتناول المشكلة الفلسطينية بكل معنى الكلمة لكنه لم يخف قلقه الشديد ، ثم قال : « إن هذه الحرب أشبه بدوامة لا تنتهي . وتبدو كل مرحلة ذات مبرر ، ويقولون لنا إنها « الخطوة الحاسمة على طريق السلام » بيد أن النتيجة هي أن إسرائيل تتوغل في ممارسة العنف وقد تضيع فيه » .

ويفضل أندريه إشراكي ، المثقف المتحدث بالفرنسية ، أن يلزم الصمت لأنه « كل شيء ملغوم في هذه الحرب ويستولي على المرء الاشمئزاز الشديد تجاه كل ما يقال أو يشاع » .

ويعبر ديفيد شاهار الذي فاز في فرنسا بجائزة « ميديسيس » للأجانب في عام ١٩٨١ ، عن صدمة عدد كبير من الإسرائيليين إزاء حجم ما يوجهه الغرب من إنتقادات . ويقول : « كنت في أوروبا عندما بدأت حرب لبنان ولا أرى إلا سبباً واحداً لهذه الثورة الإنفعالية هو أن أوروبا تجد ، أخيراً ، تبريراً معنوياً لهتلر ما دام اليهود لا يختلفون في ما يبدو عن النازيين .. وأنا لا أقول ذلك لكي أمحو مسؤولياتنا » .

ولا ينكر أي مثقف إسرائيلي أن التدخل في لبنان أثار نقاشاً واسع النطاق في إسرائيل وهكذا يرفض البعض هذا التدخل باعتباره بداية أزمة في المجتمع . ويقول البروفسور شلومو موراج الذي كان ضمن وفد المثقفين الذين استقبلهم الرئيس الإسرائيلي إسحق نافون في الأسبوع الماضي « ليس ثمة شك في أن هذه الحرب لها ما يبررها . إذ توجد خلافات بشأن الوسائل المستخدمة وليس بشأن الهدف » .

« بريتوريا الشرق الأوسط »

أما يعقوب تيمرمان الصحافي الذي لجأ إلى إسرائيل بعد مدة قضاها في سجون الديكتاتورية العسكرية الأرجنتينية فهو يعارض هذا الرأي الأخير معارضة كاملة ، حيث يقول « إنها حرب الجنرال شارون الشخصية وهي خطوة أولى على طريق طرد الفلسطينيين جميعاً وإقامة حكومات تابعة في لبنان وفي الأردن . ولم يحدث أن قلت إن منظمة التحرير الفلسطينية على حق ، إلا أننا مخطئون . لقد استطاعت الحركة الصهيونية بفضل بن غوريون أن تختار النضال السياسي وترفض الإرهاب الذي توصي به مجموعة

بيغن. وينبغي على الفلسطينيين أن يحددوا بدورهم مثل هذا الإختيار. أما نحن فعلينا أن نفجر الأزمة في وضح النهار وأن نبدأ حواراً وطنياً واسع النطاق حتى نكشف النقاب عمن يريدون أن يجعلوا من إسرائيل بريتوريا الشرق الأوسط».

كما يعرب ساول فريدلاندر مؤرخ الحرب العالمية الثانية عن «صدمته إزاء هذه الحرب التي جعلت الإتجاهات الأكثر سلبية في المجتمع الإسرائيلي تطفو فوق السطح». وأضاف «نحن نواجه المشكلة الفلسطينية كما لم يسبق لنا أن واجهناها ولا بد من مناقشة الفلسطينيين أو حتى منظمة التحرير الفلسطينية إذا استدعى الأمر. لقد فقدت المعارضة العمالية الإعتبار تماماً عندما أعطت إنطباعاً غير سليم بوجود اتفاق عام وطني ومن المؤكد أن معارضة سياسية جديدة ستنشأ عن المظاهرات المناهضة للحرب، ومن بين هؤلاء الشباب الذين يرفضون الخدمة العسكرية.

وتمنى أن «تؤدي هذه الحرب إلى التصدي أخيراً للمشكلات الحقيقية».

«النداء» ١٩٨٢/٧/١٥

قالت الصحف الاسرائيلية اليوم ان الجندي الاحتياطي الاسرائيلي الرقيب اميد تيدمار سيقضي فترة سجن تبلغ ٣٥ يوماً لرفضه الخدمة في لبنان. وقال تيدمار البالغ ٢٧ عاماً قبل النظر في قضيته انه كان في صراع مع نفسه بين واجبه المدني وواجبه الاخلاقي وقد فضل الثاني.

«السفير» ١٩٨٢/١٠/٢٣

تل أبيب ـ قام آلاف من الاسرائيليين بمسيرة على أضواء المشاعل في تل أبيب ليلة أمس وهم يرددون هتافات تنادي بالانسحاب الفوري للقوات الاسرائيلية في لبنان. نظمت المسيرة «اللجنة الشعبية ضد الحرب في لبنان».

«السفير» ١٩٨٢/١٢/٢٧

وجهت أمس انتقادات إلى التلفزيون الاسرائيلي بسبب اذاعته فيلماً يصور الجنود الاسرائيليين في لبنان وهم ينشدون أغان حزينة مناهضة للحرب... وكان التلفزيون الاسرائيلي قد أذاع يوم الجمعة الماضي أغان رددها هؤلاء الجنود تقول: «اهبطي إلينا ايتها الطائرة... خذينا إلى لبنان... لكي نحارب من أجل شارون... وارجعي وانت تحملين الكفن...».

«الاخبار» المصرية ١٩٨٢/١٢/٢٧

تأثير الحرب اللبنانية على الاكاديميين باسرائيل
صراع شديد وأزمة ضميرية ومحاولات للتأثير
بالاحداث والانسجام مع «حركة الشارع»

ما هو دور المثقفين في اسرائيل، والاكاديميين منهم بصورة خاصة، ازاء الحرب في لبنان، وما هو مدى تأثير الرافضين منهم والمؤيدين؟ وهل ان دور المثقف ينسجم أم يتناقض مع متطلبات الصراع العاصف الذي هز «المجتمع الاسرائيلي» خلال الاجتياح والذي لا يزال يتفاعل؟

ننشر، في ما يأتي، التحقيق الذي أوردته إذاعة اسرائيل باللغة العبرية بعنوان «تقرير عن تأثير

الحرب في لبنان على آراء الاكاديميين ودورهم للتأثير في مسارها» ووزعته أمس نشرة «رصد اذاعة اسرائيل».

عقب معارك عملية «سلام الجليل»، وحتى خلالها، دارت في الجبهة الداخلية معارك من طراز آخر، معارك لكسب الرأي العام.

وقد استخدمت في هذه المعارك اسلحة فعالة: كالمناظرات، والمؤتمرات الصحافية، والبيانات الصحافية التي سلطت الاضواء على بعض الامور، اضافة إلى اللقاءات التي تمت بين الجنود المسرحين وبين رئيس الحكومة وبعض الوزراء.

ورافق هذه النشاطات نقاش شعبي علني، خاصة ممثلو الاحزاب السياسية. ووجهت الصحف ووسائل الاعلام انتباهاً خاصاً إلى مجموعات من الرجال الاكاديميين، من على جانبي المتراس السياسي، حيث نزل أعضاء هذه المجموعات من ابراجهم العالية، وعبروا عن مواقفهم من الحرب، ومن نشاطات الحكومة.

ومن المعروف ان هؤلاء الاكاديميين لم يعملوا دائماً بطرق عادية. ولذا سنحاول في هذا التقرير الاهتمام بدافعهم، وطرق عملهم، وتقدير مدى تاثيرهم.

وبرزت مجموعتان من الاكاديميين في صورة صراع على كسب رأي الجمهور، خلال فترة الحرب.

الأولى، مجموعة جديدة تدعى مجموعة «سلام وامن»، وقفت على رأس المتظاهرين الاسرائيليين، وضمت أشخاصاً من خارج المجال الجامعي، وايدت سياسة الحكومة، وتظاهرت ضد التظاهرات المعارضة للحرب، وضد وسائل الاتصالات التي قدمت تقارير لم تكن متوازنة، حسب أقوال أعضاء هذه المجموعة.

مقابل هذه المجموعة، وقفت مجموعة تنحدر من اليسار السياسي، الذي تظاهر باشكال مختلفة، ضد سياسة الحكومة، وضد الحرب في لبنان.

ومن بين أعضاء هذه المجموعة البروفسور يهوشواع اريئيلي من كلية التاريخ في الجامعة العبرية الذي لم يكتف بعرض مواقفه في المقالات والتظاهرات، بل أعلن اضراباً عن الطعام أمام مكتب رئيس الحكومة في القدس.

مشكلة ضميرية

وقد طلبنا منه معرفة الدافع لقيامه بمثل هذا العمل فأجاب اريئيلي: ببساطة، كنت أعاني من مشكلة ضميرية. ففي الوقت الذي تتساقط فيه الضحايا من الطرفين ويرتفع عدد الجرحى من المعسكرين، وبما أنني رجل مسن، كان الامكان الوحيد أمامي، من أجل القيام بواجبي في هذا المعترك، هو التعبير عن معارضتي لما يجري.

المراسل: ويضيف البروفسور اريئيلي «أرى نفسي، كمواطن، ملزماً ان أفرض على الشخص المثقف الذي بداخلي كافة التصرفات المطلوبة من مواطن مسؤول عن أعمال الدولة.

وفي هذه الحال، كان من المناسب الكشف للحكومة عن حقيقة عدم وجود اجماع وطني على الحرب».

اريئيلي: من هذه الناحية، ليست القضية قضية التأثير بواسطة الآراء فقط، بل التعبير، عن أي وزن معارض، من قبل الغالبية الصامتة، أو من قبل الغالبية الصارخة.

وفي جميع الاحوال، يمكن القول ان هناك أشخاصاً غير مستعدين للموافقة على هذا الامر بصمت.

مؤيد للحكومة

المراسل : ويعتبر البروفسور اليعيزر شفاميتس من قسم العلوم الاسرائيلية في الجامعة العبرية ، أحد أعضاء حركة « سلام وامن » والتي عبرت عن تأييدها للحكومة .

ولديه ، مثل البروفسور اريئيلي ، عدد من الاسباب الشخصية التي دفعته للتدخل في مجريات الامور . كما ان ابنه كان قد خدم ، خلال الحرب ، في وحدة قتالية ، وابنته كانت خلال تلك الفترة في كريات شمونة .

كذلك ، هناك أسباب أخرى دفعته للخروج من بين جدران الجامعة ، والتوقيع على عريضة تأييد للحكومة ، والتظاهر أمام مبنى محطة التلفزيون ، كما قال .

شفايتس : شعرت ان هناك شيئاً ما يهدد ، من ناحية الرد الشعبي الذي لا ضابط له ، خلال فترة تنظيم المعارضة ضد الحرب ، واعتقدت ببساطة انه ليس بالامكان البقاء على الحياد . لهذا شعرت بوجوب تحريك الغالبية الصامتة للتخلي عن صمتها ، والتعبير عن رأيها .

المراسل : والبروفسور يهوشواع اريئيلي ، والبروفسور اليعزر شفايتس يمثلان المجموعتين المتعارضتين من الناحية الفكرية .

أما البروفسور ناتان روتنشطريخ ، فيمثل مجموعة أخرى ، ووجد ان من الصحيح التعبير عن آرائه ، خلال فترة الحرب ، عبر مقالات صحافية ، ولقاءات شخصية مع رئيس الحكومة وبعض الوزراء .

وضع هـامشي

غير انه لم يتظاهر ولم يعلن رأيه ولم يوقع على اية عريضة أو بيان ضد الحرب ، ويعزي سبب ذلك إلى أمور كامنة في ماضيه .

روتنشطريخ : لا أريد التوقيع على شيء ما ، باستثناء الشيء الذي اكتبه بنفسي . وآمل ان تعبر كتاباتي عن آرائي ، لانني لا أريد التوقيع على شيء ، والتحفظ من شيء آخر .

وفي اللحظة التي وجدت نفسي فيها خارج شبكة متعاونة . أردت ان انتقد كافة الامكانيات الموجودة في هذا الوضع الهامشي .

المراسل : مع هذا ، فالبروفسور روتنشطريخ ، لا يقلل من قيمة النضال الذي يخوضه زملاؤه الذين لم يكتفوا بكتابة المقالات . وقد أوضح ذلك بقوله .

روتنشطريخ : كل انسان يعمل وفقاً لالتزاماته وواجباته . فهناك أشخاص من معسكرات مختلفة أعربوا عن آرائهم ، ولست مشككاً بدوافعهم . وحقيقة انني لا اسير في الطريق نفسه لا تعني ان طريقهم غير شرعي ، وغير صحيح .

المراسل : وكانت الرغبة في التأثير على متخذي القرارات احد الاسباب لتدخل رجال الفكر والتعبير عن آرائهم .

واوضح البروفسور اليعزر شفايتس ، انه مقتنع بأن تأثيراً معيناً لنشاط حركته ، حركة السلام والامن كان ، حسب رأيه ، واضحاً على الرأي العام ، وعلى تقارير وسائل الاعلام ، التي اتخذت سبيلاً متوازناً أكثر ، حسب أقواله .

شفايتس : لقد شعر كل واحد منا بأنه ملزم بالقيام بأمر ما ، دون أن يفكر بمدى تأثير هذا العمل .

وفي كل الاحوال ، عندما يكون لعمل حركات أخرى وزن ما ، فانك تستطيع الحصول ، على الأقل ، على بعض التوازن ، فتخلق وزناً معارضاً لما يدور على الساحة . واعتقد ان عملنا ، في هذا المجال ، كان له ما يبرره .

حجم تـأثير قليل

المراسل : أما البروفسور ناتان روتنشطريخ ، فيعتقد بأن حجم تأثيره على الاحداث ، وعلى الرأي العام ، كان قليلاً ، بالمقارنة مع تأثير نظيريه .

روتنشطريخ : اقدر ان تأثير الذين عملوا بصورة ملموسة ، كان أكبر من تأثير الذين عملوا بواسطة اسماع ارائهم عبر الصحف .

وبالطبع ، يمكننا ان نتجادل حول التأثير على المدى القريب ، وحول التأثير على المدى البعيد . ولكنني لا استطيع القول ان هذا التأثير مضمون ، لكن المضمون أكثر ، هو ان على الانسان ان يسمع آراءه .

المراسل : كذلك يحمل البروفسور اريئيلي الرأي ذاته حيث يرى ان التظاهرات الشعبية كانت خلال الحرب أكثر فعالية من أساليب الاحتجاج الاخرى .

وحسب رأيه ، فان التأثير ، من قبل الاكاديميين الذي يمثلون جانبي المتراس ، على متحذي القرارات السياسية كان ضعيفاً ، على الاقل في المدى القريب .

ويعتقد البروفسور اريئيلي ، ان تدخل الاكاديميين في اسرائيل في الحياة السياسية ضعيفة المقارنة مع تدخلهم في قطاعات أخرى بين الجمهور .

وحسب أقواله كان الامر هكذا أيضاً في فترة الحرب الاخيرة .

رأي آخر : للاكاديميين دور كبير

أما البروفسور شفايتس ، فانه يعارض رأي البروفسور يهوشواع اريئيلي ويعتقد ان تدخل الرجال الاكاديميين في الحرب الاخيرة كان واسعاً جداً ، حيث عبر عدد كبير من رجال الجامعات عن آرائهم ، كما استخدم الكثيرون منهم ألقابهم الاكاديمية لهذه الغاية .

ويشير شفايتس بشكل خاص إلى رجال علوم البيئة ، الذين كانوا في الماضي لا يتدخلون في السياسة الا قليلاً جداً .

وتوصل رجال الفكر إلى استنتاج ، يقول شفايتس ، يفيد بأنهم يحتاجون إلى أجهزة القيادة السياسية ، اذا كانوا يرغبون في التأثير على الجمهور .

شفايتس : ان ذلك هو الوضع الصحي لكي يستطيع رجال الفكر التأثير ، من خلال عملهم الفكري ، بينما نرى ان رجال الفكر عندما يرغبون بالوصول إلى القمة والشهرة السياسية ، يتعين عليهم طلب المساعدة من أجهزة القيادة السياسية . وهذا الامر ليس جيداً ، وهي ظاهرة غير صحية ، حسب اعتقادي .

والرأي الاكثر اتزاناً هو ما قاله البروفسور ناتان روتنشطريخ ، وهو ان رأي الرجال الاكاديميين يحظى ، بطبيعة الحال ، بمزيد من التأثير ، أكثر مما يحظى به رأي الآخرين .

مع ذلك ، يضيف البروفسور روتنشطريخ ، ان هذا لا يعني ان هذا الرأي ، رأي الاكاديميين ، أفضل من الآراء الاخرى .

ولدى البروفسور روتنشطريخ ظاهرة عدم شجب دوافع رجال الفكر الذين يعتبرون عن رأيهم في قضايا سياسية . ويقول بوجوب عدم الشك في هذه الدوافع .

روتنشطريخ : لا يحق لاحد أن يضع حق أصحاب الآراء تحت المراقبة ، أو الشك في دوافعها » .

(المصدر : ر . أ . أ . بالعبرية)

« النداء » ١٩٨٢/٩/١٠

أي مستقبل لاسرائيل ؟

هذا المقال هو آخر ما كتبه ناحوم غولدمان ، الذي توفي في ٢٩ آب الماضي ، وكان حرره قبل نهاية حصار بيروت ويمكن القول ان المقال ، من نواح عديدة تنبؤي وتحذيري .

أفلم يتوقع فيه غولدمان مجابهة سياسية اسرائيلية ـ أميركية وانبعاثاً للنزعة المعادية للسامية ؟ ان ناحوم غولدمان ، الموهوب رؤية وثقافة ، يستغل أحداثاً فاجعة حالية ، للقيام بتفكير واعادة تحديد مبتكرين للمسألة اليهودية ، حيث لا يتجنب المسألة المحرمة ، مسألة « ولاء اليهود المزدوج » ولم يتوجب أكثر من بضعة أسابيع بعد غياب غولمان ، حتى بدأت تتأكد صحة توقعاته على رغم المنددين به من المؤسسة اليهودية والاسرائيلية . وفي ما يأتي نص المقال :

* * *

ان غزو اسرائيل المغرور للبنان ، وحصار بيروت سيكون لهما عواقب لا يمكن التنبؤ بها ، وهي في أغلبها سلبية ، ومع ذلك ، فان بعضها يمكن ان يتبين ايجابياً .

ولنبدأ بالمظهر السلبي . ان اسرائيل ، بسبب عملها ، تجد نفسها معزولة أكثر من أي وقت مضى على الصعيد السياسي ، وعملياً وحدها في مواجهة الامم المتحدة ، والرأي العام العالمي ، والولايات المتحدة هي وحدها التي ما زالت تدعمها ، متعرضة بذلك لاثارة عداء العالم العربي بصورة دائمة ، وليس هناك أي شك في ان الدولة اليهودية سوف تحرز انتصاراً عسكرياً ، لكننا اذا نظرنا إلى قوتها العسكرية المتفوقة جداً بالمقارنة مع قوات منظمة التحرير الفلسطينية ، لا نجد ان لدى اسرائيل اسباباً للاعتزاز بانتصارها ، ويمكن ان تكسب دولة معركة بعد معركة ، ومع ذلك يمكن ان تخسر الحرب . وحتى الآن ، لم يقم كل انتصار لاسرائيل الا بتوليد صعوبات سياسية جديدة ، ولا سيما الانتصار المذهل في حرب الايام الستة التي قادت إلى الوضع الراهن ، اضف إلى ذلك ان هذه هي المرة الاولى التي تنخرط فيها اسرائيل في حرب تلعب فيها كلياً دور المعتدي ، بصورة بديهية . لذلك فان الحكومة الاسرائيلية لا تتمتع بالمساندة الاجماعية من السكان ، بل بالعكس ، فان شطراً من المواطنين قد احتجوا بشدة ضد الغزو .

ولكن ما من شيء في هذا العالم يتضمن فقط نتائج سلبية ، وان غزو لبنان يمكن ان يتضمن تأثيرين ايجابيين لم يكن في استطاعة بيغن ان يتوقعهما أو يريدهما : الاول ، ان منظمة التحرير الفلسطينية سوف تستطيع ان تعي واقع انها يجب ان تتخلى عن عملياتها العسكرية ضد اسرائيل ، أي عن الارهاب ، الذي ليس له أي حظ في النجاح وان واقع تشكيل حكومة فلسطينية في المنفى سوف يحمل نضالها إلى مستوى سياسي . الثاني انه توجد الآن امكانية لمجابهة عنيفة في الافكار بين اسرائيل والولايات المتحدة ، يمكن ان ترغم الولايات المتحدة على اعادة تحديد سياستها في الشرق الأوسط .

* * *

ان مثل اعادة التحديد هذه ربما سيؤدي إلى سقوط بيغن وإلى تغيير للسياسة الاسرائيلية ، وعلى رغم غطرسة الاسرائيليين وعنادهم فهم أذكياء كفاية لكي يفهموا انهم بدون دعم الولايات المتحدة ليست لديهم أية فرصة للنجاح في سياستهم العدوانية .

ان العواقب البعيدة المدى للمغامرة اللبنانية يمكن ان تبين انها أكثر أهمية أيضاً ، وهذه الحرب تشكل منعطفاً في تاريخ الشعب اليهودي . وهي تمس قلب المسألة التي شغلت تاريخ الشعب اليهودي . وهي تمس قلب المسألة التي شغلت العالم طوال قرون ، وهي ما يسمى المسألة اليهودية ، مسألة العلاقات بين اليهود

وغير اليهود ، وخلال فترة قصيرة ، كانت لدى السياسيين ، سواء كانوا متفائلين أو واقعيين ، أسباب جيدة ليأملوا بأن تكف المسألة اليهودية عن كونها مشكلة .

(...) لقد كانت ابادة الشعب اليهودي وانشاء دولة اسرائيل يبرران الافتراض القائل ان المشكلة اليهودية قد حلت أخيراً . ان البلدان الديمقراطية مثل البلدان الشيوعية ـ التي لم تفعل أي شيء أساسي لانقاذ ملايين اليهود من الابادة الهتلرية ـ كانت تحس بتعذيب الضمير . ان قابلية هذه البلدان للادانة حملتها طوال أعوام على الخوف من ان تكون معادية للسامية . وقد عاملت اليهود برفق ومراعاة . وحتى الاقتراع بأكثرية الثلثين الذي قررت الامم المتحدة به انشاء دولة اسرائيل كان نتيجة لتعذيب الضمير السابق ذكره . ومن جهة أخرى ، فان تأسيس دولة اسرائيل قد حمل صهاينة راديكاليين على الاعتقاد بالنزعة التبسيطية الساذجة والعبقرية لتيودور هرتزل حول المسألة اليهودية . وحسب رأيه . فان تشتت اليهود ، أي أساس المسألة اليهودية ، سوف يزول مع انشاء دولة يهودية . وكان هذان الاملان وهما من الاوهام . وقد مر زهاء أربعين عاماً منذ نهاية الحرب وتحرير معسكرات الاعتقال .

وخلال هذا الزمن ترعرع جيل يهودي جديد لم يعرف المجزرة الا في طفولته . او هو قد ولد بعدها ، واغلب الناس يرفضون ان يجري تذكيرهم بها بل يوجد مؤرخون ، يريدون ان يثبتوا ان معسكرات الابادة لم توجد .

وهناك كثيرون من الاشخاص الذين لم يعودوا يحسون بالضيق لكونهم معادين للسامية . وتقع حوادث معادية للسامية في جميع البلدان الديمقراطية والشيوعية على حد سواء .

(...) وماذا عن الجذب الذي تمارسه دولة اسرائيل ؟.

منذ انشائها هاجر اليها أقل من ٢٠٪ من الشعب اليهودي بكامله ! لقد انخفض معدل الهجرة إلى اسرائيل خلال الاعوام الاخيرة ـ في عام ١٩٨١ ، كان عدد المهاجرين منها (أغلبهم من الشبان) أعلى من عدد المهاجرين اليها (أغلبهم أشخاص أكبر سناً). ويبدو ان من المناسب ان يفحص من جديد جوهر المسألة اليهودية ، وخصوصاً في ضوء الشكل المختلف تماماً الذي اتخذته في الاعوام الاخيرة ، وللمرة الاولى منذ وجود دولة اسرائيل . وهذا الشكل هو النزعة المناهضة للصهيونية . وتوجد مسألة يهودية منذ ان وجد يهود ... ولم يقم اليهود بتجربة وجود « طبيعي » بصفتهم شعباً في بلدانهم الخاصة الا خلال فترات قصيرة جداً . وقد حفظوا وجودهم بصفتهم شعباً مميزاً بفضل ما كان يسميه هايني « وطنهم المحمول » أي دينهم الذي كانوا يحملونه معهم . وهذه الظاهرة هي التي حددت واعطت شكلاً لوجود اليهود ـ أفرادياً وجماعياً ، في جميع الميادين ، من دون التباس وبصورة يومية .

* * *

وخلال العصور ، ظهرت المسألة اليهودية بادىء بدء في العلاقات بين الاقليات اليهودية والاكثريات التي كانت تعيش في داخلها تلك الاقليات ، ولكن في حين كانت العلاقات الحاكمة لاغلب الشعوب « الطبيعية » تجري بصورة بسيطة وتقليدية (يمكنها ان تكون سلبية ، أي مشروطة بالبغضاء والحسد ، أو ايجابية ، أي محددة بالاعجاب والعبادة ، فان العلاقات بين اليهود وغير اليهود لم تكن أبداً حرية وسهلة بل كانت دائماً متناقضة وناشزة من الجانبين .

لقد كان اليهود يعجبون ويحسدون غير اليهود لتفوقهم المادي ، وانظمة حكامهم ، وملاكيهم العقاريين ، لكنهم في الوقت نفسه كانوا يحسون نحوهم بالازدراء والعداء ، لانهم أي اليهود على رغم ضعفهم الخاص السياسي والاقتصادي ، كانوا يميلون لان يحسوا انفسهم ، فكرياً ومعنوياً ودينياً ، متفوقين على الشعب المضيف .

(...) ان موقف غير اليهود ازاء اليهود هو أيضاً متناقض وهو ليس كذلك فقط حين يكون اليهود

مضطهدين (بفتح الهاء)، كما كانت الحال مثلاً في العصر الوسيط؛ بل اليوم أيضاً حين جرى الاعتراف في بلدان كثيرة بالمساواة لليهود، وتجسد هذا الاعتراف في السياسة وكذلك في الحياة الاقتصادية والثقافية.

ان كثيرين من غير اليهود يحسدون اليهود على ذكائهم، ونجاحهم المالي، ووضعهم في الحياة الثقافية، وهذا الحسد ممزوج بالاعجاب، لكن غير اليهودي، في البلدان الاكثر ديمقراطية، كما هي الحال في الولايات المتحدة، يعتبر اليهودي بمثابة شيء غريب، حتى ان الاميركيين المتسامحين يفكرون برهة اذا كانوا مستعدين لانتخاب يهودي لرئاسة الجمهورية.

ولا يوجد أي بلد في العالم تم فيه استيعاب كامل لليهود، باستثناء اليهود الذين قبلوا «التعميد» حيث جرى نفي كل طابع يهودي بحيث فقد اليهود القاطنين فيها بعد أجيال عدة، كل صلة مع الحياة اليهودية، يعتبر اليهود انفسهم بصفتهم أقلية، تعاني من ضيق، ومستنفرة باستمرار ضد تمييز محتمل - لكنهم من جهة أخرى يردون بقوة على أدنى اشارة للنزعة المعادية للسامية. وقد قادهم ذلك إلى تنظيم انفسهم، مثلاً، في تجمعات دولية مثل المؤتمر اليهودي العالمي الذي مهمته الرئيسية صيانة حقوق اليهود.

واليهود وغير اليهود يبالغون في تناقض مشاعرهم، واليهود يحتجون لدى أدنى مناسبة، وهم يحاولون استخدام نفوذهم السياسي لمساعدة طوائف يهودية أخرى أو اسرائيل، وهذا، كرد فعل، يحمل غير اليهود على اعتبار اليهود بصفتهم ذوي حساسية مفرطة، وقابلين جداً للعطب، وعلى التشكيك في دفاعهم الذاتي على الصعيد السياسي بالاشارات الظرفية لانتساب مزدوج.

(...) ومنذ انشاء دولة اسرائيل، اكتسبت المسألة اليهودية بعداً جديداً. ان امل هيرتزل الساذج الذي كان يحلم برؤية جميع اليهود مجتمعين في الدولة العبرية لم يتحقق ولن يتحقق في مستقبل قريب. ولذلك تعقدت المسألة بكاملها.

في السابق كان على اليهود، لكي يظلوا يهوداً ان يبقوا مخلصين لتقاليدهم وتراثهم ودينهم، وان يحفظوا نمط معيشتهم الخاص، لان تعايشاً حقيقياً مع غير اليهود كان مستحيلاً ولو كان ذلك لاسباب بسيطة للحمية (الصوم اليهودي) وقواعد أخرى مميزة، بيد ان من المهم بصورة أساسية اليوم، لاجل بقاء الشعب اليهودي المعاصر، ان يعلن يهود المهجر أيضاً ولاءهم ازاء اسرائيل (...) وهنا تكمن الصعوبة. ان أكثرية ساحقة من اليهود تدعم حق اسرائيل في الوجود، وكذلك سياسة الدولة العبرية. وخوفاً من الحاق الضرر باسرائيل، فانهم نادراً ما يعبرون عن انتقادات علنية ازاءها. وهذا يقود إلى أوضاع حيث يصبح «الانتساب المزدوج» واقعاً حقيقياً أكثر منه نتاجاً مشوهاً للتخيل المعادي للسامية. وباستثناء الولايات المتحدة، فان أغلب بلدان العالم تدين سياسة اسرائيل التوسعية الحالية... وهناك، بالتالي، في أغلب البلدان الاوروبية، خلاف متزايد الكبر أكثر فأكثر بين رد فعل حكومة على مسائل الشرق الاوسط، ورد فعل مواطنيها اليهود الذين يعبرون علانية عن دعمهم الاجمالي لكل ما تقوم به اسرائيل من دون الموافقة عليه بالضرورة. وهذا الوضع للامور، يمكن ان يقود إلى منازعات ستولد بين غير اليهود تشكيكاً جدياً من حيث ولاء ووطنية مواطنيهم اليهود، وهو تشكيك يمكن في المقابل ان يعرض للخطر استمرارية الحياة اليهودية في هذه البلدان وجوهرياً بالذات.

* * *

ان اسرائيل، كما هي اليوم، تهدد بجعل المسألة اليهودية مسألة مبتذلة، ان سياستها العدوانية تجرد المسألة اليهودية من تميزها الفريد. ان دولة اسرائيل كما تتحول تحت حكم بيغن تهدد بتشويه جذرية لصورة الشعب اليهودي، بين غير اليهود، وطوال عصور. كان غير اليهود في أكثريتهم معادين للسامية، وقد اضطهدوا اليهود. لكن كثيراً منهم كانوا يحسون - عن وعي او بلا وعي - باحترام وتقدير لانجازات اليهود على الصعيد الفكري والثقافي، ولعنادهم (أي اليهود) الدائب لصيانة فرادتهم لكن اسرائيل تعود نجاحاتها

الرئيسية إلى الميدان العسكري - اسرائيل تركز كل طاقاتها على مفهوم التفوق العسكري - وهي سوف تشوه بصورة عميقة صورة الشعب اليهودي في نظر غير اليهود. وان صورة اسرائيل تهدد بان تتغير بصورة اساسية بالنسبة إلى عدد متزايد من اليهود، وخصوصاً لدى المثقفين. ان العديد من أعضاء النخبة اليهودية في الولايات المتحدة قد احتجوا لدى بيغن ضد سياسته. وهناك يهود يقومون بالابتعاد أكثر فأكثر عن سلوك اسرائيل بل ان بعض اليهود يذهبون إلى حد القول انهم يخجلون بصفتهم كيهود. وحين ننظر إلى الحماسة والاعجاب اللذين استثارتهما اسرائيل لدى اليهود وغير اليهود خلال الاعوام العشرة الاولى من وجودها، لا يمكن الامتناع عن خيبة أمل عميقة لضعف موقف اسرائيل المتميز.

* * *

ان كسب الحروب يمكن ان يستثير حماسة كبيرة لدى المنتصرين، لكن هذا لا يمثل شيئاً غير اعتيادي في التاريخ، ان الطاعة والولاء في ساحة القتال هما، بالتأكيد، صفتان ايجابيتان لكن كثيراً من الشعوب تشارك فيهما، ان شجاعة الفيتناميين في حربهم الطويلة ضد الاميركيين لم تكن أقل من شجاعة الجيش الاسرائيلي، علماً بان العرب ليسوا دولاً استعمارية.

واذا ما ظلت الخصائص الحربية لاسرائيل تسيطر زمناً طويلاً، فان الشعب اليهودي سوف يفقد طابعه الفريد. وفي المدى الطويل، سيعرض هذا للخطر حتى اساس وجود الشعب اليهودي. وآمل من جهتي بان يتبين نظام بيغن انه ليس سوى فترة محزنة لكنها ليست، كما نأمل فترة فاجعة نهائياً. وان لا تصبح الاخطار التي يستثيرها بتاؤها واقعاً ملموساً ونهائياً.

«السفير» ١٩٨٢/١١/١٨

حركة المعارضة للحرب
١٩٨٣

بث التلفزيون الإسرائيلي أمس أن رقيباً في الجيش الإسرائيلي عوقب بالسجن ٦ أيام وبكسر رتبته لأنه رفض قبول وسام الحرب في لبنان.

«النهار» ١٩٨٣/٤/١٢

القدس المحتلة: قضت محكمة عسكرية إسرائيلية بسجن دانيال تيمرمان، نجل الكاتب اليهودي الأرجنتيني الأصل، الإسرائيلي الجنسية، يعقوب تيمرمان بالسجن ٣٥ يوماً لرفضه تأدية الخدمة العسكرية في لبنان للمرة الثانية، وهو ينتمي إلى حركة «بيش جفول» (هناك حد).

«السفير» ١٩٨٣/٤/٣٠

٧ آلاف من «أولياء الجنود» يطالبون بسحبهم

تتسع في إسرائيل حركة المطالبة بانسحاب الجيش الإسرائيلي من لبنان، وقد وقع ٧ آلاف إسرائيلي من «أولياء أمر الجنود» على عريضة سلمت أمس إلى موشي أرينز وزير الدفاع.

«النداء» ١٩٨٣/٦/١

القدس ـ أعلنت حركة «هناك حد» الإسرائيلية المناهضة للحرب في لبنان يوم الجمعة أن ستة عسكريين جدد صدرت عليهم أحكام بالسجن لرفضهم الخدمة العسكرية في لبنان.

ومن ناحية أخرى دعت «حركة السلام الآن» إلى القيام بتظاهرة مساء السبت في تل أبيب «ضد الحرب غير المجدية» في لبنان.

«السفير» ١٩٨٣/٦/٤

القدس ـ علم أمس من مصدر عسكري إسرائيلي أن رقيباً في الشرطة العسكرية الإسرائيلية حكم عليه بالسجن ٢١ يوماً لرفضه الخدمة في لبنان.

«النهار» ١٩٨٣/٧/١١

القدس ـ تظاهر أمس نحو ٢٠ شاباً إسرائيلياً دعوا إلى الخدمة العسكرية أمام مبنى مجلس الوزراء في القدس مطالبين «بعودة جميع الجنود الإسرائيليين في لبنان»، واعتصم المتظاهرون أمام المجلس وهم يرددون «لا نريد أن نموت من أجل لبنان». ومن جهة أخرى حكم على مجند من حركة «هناك حد» المناهضة للحرب في لبنان بالسجن ١٥ يوماً لرفضه الخدمة في هذا البلد.

«النهار» ١٩٨٣/٧/١٩

القدس ـ قال أقرباء العريف في الجيش الإسرائيلي مهاجر من الإتحاد السوفياتي، إن العريف حكم عليه بالسجن للمرة الثانية ٣٥ يوماً في معتقل عسكري لرفضه الخدمة في لبنان وهو العريف يوري بنيس.

«النهار» ١٩٨٣/١٠/١٢

تظاهرة لجنود إسرائيليين تطالب بالإنسحاب من لبنان

نظم الجنود الإسرائيليون الذين يرفضون الخدمة في لبنان تظاهرة اليوم ضمت أكثر من ألف شخص، وطالبت بالإنسحاب الإسرائيلي الفوري من لبنان وبالإفراج عن ٣ من الجنود المعتقلين لمعارضتهم الخدمة في لبنان... وردد المتظاهرون شعارات مثل «لا صيدا ولا صور، أخرجوا الآن من لبنان»، «لن نموت، ولن نذبح لنرضي الولايات المتحدة الأميركية».

ويذكر أن ١٠٨ جنود ينتمون إلى مجموعة «هناك حد» المناهضة للحرب في لبنان، أمضوا عقوبات بالسجن لرفضهم الخدمة، وما زال ثلاثة منهم قيد الإعتقال.

«السفير» ١٩٨٣/١٢/٤

القدس المحتلة ـ علم اليوم في القدس أن جندياً إسرائيلياً أدين للمرة الثالثة بعقوبة السجن لرفضه الخدمة في لبنان. وقد رفض يوري بينس الذي أمضى من قبل ٢٥ يوماً في السجن بالتهمة نفسها لرفضه الخدمة في لبنان. وصدرت ضده هذه المرة عقوبة بالسجن ٧ أيام سيقضيها في السجن العسكري في لبنان.

«السفير» ١٩٨٣/١٢/١٤

جنرال فقد إبنه في الحرب يكتب إلى بيغن: كفى جنوناً! أرجع أبناءنا من لبنان

أم إسرائيلية فقدت إبنها: سأقتل شارون إذا شاهدته

الدوامة الإسرائيلية في لبنان

نشرت مجلة «كريستيان ساينس مونتير» تحليلاً للآثار التي ترتبت على نفسية الإسرائيليين ومزاجهم العام بسبب غزو لبنان فقالت:

دفن الإسرائيليون في الأسبوع الماضي القتيل رقم خمسمائة من قتلى الغزو الإسرائيلي للبنان. ولا يكاد يمر أسبوع واحد دون وقوع إصابات.

ولكي يدرك الأميركيون ما الذي تعنيه هذه الخسائر بالنسبة للإسرائيليين فإن عليهم أن يذكروا أنفسهم بأنها تصل في حجمها إلى حجم تلك الخسائر التي منيت بها أميركا في حرب فيتنام إذا ما أخذوا في اعتبارهم تعداد السكان.

لهذا فليس من المستغرب أن يشعر الإسرائيليون بالإكتئاب العميق، وهم على عكس الأميركيين قبل عقد من الزمن يتساءلون ما الذي سيفعلونه الآن. ويتركز النقاش، على ما يبدو، على ما إذا كان يجب

على إسرائيل أن تسحب قواتها من لبنان أم لا حتى ولو رفضت سوريا سحب قواتها إثر الإتفاق الأخير بين إسرائيل ولبنان.

فإذا ما بقيت إسرائيل في لبنان فإنها ستواجه الهجمات الفدائية السريعة المتصلة. وإذا ما انسحبت وتحركت القوات السورية وقوات منظمة التحرير الفلسطينية لملء الفراغ فإن أمنها في الشمال سيكون معرضاً للخطر.

إلا أن هذه المسألة ليست القضية المركزية في دوامة إسرائيل التي ستقرر مستقبلها ككل. فالقضية الحقيقية هي نفس القضية منذ أن أقيمت دولة إسرائيل وهي: ما إذا كان يهود فلسطين على استعداد للحياة في سلام مع جيرانهم العرب ومنحهم نفس حقوق المصير التي حصلوا عليها هم بالقوة.

ومن الأمور المشجعة أن هناك قوى داخل إسرائيل مثل «حركة السلام الآن» تمر في مرحلة عميقة من التفحص الذاتي. إذ أن هؤلاء الإسرائيليين أخذوا يتساءلون كيف أصبح اليهود الذين اضطهدوا على أيدي أمم أخرى وسيلة الآن لإنزال المعاناة بالآخرين. وحتى أولئك الإسرائيليين الذين ينادون «بإسرائيل الكبرى» لا يتصورون اضطهاد وقمع جيرانهم. وهم يشيرون إلى ماضيهم كدليل على ذلك. ويستشهد كثيرون منهم بأحداث التاريخ لشرح ذلك. ومثل هذه الأصوات التي تعطي الأمل للإسرائيليين هذه الأيام تقول إن إسرائيل ستسلك ذات يوم طريق السلام.

وعندما يستشهد الناس بوعد بلفور الذي أعطى اليهود حق إقامة وطن لهم في فلسطين يتناسون أن الوعد نفسه يقتضي عدم إلحاق الضرر بحقوق العرب.

كما أن اليهود كانوا في الواقع على استعداد لقبول خطة تقسيم فلسطين التي وضعتها الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ والتي تنص على إقامة دولتين: فلسطينية ويهودية.

إلا أن الكثير حدث منذ ذلك التاريخ. فقد نشبت حروب كثيرة واحتلت إسرائيل أراضي كثيرة. ومع ذلك فإنه لا يوجد إلا القليل من اليهود وغير اليهود ممن يعتقدون أن المزيد من احتلال الأرض قد أعطى إسرائيل الأمن أو السلام أو القناعة. والواقع أنه إذا ما استمرت حكومة مناحيم بيغن في سياسة الإستيطان واستيعاب أرض الضفة الغربية فإن إسرائيل ستجد نفسها وقد أصبح يعيش فيها حوالى مليون ونصف المليون عربي ستضطر إلى حكمهم والسيطرة عليهم واستخدام الوحشية لقمعهم أحياناً. فأي دولة يهودية ستكون تلك؟

لقد أصبح من الواضح أنه لا يمكن إنهاء وجود اليهود من الساحل الفلسطيني. ومن الواضح أيضاً أن الفلسطينيين العرب قد أصبحوا على درجة كبيرة من الوعي القومي وأنهم لن يرتاح لهم بال أو يهدأ لهم خاطر حتى يستعيدوا بعض تلك الأرض التي كان يملكها آباؤهم وأجدادهم. فكيف يمكن إذن التوفيق بين تطلعات وأماني هاتين المجموعتين اللتين عانتا من الظلم؟

إن الجواب بالنسبة لأي شخص محايد يكمن في التعايش والرغبة المتبادلة في الإشتراك في الأرض والعيش دون كراهية وخوف.

وهكذا فإن التوصل إلى هذه النقطة من المساومة أو التوفيق البشري مهما كانت المجازفة التي يحملها هو على ما يبدو أعظم حاجة لإسرائيل اليوم، ولكن ليس في وسع أحد وحتى الولايات المتحدة أن تفرض هذا الخيار لأنه لا يمكن أن يأتي إلا من داخل إسرائيل.

«الشرق الأوسط» ١٩٨٣/٦/٢٦

حرب لبنان تسببت في إحباطات نفسية وانهيارات في الأعصاب وشكوك كاوية

بقلم : مينو آزوليه

الحرب اللبنانية هل انتهت ؟ لا شيء أقل تأكيداً من ذلك . إنها مستمرة في النفوس في شكل قلق لا يمكن تحديده وفي المدن والتعاونيات الزراعية يبدو السكان الإسرائيليون كأنهم يعيشون بصورة طبيعية ، لكنهم يستمرون في اجترار الحرب .

رايا حارنيك ، أم لأربعة أولاد ، قتل ولدها البكر ، غوني ، (٢٥ عاماً) في أثناء الإستيلاء على قلعة الشقيف منذ الأسبوع الأول للحرب . والجميع يعترفون بلطف غوني وتصميمه ، وهو مناضل في حركة « شالوم ارشاف » (السلام الآن) ، ويقال إنه بطل . ورايا ، من جهتها ، تريده أن يكون حياً في كل ذاكرة ، وقد أهدته مجموعة من القصائد والصور التي ستصدر عما قريب .

عنه حدثتني رايا قائلة باعتزاز : « لا أريد أن ينسى ولدي . إن موته يبعث في كلياً الشعور بالذنب . وأنا أحس بأنني ربيته لكي يموت . إن مسؤوليتي لا متناهية ، لقد فشلت بشكل ما ، لأن هذه الحرب تجعل المجتمع الإسرائيلي يذهب في جميع الإتجاهات . ولم يعد أبناء الشعب هم الذين يموتون اليوم ، بل هناك لكل موته الخاص ، ولكل ألمه وسط اللا مبالاة العامة ، ولم يعد الشعب يريد أن يعرف ، والحكومة لم تعد تريد أن تقول ، في حين إنني أريد بكل قواي حفظ ذكرى ولدي ! » .

وتضيف رايا ، المنفعلة والضائعة والتي تواصل النضال في حركة « السلام الآن » : « بالنسبة إلى استمراري في المشاركة ، ليست لدي نية ضغينة ، حتى إزاء العالم العربي . والحل لن يكون عسكرياً وأتمنى أن تكون في البلدان العربية أيضاً حركة للسلام الآن . إن الجرح النفسي لسكان « المؤخرة » لا يلتئم ، ومع ذلك ينتشر الألم على نغم نشيد للأطفال ، أصبح لازمة سوداء ومؤثرة . شارون يأخذنا في السماء ، بالطائرة ، ويعيدنا في نعش » .

في فندق كبير بالقدس ، تعمل راشيل فرنيه وهي ، مثل الجميع ، متعلقة بنشرات الأخبار وبعناوين الصحف . ومثل الجميع ، تلزم الصمت عند إذاعة نشرات الأخبار ، في الأوتوبيس أو في سيارة الأجرة أو في المطعم . ومما ترويه راشيل قولها : « حين كان زوجي يعود في إجازة ، كنت أستعيد رقادي ، لكنني كنت أظل مكتئبة بصورة عميقة . وشيء رهيب هو العذاب الداخلي ، لكنني لم أكن أبوح بذلك أبداً لزوجي ، بل بالعكس ، حين يعود إلى المنزل ، كنت أدعه ينام ، وأحاول تهدئة أعصابي بلزومي الصمت . وأنا معتزة بأن لدي ولداً وزوجاً في الجيش ، لأن الأمر يتعلق بمصير إسرائيل ، فنحن كيهود ليس لدينا خيار ، وإنني سأقبل القلق والخوف لقاء عشرين حرباً » .

مثل هذا الموقف يجعل بعض المراقبين الإسرائيليين يقولون إن الإرتباك العام للسكان ، يدفع بأشخاص يساريين نحو ليكود (الإئتلاف الحكومي) وهكذا يجدون تبريرات ويحسون بأنهم أقل عزلة .

أمراض الحرب العصبية

في المستوصفات ظهرت « أمراض الحرب العصبية والجراح النفسية » . والجنود الذين رافقوا موتى في الشاحنات ، يأتون للإستشارة في شالفاتا ، أكبر مستشفى للأمراض النفسية في وسط إسرائيل .

روحاما ماراتون (الطبيبة النفسية) وريجين ريتلو أنترتر (إختصاصية في المعالجة النفسية) تعترفان بأن « الأشخاص فقدوا دفاعاتهم في هذه الحرب التي لم تعد مؤسسة على عامل بشري ، بل على قوة النار

والتكنولوجيا . ولم تعد تقرأ في الصحافة ، كما كان الأمر بعد حرب الغفران (تشرين الأول ١٩٧٣) ، وقائع أو قصصاً لرجال أو لأبطال بل حصيلات وحسابات تكنولوجية » .

وخلال استشارات كلّ منهما ، تلاحظ الطبيبتان أن « الرجال هم أكبر شقاء من النساء . وفي كل لحظة من حياتهم ، يمكن أن يصدر الأمر بالمسيرة . وهم في كل لحظة في موقف التأهب ، وبالتالي قلقون جداً » .

وتقول روحاما إن أحد مرضاها تحطم لدى إعلان عملية « السلام للجليل » . لقد انهار ، عائداً باستمرار إلى إشكالية الحياة والموت . ولم يعد ينام ، ولم يعد يأكل ، ولم يعد يخرج من سريره . وكانت لديه هلوسات بأنه يشم لحماً بشرياً محروقاً . وكان بحاجة دائمة إلى استشفاء . وإلى ذلك كان اتصاله البشري مجمداً .

إن عدد حالات الطلاق يزداد ، و « ذهان » الحرب (اختلال في الوظائف العقلية ينتج عنه اضطراب شامل في الشخصية ، فيصبح المرء عاجزاً عن التكيف المجتمعي) يسيطر أيضاً على هذا الوالد الذي يعترف بأنه لم يعد يستطيع تحمل رؤية أولاد في سن التاسعة ، وقد قال :

إنهم لا يعرفون أنهم يموتون بعد ثماني سنوات (١٨ عاماً هو سن الخدمة العسكرية) سوف يموتون .

ومع ذلك ، فمارلين (٤٥ عاماً) وهي أم لولدين صبي وبنت ، أصرت على أن يكون لها ولد ثالث ، على رغم سنها ، وقد وضعت مؤخراً طفلاً وقالت : « أنا سعيدة ، فقد أصبح لدي على الأقل ، أمل بأن لا أفقد هذا الطفل ذلك لأنه من الآن حتى عشرين عاماً . . . » .

شيمون طالب ـ جندي شاب قضى شهرين في لبنان وعاد منه جريحاً في الكتف والساق ، وقد اعترف قائلاً : « هناك ، كان شيء ما لا يمكن تحديده ، يوقف أفكاري . لقد وضعتنا هذه الحرب في مواجهة سكان مدنيين . ولم نعد نعرف حقاً أين هو العدو . وقد سبب هذا العديد من الإحباطات النفسية وعرف جنود منهارو الأعصاب حالات اللامبالاة والشك الكاوي . وحين جرحت ، أدركت بسرعة أن جراحي لم تكن خطيرة . لكن صديقي المفضل بترت ساقاه ، ولم أعد أفكر إلا فيه . إن الصداقة والتضامن والضغط النفسي المتواصل للضباط هي التي تدعونا للتماسك » .

ولقد عمل ضباط وأطباء في جماعات لأجل تحسين اشتراكاتهم النفسية . وأوضح البروفيسور شتيرن ، المسؤول عن الخدمات النفسية للجيش في المنطقة الشمالية ، أن تجربة الضباط مؤسسة على مكتسب الحرب السابقة . وقال : « لقد أدخلنا أيضاً ظاهرات التصنع والتظاهر لاجتناب النماذج الآلية في الكتب الدراسية لعلم الطب النفسي أو الموازيات الخطرة مع الحرب الفيتنامية » .

مريض الجيش

إن الإعداد وتوفير الشروط لم تحل ، ويا للأسف ، دون الجراح النفسية . وما زال صديق شيمون في المستشفى ، وهو في حالة « تفسخ » نفسي وعدم معاوضة .

ويروي شيمون قائلاً : « على رغم مشاغلي ، أحاول الذهاب مراراً كثيرة إلى المستشفى لمساعدته على التماسك ، ذلك لأنه يشعر دائماً بأنه متخلى عنه .

إن رفاقه يواصلون القتال وهو يبكي وينعزل داخلياً . . . وصحيح أن أسوأ إهانة لجندي هي القول عنه إنه « مريض الجيش » ! .

ويبقى أن هذه الحرب الأخيرة في الشرق الأوسط أحدثت ستماية حالة مرض نفسي . إن ٥٠٪ من الجنود المصابين نفسياً يعانون من القلق المزمن تقريباً و٣٨٪ يعانون الإنهيار النفسي ، و٣٤٪ مصابون بالأرق ، و٢٤٪ يظهرون اللامبالاة المرضية . وأخيراً فإن ٢٢٪ منهم ، من دون أن يكونوا فعلاً جرحى

حرب ، يرقدون في الأسرة ، ويعرفون مختلف أنواع الألم العابرة .

ومن جهة أخرى ، فإن ٨٠٪ من الحالات المرضية النفسية التي أحصيت هذا العام كانت في جنود الإحتياط و١٩٪ بين المجندين و١٪ فقط بين العسكريين المحترفين .

إن وطأة الحرب هي ، عملياً ، مرتبطة بخطر الموت الوشيك الذي يهدد الفرد . وكل حرب تعبىء ، إجبارياً ، آليات دفاع لا تظهر في زمن السلم . وقد أحصى ممرض وجهت إليه الأسئلة زهاء مائة جندي استقبلهم في عيادته صباح يوم الأحد ، في فترة التعبئة الإعتيادية . وأوضح قائلاً : « في زمن الحرب ، لا تحدث صدمة القتال فقط بعد التعب . وحتى الأطباء يصابون بردود فعل عنيفة أحياناً . وفي الجبهة الشرقية ، في شهر تموز ، ليلاً ، تحت خيمتنا المموهة للمدفع كنت أسمع صيحات : إرهابيون ، إرهابيون ! » .

إن قصص الصدمات مرتبطة بكل جبهة ، من الجندي الذي تحت ضغط قلق يدفع إلى الشلل ، يجلس في زاوية ، مستسلماً للامبالاة المرضية ويحسي رأسه من أدنى صوت للطائرة أو الطلقات ، إلى الجندي المنغمس في هياج شاذ ، ويركض في كل اتجاه ، وبندقيته بيده ، مزمجراً ومهدداً أعضاء وحدته .

إن بعض المقاتلين الشبان يصلون إلى الجبهة في حالة نفسية ضعيفة لأسباب عائلية ومهنية ووجودية .

وآخرون في لبنان خصوصاً ، عرفوا ، تجاه السكان المدنيين ، مشكلة أخلاقية بمقدار ما كان يصعب تحديد هوية العدو . وفي الإتجاه نفسه ، فإن الإتهام والإتهام الذاتي للصحافة الإسرائيلية استتبع ، حسب قول الدكتور شتيرن ، نوعاً من الوعي السيء الذي أعطى الحرب اللبنانية مظهراً متناقضاً جداً ، فكان يتوجب ، إذن ، تضميد الجراح النفسية .

وعلى الأرض تجري معالجات صدمة القتال ، وهي معالجات تتطلب إقامة وحدات متجولة للطب النفسي ، مقامة على الأخص في الخط الأول ، ذلك لأن كل كيلومتر نحو المؤخرة ، هو فرصة أقل لنجاح المعالجة وإذا كان الجنود الذين أظهروا حالات نفسية قد سرحوا من الخدمة في أثناء حرب الغفران (تشرين الأول ١٩٧٣) ، فمعالجتهم تجري اليوم في الميدان ، وذلك لأجل الإبقاء على الحالة العسكرية وتلبية حاجات الجنود النفسية ، واستشارة التطهير النفسي بالأحداث .

وبصورة ملموسة ، حسب قول الدكتور شتيرن ، لا يوجد غرف ولا أسرة ولا بيجامات ، إن الملابس ، والحركات ، والأصوات ، والبيئة المحيطة والإطار هي عسكرية وتبقى كذلك قبل كل شيء . والمعالجة في حد ذاتها مكلفة بما أنها لا تزيد عن ٢٤ إلى ٤٨ ساعة (و٧٢ ساعة هي المهلة القصوى) . ومنذ الأزمة الأولى ، عينا إعادة الإرتباط النفسي مع الجندي لتوجيهه في الزمان والمكان ، وتحطيم شعوره بالوحدة والتخلي .

وبعد استعادة الهوية يحاول الأطباء النفسيون الحصول من المريض ـ المقاتل على الوصف الأول للأحداث قبل الصدمة ، وذلك للحيلولة دون فقدان الذاكرة ، الذي لن يكون سوى كبت مؤلم ، كما أوضح الدكتور شتيرن .

التنويم المغنطيسي

« إن الأكل والشرب والنوم تساعد أيضاً في تجديد بنية شخصية المقاتل ، الذي لديه ، في تلك اللحظات نزوع إلى اتهام الذات ، وتحقير النفس ، قليل من الأدوية وكثير من التنويم المغنطيسي ، والكلام والتفاصيل (الصوتية ، والشمسية ، والبصرية) ، التي تنجح في التعبئة مجدداً ، لقوى الأنا التي هي سليمة ، لأجل إعطاء كل فرد تقديره لذاته . وبعد مثل هذا العلاج السريع والفعال نرسل الجندي إلى وحدته ، التي تكون هي نفسها معدة نفسياً لاستقباله . وإذا كان الدوي أو صوت القصف ما زالا يخيفان المريض ، فيجب مواصلة العلاج لاجتناب تكرار انفصام العمل النفسي أو الإنتكاس » . ويلاحظ الدكتور شتيرن قائلاً :

« من البديهي أن صدمات متأخرة يمكن أن تظهر في الحياة المدنية وليس نادراً في الواقع أننا نسمع الحديث عن الأرق ، والعجز الجنسي وانهيار الأعصاب بعد أيام عدة ، أو أشهر عدة من التسريح . ومع ذلك ، كما يؤكد المشتركون في مؤتمر الطب النفسي في تل أبيب ، فإن هذه المعالجات للصدمة ، التي يقوم بها الإسرائيليون تنجح بنسبة ٥٩٪ .

إن الجيش والحرب ومدارس الرجولة والقوة ، تبهر الأشخاص من جميع الأعمار . ومؤكد أن الخضوع لانضباط هو أسهل من مغادرة الصفوف ، لا سيما وأنه لم تعمل هذه المرة في إسرائيل أية خدمة للتعاضد النفسي . وكما تقول ميشلين تريف ، أم العائلة والطبيبة النفسية ، على رغم ذلك كله ، فنحن لا نقوم بإعادة النظر في القيم التصورية لإسرائيل . ونحن على المستوى المليء جداً . . . مستوى الغضب » .

في ساعة الحصيلة ، في هزات الأزمة الحكومية ، تلتقط إسرائيل أنفاسها مترددة بين الصمت والكلام ، وتتراجع البطولة أمام شجاعة العيش ، والبقاء تجاه وضد الجميع ، ولكن ، في الواقع ، من الذي قال إن هذا الشعب المؤكد في إرادته للوجود ، هو شعب ، واثق من نفسه ، وقادر على السيطرة ؟ . [1]

(١) إشارة إلى عبارة للجنرال ديغول بهذا المعنى .
الأشكيناز : اليهود الغربيون .
السفارديم : اليهود الشرقيون .

« السفير » ١٩٨٣/٤/١٤

مخططو غزو إسرائيل للبنان
يواجهون حرباً داخلية !

نشرت صحيفة « الغارديان » تحليلاً بعث به من إسرائيل جيمس ماكماناس بمناسبة مرور عام (يوم الإثنين القادم) على غزو إسرائيل لبنان قال فيه :

يدور في إسرائيل نقاش حاد نتيجة غزو لبنان واستمرار احتلاله . إذ أن حزب العمل الإسرائيلي الذي أخذ يدرك الإحساس العام بسبب تصاعد الإصابات الإسرائيلية دون ظهور أي إشارة على اقتراب موعد الإنسحاب أخذ يتحرك نحو الهجوم .

فقد اجتمعت اللجنة العليا التي تضع سياسة الحزب في تل أبيب يوم أمس لكي تناقش قراراً دعا فيه شيمون بيريز ، وإسحق رابين إلى الإنسحاب من لبنان من جانب واحد . ويقضي الإقتراح بالإنسحاب الفوري من جبال الشوف ومنطقة بيروت إلى أحد الخطوط النهرية في الجنوب ، وبعدئذ يجب انسحاب القوات الإسرائيلية إنسحاباً كاملاً خلال شهرين أو ثلاثة .

وقد قال بيريز بعد الخطاب الذي ألقاه في أعضاء حزب العمل في تل أبيب إن هنالك حاجة ماسة إلى فصل القوات الإسرائيلية عن السورية وإن هذا الإقتراح نال التأييد الإجماعي من الحزب لأنه يمثل أول سياسة علنية واضحة للحزب تجاه الحرب في لبنان .

وقد جاءت هذه السياسة نتيجة لعدة أسابيع من النقاش داخل الحزب وقد حث العديد من زعمائه على تحديد موعد نهائي للإنسحاب .

وعندما واجه رئيس الوزراء مناحيم بيغن هذا الطلب ، وجه نداءه إلى التزام الوحدة في الكنيست يوم الأربعاء الماضي . إلا أنه لم ينل التأييد اللازم لدعوته . فقد علقت صحيفة « دافار » الناطقة بلسان حزب العمل على ذلك بقولها : « إن رئيس الوزراء ينظر إلى الحرب وكأنها ليست من صنع الإنسان وإنما هي كارثة طبيعية لا يوجد أي رجل مسؤول عنها بمن في ذلك بيغن نفسه ! وهذا النوع من التملص والتهرب لا يلائم رئيس الوزراء . فالحكومات هي التي تبدأ الحروب ويجب على الحكومة الحالية أن تتحمل المسؤولية الكاملة عنها » .

وأشارت صحيفة «عال هاميشمار» اليسارية إلى المنظمة الجديدة التي شكلت أخيراً من الأمهات اللواتي يخدم أبناؤهن في لبنان فقالت: «لكي نزيد من الضغط العام على الحكومة لإنهاء هذه الحرب يجب على آلاف الأمهات أن يشتركن الآن في هذه الحركة المعادية للحرب.

ومع أن هذه الإنتقادات أمر متوقع من صحف المعارضة فإن الحكومة تشعر بالقلق لأنها تدرك أن المشاعر المعادية للحرب أخذت تتغلغل بعمق بين الجميع. وربما كانت هذه الحقيقة الدافع الذي حفز وزير الدفاع السابق أرييل شارون إلى الدعوة للإنسحاب الفوري من جبال الشوف. ولكن النفاق الواضح في هذه الدعوة التي صدرت عن الرجل الذي كان المخطط الرئيسي للغزو، لم يفت على الصحافة الإسرائيلية.

ومن جهة أخرى لقي الجنرال إيتان رئيس الأركان الإسرائيلي السابق استقبالاً سيئاً عندما ظهر لأول مرة أما م جمع من الطلاب في الجامعة العبرية، إذ أخذوا يكيلون له الشتائم ويلوحون باليافطات التي تصفه بأنه فاشيستي. وقد دافع إيتان عن الحرب في لبنان. إلا أن مجرد حضوره أثار مشاعر المرارة القوية في مختلف الأوساط الإسرائيلية التي ما زالت منقسمة إنقساماً مريراً فيما بينها بسبب الحرب في لبنان.

ومع أن الإذاعة والتلفزيون في إسرائيل ستخصصان وقتاً كبيراً للذكرى الأولى للغزو فإنه لا يوجد إلا قلة ستتذكر هذه المناسبة بأي مديح للحكومة.

«الشرق الأوسط» ١٩٨٣/٦/٤

إنهيار معنويات جنود الإحتلال في لبنان
لم تعد أرامل قتلى الغزو يشعرن «بالفخر»!

المطلة وتل أبيب - (ي.ب.أ.) -

يقول رجل، وهو جندي في الجيش الإسرائيلي، إنه لم يعد أحد من الإسرائيليين يريد الذهاب إلى لبنان. ويقول صافي إن هذه الحرب ليست حرب إسرائيل، بينما يزعم يوني أنه يجب على الإسرائيليين أن يزحفوا من سهل البقاع إلى قلب دمشق نفسها.

وبعد سنة من الهجوم الذي شنته القوات الإسرائيلية على قوات منظمة التحرير الفلسطينية والقوات السورية، أخذ جيش إسرائيل في لبنان يبدي علائم تحسب وتعب واضطراب. كما أن ذلك الجيش ينزف يومياً.

وقال جندي إسرائيلي في سهل البقاع «في الأسبوعين الماضيين سقط منا قتيلان، ونحن في موقف حزين جداً».

ويغذى ضيق الجيش بحركات احتجاج في الجبهة الداخلية مثل حركة «السلام الآن» التي أصبحت لها جذور، وعدد من المجموعات الأخرى الأحدث عهداً مثل «الجنود ضد الصمت» و«الأمهات ضد الصمت» و«هناك حد».

وقد حدث في أعقاب غزو لبنان ما لم يكن في الإمكان التفكير فيه خلال حروب إسرائيل الخمس السابقة. إذ رفض حوالى ٥٩ جندياً الخدمة العسكرية في لبنان وسجن هؤلاء لما يتراوح بين ٣٠ و٣٥ يوماً بسبب ذلك.

وينبع الاضطراب من حرب تحولت من ضربة مركزة سريعة لمنظمة التحرير الفلسطينية إلى حرب استنزاف مع وحدات معادية لا يمكن مشاهدتها وتمكنت من قتل ١٤٠ إسرائيلياً منذ خروج معظم قوات منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت في أيلول (سبتمبر) الماضي.

ومما يزيد الإضطراب والبلبلة أيضاً ما أصبح حرباً وهمية ضد السوريين الذين يرفضون مغادرة لبنان

بينما يسمحون للفدائيين بالعمل من خطوطهم في سهل البقاع.

وقال جل، وهو جندي في التاسعة عشرة من عمره، «إن المرء لا يعلم من عدوه هناك». وكان جل قد جاء إلى لبنان يوم ٢٩ أيار (مايو) لأول مرة خلال تصاعد التوتر مع سوريا.

ويقول: «لا يدري المرء ما سيواجهه. أو ما إذا كانت ستنشب حرب كاملة النطاق. ولا أحد يريد المجيء إلى هنا، لا أحد، خصوصاً أولئك الذين خدموا هنا من قبل، إنه جحيم».

ولم يخفف الإتفاق الإسرائيلي مع لبنان قبل أسبوعين بشأن انسحاب القوات من عدم ارتياح الجنود تجاه أطول صراع تتورط فيه إسرائيل. فقد زاد هذا الصراع من إحساسهم بالنفور والإنعزال وبأنه يجري استغلالهم.

ويشعر بعض الجنود بأنهم يقاتلون نيابة عن الأميركيين ضد السوفيات، أو بأنهم يحملون السلاح نيابة عن اللبنانيين لحل المشكلات المعقدة جداً، ويقولون معترضين على دخول لبنان: «أشعر بأن هذه الحرب، بخلاف الحروب الأخرى، هي صراع تخوضه إسرائيل نيابة عن جهة أخرى، هي لبنان بالتحديد، ولست أشعر بأن هذه حربنا».

وقال يوني، وهو جاويش في الخامسة والعشرين من عمره قاتل في لبنان منذ اليوم الأول للغزو: «هذه مسألة روسية - أميركية».

وقال يوني إنه على استعداد لأي شيء للخروج من المأزق، حتى ولو يزحف الجيش الإسرائيلي على دمشق. وقال: «ولم لا؟ لم يخطر في بالي قط أنني سأدخل بيروت».

وقال الجاويش كاثريل، وهو من مواليد الأرجنتين وقاتل في هذه الحرب من بدايتها: التوتر الأخير مع سوريا يبدو «بصورة مؤكدة» كمسألة سوفياتية - أميركية.

ومضى يقول: «لقد ضربت الأسلحة الروسية في لبنان مما عقد الروس، وربما كانوا يحاولون تجربة أسلحة جديدة».

ووصف كاثريل، الذي يجيد كغيره من معظم الجنود الإسرائيليين لغتين أو حتى ثلاث لغات، التوتر الحالي بأنه «استعراض عضلات». وقال: «إن الذي يبدو أقوى هو الرابح في هذه الجولة».

ولكن جميع الجنود الذين أجريت معهم مقابلات كانوا متفقين على أن استمرار حرب الإستنزاف أمر لا يطاق.

وقال صافي الذي يشعر بأن هذه الحرب ليست حربه: «وإن الواجب فرض عليه أن يكون هناك».

وقال يوني بينما كان رفاقه الجنود ينظرون إليه بإعجاب خلال حديثه إنه مهما يكن النهج الذي يتم اختياره، فإنه يجب على الحكومة أن لا تتسامح تجاه حرب استنزاف.

وقال: «أتدري ما هو الإستنزاف؟ إنه قتل جندي إسرائيلي كل يوم».

الأرامل و«الغزو»

ولا يقتصر الشعور بالضيق على الجنود الإسرائيليين في لبنان، وإنما يمتد إلى قطاع كبير من المجتمع الإسرائيلي ويتمثل في حركات احتجاج على بقاء القوات الإسرائيلية في لبنان. ويشمل هذا الشعور بالضيق أيضاً أرامل الجنود الذين قتلوا في لبنان.

فعلى سبيل المثال، تعتقد أورلي بروش أن الحرب في لبنان قد انتهت في اليوم الأول الذي بدأت فيه - أي في السادس من حزيران (يونيو) قبل سنة. وبهذه الطريقة يمكن لها أن تشعر بأن زوجها قد مات بطلاً.

بعد ساعات من بدء الغزو الإسرائيلي اخترقت رصاصة من بندقية مقاتل فلسطيني قلب بنحاس

بروش (٣٢ سنة) وهو خبير مواصلات في وحدة دبابات في احتياطي الجيش. وأعطى موت بنحاس زوجته أورلي التي كانت حاملاً صفة أول أرملة إسرائيلية لحرب إسرائيل السادسة.

وقد خلفت هذه الحرب الأخيرة وما أعقبها من عمليات مائتي أرملة، بمن في ذلك زوجات من قتلوا خلال احتلال لبنان الذي يشير إليه الإسرائيليون بكلمة «المستنقع» أما حرب ١٩٧٣ الأقصر أمداً وأوسع نطاقاً فقد خلفت خمسة أضعاف هذا العدد من الأرامل.

ومجموعتا الأرامل متساويتان في نظر برامج الدعاية الإجتماعية لوزارة الدفاع الإسرائيلية ويحق لأرامل المجموعتين الحصول على نفس الفوائد من تلك البرامج.

أما نظرة المجتمع فمختلفة تماماً. وقد قال آري إيزروف، مدير الخدمات الإجتماعية في دائرة إعادة التأهيل بوزارة الدفاع: «لا توجد نهاية لتلبية احتياجات أرملة حرب».

وتشهد أرامل حرب ١٩٧٣ على صحة ما قاله. فبعد سنة أو أكثر من موت أزواجهن، لم تضطر أي منهن إلى انتظار موعد، وكن يرسلن دائماً إلى أول الطابور.

وقالت تزيبي ليفيسون التي رملت عام ١٩٧٣ وكان طفلها إبن ٢٠ شهراً «كان ذلك شرفاً». وقبل سنتين أنتجت فيلماً عن محنة أرامل الحرب في إسرائيل التي يستدعي فيها للخدمة العسكرية كل قادر على حمل السلاح تقريباً حتى الخامسة والخمسين من العمر.

وقالت: «كانت الواحدة تشعر بأن زوجها استدعي، وتعين عليه الذهاب للدفاع عن الشعب كله. وكان موته يعد فاجعة وطنية. وكانت النساء يقلن: زوجها مات، وزوجي بقي على قيد الحياة. وقد جعل هذا الأرملة تشعر بأن لها مكانة خاصة».

وتتلقى أورلي بروش (٢٤ سنة) دروساً في قيادة السيارة، وهي لا تذكر المسألة. ولكن من حقوقها المكتسبة في الآونة الأخيرة أنها تستطيع شراء سيارة معفاة من الضريبة... وهذه ميزة نادرة في بلاد يمكن أن توصل فيها ضريبة سعر السيارة بمقدار ٢٠٠ في المائة.

وقالت: «كنت في السيارة مع مدربي، وكان الراديو يذيع تقريراً ضد الحرب فشعرت بأن علي أن أسأله: أرجوك، هل يمكن أن تقفل الراديو؟ لقد كان الأمر مؤلماً بالنسبة إلي».

«إنني لا أحس بأن لي مكانة خاصة، وذلك بسبب كل ما دار ويدور من حديث عن هذه الحرب. فالناس يقولون إنها لم تكن ضرورية. وأنا أجرح عندما أسمع الناس يتحدثون على هذا النحو».

ومضت تقول: «لقد دفع زوجي الثمن، وأنا أدفعه، ويدفعه والداه. والناس لا يقدرون ذلك. إن هذه الحرب ليست كالحروب الأخرى.

وتحاول أورلي وابنتها ناتا (٤ سنوات) الآن إعادة ترتيب حياتهما. ولكن هذه العملية أصبحت أكثر صعوبة في أيلول (سبتمبر).

وهي تعمل في البنك كي تتمم الخمسمائة دولار التي تحصل عليها شهرياً من وزارة الدفاع. كما يمكنها الحصول على مساعدة مالية في تعليم إبنتها ناتا وفي شراء شقة. ولكنها قالت: «إننا نعيش من اليد للفم».

وشرح ايزروف، مدير وزارة الدفاع، مدى ضخامة مرتبات التعويض التي تدفع عندما ينظر المرء إلى أن التقاعد الشهري الذي تحصل عليه أرملة لها طفلان يعادل المرتب الصافي لمدير عام في وزارة حكومية، ويبلغ حوالى ٦٥٠ دولاراً في الشهر.

وقال ايزروف: «إن الفكرة هي السماح للأرملة بأن تقضي حياتها في مستوى يتراوح بين المتوسط والمرتفع». وقال إن دائرته تدرس طلبات لمنافع خاصة كدفع رسوم تعليم العزف على البيانو لطفل موهوب مثلاً. ولكن تزيبي قالت إن أي شيء لا تنص عليه اللوائح يصعب الحصول عليه.

وتتضح الصفة الفريدة لخطة مرتبات التعويض عندما تبرز بادرة الزواج من جديد.

وبالرغم من أن أرملة الحرب تفقد مرتبها الشخصي عندما تتزوج، إلا أن أطفالها يتلقون مرتباً إلى حين بلوغ سن الرشد. وتعطي وزارة الدفاع الأرملة حين تتزوج مرة أخرى مبلغاً مالياً كبيراً نسبياً كهدية زواج.

«الشرق الأوسط» ١٩٨٣/٦/١٩

هركة المعارضة للحرب

١٩٨٤

تقرير بريطاني من الجنوب

التذمر ورفض تنفيذ الأوامر
يتصاعدان بين العسكريين الإسرائيليين

لندن ـ مصطفى كركوتي.

جاء في تقرير تلفزيوني بث هنا أمس ان الضغط على الحكومة الإسرائيلية من جانب قواتها في جنوب لبنان «يزداد اتساعاً» وان بعض الوحدات ترفض تنفيذ أوامر كبار ضباطها.

وقال مراسل التلفزيون البريطاني المستقل في جنوب لبنان في التقرير، ان الحكومة الإسرائيلية تجد من الصعب إبقاء قواتها في جنوب لبنان ليس فقط بسبب إزدياد عمليات المقاومة، والإصابات الناجمة عن هذه العمليات بل أيضاً لأن عدد الجنود والضباط الإسرائيليين الذين يرفضون الأوامر «يزداد».

أضاف يقول ان إسرائيل غزت لبنان قبل عامين بهدف تدمير منظمة التحرير الفلسطينية ولكن في ما بعد «اكتشفت القوات الإسرائيلية أنها أصبحت جيش احتلال».

ونقل عن أحد الإسرائيليين قوله ساخراً ان إسرائيل ظنت أنه من خلال اجتياحها لبنان تستطيع اقامة «حكومة موالية لها» إلا أن ما حدث الآن هو ولادة «حكومة صديقة لسوريا، عربية التوجه».

واستنتج التقرير ان أي قرار تتخذه الحكومة الإسرائيلية للانسحاب من لبنان «يعني شيئاً واحداً لا سابق له في تاريخها، هو هزيمتها».

واورد التقرير أحاديثنا مع ضباط وجنود إسرائيليين أعربوا جميعاً عن رغبتهم في العودة إلى منازلهم وأسرهم في أسرع وقت ممكن، وقال المراسل في ختام التقرير «ان هؤلاء لو خيروا فإنهم لن يأتوا أبداً إلى جنوب لبنان».

في تل أبيب، (الأذاعة الإسرائيلية) قال رئيس الأركان الإسرائيلي الجنرال موشي ليفي أنه «طرأ مؤخراً انخفاض ملحوظ على العمليات... ضد قواتنا في الجنوب اللبناني».

أضاف أنه لم يطرأ أي تغيير في انتشار القوات الإسرائيلية على الجبهة مع القوات السورية.

«السفير» ١٩٨٤/٥/١

شهادات حية وخطيرة ينقلها مراسلون غربيون من داخل إسرائيل
الغزو تحول مصيدة لجيشنا ونتائجه تهدد بتقسيم الدولة

عامان على الاجتياح. ما هي خطط الصهاينة وكيف ينظرون للوضع في لبنان وخاصة الجنوب؟ وكالات الانباء العالمية نقلت من الجنوب ومن إسرائيل انطباعات تظهر أول ما تظهر ذعر وخوف الصهيوني من انتفاضة ومقاومة شعبنا البطولية. وتؤكد التحقيقات التي أوردتها «رويتر» ووكالة الصحافة الفرنسية أن هم الجندي الإسرائيلي تأمين حياته وحسب. وتظهر التحقيقات أن تلك الوحدة الإسرائيلية مهددة وتتوقع تعرض الدولة للتقسيم. وتكشف أن حرب لبنان أطاحت بقسم من قيادة «الليكود» والانتخابات القادمة ستطيح بأرينز وليفي وشامير بعد شارون وبيغن وإيتان. والعملية الخاطفة ـ تؤكد

التحقيقات ـ تحولت إلى حرب طويلة قذفت جيش العدو إلى المستنقع الليطاني وكلفته ثمناً كبيراً بالأرواح وفاقمت الوضع الاقتصادي حيث لم يعد ممكناً تحمل النفقات، ورغم ذلك لم تتحقق سلامة الجليل. وتؤكد التحقيقات أن العدو ما زال يراهن على دور عملائه من زمر لحد وهذا الاخير تكهن بالامس ان مستقبله في خدمة العدو الإسرائيلي سيكون «مشرقاً» إذ سينجح بعد عامين في تأمين إرتفاع عدد مرتزقته من حوالى ١٥٠٠ الآن إلى ٦ آلاف.

من نهاريا كتب دانييل جربلر مراسل «رويتر» يقول تحت عنوان «الإسرائيليون يائسون من احتلال لبنان» «التفاؤل المندفع الذي شعر به الإسرائيليون في السادس من حزيران (يونيو) عام ١٩٨٢ تلاشى مع زوال الوهم بشأن أهداف غزو لبنان وحلول اليأس بسبب مقتل حوالى ٦٠٠ إسرائيلي.

ويصف أحد السكان رد الفعل المبدئي للعملية التي استهدفت الفدائيين الفلسطينيين الذين كانوا يمطرون المستوطنات الحدودية بنيران المدفعية قائلاً «كنا نقضي أياماً وليالي في الملاجيء لذا شعرنا أن الغزو كان مبرراً فعلاً» (...).

وحين بدأت العملية وجدت ترحيباً بها كعملية تطهير سريعة بأقل الخسائر. ولكنها تحولت إلى كابوس مع وقوع الضحايا كل يوم وعدم وجود نهاية تلوح في الأفق مما يقسم الدولة ويوقع الجيش الإسرائيلي في مصيدة الحرب ضد اللبنانيين.

ويقول الحاخام زيف هاراري «ان الوضع الحالي سيء وربما يكون جيداً بالنسبة لمن يعيشون قرب الحدود مثلي ولكنه سيء للغاية بالنسبة للدولة».

وفي الشهور الاولى من الحرب كان الآلاف من الجنود الاحتياطيين الإسرائيليين يحملون معهم إلى الوطن كثير مما يجدونه في الأسواق الحرة اللبنانية. ومن الاشياء المفضلة التي كانوا يهربونها من الشرطة العسكرية أجهزة الفيديو والعرق والسجائر الاميركية والكرز الطازج.

وتنبأ مسؤولون في خطوط السكك الحديدية الإسرائيلية ان الخط الساحلي لنهاريا ـ بيروت غير المستخدم يمكن استخدامه.

ونقل التلفزيون الجمال الطبيعي للمناطق الجبلية اللبنانية إلى الإسرائيليين المحتمل ان يقوموا بالسياحة هناك.

وكانت المزحة «التحق بالجيش وشاهد العالم مع رحلات الجيش» شائعة بالنسبة للبنان وأيضاً بالنسبة إلى احتمال ان يؤدي القتال مع السوريين إلى اتاحة الفرصة للاسرائيليين مشاهدة بلد آخر.

ولكن الوهم زال بعد أن أصبحت القوات الإسرائيلية هدفاً لهجمات شبه يومية يشنها الفدائيون الفلسطينيون واللبنانيون على حد سواء.

ويقول دان افرام وهو جندي احتياط قام بمهمتين في لبنان كسائق «ليس لدي رغبة في رؤية المزيد من لبنان إلا من هذا الجانب من الحدود. ولم تعد لدي الإرادة ان أواجه المخاطر هناك لسببين هما الخوف ومعارضة الاحتلال. ولا أدري أي السببين أقوى».

واحتلال لبنان هو أول عملية عسكرية يثور حولها التساؤل من جانب عدد كبير من الإسرائيليين. كما أن حوالى ١٣٠ إسرائيلياً فضلوا ان يسجنوا بدلاً من الخدمة العسكرية في لبنان وآلاف من الجنود الاحتياطيين يأملون وأحياناً يجدون وسائل لتجنب استدعائهم للخدمة هناك.

وقد أثر طول مدة الاحتلال على الجيش النظامي وطبقاً لما يقوله ايتان هابر المحلل العسكري لصحيفة يديعوت احرونوت ان الحافز الأول لنشاط الجيش في لبنان هو ببساطة الحرص على الحياة».

وحتى الآن، قتل ٢٠ إسرائيلياً منذ بداية العام في هجمات على القوات في جنوب وشرق لبنان.

ويذكر عدد القتلى باستمرار أن الهدوء في حدود إسرائيل الشمالية كان ثمنه فادحاً.

ويقول أحد مواطني مستعمرة بالقرب من نهاريا «ان هجمات منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان لم تكن أبداً لتؤدي إلى مقتل إسرائيليين بمثل عدد الذين قتلوا في هذه الحرب».

ولكن المعارضين لانسحاب فوري يقولون ان منتقدي الاحتلال لا يفهمون مدى معاناة المستوطنات الحدودية من هجمات الفدائيين.

ويقول أحد سكان مدينة شلومي الحدودية التي هاجم الفدائيون أحد سيارات تلاميذ المدارس الكبيرة فيها في السبعينات «هؤلاء المقيمين في وسط البلاد الذين يقولون اننا يجب أن ننسحب الآن لم يعانوا مثلنا».

وبالرغم من نجاح إسرائيل في تحطيم قاعدة منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان وتحقيق السلام على حدودها فإن هدفها الآخر في لبنان وهو علاقات سلمية يظل مراوغاً.

وقال منسق العلاقات الإسرائيلية في لبنان يوري لوبراني «لقد كان درساً قاسياً لنا جميعاً. فان لبنان لا يستجيب لحلول سريعة سهلة. اعتقدنا في وقت ما كان انه يمكن تحقيق ذلك».

وكتب جان فرانسوا لومونيه مراسل وكالة الصحافة الفرنسية من القدس تحت عنوان «من العملية الخاطفة إلى المستنقع اللبناني» الآتي:

اقتنع الإسرائيليون بعد عامين بالتمام من بدء حرب لبنان أن الانتخابات المبكرة التي ستجري في ٢٣ تموز القادم هي وحدها الكفيلة بوضع حد للوجود العسكري الإسرائيلي المستمر جنوبي لبنان.

ويتوقف مستقبل النزاع على حكم الناخبين. إذا فازت أغلبية «الليكود» الحاكمة بالانتخابات فإن الجيش الإسرائيلي سيستمر في احتلال جنوب لبنان لفترة غير محددة (...).

وفي المقابل وعدت المعارضة العمالية أنها إذا عادت إلى السلطة فانها ستقوم بسحب الجيش الإسرائيلي من جميع أرجاء لبنان خلال فترة ستة أشهر.

وقد بدأت «عملية السلام من أجل الجليل» التي اعتبرها وزير الدفاع في ذلك الحين الجنرال أرييل شارون بمثابة حرب خاطفة تستغرق ثمانية وأربعين ساعة ضد منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان في ٦ حزيران ١٩٨٢ في الساعة ١١ صباحاً. وبعد ٧٢١ يوماً من ذلك التاريخ فان هذه الحرب كلفت إسرائيل ٥٨٣ قتيلاً واكثر من ٣٤٠٠ جريحاً دون ان يجرؤ أي سياسي إسرائيلي أن يصفها بأنها نصر حتى ولو كان جميعهم يقرون بأنها وجهت ضربة لا يستهان بها إلى منظمة التحرير الفلسطينية.

وقد وصف العديد من المحللين والكثير من الكتب التي لاقت نجاحاً في إسرائيل بالتفصيل كيف «تحولت» عملية «اللكمة» كما كانت تأملها علناً حكومة بيغن إلى حرب واسعة النطاق عبأت الاغلبية العظمى من الاحتياطي الإسرائيلي.

ويعتقد جميع المعلقين ان اغتيال بشير الجميل «في ١٤ أيلول ١٩٨٢» الذي كان يعتمد عليه كل البناء الذي تصوره أرييل شارون «قد أفرغ حرب لبنان من أي مغزى لها بالنسبة لاسرائيل».

وقال لومونييه «ان الغاء اتفاق ١٧ ايار وخروج المتعددة الجنسية انهيار آخر امال تراود الإسرائيليين برؤية حكومة حليفة لاسرائيل تساعد جيش الدفاع بالخروج من المستنقع اللبناني.

وتابع: وتستمر إسرائيل من جانبها في دفع الثمن غالياً لتدخلها في لبنان ففضلاً عما تكلفته من أرواح تعد الحرب كمسؤولة عن الوضع المفجع للاقتصاد ووفقاً لما ذكره البنك المركزي الإسرائيلي فان البلاد لا تستطيع أن تتحمل دفع هذا الثمن طويلاً.

وقد حطمت الحرب أيضاً «الاتفاق الوطني الإسرائيلي الشهير» وأثارت الخلافات السياسية. وقد تعين على أرييل شارون ورافائيل ايتان رئيس أركان الجيش الإسرائيلي ومناحيم بيغن المسؤولين عن الحرب أن يتركوا ادارة الشؤون العامة. واوضحت استطلاعات للرأي ان خلفاءهم موشي أرينز وموشي

ليفي واسحاق شامير سيحذون حذوهم بعد الانتخابات.

وتشعر الحكومة الحالية انه لم يتبق أمامها الا بضعة اشهر في الحكم ولذلك تنغمس بسرعة في مشروع تعزيز للوضع في جنوب لبنان بانشاء «قوة لبنانية» متحالفة قادرة على ان تكفل أمن الحدود الشمالية.

ووصف لومونييه قوة لحد بأنها «ضعيفة الأثر».

العدوان الإسرائيلي سيستمر

وقد اعترف من ناحية أخرى الجنرال باراك رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية يوم الاحد ان إسرائيل أياً كانت حكومتها المقبلة عليها ان تتوقع تصاعداً للهجمات الموجهة ضد إسرائيل في جنوب لبنان وبخاصة المزيد من الهجمات داخل أراضيها في حالة انسحابها من لبنان.

وبالتالي فان المراقبين يرون انه ليس من المنتظر ان ينتهي التدخل الإسرائيلي في جنوب لبنان حتى لو تحقق الفوز لحزب العمل.

ويواجه هذا الاحتلال الدائم والمتراخي نسبياً والذي يتم بتأييد كتلة ليكود حيث خصص أقل من ١٥٠٠٠ جندي لمساحة ثلث لبنان، خطة أخرى تحظى بتأييد حزب العمل وتقضي بالرد الفوري ضربة بضربة للقضاء على أية محاولة يائسة لبناء قواعد ارهابية في مهدها.

ورغم اختلاف هاتين السياستين في الاسلوب الا انهما تتفقان في الفرص وهو توفير «أمن الجليل» ذلك الأمن الذي لم يتوفر حتى الآن رغم مرور عامين من الاحتلال والحرب.

لحد يتحدث عن مستقبله بالعمالة

انطوان لحد قائد ما يسمى بـ«جيش لبنان الجنوبي» قال ان قواته تستطيع ان تحل محل القوات الإسرائيلية في جنوب لبنان في مدة تتراوح بين سنة ونصف وسنتين. وأضاف أنه من أجل الضلوع بكافة المهام اللازمة يجب رفع عدد جنود جيش جنوب لبنان من ألفي جندي كما هو الحال اليوم إلى ٦ آلاف جندي.

وأضاف أنه يريد تحويل جيشه إلى جيش «مستقل» لا يحتاج إلى مساعدة الجيش الإسرائيلي الا في حالة تعرضه لهجوم من خارج لبنان.

«النداء» ١٩٨٤/٦/٦

حرب الظلام والعمليات القذرة للمخابرات الاسرائيلية

التايمز: «جنود الاحتلال الاسرائيلي يحلمون بـ«نهاية الكابوس والرحيل عن الجنوب»

نشرت مجلة «التايمز» البريطانية في عددها الاخير تحقيقاً عن تصاعد المقاومة الوطنية اللبنانية ضد قوات الاحتلال الاسرائيلي مما جعل جنود الاحتلال «يحلمون بنهاية الكابوس والرحيل عن الجنوب».

وتكشف «التايمز» جانباً خطيراً من الارهاب الصهيوني ضد الجنوب. والمقصود استخدام عناصر «الشين بت» (المخابرات الاسرائيلية) في عمليات التخريب والاغتيالات على نطاق واسع وتورد اسماء عدد من عملاء الجهاز المذكور الذين ينشطون في الجنوب، والذين تنفي اسرائيل وجودهم...

وتقول المجلة:

تتدلى يافطة خضراء عبر الشارع الرئيسي المحفور لقرية «معركة» وهي قرية منهكة في شمال شرق مدينة صور اللبنانية، حيث اعتقل الجيش الاسرائيلي ما يزيد عن المائة رجل من أفرادها الشهر الماضي.

تقول اليافطة : « القمع يقوينا » و « كل ما يستطيع ان يفعله فينا الاعتقال والتعذيب هو انهما يجعلاننا أكثر اصراراً على المقاومة ». وأفراد هذه القرية يطلبون من الزوار ابراز بطاقاتهم الشخصية للاشتباه بهم من ان يكونوا رجال استخبارات اسرائيلية . فهم يتحدثون عن السيارتين اللتين استعملتا من قبل عملاء « شين بت » لمراقبة القرية .وهاتان السيارتان هما مرسيدس بنية وفولفو بيضاء ووصف هؤلاء الذين بداخلها وهم يرتدون قمصاناً ذات نصف كم ونظارات شمسية ويحملون بنادق من طراز ام-١٦ . هذا المنظر ارعب هؤلاء القرويين .

أما ان هؤلاء القرويين ابرياء ، فهذا موضوع آخر . فكلمة « اصرار » المذكورة في الانذار الذي يرفرف فوق خط الجبهة الجديدة لقرية معركة ، بدأت في تحويل حياة الجيش الاسرائيلي في جنوب لبنان إلى كابوس بلا نهاية . والاحصاءات التي بحوزة القوة التابعة للأمم المتحدة تشير إلى أنه في منطقة عملياتها لوحدها كان هنالك عشرون هجوماً على جنود القوات الاسرائيلية في شهر نيسان من هذا العام وستون هجوماً آخر في شهر ايار من هذا العام أيضاً . وفي الشهر الماضي ارتفع رقم الهجمات ليصل إلى ١٨٦ هجوماً وهو مؤشر مدهش على المقاومة ضد استمرار الاحتلال الاسرائيلي لجنوب لبنان .

ويقوم الجيش الاسرائيلي الآن بارسال فرقة مظليي « ناهال » إلى القواعد العسكرية شرق مدينة صور في محاولة منه لسحق الفدائيين هناك . وعلى مدى عدة ايام مؤخراً كانت المدرعات والآليات الثقيلة التابعة لفرقة « ناهال » تنقل شمالاً عبر الحدود الاسرائيلية . وكان العديد من ناقلات الجنود مزوداً بقضبان حديد على شكل شبكة واقية على طول جوانب ناقلة الجنود لحمايتها من القذائف الصاروخية . وبالكاد كانت القوة الأولى من فرقة ناهال تصل إلى مقصدها حتى قتل ملازم أول منها بواسطة قذيفة مضادة للدبابات في كمين للمقاومة الوطنية اللبنانية .

« حرب الظلام »

والاسرائيليون متورطون كذلك في حرب أظلم وأكثر سرية باستعمالهم لعشرات العملاء في الملابس المدنية باسم « شين بت » في جنوب لبنان . على الصعيد الإسمي ، فان الاسرائيليون ينكرون وجود مثل هذه العمليات ، ولكنهم في الواقع أقاموا شبكة استخبارات جديدة بالكامل من رجال « شين بت » الاسرائيليين ، تعمل بامرة ضباط يستخدمون اسماء عربية مستعارة ويجتمعون بزعماء القرى اللبنانية ممن يعتقدون انهم يسيطرون على هؤلاء الفدائيين .

فقي النبطية على سبيل المتال ، يدعو رجل المخابرات المكلف من « سين بت » نفسه بـ « أبو يوسف » ، ونائبه « أبو جورج » . وفي كفرفالوس خارج مدينة صيدا ، يعرف كبير ضباط الاستخبارات الاسرائيلية بالرائد « سامي » . وزعيم إحدى وحدات « شين بت » ذو اللباس المدني ، وهو زعيم نفس الوحدة التي اطلقت النار وقتلت مواطناً في قرية بدياس (قضاء صور) الشهر الماضي ، هذا الزعيم يستعمل اسم « أبو عزرة » .

ويقول الاسرائيليون رسمياً بأنهم لم يكونوا مسؤولين عن عملية اطلاق النار في بدياس ، ولكن ادعاءهم هذا ليس له اساس من الصحة . فقد نوقش تورط اسرائيل في عملية القتل هذه في اجتماع سري بين العقيد « اليكس شنايدر » الضابط الاسرائيلي المرتبط مع قوات الأمم المتحدة وبين ضباط الأمم المتحدة عقب عملية اطلاق النار ، وكانت وكالة الاستخبارات « شين بت » متورطة في عملية قتل أخرى بالقرب من قرية معركة .

والوحدة المسؤولة عن عمليتي القتل كلتاهما كانت تطوف في أربع سيارات هي : مرسيدس بنية ، ومرسيدس بيضاء ، وسيارة « ب م ف » ، وسيارة فولفو . وهذه السيارات الأربع باتت معروفة تمام المعرفة من قبل القرويين في هذه المنطقة .

وكان جنود الأمم المتحدة قد شاهدوا بام أعينهم رجال الاستخبارات من شين بت وهم يبدلون

لوحات التسجيل المزورة لاحدى سيارتي المرسيدس من لوحات لبنانية إلى لوحات المانية برقم مرخص من على بعد اقل من عشرين متراً عن نقطة التفتيش شرق مدينة صور . ومن المعروف ان العديد من السيارات في لبنان تستعمل لوحات ألمانية .

وقد وضع الفدائيون من أعضاء جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية « أبو يوسف » على قائمة الاعدام لانهم يعتقدون انه دفع مبلغ عشرة آلاف ليرة لبنانية لقتل الشيخ « راغب حرب » وهو امام جبشيت المعارض للاحتلال الاسرائيلي ، لقتله من قبل مرتزقة لبنانيين .

وعلى أية حال ، فقد حاول الفدائيون قتل « أبو يوسف » الشهر الماضي عندما هاجموا سيارته بالقنابل اليدوية لدى مغادرتها المعسكر الاسرائيلي خارج بلدة النبطية . ولكن كان بداخلها فقط « أبو جورج » وقد نجا من القتل .

كل هذا يعني ان حرب اسرائيل في جنوب لبنان تزداد بشاعة . وحتى ان ميليشيا « جيش جنوب لبنان » وهي القوة البديلة للجيش الاسرائيلي في الجنوب اللبناني وهي قوة غير منتظمة والتي حلم بها الاسرائيليون في وقت من الأوقات بان تستطيع السيطرة على الجنوب في حال فكروا بالانسحاب منه ، هذه الميليشيا تتحول الآن إلى كارثة . فجيش جنوب لبنان المجهز بعربات مدرعة اسرائيلية واسلحة وازياء عسكرية يبتز آلاف الدولارات من سائقي شاحنات المواد البترولية والحلويات والخضار ممن يعبرون نقاط تفتيشهم .

ولكن هذه المليشيا نفسها باتت عرضة للهجوم عليها . كذلك يتم تنفيذ الاعدام بالعملاء الفلسطينيين المتعاملين مع اسرائيل في صيدا .

وكل مناطق الجنوب الآن تتساقط من السيطرة الاسرائيلية . وهذا من سخرية الاقدار حيث ان خط الجبهة الاسرائيلية قد فصل فعلياً جنوب لبنان عن بقية الجسد اللبناني . ولمجرد زيارة الجنوب أو بيروت ان كنت تعيش في صور ، فانه يطلب منك الدخول في نظام معقد من التفتيشات ، وحتى ان سيطرة الجيش الاسرائيلي على الطرقات الرئيسية في الجنوب أصبحت ضعيفة الآن . ففي صيدا منذ عشرة أيام « انسحبت ملالة جيب وهي ناقلة جنود وشاحنة مدرعة ، انسحبت من ضاحية « عبرا » بعد اطلاق طلقتين عليها فقط .

والجنود الاسرائيليون الصغار في السن عند نقاط التفتيش يتحدثون عن الرحيل عن لبنان . وكانت نسبة الجنود المعسكرين عند متاريس الطرقات بمعدل اثنين إلى واحد لصالح فوز حزب العمل المعارض في الانتخابات الاسرائيلية وشيكة الحدوث .

وصرح ضابط صغير متواجد بالقرب من جسر نهر الليطاني ملخصاً من خلال تصريحه الشعور العام السائد لدى جميع الجنود الاسرائيليين بقوله : « سوف أصوت للحزب الذي سيخرجنا من هنا » .

ان ظلال الكابوس الرهيب تزداد بلورة . وشاء الجيش الاسرائيلي أم أبى ، استاء أم حقد ، وان قام بالهجوم على المواطنين اللبنانيين يومياً ، فانه لن يحصد فائدة ترتجى ، بل سيخسر كل شيء في الجنوب اللبناني .

لقد خسرت اسرائيل « اصدقاءها » وخلقت اعداء جدداً لها . لقد خسرت الحرب .

« النداء » ١٩٨٤/٧/١٩

تل أبيب ، بدأت أسرة جندي إسرائيلي يدعى تسفيكا ميلامان ، فقد في الأيام الأولى لحرب لبنان بالاضراب عن الطعام اعتباراً من يوم أمس الأول أمام وزارة الدفاع الإسرائيلية احتجاجاً على « عدم تحرك السلطات » .

« السفير » ١٩٨٤/٧/١٩

تل أبيب ـ أعلنت مصادر عسكرية ان محكمة عسكرية اسرائيلية أدانت أمس الخميس جندياً اسرائيلياً هو الرقيب جيدعون مراز، وأصدرت ضده حكماً بالسجن لمدة ٢١ يوماً لرفضه الخدمة في لبنان، ويعتبر الشخص رقم ١٢١ الذي يحكم عليه بالسجن لهذا السبب منذ غزو لبنان في حزيران ١٩٨٢.

«السفير» ٣/٨/١٩٨٤

القدس المحتلة ـ علم من مصادر عسكرية اسرائيلية ان ضابطاً برتبة عقيد في احتياطي الجيش الاسرائيلي اسمه موشي شاكيدي، اعتقل يوم الجمعة للاشتباه من انه تقاضى رشوة مقابل نقل عسكريين اسرائيليين يعملون في جنوب لبنان إلى وحدات تعمل في الخطوط الخلفية داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة.

«السفير» ١٩٨٤/٨/٢٠

اسرائيليون متذمرون في الجنوب

عندما يتذمر الجنود الاسرائيليون من وجودهم في الجنوب يعني أنهم يريدون الخروج منه فعلاً ؟... يدرك الجنود الاسرائيليون خطورة مهمتهم في الجنوب والخسائر التي يتكبدونها نتيجة مضايقاتهم المستمرة للمواطنين...

وكالة «اسوشيتد برس» أجرت أمس تحقيقاً في صور مع بعض الجنود الاسرائيليين.

ـ «أحد الجنود الاسرائيليين، ويدعى داني (١٨ عاماً ولد في الولايات المتحدة) موقعه حاجز الليطاني، لا يريد البقاء في الجنوب، وقال انه لا يجب تفتيش سيارات اللبنانيين، وجعلهم ينتظرون طويلاً في الشمس: «كنت اتمنى لو أعرف كيف يقولون «اعتذر» أو اذا «سمحت».

ـ تامير (١٩ عاماً) زميل لداني مكثنا طويلاً هنا. كان يجب أن نغادر منذ وقت طويل. لا أحد يريدنا. لو سألت كل جندي اسرائيلي (إذا كان يريد البقاء) فلن يجيب أحد انه يريد أن يبقى هنا».

ـ أحد الجنود يدعى روني قال: «كنت اعتقد انهم سيخرجوننا من هنا قبل الآن...

عندما سئل تامير الذي يعيش في مزرعة ايلون شمال الجليل اذا كان احتلال الجنوب يستحق كل هذه الخسائر أجاب: «لا، لا يستحق كل هذا، لقد ذهب الاحتلال أشواطاً بعيدة».

«النهار» ١٩٨٤/٨/٢٠

القدس المحتلة ـ اشترك مئات الأشخاص أمس الأول في مقابر كيبوتز شامير عند سفح هضبة الجولان في جنازة ألون تزور (٣٠ سنة) الجندي الاحتياطي والقتيل الاسرائيلي رقم ٦٠٠ في حرب لبنان. وحرص سكرتير كيبوتز شامير وهو ينعي زميله على القول نأمل ان يقوم شمعون بيريز رئيس الوزراء واسحق شامير وزير الخارجية بتنفيذ انسحاب قواتنا من لبنان كما وعدا بذلك.

«السفير» ١٩٨٤/١٠/٢٣

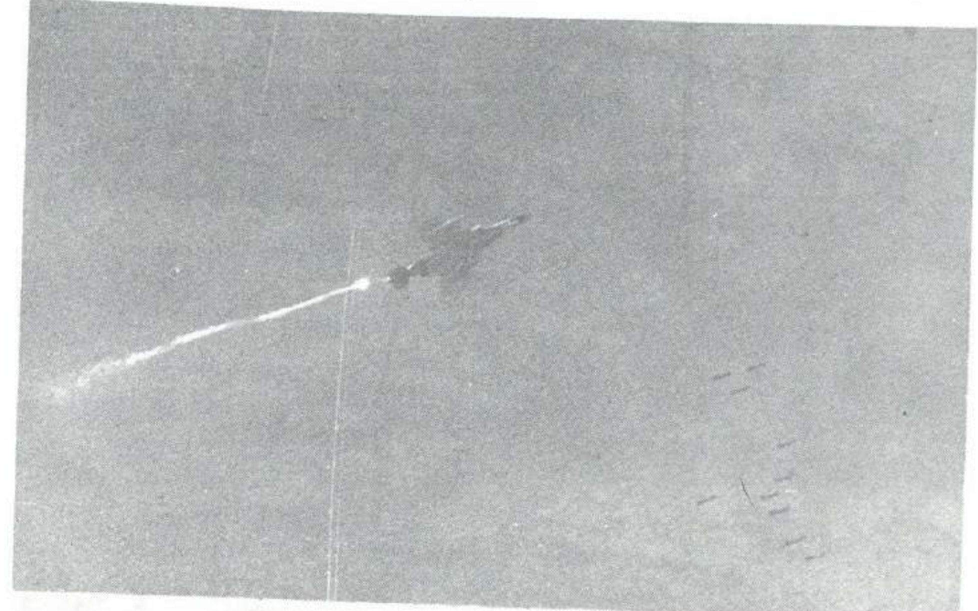
مشاهد مصورة عن الحرب



القصف الإسرائيلي على مراكز منظمة التحرير ـ الجامعة العربية. ١٩٨٢.



آثار الغارات الإسرائيلية على منطقة البسطة ـ النويري. بيروت الغربية. آب ١٩٨٢.

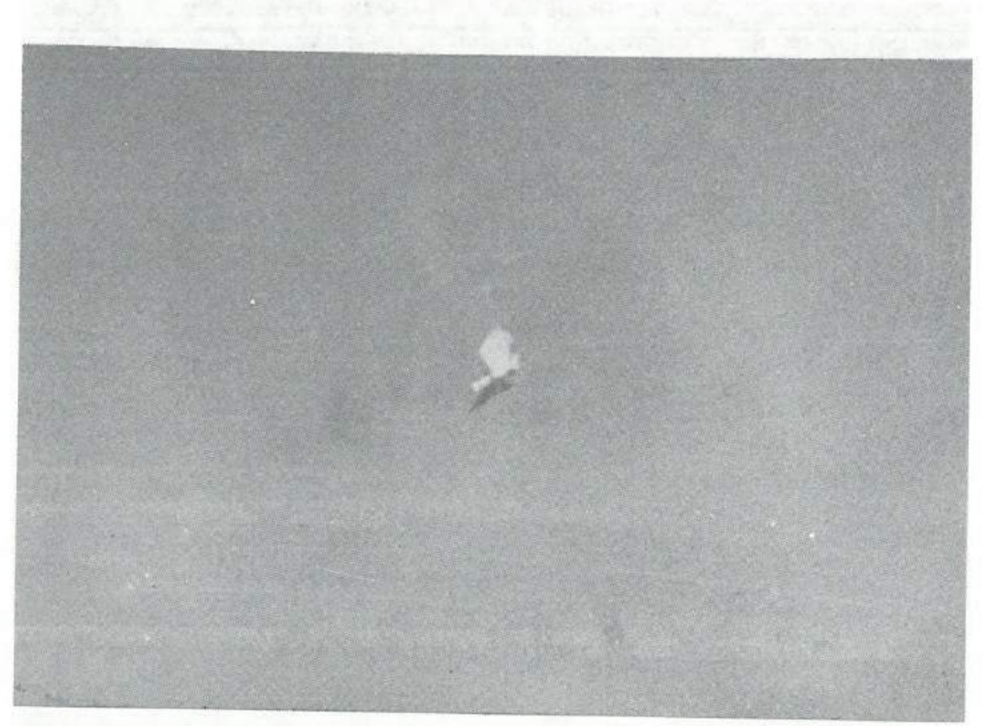


الطائرات الإسرائيلية المغيرة على بيروت. ١٩٨٢/٦/٥.

V-6)SOUTH LEBANON,JUNE 7(AP)-PEACE IN GALILEE-Israeli soldiers man an armored
rrier pushing past a Lebanese outpost as operation "Peace in Galilee" enters se
y Monday.(APWIREPHOTO.rc.stf.Nash)344



قوات الغزو قرب مزرعة البياضة في الجنوب. ١٩٨٢/٦/٩.



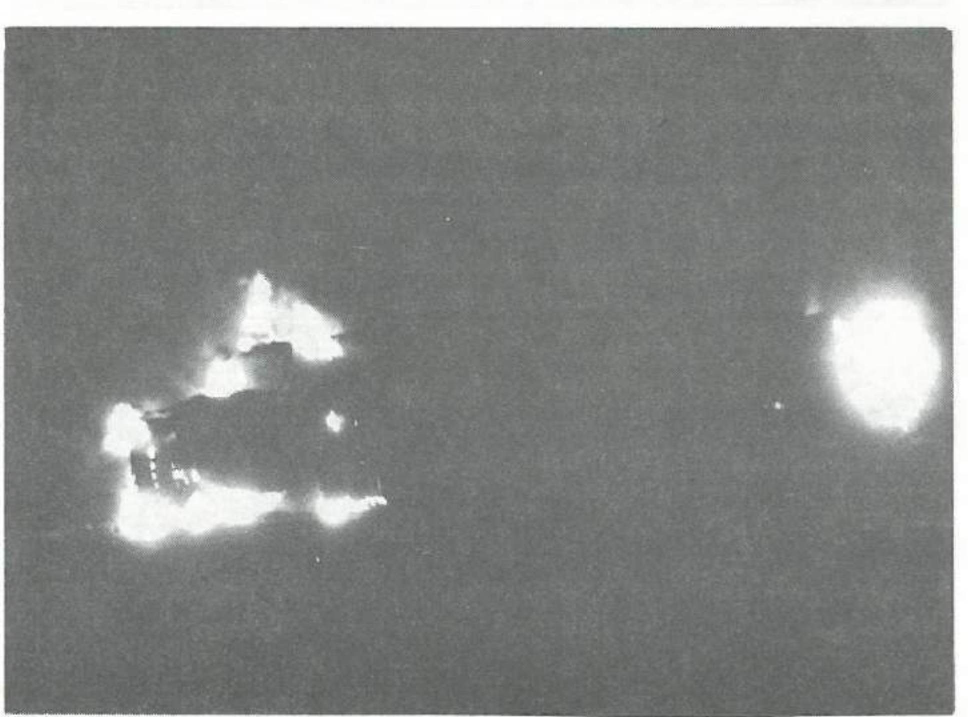
طائرة ف ـ ٦ يصيبها صاروخ سام ٨ (١٩٨٢/٧/١٦).



ناقلة جند إسرائيلية محترقة في حي اللجا.



الدبابة الصهيونية التي اغتنمتها القوات المشتركة في خلدة. ١٩٨٢/٦/١٠.



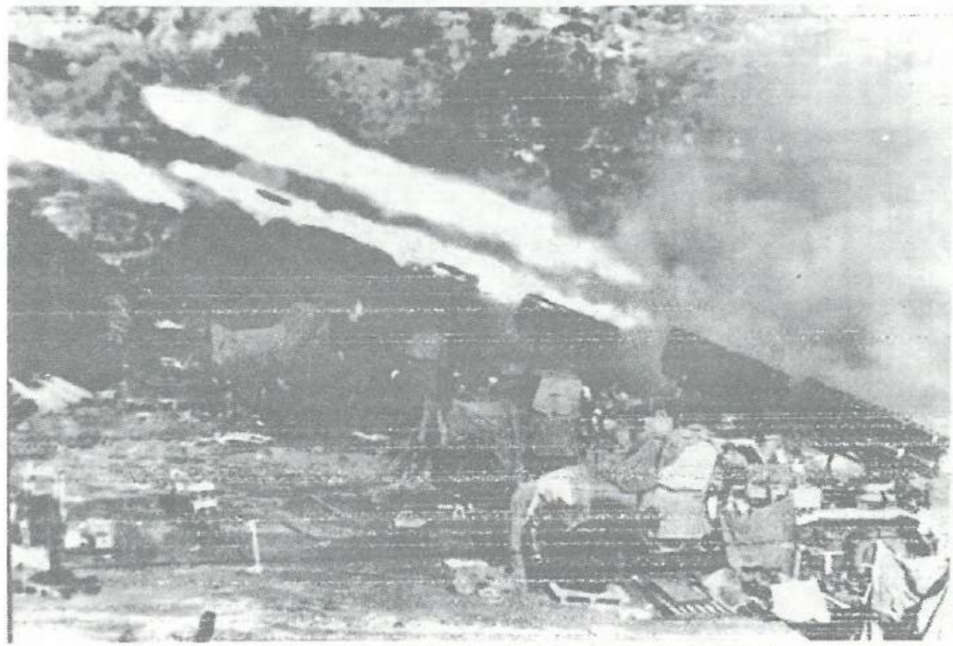
دبابتان إسرائيليتان تشتعلان في خلدة (١٩٨٢/٦/١٠).



قوة إسرائيلية في صيدا ١٩٨٤/٢/١٦.



راجمات صواريخ العدو تقصف بيروت الغربية آب ١٩٨٢.



راجمات صواريخ إسرائيلية تقصف المنطقة الغربية في بيروت ١٩٨٢/٨/٣٠ .



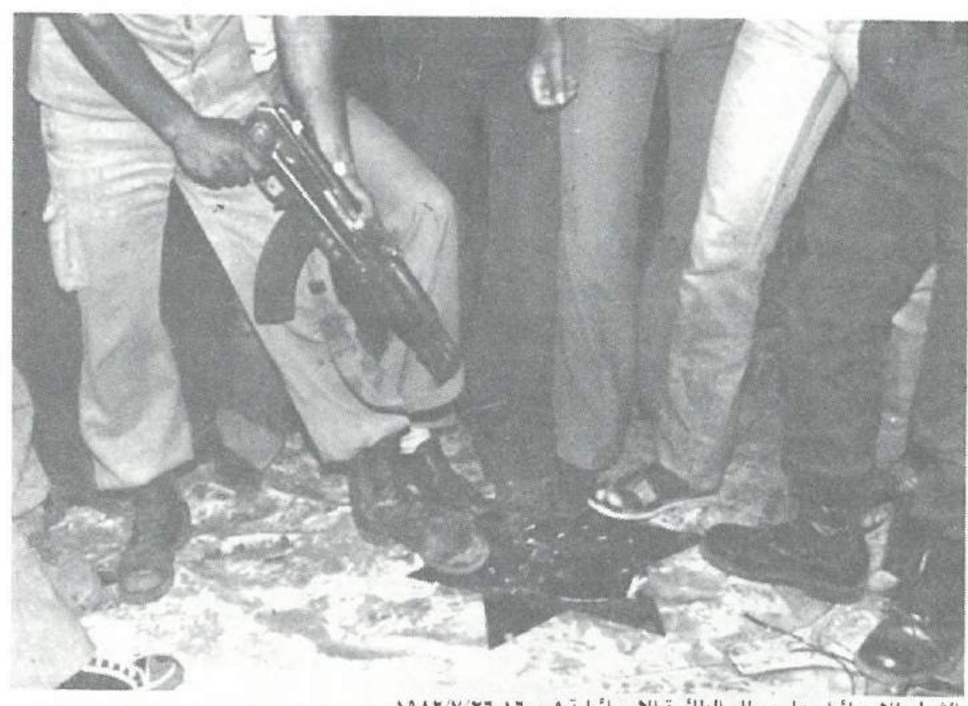
القصف الإسرائيلي على المدينة الرياضية. ١٩٨٢/٧/٢٩ .



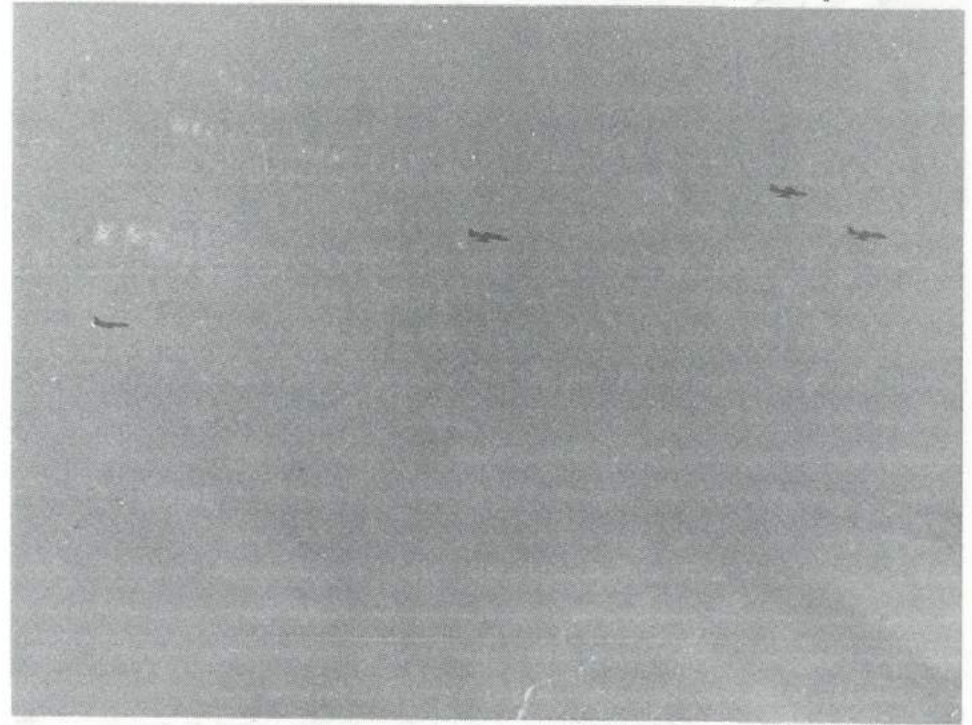
تجربة الاسلحة الانشطارية في حرب ١٩٨٢ .



القصف على المدينة الرياضية ببيروت الغربية. ١٩٨٢/٧/١٢ .



الشعار الاسرائيلي على حطام الطائرة الإسرائيلية ف-١٦ ١٩٨٢/٧/٢٦.



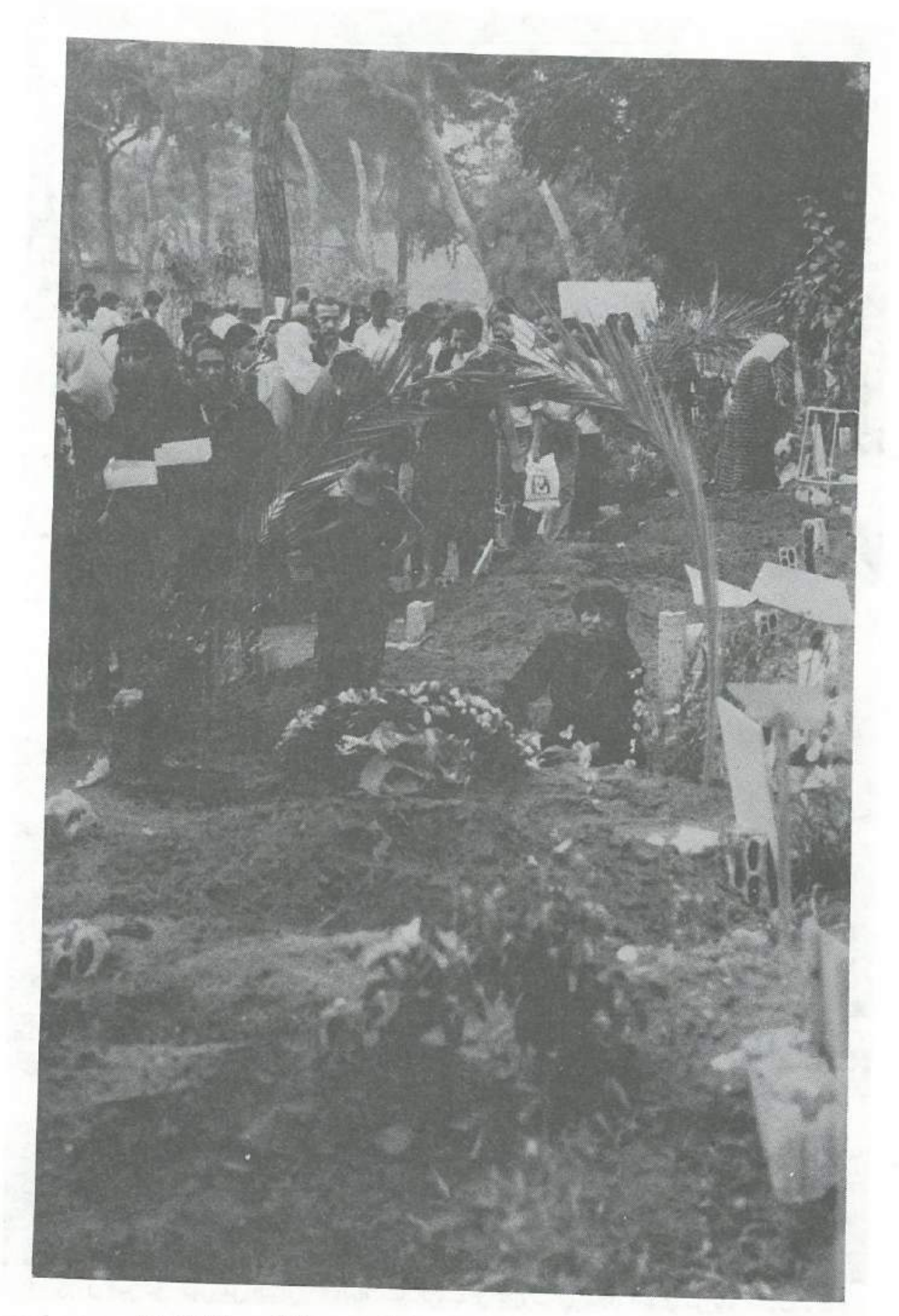
الطيران الإسرائيلي يحلق في سماء بيروت. ١٩٨٣/٥/١١.



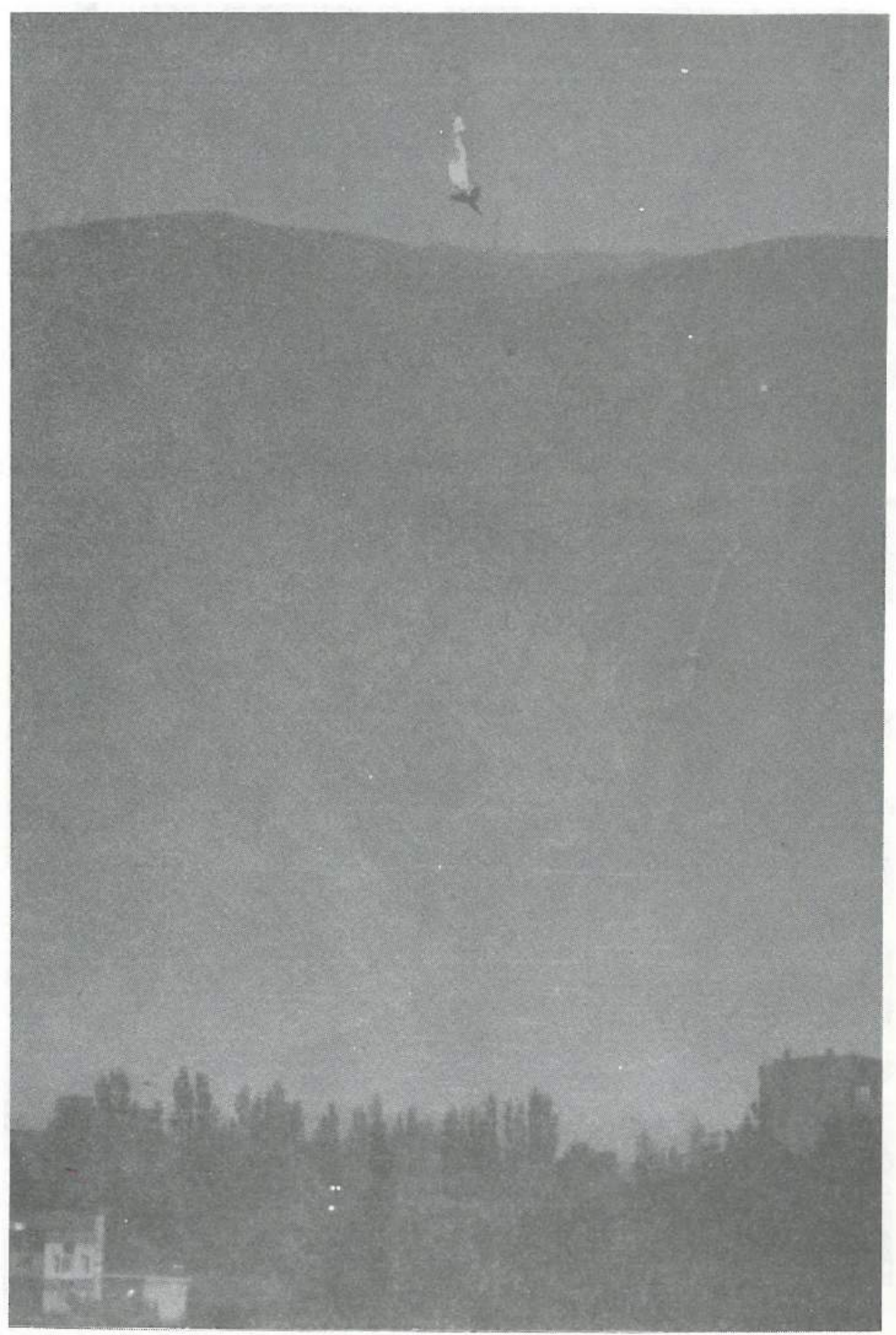
مدخل مخيم صبرا بعد المجزرة. أيلول ١٩٨٢.



زورق إسرائيلي ظهر على الشاطىء قبالة منطقة الروشة في بيروت في خلال إحدى دورياته. حيث ذكر التلفزيون الإسرائيلي ان سلاح البحرية قرر تكثيف دورياته في عمليات ضد الفلسطينيين الذين عادوا إلى بيروت ٢٨ ١٠ ١٩٨٤.



في مقبرة الشهداء : أمام المقبرة الجماعية لضحايا مجزرة صبرا وشاتيلا يوم عيد الأضحى. ١٩٨٢/٩/٢٧ .



طائرة فانتوم-١٦ تهوي في سهل البقاع بعد إصابتها بصاروخ سام-٨ ١٩٨٢/٧/٣١ .



الجانب الآخر من الكورنيش تحت الاحتلال: حي عائشة بكار. أيلول ١٩٨٢.



في اليوم ١٠٨ للحرب: كاسحة ألغام إسرائيلية تتقدم الرتل الإسرائيلي خلال إنسحابه.



مشهد من مجزرة صبرا وشاتيلا. أيلول ١٩٨٢.



تجمع لآليات العدو الإسرائيلي في منطقة الرملة البيضاء (جادة الحريري اليوم). ١٩٨٢/٩/٢٥.



جنود العدو في مقهى الويمبي شارع الحمراء. أيلول ١٩٨٢



الإسرائيليون أثناء إنزال العلم في مطار بيروت تمهيداً لإنسحابهم (أيلول ١٩٨٢).



جندي إسرائيلي يحمل حقيبته ويرحل... وفي الشاحنة مسروقات.



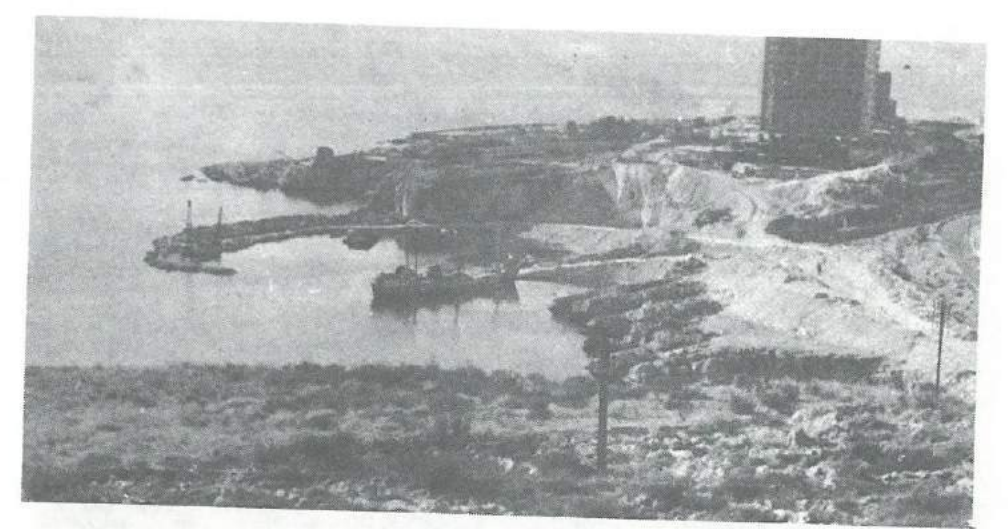
مشهد من مجزرة صبرا وشاتيلا. ١٨/أيلو/١٩٨٢.



١ ـ السلف والسلف... تغيرت الأسماء والوجوه لكن التعاون ما زال مستمراً



٢ ـ الجحافل القادمة انهم الإحتلال بكل بشاعته.



مرفأ جونيه (الأكوامارينا).



الرئيس الاسبق كميل شمعون.

الرئيس الراحل بشير الجميل.



الرئيس أمين الجميل.



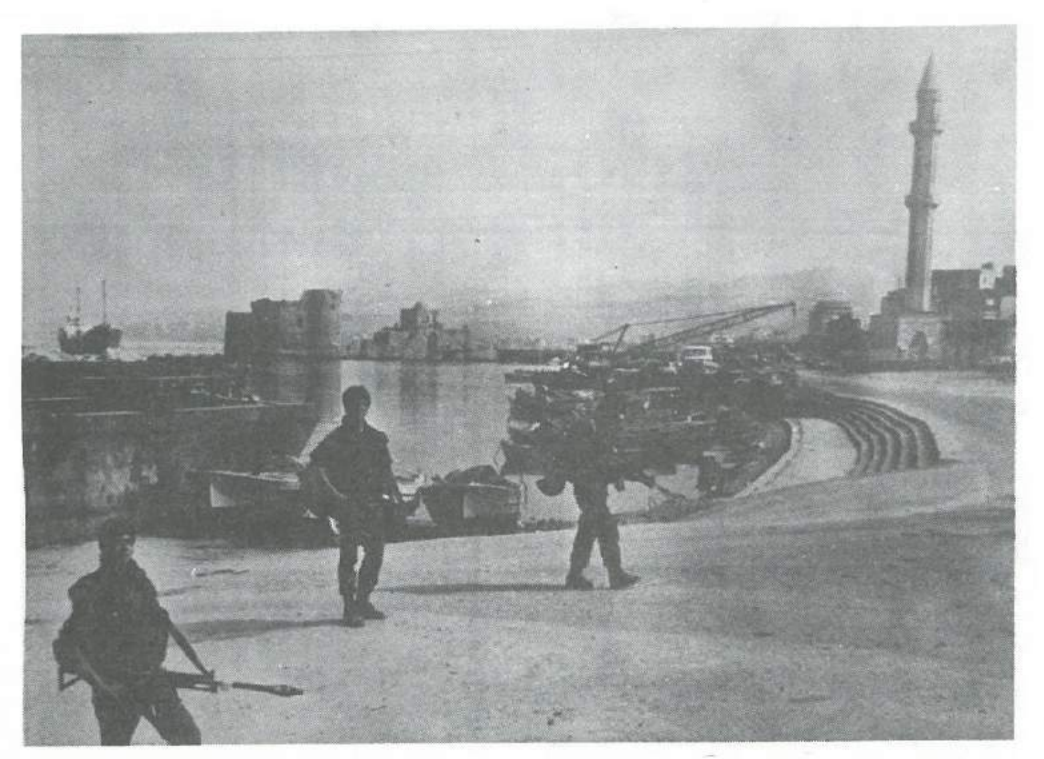
اجتماع للجبهة اللبنانية ١٩٨٢/٥/١٣.



٣ - ومرة أخرى ستنهض القضية من الرماد وسيتحرر الوطن.



٥ - القلعة الصامدة أبداً ففيها سطرت أروع الملاحم.



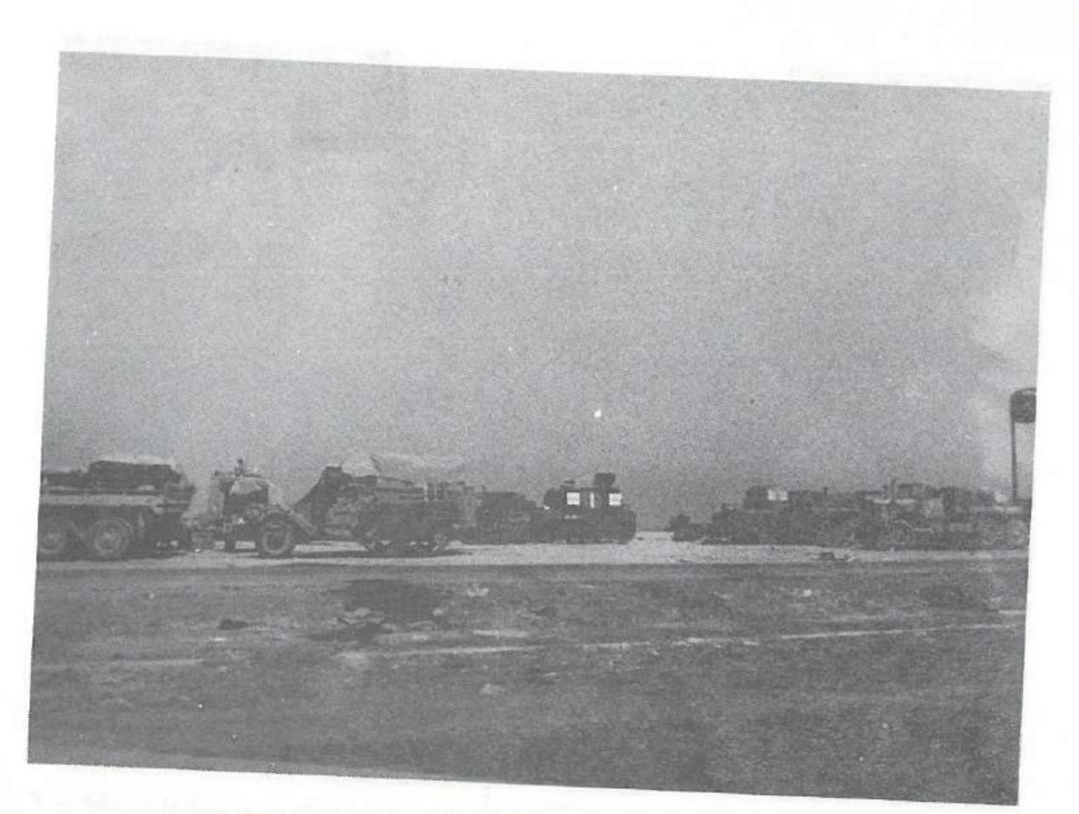
٦ - بحر صيدا وجنود الإحتلال فمتى سيلفظهم البحر.



٧ - هكذا إلتزام السيد حبيب والولايات المتحدة الأميركية.



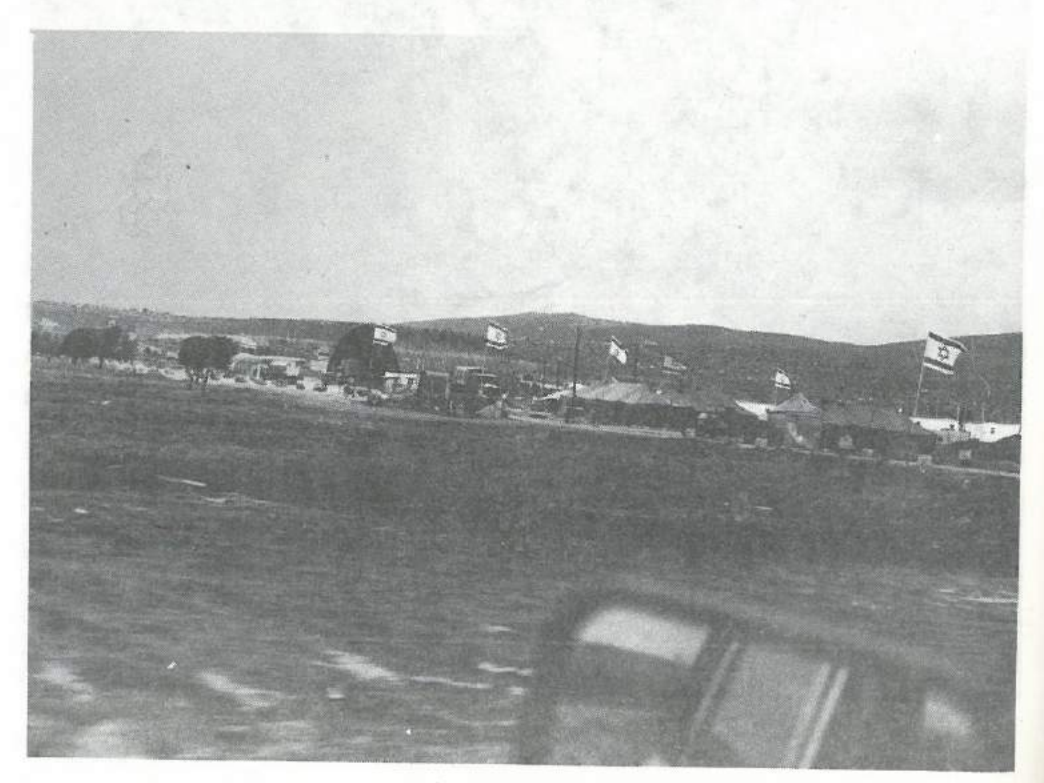
٨ ـ هنا أيضاً شهادة عن الحضارة الإسرائيلية والكتائبي.



٩ ـ لمن كل هذا الحديد.



١٠ ـ ساحة صيدا التي صار المرور فيها ممنوع على الإسرائيليين.

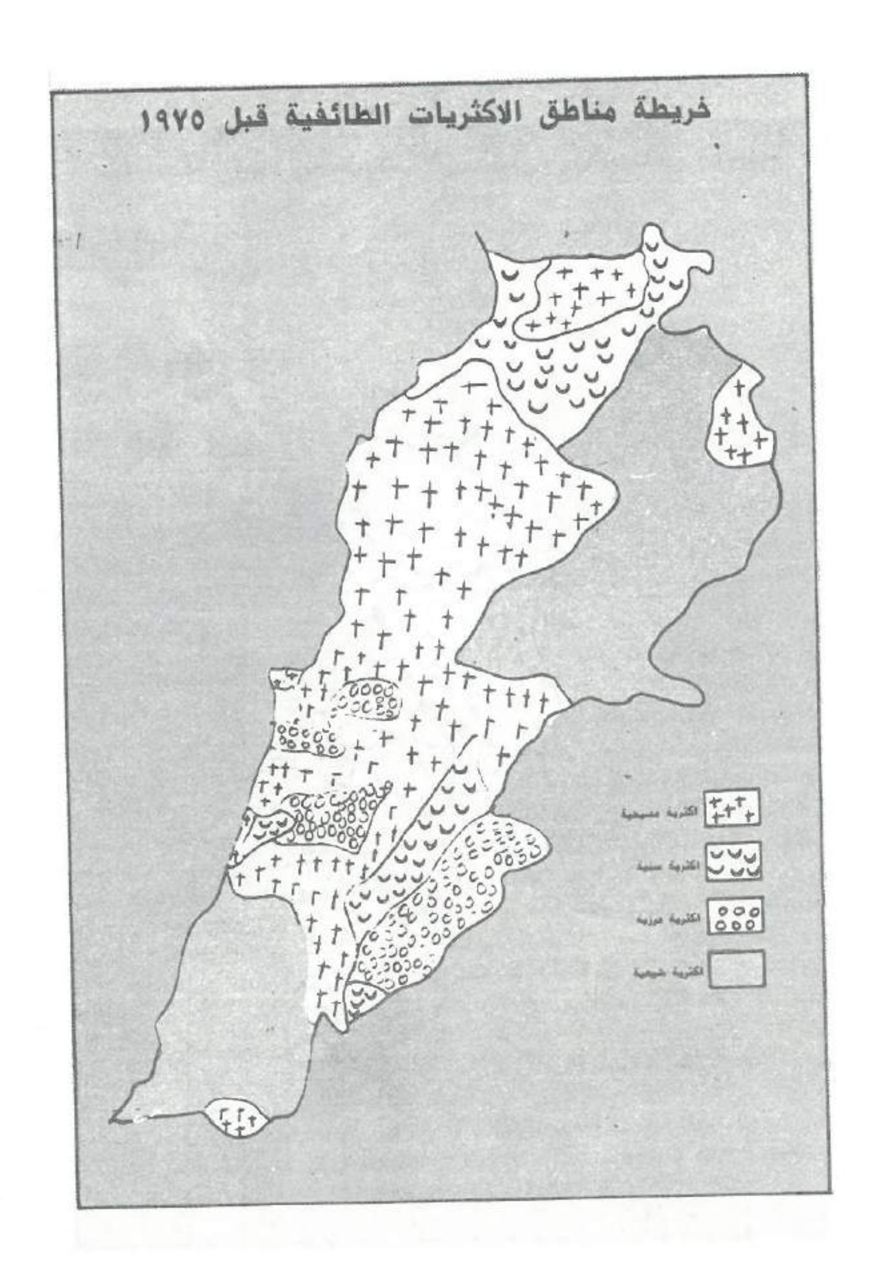


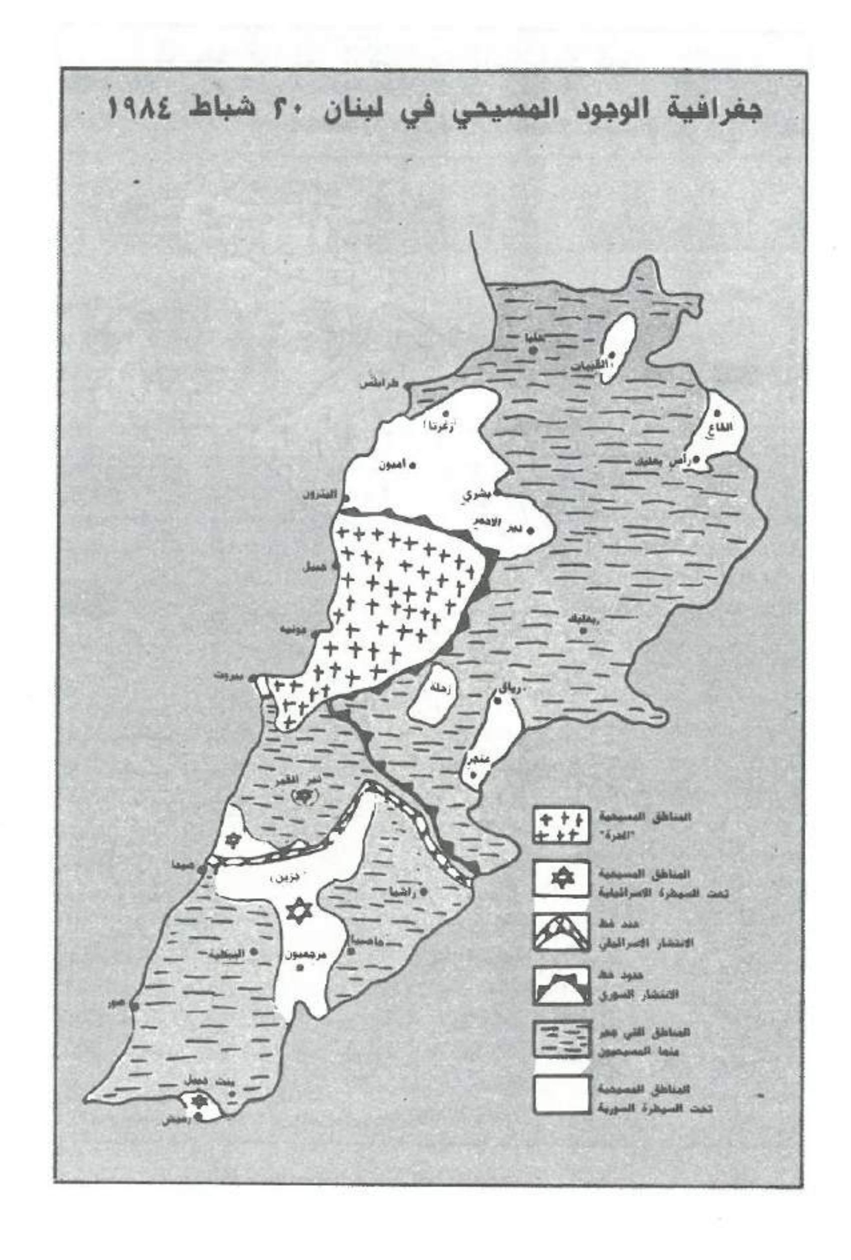
١١ ـ إلى متى؟

ونفذ شارون تهديده ..

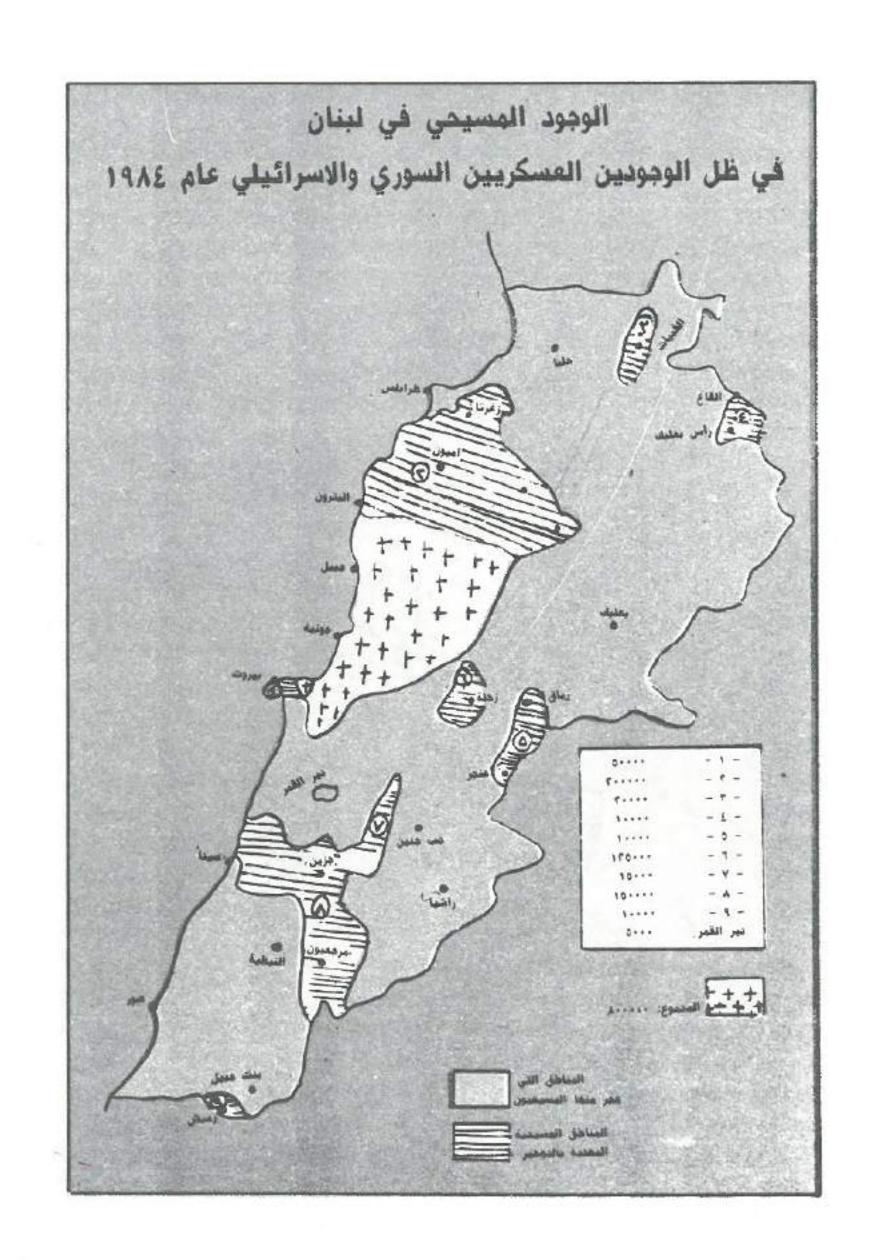


٤ - مخيم عين الحلوة الذي قاتل حتى الشهادة.

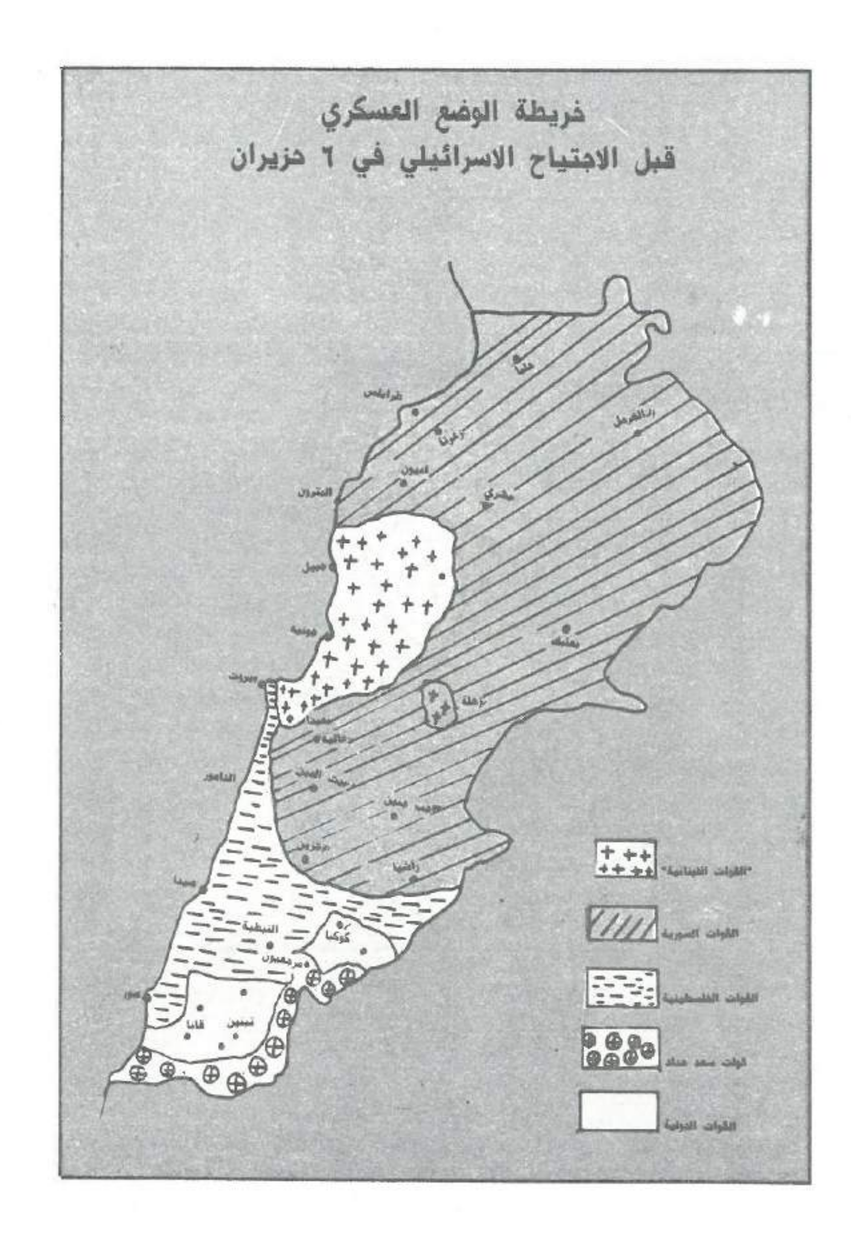

خريطة مناطق الاكثريات الطائفية قبل ١٩٧٥
اكثرية مسيحية
اكثرية سنية
اكثرية درزية
اكثرية شيعية

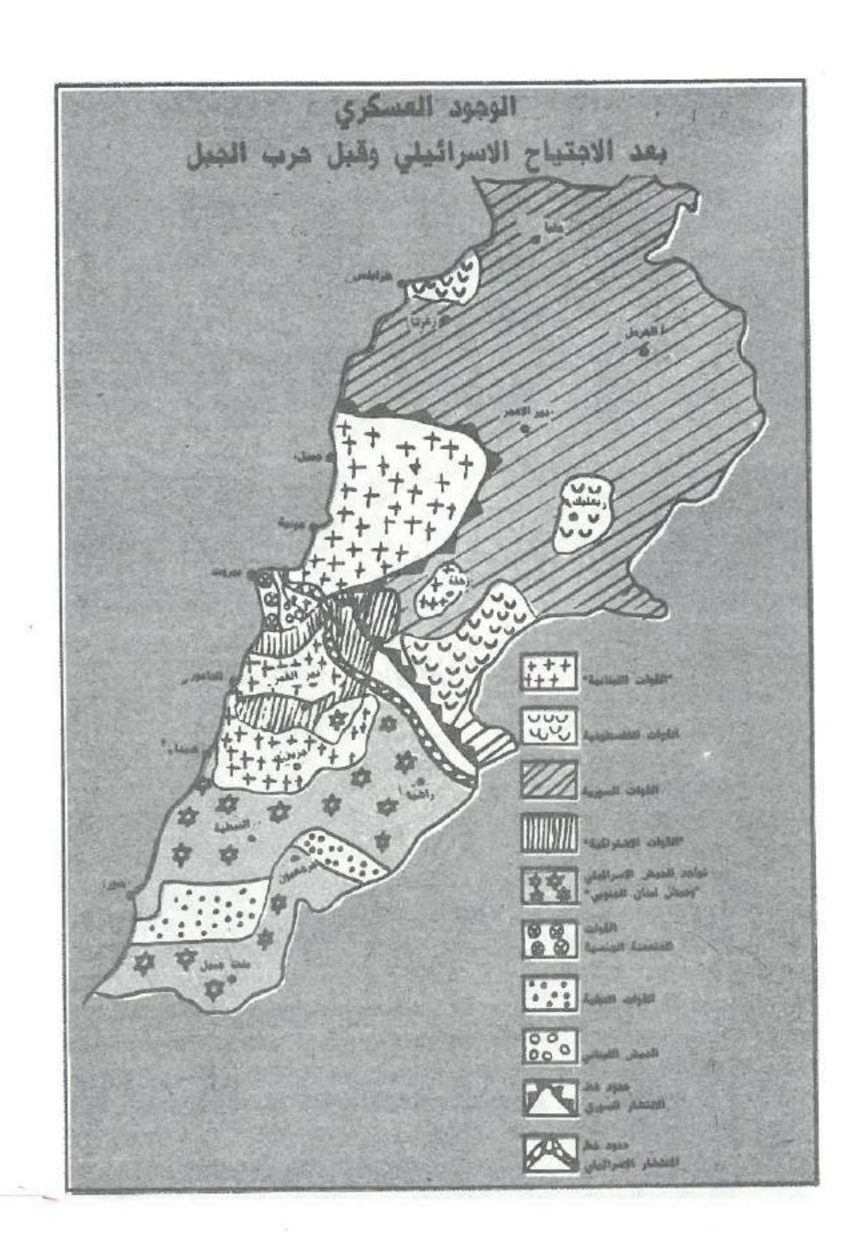


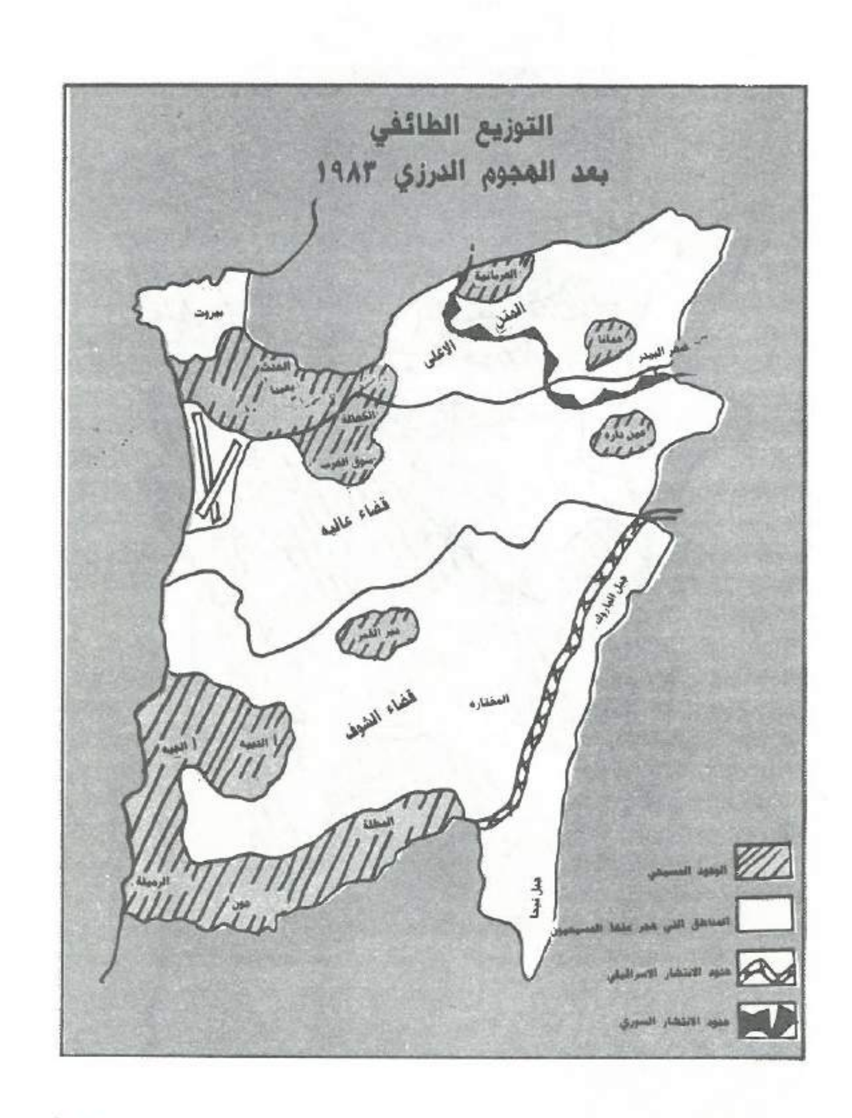
جغرافية الوجود المسيحي في لبنان ٢٠ شباط ١٩٨٤
المناطق المسيحية "الحرة"
المناطق المسيحية تحت السيطرة الاسرائيلية
حدود خط الانتشار الاسرائيلي
حدود خط الانتشار السوري
المناطق التي هجر منها المسيحيون
المناطق المسيحية تحت السيطرة السورية

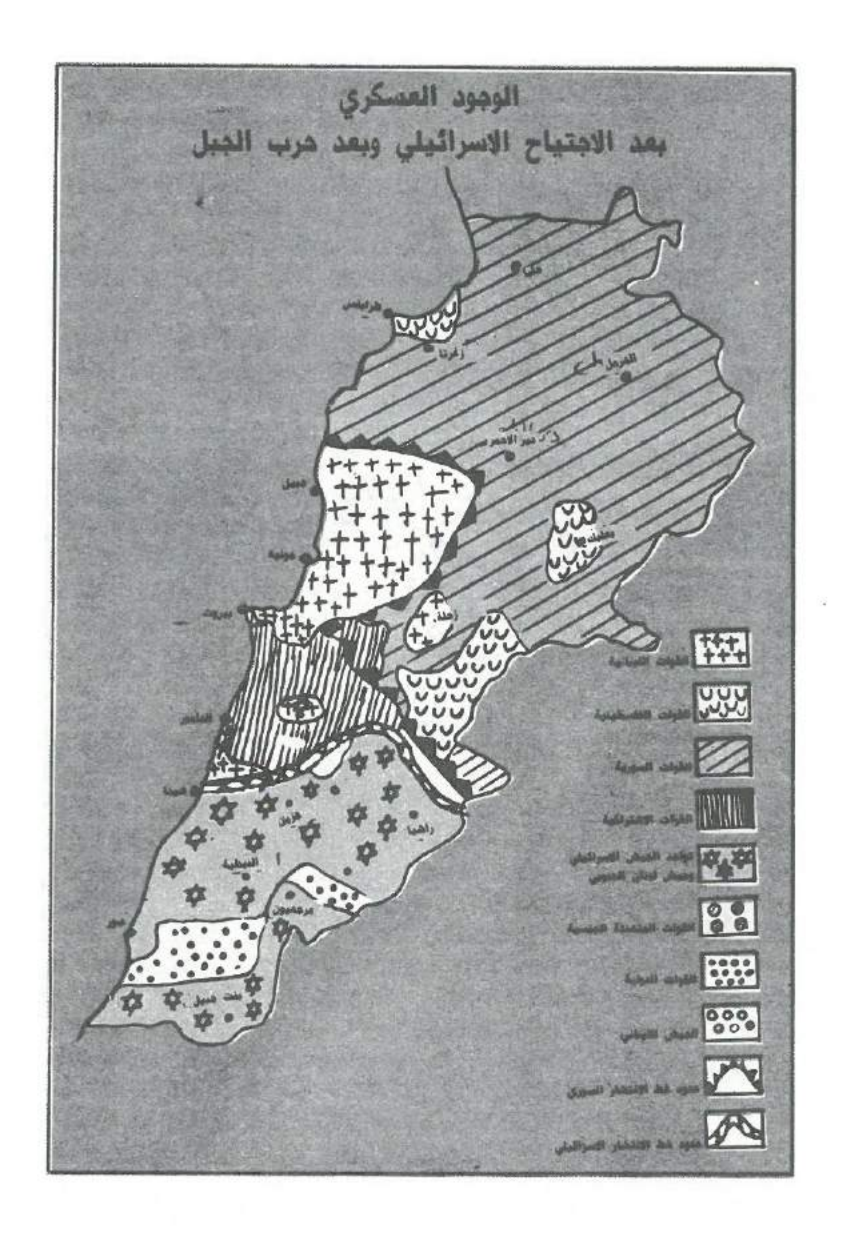


الوجود المسيحي في لبنان
في ظل الوجودين العسكريين السوري والاسرائيلي عام ١٩٨٤
- ١ - ٥٠٠٠٠
- ٢ - ٢٠٠٠٠٠
- ٣ - ٣٠٠٠٠
- ٤ - ١٠٠٠٠
- ٥ - ١٠٠٠٠
- ٦ - ١٣٥٠٠٠
- ٧ - ١٥٠٠٠
- ٨ - ١٥٠٠٠٠
- ٩ - ١٠٠٠٠
دير القمر ٥٠٠٠
المجموع: ٦٠٠٠٠٠

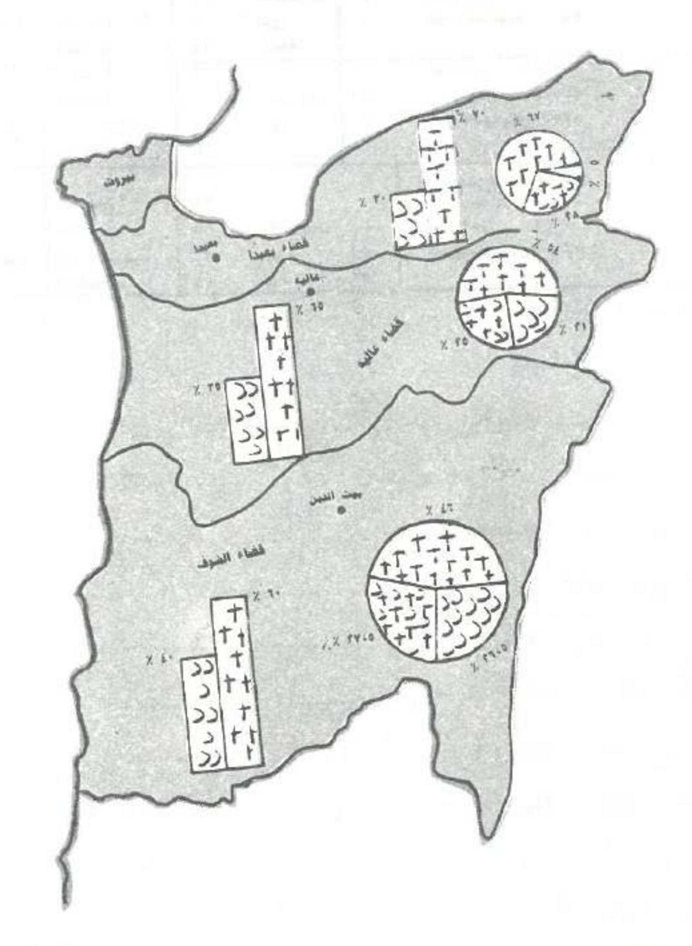

خريطة الوضع العسكري
قبل الاجتياح الاسرائيلي في ٦ حزيران
"القوات اللبنانية"
القوات السورية
القوات الفلسطينية
قوات سعد حداد
القوات الدولية


الوجود العسكري
بعد الاجتياح الاسرائيلي وقبل حرب الجبل
"القوات اللبنانية"
القوات الفلسطينية
القوات السورية
"القوات الاشتراكية"
تواجد الجيش الاسرائيلي
"وجيش لبنان الجنوبي"
القوات
المتعددة الجنسية
القوات الدولية
الجيش اللبناني
حدود خط
التماس السوري
حدود خط
التماس الاسرائيلي


التوزيع الطائفي
بعد الهجوم الدرزي ١٩٨٣
بيروت
الإعلى
قضاء عاليه
قضاء الشوف
المختاره
دير القمر
الوجود المسيحي
المناطق التي هجر منها المسيحيون
حدود الانتشار الاسرائيلي
حدود الانتشار السوري


الوجود العسكري
بعد الاجتياح الاسرائيلي وبعد حرب الجبل

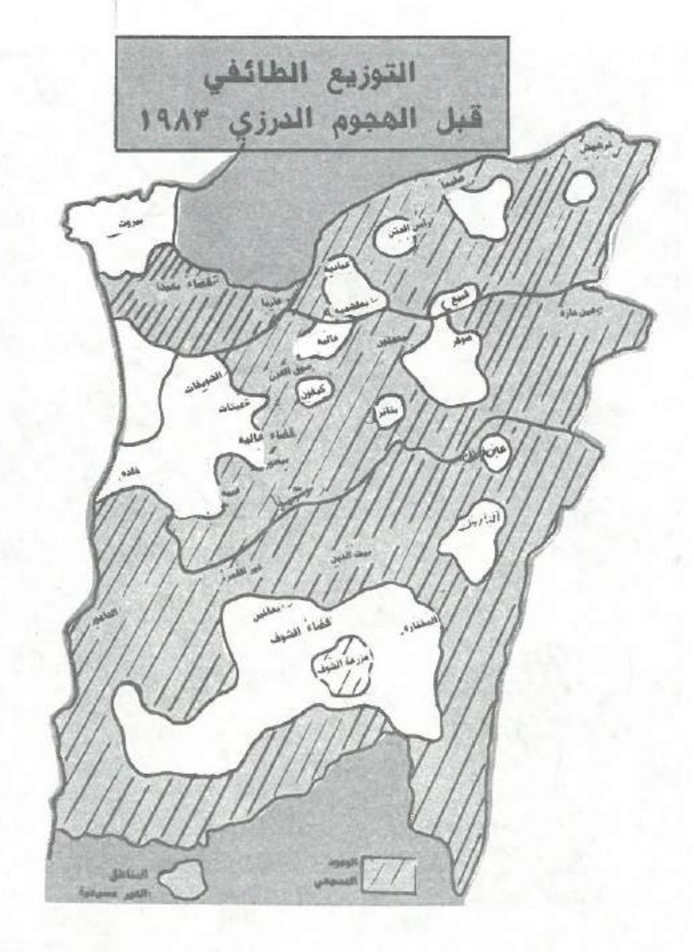
نسب التوزيع الطائفي
قبل الهجوم الدرزي ١٩٨٣




قرى مسيحية

قرى غير مسيحية


قرى مختلطة



القضاء	عدد القرى		النواب		عدد السكان	
بعبدا	المجموع	٥٤			المجموع	١٢٠٠٠٠
	مسيحية	٣٦	مسيحيون	٣	مسيحيون	٨٤٠٠٠
	غير مسيحية	٣	دروز	١	غير مسيحيين	٣٦٠٠٠
	مختلطة	١٥	شيعة	١		
عاليه	المجموع	٧١			المجموع	١٥٠٠٠٠
	مسيحية	٣٨	مسيحيون	٣	مسيحيون	٩٧٥٠٠
	غير مسيحية	١٥	دروز	٢	غير مسيحيين	٥٢٥٠٠
	مختلطة	١٨				
الشوف	المجموع	٩٨			المجموع	١٨٠٠٠٠
	مسيحية	٤٥	مسيحيون	٤	مسيحيون	١٠٨٠٠٠
	غير مسيحية	٢٦	دروز	٢	غير مسيحيين	٧٢٠٠٠
	مختلطة	٢٧	سنة	٢		

فهرس

لبنان:
آخر وأطول حروب إسرائيل

زئيف شيف: هو المراسل العسكري لجريدة «الهآرتس» الإسرائيلية، شارك في كتابة: «سنوات الحلم»، «الفدائيين» و«معضلة الدفاع الإسرائيلي»، ومن مؤلفاته الخاصة به أجنحة فوق السويس و«حرب يوم العدالة». واختاره محررو الصحف الإسرائيلية رجل السنة لشجاعته في تغطية وانتقاد الحرب الإسرائيلية في لبنان. لقد أمضى نيفاً وسنة في واشنطن كعضو مشارك في معهد الدراسات للسلام العالمي.

اهود يعاري: انه مراسل التلفزيون الإسرائيلي لشؤون الشرق الأوسط وشارك زئيف في كتاب «سنوات الحلم»، ومن مؤلفاته: «فتح»، و«السياسة المصرية تجاه إسرائيل في الخمسينات» و«الطريق إلى مصر». واختير مع زئيف رجل السنة لذات السبب.

يعقوب تيمرمان: ولد في اوكرينيا عام ١٩٢٣. وفي ١٩٢٨ رحل طفلاً إلى الأرجنتين مع والديه حيث عمل صحفياً، وأسس مجلتين إسبوعيتين. عام ١٩٦٠ كان من ألمع معلقي الإذاعة والتلفزيون في الأرجنتين. إنه صاحب وناشر جريدة «الرأي» الأرجنتينية من عام ١٩٧١ - ١٩٧٧ التي منعتها الزمرة العسكرية الأرجنتينية من الصدور. تيمرمان يعيش اليوم في تل أبيب مع زوجته وواحد من أولاده الثلاثة.